نهذيب التفسير وجرأة الناونلي
مَا أُحْرِقَهُ مِنَ الأَبْطَالِ وَرَُدِّيِّهَا الأَفَوْلِ

عبد القادر شيخبة الحمد
عضو هيئة التدريس بقسم الدراسات العليا
بالجامعة الإسلامية سابقاً
والتدريس بالمسجد النبوي الشريف

الجزء الثالث
عبد القادر شيبة الحمد، 1432 هـ
فهرسة مكتبة فهد الوطني أثناء النشر
شيبة الحمد، عبد القادر
تهديب التفسير وتجريد التأويل مما ألحق به الأباتيل ورديء الأقاويل. /عبد القادر شيبة الحمد- ط.2- الرياض، 1432 هـ
6 مجم.
ردمك 2-770-778-6103-789 (مجمعة)
6-770-789 (ج 2)
1- القرآن، التفسير الحديث، أ. العنوان
ديوين /27/1432 /6082
رقم الإيداع: 1432/6082
ردمك 2-770-789 (مجمعة)
6-770-789 (ج 2)

حقوق التأليف محفوظة المؤلف
الطبعة الثانية
1432 هـ - 2011 مـ

مؤسسة علوم القرآن

E-mail: uloom.alquraan@gmail.com
قال تعالى: "كل الطعام كان حلًا لبني إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة. فنزلت التوراة فاتولماها إن كنت صادقين. فمن أكره على الله الكذب من بعد ذلك فأولئك هم الظالمون. فكل صداق الله فاتباع ما إبراهيم حقًا وما كان من المشركون".

بعد أن أُكد الله عز وجل أن الدين الحق هو دين الإسلام وأن إبراهيم عليه السلام كان حنيفًا مسلمًا وما كان من المشركين، وأن من مات على غير الإسلام لن يدفع العذاب عنه شيء ولو كان له مثل ملء الأرض ذهباً وفتى بهم من عذاب الله ما تقيب منه وأن الذي ينتفع بها يتقب هو المسلم المستقيم على الخديفة ملة إبراهيم، وعرف المسلمين فضل نفقاتهم مما يجرون، وقد أثار اليهود عليهم الله عز وجل شبهًا حيث قالوا للنبي: إذا كنت على ملة إبراهيم فعليًا فأكل لحم الإبل وشرب ألبانها وقد كانت محرمت على إبراهيم؟ وأرادوا بإثارة هذه الشبهة الداحضة الخانتة أيضا إنكار النسخ في الشرائع وأن ما حرم على الناس كان محرمًا عليهم من لدن آدم عليه السلام، كنا أرادوا إثارة الشبه حول صلة إبراهيم عليه السلام بالعرب وأنكروا أن يكون إبراهيم هو الذي بنى البيت الحرام بما، وكانت هذه الشبهة التي أثاروها سيئة في خزيمهم، وتعريف الأمم بجهالتهم وافترائهم على الله وعلى رسوله، إذ صاروا كالشاة التي بحثت عن حتفها بظنها، حيث أعلن عز وجل للعالمين صدق رسوله، وأنه علمنه ما لم يكن يعلمها هو ولا قومه، وعرف المسلمين بأنهم على المدحة البيضاء ليلتها كنهاورها لا يزيغ عنها إلا هالك، وأقام الأمة القاطعة واليهود الساطعة المخزية لليهود، إذ قرر عز وجل أن سائر الأطهامة ومنهاخ الإبل وألبانها التي أباحها الله تبارك وتعالى لرسوله، وللمسلمين كانت مباحة لإبراهيم عليه السلام ولذريته من أبناء إسحاق.
وإسحاق ويعقوب، وتخاذمل أن يأتوا من التوراة التي بِأيديهم بدءًا وحَدًا
بِأن حَرَّم الابن وألهامها كانت محزنة على إبراهيم عليه السلام، وأفهمهم أن تَحَرَّمها إذا صدر من إسرائيل عليه السلام حيث حَرَّمها على نفسه لسبب
من الأسباب التي دعته إلى ذلك، وقد يكون حَرَّمها على نفسه ازدلاها إلى الله
عَز وجل وهو يجيدها، كما حَرَّم رسول الله ﷺ العسل على نفسه وهو يجهه،
وتنضح بهذا المناسبة بين قوله تعالى في الآية السابقة: ﴿أن تناولوا البرّ حتى
تنفقوا مما تخرون ويبين قوله عز وجل: ﴿كل الطعام كان حلالًا لبني إسرائيل
لا حلف الإنسان ألا يأكل طعامًا معيناً صار هذا الطعام محروماً عليه طول عمره
ولا كفارة له، وقد تفضل الله تبارك وتعالى فخفف على أمة محمد ﷺ حيث
شرع لهم الكفارة وفرض لهم تحية أيائهم كما قال عز وجل: ﴿يا أيها النبي لم
تَحَرَّم ما أحل الله لك تبتغى مرضأة أزواجك، والله غفور رحيم قل فرض الله
لكم تحية أيائكم، والله مولاكم وهو العلي الحكيم» قال الشيخ الإسلام ابن
تيمية رحمه الله: وما كان مباحا قبل اليمين إذا حلف الرجل عليه لم يَصَر
حراهما، بل له أن يفعله ويَكِفر عن بِيمنه، وما لم يكن واجبا فعله إذا حلف
عليه لم يَصَر واجبا عليه، بل له أن يَكِفر بِيمنه ولا يفعله، ولو غَلِبَ في اليمين
بأي شيء غَلِبَه، فأيان الحالفين لا تغيير شرائع الدين، وليس لأحد أن يَحَرَّم
بِيمنه ما أحل الله، ولا يوجب بِيمنه ما لم يوجب الله، هذا هو شرع محمد
صلى الله عليه وسلم، وأما شرع من قبله فكان في شرع بني إسرائيل إذا حَرَّم الرجل شيئاً حَرَّم
عليه، وإذا حلف ليفعلن شيئا وجب عليه، ولم يكن في شرعهم كفارة، قال
 تعالى: ﴿كل الطعام كان حلالًا لبني إسرائيل إلا ما حَرَّم إسرائيل على نفسه
من قبل أن نزل التوراة» فإسرائيل حَرَّم على نفسه شيئاً حَرَّم عليه، وقال الله
 تعالى لنا: ﴿يا أيها النبي لم تَحَرَّم ما أحل الله لك تبتغى مرضأة أزواجك والله

٤
غفور رحيم، قد فرض الله لكم تُجْهَة أيائكم، وهذا الفرض هو المذكور في قوله تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَحْرُموا طَيِّبَاتٍ مَا أَحْلَلَ اللَّهُ لَكُمْ ولا تَعَدَّوا، إن الله لا يَحبُّ العَتَادَةِ»، وكانوا بما رزقكم الله حلالًا طيبًا، وأتقوا الله الذي أنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ. لا يَخْلُقُ اللَّهُ الْبَطَالَ فَإِذَا أَصَابَكُمْ شَرٌّ فَأَعْفَوْنَاهُ عَلَيْكُمْ، فَاللَّهُ عَطَافٌ مُّعَلِّمٌ وَلَا يُضِلُّ الْمُتَّقُونَ، فَإِذَا كَفَّارَتُهُمْ فَرَبُّكُمْ لَا يَعْفُو عَنْ أَمْرٍ يَأْفِكُونَهُ. لَوْ كَفَّارَتْ أَيِّا نَّا كَفَّارَةً فَمَنْ لَمْ يُجِبْ فَسَيِّمَتْ ثَلَاثَةَ أَيَامٍ، ذَلِكَ كَفَّارَةُ أَيِّا نَّا، إِنَّ اللَّهَ لَا يُؤْثِرُ عَلَى نَفْسِهِمْ عَذَابًا سَارِقًا، فَحَلَّفْنَا، وَاحْفَظُوا أَيِّا نَّا، فَكَذَلِكَ يَيْبُن اللَّهُ لَكُمْ آيَاتٌ لَّهُ لَعَلَّكُم تَشْكُرُونَ».

وهذا لما لم يكن في شرب من قبلنا كفارة بل كانت اليمين توجب عليهم فعل المحلوف عليه، أمر الله أبواب أن يأخذ بيده ضغطًا في ضربه ولا يتحنث، لأنه لم يكن في شرح كفارة يمين، ولو كان في شرح كفارة يمين كان ذلك أيسر عليه من ضرب امرائه ولو بضغущ اه والتقيد بقوله عز وجل: «مِنْ قِبْلَ أَنْ تُنْزِلَ السِّورَةُ» لأنه بعد إنزال السورة على موسي على السلام حرم الله تبارك وتعالى على بني إسرائيل بعض الطبيات عقوبة لهم كما قال عز وجل: «وَقَالَ الَّذِينَ هَادِئُوا حَرَمَنَا كَلَّ ذِي ظُفُّرٍ وَمِنَ الْبَقْرِ وَالْغَنْمِ حَرَمَنَا عْلَيْهِمْ شَحُومَهُمْ إِلَّا مَا حَلَّتْ مِنَ الْأَظُرُّ وَحَرْبٍ أَوْ مَا أُمِيتَ بِأَمْرِنَا.» إلخ.

وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذي ظفر ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومهم إلا ما حلت من ظهرها أو الحوايا أو ما احتلط بعظم، ذلك عرباههم يغيهم وإنما جاءهم هادوا حرمنا عليهم طبيات أحلت لهم وبصدهم عن سبيل الله كثيراً. وهذا يتضح جهل أهل الكتاب بكتابهم، ويبلغ الحق المصدق لرسول الله ﷺ وما علمنه الله عز وجل من خواص شريعة أهل الكتاب وأسراهم، وصارت شههم سبيباً في إعلاء رأية الإسلام وبيان فضله كما قال الشاعر:

إذَا أرَادَ اللَّهُ نَشْرًا فِضْيَتَهُ طَوِّيْتُ أَتاْهَا لَهَا لَسْانٌ حَسْوَهُ،
لولا اشتغال النار فيها جاورد ما كان يعرف طيب عَرْف العَوْد.

وعبه هذا يتضح أن النسخ الذي يذكر اليوهود حِبَّهم الله جوازه قد وقع في
شرائع أنبيائهم، فهم لا يستطيعون إنكار أن آدم عليه السلام قد شرع الله أن يزوّج بناته من بنيه ثم حرم الله ذلك بعد ذلك، وأن النذر على الزوجة كان مباحا في شريعة إبراهيم عليه السلام حيث تسري هاجر على سارة رضي الله عنها ثم حرم في بعض شرائع بني إسرائيل، وأن الجمع بين الأختين قد أباح ليعقوب عليه السلام ثم جاء تعريمه بعد ذلك في التوراة التي يفديهم. وقاله تبارك وتعالى: «قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين» أي إن كنتم صادقين في أن حرم الإبل وألابها كانت حرمتة على إبراهيم عليه السلام فهؤلاء التوراة وقوفها من أولاها إلى آخرها إن شئتتم وأظهرنا لنا نصا وحدا منها يصدقكم في دعواكم أن حرم الإبل وألابها كانت حرمتة على إبراهيم عليه السلام، وهذا برهان من أبرز البراهين وأجلاها وأسطعها على أن اليهود كذبة فجرا لا يتوعدون عن الكذب على الله وعلى أنبيائه ورسله وأن النبي الأمي عمداً قد أعلمه الله وأطلعه على خفافاً أسرار التوراة التي بيد اليهود والنصاري، وأن علماء وأحبار أهل الكتاب الذين كتبوا رسول اللهو وأثروا الشبه للصد عن سبيله كانوا كمثل الخجار يحمل أسفارا ولم ينقل أحد قط أن اليهود حاولوا أن يجيبوا بالتوراة وإن اندحروا خاسين، وهذا التحدي بقوله تعالى: «فأتوا بالتوراة فاتلوها» غير التحدي الذي تجدهم به رسول الله ﷺ لما تعاكموا إليه في أمر الرجل والمرأة الزائنين من اليهود ومسألهم رسول الله ﷺ عن حكم الزناة في التوراة، وقالوا: نفضحهم ويلجدون، قال: فأتوا بالتوراة، فإنهم جاؤوا يومها بالتوراة وقرأها رجل منهم لكنه حاول إخفاء نص التوراة في الزناة، حيث وضع يده على أية الرجم، فقد روى البخاري ومسلم واللفظ للبخاري من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنها أن اليهود جاءوا إلى رسول الله ﷺ فذكروا له أن رجلا منهم وامرأة زنيا، فقال لهم رسول الله ﷺ: «ما تجدون في السورة في شأن الرجم؟» فقالوا: نفضحهم ويلجدون.
قال عبد الله بن سلام رضي الله عنه: كذبت إن فيها الرجم، فأتوا بالتوراة، فنشروها، فوضع أحدهم يده على آية الرجم فقرأ ما قبلها وما بعدها، فقال له عبد الله بن سلام: ارفع يدك، فرفع يده، فإذا آية الرجم، فقالوا: صدق يا محمد فيها آية الرجم، فأمر بها رسول الله ﷺ فرجمها، فرأيت الرجل يحيى على المرأة يقبيها الحجارة. وقد أورد البخاري هذه القصة في مواضع من صحيحه بلفظ متقارب، حيث أوردته في المناقش والحجود والتوحيد والتفسير، وجعله في التفسير في باب قوله تعالى: «قل فأتوا بالتوراة فاتلواها» وإن كتب صادقين ولا شك أن قوله تعالى: «قل فأتوا بالتوراة فاتلواها إن كتب صادقين» لم يكن في قصة اليهوديين الزائنين، بل كان في قصة دعوى اليهود تعريض لقوم الإبل وآليتها على إبراهيم عليه السلام، وعمل البخاري رحمه الله قد أورد هذا الحديث عند تفسيرها لمجرد قوله في الحديث في بعض ألفاظه: فقال لهم عبد الله بن سلام: كذبتتم فأتوا بالتوراة فاتلواها إن كتب صادقين، والمعرف عن البخاري رحمه الله أنه قد يورد الحديث في موضوع من صحيحه لأدنى مناسبة، والظاهر أن نزول هذه الآية كان متقدما على قصة هذا الحديث، فذكر عبد الله بن سلام رضي الله عنه هذا اللفظ مستفيدا من لفظ الآية الكريمة، وليس قوله تبارك وتعالى: «قل فأتوا بالتوراة فاتلواها إن كتب صادقين» دليلا على صحة الاحتجاج بكل ما في التوراة التي بيد اليهود والنصارى لعنهم الله، بل المراد فضح اليهود وبيناه كذبهم على الله وعلى رسله، والاستشهاد عليهم ببعض النصوص المتابعة لملة إبراهيم التي احتفوا عنها، ولم يصبها تحريفهم الذي وقعوا فيه. وقاله عز وجل: «فمن افترى على الله الكذب من بعد ذلك فأولئك همظللون» وهو وعد شديد لليهود الذين يفترون على الله الكذب، ويقولون على الله وعلى أبنائه مما علمنهم به، أو ما أعلمنهم أنهم مفتررون فيه على الله وعلى رسله، وقوله: «فمن بعد 

٧
ذلِكَ أي من بعد ظهور هذه الحجة القاهرة الدالة على صدق رسول الله ﷺ

حيث أخبر أحبار اليهود بأنه لا يوجد دليل واحد بأيديهم على أن إبراهيم
كان يحرِّم لحوم الإبل وألبانها، وأمرهم أن يأتوا بالتوارة، التي بأيديهم ويرجعوا
لإثبات ما يدعونه على إبراهيم فانحرموا، وبهتوا، ولم يحاول واحد منهم أن
يستجيب ويخض التوارة، فعلم قطعا أن هذا العلم الذي علَّمه الله للنبي
الأمي هو وحيٌ من الله عز وجل الذي علمُ الغيب والشهادة. وقوله عز وجل:
قل صدق الله فاتبعوا ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين» أي
قل يا محمد لهؤلاء اليهود المفترين على الله ورسله: إن خبر الله هو الخبر
الصادق، وإنّ قوله هو القول الحق الذي لا يأتي الباطل من بين يديه ولا
من خلفه، فسارعوا بأعشر أهل الكتاب ويا من يدعٍ كذبًا وزورًا أنه على
ملة إبراهيم إلى الاستجابة لحمد الله لتصيروا حقا على ملة إبراهيم وادخلوا
في دين الإسلام الذي هو الحق الذي لا مرية فيه وهو المنهج الذي لم يأت نبيًّ
ولا رسول بأكمل ولا أبين ولا أوضح ولا أتم منه، الصالح لكل زمان ومكان
وعصر ومصر إلى قيام الساعة كما قال عز وجل: قل إنني هداني ربٌ إلى
صراط مستقيم دينيٌّ قيَّما ملة إبراهيم حنيفة، وما كان من المشركين»
قال تعالى: «إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وَضَعْتُ لِلَّذِينَ يَنْبِكَهُ مُبَارَكًا وَغَدَّرَهُ لِلْمُعَلِّمِينَ» فيه آيات بُنيَتْ مَقَامَ إِبْراهِيمَ وَمِنْ ذَلِكَ كَانَ آمِناً، وَلَهُ عَلَى النَّاسِ حِجٌّ الْبَيْتِ مِنْ استطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا، وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللهَ غُنِي عَنِ الْعَالَمِينَ».

ذكرت في تفسير قوله تعالى: «كل الطعام كان حلالاً لبني إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة» أن اليهود قد أثاروا شبهات حول صلة إبراهيم بالعرب وأن كانوا أن يكون إبراهيم هو الذي بني البيت الحرام بمكة، وأن هذه الشبيبة التي أثاروها كانت سبباً في خزؤهم وتعريف الأم بجهالتهم وأنهم صاروا كالشاة التي بحثت عن حفظها بظلالها، وعلَم الله عز وجل بها موسى وما هو كائن قبل أن يكون، وأن اليهود سبجذدون صلة إبراهيم عليه السلام بالبيت الحرام، أبقى أثاث موطن إبراهيم عليه السلام في الحجر الذي كان يقوم عليه وهو بني الكعبة ليكون شاهداً يتناول العرب العلم به ويستمتعون مقام إبراهيم جبلًا بعد جبل من لدن خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام إلى أن بُعث رسول الله ﷺ، ولي بومنا هذا، وفي ذلك يقول أبو طالب في لاميته المشهورة:

وموطئ إبراهيم في الصخرة رطبة على قدميه حافياً غير ناعل وكَيْكَ رَعَى الله اليهود وأدَخَضَ شبَّهَتِهِمْ في دعوَاهم أن إبراهيم كان يحرم لحوم الإبل وألبنها وتخادهم أن يأتوا بعض واحد من التوراة على ما يزعمون فيه واندروا خاسين، وكَيْكَ أدَخَضَ الله عز وجل شبَّهَتِهِمْ في دعوَاهم أنه لا صلة لإبراهيم بالبيت الحرام حيث أشار إلى أن مقام إبراهيم عند البيت الحرام آية حسية تواتر العلم بها، فمن أنكرها فإنه لا يستكشر عليه أن ينكر أن السماوى فوقه وأن الأرض تحته وغير ذلك من البديعات المصلَّبات. وقوله عز وجل: «إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وَضَعْتُ لِلنَّاسِ» أي إن أول مسجد وضع في الأرض
الأنبياء والمرسلين من لدن آدم ونوح وهرود وصالح قبل إبراهيم عليهم الصلاة والسلام ولي ذلك يشير قوله عز وجل: {أوَلَكَ الذِّينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ مِنْ ذِرِّيَّةِ آدَمَ وَمِنْ حَمَّالِهِمَا مِنْ نَوحِ وَمِنْ ذِرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِنَ هَدْيَنَا وَاجْتَبَيْنَا إِذَا تَتَّلَى عَلَيْهِمُ آيَاتُ الرَّحْمَنِ خَزَّاً سَجْدًا وَبَكِيَّةً}. وقوله عز وجل: {إِنَّ أَوَلَ بِتْ وَضْعٌ لِلنَّاسِ} يشعر أنه قبلا هؤلاء الأنبياء والمرسلين والهداة المتقدمين، ولا معارضة بين قوله عز وجل: {إِنَّ أَوَلَ بِتْ وَضْعٌ لِلنَّاسِ} وبين بناء إبراهيم للبيت الحرام، لأن إبراهيم عليه السلام قد بنى على مكانه الذي وضعه الله عز وجل، حيث أعلم الله عز وجل بمكانه بعد أن صار كالجرة، وإلى ذلك يشير الله عز وجل حيث يقول: {وَإِذْ يَمْرُونَ إِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبِيْتِ} {إِنَّهُ أَمَّامٌ عَلِيمٌ}. {وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمَ الْقَواعد مِنَ الْبِيْتِ} يشعر بذلك أيضاً ويفيد أن قواعد البيت الحرام كانت موجودة قبل إبراهيم عليه السلام، غير أن بناء إبراهيم للبيت الحرام قد أبقى الله عز وجل معه حتى تهدم في عهد قرشي فأعادته بناءه قبل بعثة رسول الله ﷺ وقتيض الله تبارك وتعالى لنبيه محمد ﷺ يومها أن تُطْلِق قرشي على اختياره للحكم في وضع الحجر الأسود مكانه من البيت الحرام وكان رسول الله ﷺ وقتئذ ابن خمس وثلاثين سنة فكان ذلك من بين الإرهاص والمقدمات التي قدَّمه الله عز وجل لرسوله ﷺ بين يدي بعثته صلوات الله وسلامه عليه وعلى سائر النبيين، كما أنه لا معارضة بين حديث الصحيحين بأن المسجد الأقصى وضع بعد المسجد الحرام بأربعين عاماً وبين ما عُلِّم بأن سليان بن داود عليها السلام هو الذي بنى المسجد الأقصى، لما أشارت قريباً من أن الوضع غير البناء، فعمل سليان عليه السلام في بناء المسجد الأقصى كعمل إبراهيم عليه السلام في بناء المسجد الحرام إذ كانا عليهما السلام مجددين قد وضع كل منها الأساس والقواعد فوق أساس وقواعد سابقة، وهذا الحديث

11
المخرج في الصحيحين بالفاظ عن أبي ذر رضي الله عنه يفسر المراد بقوله تعالى: "إِنَّ أُولِيَ الْبِلَّاءِ وَلَدَى بَيْتِكُمْ" ويدل على أن المراد بالبيت بيعة العبادة لا مطلق البيت، قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري: وقد ورد ذلك صريحاً عن عليٍّ أخرجه إسحاق بن راهويه وابن أبي حاتم وغيرهما بإسناد صحيح عنه قال: كانت البيت قبله ولكنه كان أول بيت وضع لعبادة الله. اهـ وظهائر الآية الكريمة وكذلك قوله عز وجل: "الذي جعلنا للناس سواء العاكف فيه والبايع" يؤكد ذلك ويؤيده لأن كونه موضوعا للناس يقتضي كونه مشتركا فيه بين جميع الناس، فأما سائر البيت فليست بهذه المطابقة، حيث وضع الله البيت الحرام ليكون موضعيا لطاعات لا تجوز إلا فيه كالحج والطواف، فلم يشرع الحج إلى البيت في الأرض سواء، ولا يجوز للمسلم أن يطوف حول مكان في الأرض إلا حول الكعبة، كما جعله الله عز وجل قبلة لآكل أنبياء الله ورسله ثم حرم على كل الناس أن يتخذوا قبلة سواء. وقوله عز وجل: "كَلِبَتَبَكَّرُ" أي بلبيت الذي بِكَّر أي فيها، وبِكَّر علم بما في البيت الحرام وقد س deja الله عز وجل بآسية منها: بِكَّرَة وِمْكَّة والبلد الحرام وأم القرى والبلد الأمين. وقوله: "مباركًا ولهدي للعالمين" أما كونه مباركًا فلا يسوقه الله عز وجل لأهل من الخيرات والبركات من سائر أنحاء الأرض، ولما يضعفه الله عز وجل من الثواب على الأفعال الصالحة فيه حتى جعل الصلاة فيه بِكَّرة ألف صلاة فيها سواء، وأما كونه هدي للعالمين فلما فيه من الآيات العجيبة الدالة على عظيم قدرة الله حيث يأتيبه الناس رجلاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ليشهدوا منافع لم يذكرها اسم الله في أيام معلومات على ما زرفهم من هيئة الأئمة، وعلماً عرفه القاضي والدانيما وضع الله عز وجل فيه من الأمن في جميع الأعصار كما قال عز وجل: "أولم نُمَكِّن لهم حِرْمًا آمنًا يُجَبَّى إليه ثمرات كل شيء رزقًا من لدِنَا ولكن أكثرهم لا
يعلمونّ، وكما قال عز وجل: «أولم يروا أتا جعلنا حربنا آمنًا ويتخطّف الناس من حولهم» وكما قال عز وجل: «لإبلاف قريش إبلافهم رحلة الشتاء والصيف» فليعبدو رب هذا البيت الذي أطمّهم من جوع وأمّهم من خوف» فقد كان أهل مكة ينعمون بالأمن والاستقرار حتى في الأوقات التي كان الخوف والاضطراب يعم جميع بلاد العالم من حولها، ويتخطّف الناس في غيرها. و قوله تعالى: «في أيآيات بينات مقام إبراهيم ومن دخله كان آمنًا رد على اليهود الزاعمين أنه لا صلة لإبراهيم بالبيت الحرام، وتكذيب لهم بالدليل الحسي المشاهد بالعيون، المعلوم بالتوتر وهو موجود مقام إبراهيم فيه، ومقام إبراهيم هو الحجر الذي قام عليه إبراهيم عليه السلام عندما ارتفع البناء، كما جاء في حديث ابن عباس رضي الله عنها في قصة مجيء إبراهيم بإسحاق وهاجر إلى مكة ثم قصة نبأ البيت الذي أورده البخاري في صحيحه، وفيه: فجعل إسحاق يأتي بالحجارة وإبراهيم يبني حتى إذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر فوضع له فقام عليه وهو يبني وإسحاق يناله الحجاره. الحديث، وقد سبقته بتهمه في تفسير قوله عز وجل: «وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسحاق» وعندما وضع إبراهيم قدميه على هذا الحجر جعل الله ما تحت قدمي إبراهيم من ذلك الحجر دون سائر أجزائه كالطين، حتى غاص فيه قدما إبراهيم عليه السلام، وانطبت في الحجر صورة آخر القديمين، فلما رفع إبراهيم قدميه عن الحجر أعاد الله له صلابته الحجرية كما كان أول مرة، ثم أبقى الله تبارك وتعالى هذا الحجر على سبيل الاستمرار والدوام مُحَمَّرًا مَعُورًا مصونًا، فهذه آيات شاهدات على كذب اليهود وجوهدهم ولذلك يقول تبارك وتعالى: «في أيآيات بينات مقام إبراهيم» وما أحسن ما قيل: ليس في العالم بناء أشرف من الكعبة، فالآمير بينائه هو الملك الجليل، وموهيد جبريل.
وإليه هو الخليل، والرضا هو إسحاق. وقوله: "من دخله كان آمنا" هما أيضًا من جملة الآيات البينات إذ فيه تحقيق دعوة إبراهيم عليه السلام. حيث قال: "رب اجعل هذا البلد آمنًا وارزق أهله من الثمرات" وكما قال: "رب اجعل هذا البلد آمنًا" وقد كانوا في الجاهلية قبل الإسلام يقتل بعضهم ببعض خارج الحرم فإذا دخلوا الحرم صاروا آمنين مطمئنين، وقد يلقي الرجل قاتل أبيه أو أخيه فلما يحتج ولا يتعرض له، فأخذه ما دام في الحرم، فكان هذا من الآيات البينات التي جعلها الله عز وجل فيه، وقد زاده الإسلام حرمة وتعظيمها. والاستمرار في قوله: "من دخله" للحرم كله. وقوله عز وجل: "وأي الله عل الانتزاع إليه سبيلا ومن كفر فإن الله غني عن العالمين" أي الله عل من استطاع من الناس طريقة يمكِّنه من الوصول إلى مكة أن يحج هذا البيت، وقد أجمع المسلمون على أن الحرم ركن من أركان الإسلام الخمسة، وقد روى مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنده قال: خطبنا رسول الله ﷺ فقال: "أيها الناس قد فرض الله عليكم الحج فحججوا" فقال رجل: "أكل عام يا رسول الله؟ فسقط، حتى قالها ثلاثا، فقال رسول الله ﷺ: "لو قلت نوع لوجبته، ولم استطعتم" ثم قال: "ذروني ما تركتم، فإنها هلك من كان قبلكم بكثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم، فإذا أمرتم بشيء فأتوا منه ما استطعتم، وإذا نهيكم عن شيء فدعوه". وفي قوله: "ومن كفر فإن الله غني عن العالمين" وعيد شديد من قدر على الحج ولم يحج، ولن كذب بايات الله التي ذكرها في هذا القام وغيره.
قال تعالى: {قل يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله والله شهيد على ما تعملون* قل يا أهل الكتاب لم نتصدَصن عن سبيل الله من آمن تبغوتها عوجاً وأنتم شهداء وما الله بغافل عن عملكم* يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً من الذين أوثوا الكتاب يردوكم بعد إياكم كافرين* وكيف تكفرون وأنتم تتعلق عليكم آيات الله وفيكم رسولُهُ وَمَن يعتصِم بالله فَقَدْ هُدِي إلى صراط مستقيم}.

بعد أن نُهِى الله عز وجل بذكر البيت الحرام بمكة المكرمة بما يفيد أنه أشرف بيت أقيم لعبادة الله عز وجل وأسبق المساجد في الأرض على الإطلاق، وذكر ما فيه من الهدى والبركات، والآيات البيئات الشاهدات على بناء إبراهيم خليل الرحمن لهذا البيت العتيق بما يربط اليهود الجاهدين لصلة إبراهيم إمام الحنفاء بهذا البيت الحرام، وذكر عز وجل أنه أوجب حج هذا البيت على من استطاع إليه سبيلاً، ووصم من جحد هذه الآيات، وأنكر وجيوب حج هذا البيت بأنه كافر، وأنه لن يضر إلا نفسه بكفره وحقوده لأن الله جل وعلا لا تنفعه طاعة الطائعين، ولا تضره معصية العاصرين لأنه غني عن الخلق أجمعين، أمر نبيه ﷺ بتوجيه الخطاب لأهل الكتاب مرتخاهم لهم على استمرارهم على الكفر بعد ظهور هذه البراهين منكرًا عليهم أشد العكاء أن يكون لكم كفرهم بآيات الله سبب من الأسباب حيث يقول عز وجل: {قل يا أهل الكتاب لم تكفرون بأيات الله والله شهيد على ما تعملون} قال ابن كثير رحمه الله في تفسيره: هذا تعبير من الله تعالى للكفرة أهل الكتاب على عنادهم للمحق، وكم لهم بآيات الله، وصدْمهم عن سبيل الله من أراده من أهل الإيام بجهدهم وطاقاتهم مع علمهم بأن ما جاء به الرسول حقًّا من الله، وبا عندهم من العلم عن الأنبياء الأقدمين، والسادة المسلين.}
صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وما بشروا به، ونوهوا به، من ذكر النبي الأمي الحاشمي العربي المكي سيد ولد آدم، وخاتم الأنبياء، ورسول رب الأرض والسماء، وقد توعدهم الله على ذلك، وأخبرهم بأنه شهيد على صنيعهم ذلك بما خالفوا ما أبداههم عن الأنبياء، ومعاملتهم الرسول المبشر به بالتكذيب والمحذور والعائد، فأخرج تعالى أنه ليس بعاقل عنا يعملون أي وسيلة عليهم على ذلك يوم لا ينفع مال ولا بنون، اه وقوله تعالى: "وأي الله شهيد على ما تعملون" لإفادة تشديد التوبيخ وتأكيد الإنكار على هؤلاء الكفارة التعبد من أهل الكتاب، وكان مقتضى السياق أن يقال: وهو شهيد على ما يعملون. ولكن مقتضى الحال يقتضي إظهار لفظ الجلاء حيث قال:

"وأي الله شهيد على ما تعملون" لتربيته المهابة في نفوسهم، وتهويل الخطاب عليهم، لعلهم يرتدعون عن غيهم، وينجزرون عن ضلالهم، وتكريمه قوله عز وجل: "قل يا أهل الكتاب: لزيادة التشريع عليهم حيث صاروا أحق سلوكا من الأميين الوثنيين في رد الحق والصد عن سبيل الله. وأصبحوا كما قال الله عز وجل فيما: "كتم اللئام يجمل أسفارا. وقوله: عز وجل: "لم تصدو عن سبيل الله من آمن تبغونها عوجا". توبيخهم على الإضلال بعد توبههم على الضلال، قال أبو والسعود العبادي في تفسير قوله تعالى: "قل يا أهل الكتاب لم تصدو عن سبيل الله من آمن تبغونها عوجا". أُمر بتوبههم بالإضلال إثر توبههم بالضلال، والتكرير للمبالغة في حمل عليه السلام على تقوههم وتوبيههم، وترك عطفه على الأمر السابق للإذان باستقلالهم، كما أن قطع قوله تعالى: "لم تصدو" عن قوله تعالى: "لم تكنوا عوجا" للإشارة بأن كل واحد من كفرهم وصدواهم شناعة على حيالها. مستقلة في استباق اللائمة والتقريع، وتكرير الخطاب بعنوان أهلية الكتاب لتأكيد الاستقلال، وتشديد التشريع، فإن ذلك العنوان كا يستدرى الإيضان
بها هو مصداق لما معهم يستدعي ترليب الناس فيه، فصدّهم عنه في أقصى مراتب القيامة أو صور الصد عن سبيل الله التي يفترفها أهل الكتاب كثيرة وقد أشار الله تبارك وتعالى إلى أسمائها منها في مواضع كثيرة من كتاب الله عز وجل ولا سيما اليهود لعنهم الله حيث عد صدّهم في سلسلة جراحهم حيث يقول: «فبظلم من الذين هادوا حرّمنا عليهم طيبات أُحِلّت لهم وبقّىهم عن سبيل الله كثير» وأخذهم الدرب وقد تنة عنة وأكلهم أموال الناس بالباطل وأعثنا للكافرين منهم عذاباً أليماً» ومعنى قوله عز وجل: »وبغزها عوجاً وأسهم شهداء» أي وتريدون أن تكون سبيل الله وشرعته معوجة مائدة زائنة عن الحق وأنتم تقرؤون في الكتب التي بين أيديكم أن الله إنها يبعث الرسول والأنبياء لدعوة العباد إلى صراط الله المستقيم ودينه القيم الذي لا زغ فيه ولا ميل ولا اعوجاج، كما جاء في الوصايا العشر التي تطابقت على الدعوة لها جميع الشرعات: «أَوْلَىٰ هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ولا تَتَّبِعُوا السِّبْلَ فَتَفْرَقَ بَيْنَكُمْ دِينًا بَعْدَ ذَلِكَ بِلَا يُسْتَبِيعُونَ» وال крыّ جبك العين وفتحها هو الميل والانحراف، والمقصود هنا هو ما يحاوله هؤلاء من إشارة الفتنة بين المسلمين لتشتيت شملهم، وتمزيق وحدتهم، وتفريق كلمتهم، قال ابن جرير في تفسيره: حدثنا ابن حيدر قال: حدثنا سلمة عن محمد بن إسحاق قال: حدثني الثقة عن زيد بن أسلم قال: مرّ شاه بن قيس - وكان شيخاً قد عسا في الجاهلية عظيم الكفر شديد الضغط على المسلمين شديد الحسد لهم - على نفر من أصحاب رسول الله ﷺ من الأوس والخزرج في مجلس قد جمعهم يتحدثون فيه، فغاظوا ما رأى من جاعتهم وألفتهم وصلاح ذات بينهم على الإسلام، بعد الذي كان بينهم من العداوة في الجاهلية فقال: قد اجتمع ملا بنى قيلّة هذه البلاد، لا والله ما لنا معهم إذا اجتمع ملؤهم بها من قرار، فأمر فتى شاباً من يهود وكان
معه، فقال: أعمل إليهم فاجلس معهم، وذكّرهم يوم يُعَتِّض وما كان قبله، وأنشدهم بعض ما كانوا تقاولاً فيه من الأشعار، وكان يوم بعث يومًا اقتُنِت في الأوس والخزرج، وكان الظفر فيه للأوس على الخزرج، ففعل، فتكلم القوم عند ذلك، فتنازعوا، وتفاخر، حتى توائب رجلان من الجيشين على الزِّبِب: أوس بن قَيْظِيَّ正好ين نبي حارث بن الحارث من الأوس، وجبّار ابن صخر أحد نبي سلمة من الخزرج، فتقاولاً، ثم قال أحدهما لصاحبه: إن شئت والله رددناها الآن جَدَّة، وغضب الفريقان، وقالوا: قد فعلنا السلاح السلاح، موعدهم الظاهرة والظاهرة: الخَرْطِيّة فخرجوا إليها، وتعاون الناس، فانضمت الأوس بعضها إلى بعض، والخزرج بعضها إلى بعض، على دعوؤهم التي كانوا عليها في الجاهلية، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ، فخرج إليهم فيمن معه من المهاجرين من أصحابه، حتى جاءهم فقال: «يا منصور المسلمين، الله الله، أَبْدَعْنَا الجاهلية وأنا بين أظهركم، بعد إذ هديكم الله إلى الإسلام وأكرمنكم به، وقطع به عتكم أمر الجاهلية، واستنقذكم به من الكفر، وأَلَف به ببنكم، ترجعون إلى ما كنتم عليه كفارًا؟!» فعرف القوم أنها نزعة من الشيطان، وكَبَّر من عدوؤهم، فألقوا السلاح من أيدهم، وبكونه، وعانق الرجال من الأوس والخزرج بعضهم بعضهم، ثم انصرفوا مع رسول الله ﷺ السامعين، مطيعين، قد أطفأ الله عليهم كيد عدوه الله، سَبِيس بن قيس وما صنع، فأنزل الله في شأس بن قيس وما صنع: «قل يا أهل الكتاب لم تكفرن بأيات الله والله شهيد على ما تعملون» قل يا أهل الكتاب لم تصدرون عن سبيل الله من أمن تبغونها عرجاً الآية، وأنزل الله عز وجل في أوس بن قَيْظِيَّ正好ين نبي صخر ومن كان معها من قومها الذين صنعوا ما صنعوا عياً أدخل عليهم شأس بن قيس من أمر الجاهلية: «يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً من الذين أتوا الكتاب وردواً، بعد إيانكم.»
كلاً من {أولئك} لهم عذاب عظيم {أه} وهذا الأثر قد رواه أيضاً أبو الشيخ في تفسيره من طريق ابن إسحاق قال: حدثني الثقة، عن زيد بن أسلم قال: مرسأ بن قيس وكان يهوديًا عظيم الكفر على نفر من الأوس والحجاز يتحدثون فغاظه ما رأى من تائفهم بعد العداوة. وساقه بن نحو سياق ابن جرير، وهذا الأثر مرسأ وفيه راو مهم. وقوله تبارك وتعالى: {يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً من الذين أتوا الكتاب بى ورودكم بعد إياكم كافرين} بعد أن ويخ الله تبارك وتعالى أهل الكتاب على صدهم عن سبيل الله وحرصهم على إضلال المسلمين حذر الذين آمنوا من إطاعة هؤلاء المجرمين الذين لا يسلكون إلا الطرق المعوجة الملوثة، وبنى لهم أن إطاعة أي فريق من أهل الكتاب المعاندين للحق يؤدي بمن يطيعهم إلى الردة عن الإسلام والكفر بعد الإيان، لأن الغل والحسد الذي يملأا قلوب هؤلاء المؤمنين يحملهم على نصب الفخاخ والشباك الشيطانية للمؤمنين ليهدواهم عن دين الإسلام، كما قال عز وجل: {وَدَوَّرَ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ بَرَدُّوْنِهِمْ مِنْ بَعْدِ إِيَانَاكُمْ كَفَارٌ حُسَدًا مِنْ عِنْدِ أَنفِسْهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيِّنُ هُمُ الْحَقَّ} فلا يلبق باعتاق أن يتبع من كل شيء أن يصرفه عن الضراعة المستقيم ويسعى في جعله من أصحاب الجحيم. وقوله عز وجل: {وَكَيْفَ تَكَفُّرُونَ وَأَنَّمَتْ نَغْفِلُ عَلَيْكُمْ آيَاتَ اللَّهِ وَفِي كِتَابِ رُسُولِ اللَّهِ تَنَبَّئَهُمْ إِلَى مُعَلِّمِينَ إِلَى مُتَّخِذِينَ الْكِتَابِ إِلَى مَالِكِينَ} {يا أيها اليهود أو النصارى من الشبه، وأن الواجب على المؤمنين أن يرجعوا إلى رسول الله {إذن} ويستمسكوا بتعاليم الإسلام فإن ذلك يصبحهم من شبه أعدائهم، لأن آيات القرآن وأحاديث رسول الله {هذا} هي الدواء الشافٍ من كل شبهة، والله يقفز بالحق على الباطل فيدمجه فإذا هو زاهق، ومن استنار بكتاب الله، ورجع إلى رسول الله {ف} في حياته {ف} إلى سنته بعد مماته فقد استضاء بنورين لن يصل من اهتدى بها. وقوله تبارك وتعالى:}
يعتصم بالله فقد هُدِيَ إلى صراط مستقيم، أي ومن يستمسك بكتاب الله ويلتئم إلى الله عز وجل ليدفع عن قلبه نزغات شياطين الجن والإنس فإن الله عز وجل يهدى قلبه وينير بصيرته، ويسلك به صراطه المستقيم، لأن الاعتصم بالله والانسجام إليه، والاستجابة به، وطلب البداية منه، والاعتداد عليه هو العمدة في البداية، والعصمة من كل غيابته والعهد في مباعدة الشبه، فهو نور السماوات والأرض مثل نوره كمشكاة فيها مصابح المصباح في زجاجة الزجاجة كأنها كوكب دُرِّي يـوـقـد من شجرة مبارك زيتونة لا شرقيـة ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء.
قال تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا آتِوا الله حقَّ نكاحِه ولا تموتون إلاّ وأتم مسلمون ﴿ واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرّقوا، واذكروا نعمت الله عليكم إذ كنتم أعداء فألفت بين قلوبكم فأصبحتم يَنْعِمُونَ يَنْعِمُهُمَّ إخواناً وكنتم على شفا حفرة من النار فأنفذكم منها، كذلك بيّن الله لكم أيّهِ العَلِيمُ لعلَّكم تهتدون. ﴿

بعد أن بيّن الله تبارك وتعالى ضلال ال$kافار في أنفسهم وسعىهم في ضلال غيرهم فهم ضالَّون مَرْضِلون، وحدّر المؤمنين من الوقوع في فخاخهم بيّن هنا أنّ أهل الإيان هداة مهتدون يأخذون بمجمع الطاعات ومعاد الخصال التي يأمرهم الله عز وجل بها ويحملون أنفسهم عليها كي يأمرهم الله عز وجل، ويعسون في نشرها بين الناس حيث يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، وقوله عز وجل: ﴿يا أيها الذين آمنوا آتِوا الله حقَّ نكاحِه ﴿، أي خافوا الله وراقبوا باتباع أوامره واجتناب معاصره واعبدو كأنتم ترونه فإن لم تكونوا ترون فإنه يراكم، لأنه عز وجل أهل لأن يَتَّقَى ويُجَافَ منه، وقوله عز وجل: ﴿حقَّ نكاحه﴾ أي حق نكاحه، والإضافة بين حق ونكاحه من إضافة الصفة إلى موضوعها إذ الأصل: اتقوا الله النكاح الحق أي الشريعة فلا يراكم حيث نهاكم، ولا تخالفوا عن أمره، وهذا نظير قوله تعالى وتعالى: ﴿وجاهدوا في الله حقَّ جهاده﴾ وليس هذا من باب التكليف بها لا يطلق بل المراد: اتقوا الله كما يَتَّقِى أن يَتَّقِى بقدر استطاعةكم كما قال عز وجل: ﴿فاتَّقْوا الله ما استطعتم وأصمعوا وأطيعوا﴾ وقد بين رسول الله ﷺ حَقَّ الله على عباده بأن يعبدوه ولا يشركون به شيئاً. فقد روى البخاري ومسلم من حديث معاذ رضي الله عنه قال: كنت رَذَف النَّبي ﷺ على حار ليس بيني وبينه إلاّ مُؤهِّرة الرَّحل، فقال: ﴿يا معاذ هل تدري ما حَقَّ الله على عباده وما حَقَّ العباد على الله؟﴾ قلت: الله ورسوله أعلم، قال: ﴿فإنّ حَقَّ النَّبي ﷺ﴾.
الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، وحق العباد على الله أن لا يعذب من لا يشرك به شيئاً، فقالت: يا رسول الله أبشر به الناس؟ قال: لا تبهرهم فيتكلموا. وقوله عز وجل: ولا تموتون إلا وأتم المسلمون أي واستمسكوا بشريعة الإسلام وعصبوا عليها بالنواخذ والزموها، حتى يأتيكم الموت وأتم على الإسلام، وقد ذكرت في تفسير قوله تعالى: ووعى بها إبراهيم بنه ويقوبُ يا بني إن الله اصطفى لكم الذين فلا تموتون إلا وأتم المسلمون لأنه لا يخطر على بال عاقل أن قوله: ولا تموتون نهي عن الموت، لأن الموت والحياة بيد الله وحده، فقد قهر الله تبارك وتعالى: ولا تموتون إلا وأتم المسلمون» أن يتحكم فيه، وإنها المقصود بقوله عز وجل: ولا تموتون إلا وأتم المسلمون أن يحرص الإنسان على الاستمساك بالإسلام حتى يأتي الموت وهو ملازم له، فإن المرء يموت غالبًا على ما يلتزم به ويحرص عليه كما أنه يبعث على ما مات عليه، فهمها حاول الشيطان أن يصرفكم عن شرعة الإسلام فلا تطيعوه ولا تنقضوا هذه الشريعة في وقت من الأوقات، فقد تأتيكم مناياكم في حال نقضكم للمللة فصمتون عن غير الإسلام، وقد سقت هنالك الحديث الذي رواه مسلم في صحيحه من طريق عبد الرحمن بن عبد رب الكعبة قال: دخلت المسجد فإذا عبد الله بن عمرو بن العاص جالس في ظل الكعبة والناس مجمعون عليه، فأأتيتهم، فجلس إليه فقال: كنا مع رسول الله في سفر، فنزلنا منزلًا، فممنًا من يصلي خباء، ومنًا من ينضج، ومنًا من هو في جَيْشُه، إذ نادي منادي رسول الله صلى الله عليه وسلم: الصلاة جامعة، فاجتمعنا إلى رسول الله فقال: «إنه لم يكن نبي قبلي إلا كان حقًا عليه أن يدل أمته على خير ما يعلمه لهم وينذرهم شرًا ما يعلمه لهم، وإن أتمكم هذه جعل عافيتها في أولها، وسيصيب آخراً بلاءً وأمورًا تنكرها، وتجيء فتنة فرق فرق بعضها
بعضاً، وتجيء الفتنة فيقول المؤمن: هذه مهلكتي، ثم تكتشف وتجيء الفتنة
فيقول المؤمن: هذه، هذه، فمن أحب أن ينزح عن النار ويدخل الجنة
فلتنته منيته وهو يؤمن بالله واليوم الآخر، وليأت إلى الناس الذي يجب أن
يتوبى إليه، ومن باب إماماً فأعطاه صفة يده وثمرة قله فليطعه إن استطاع،
فإن جاء آخر ينزعه فاضربوا عنقه الآخر». الحديث، وقوله: تبارك وتعالى:
"واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا" أي وامسكوا بالسبب الذي جعله
الله لكم لتفوزوا برضوانه وبحر الدنيا وسعادة الآخرة وهو كتاب الله تعالى وسنّة
رسوله ﷺ واحرصوا أن تكونوا بنداً واحداً مجتمعين ولا تختلفوا فتختلف
قلوبكم، قال ابن جرير في تفسيره: وأصل العَصَم الممع، فكل مائع شيئاً
فهو عاصم، والمعتم بمعتصم به، ومنه قول الفردوق:
"أنا ابن العاصمين بني قيم إذا ما أعظم الحذاشان نابأ
ولذلك قيل للحبل: عصام، وللسبب الذي يتسبب به الرجل إلى
حاجته: عصام، ومنه قول الأعشى:
إلى المرء قيس أطيب السرَّى وأخذ من كل حيٍّ عُصَم
يعني بالعُصَم الأسباب، أسباب السمعة والأمان، يقال منه: اعتصمت
بحبل من فلان، واختصتم حبلًا منه اهـ ولا شك أن العروة الوثقى التي
يجب على العاقل أن يستمدي بها حتى يموت هي الكفر بالطاغوت والإيمان
بالله كما قال عز وجل: "فمن يكفرون بالطاغوت ويعبدون بالله يفقد استمك
بالعروة الوثقى لا انفصام لها، والله سميع علىم" وقد نهى الله تبارك وتعالى
المسلمين عن التفرقة والاختلاف والتناؤ، في مواضع من كتابه الكريم ورسم
التفرق والاختلاف والتنازع بأنه من صفات الكفار، وأنه من أعظم أسباب
الفشل وذهاب الريح، حيث يقول عز وجل: "أطعموا الله ورسوله ولا
تنازعوا فتفشبلوا وتذهب ريحكم واصبروا، إن الله مع الصابرين* ولا تكونوا

٢٣
كان الذين خرجوا من ديارهم بطرى ورثاء الناس ويصدون عن سبيل الله، والله يعمال محبطٍ وقال تبارك وتграни: "ولا تكونوا كاذبين تفرقوا واتخافوا من بعد ما جاءهم الينابيع، وأولئك لهم عذاب عظيم" كما حذر رسول الله ﷺ من تفرق المسلمين، وحص على اجتياز كليتهم واحتفاظهم، فقد روى البخاري ومسلم من حديث أبي أيوب الأنصاري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: "لا يجل للرجل أن يهجر أخاه فدفوت ثلاث، يلتقين فيعرض هذا ويبقى على ذلك الذي بدأ بالسلام". كما روى البخاري ومسلم عن حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: "إياكم وظلمين، فإن الظن أكذب الحديث، ولا تتصرفوا ولا تخفوا، ولا تتأدبن، ولا تتجنبوا، ولا تهاجموا، ولا تبغضوا، ولا تدبروا، وكونوا عباد الله إخوانا". كما روى البخاري ومسلم عن حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: "إن الله يرضى لكم ثلاثة، ويسخط لكم ثلاثة، يرضى لكم أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً وأن تعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا، وأن تناصحوا من ولاة أمركم، ويسخط لكم ثلاثة: قيل وقال، وكثرة السؤال، وإلاضيق المال". كما روى البخاري ومسلم عن حديث النعيم بن بشير رضي الله عنه قال: "قال رسول الله ﷺ: "ترى المؤمنين في تراهم وتوادهم وتاعATARهم ولعب ملأ الجسد إذا اشتكى عضوٌ، تدأغى له سائر الجسد بالسهر والحلمي". كما روى البخاري ومسلم عن حديث ابن عمر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: "المسلم أخو المسلم، لا يظلممه ولا يسلمه، ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته، ومن فرض عن مسلم كرية فرض الله عنه كرية من كربات يوم القيامة، ومن ستر مسلا ستره الله يوم القيامة" كما روى البخاري ومسلم عن حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: "إذا كتب ثلاثًا فلا يتناجي اثنان دون الآخر، حتى يختلطوا بالناس، من أجل أن

24
يجزئه). وقوله عز وجل: «وذكرنا نعمت الله عليكم إذ كنتم أعداءً فألقو بين قلوبكم فأصبحت بنعمت إخواناً وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها» أي وذكروا ما تفضل الله به عليكم من الألفة والاجتياع على الإسلام الذي ربط بين قلوبكم برباط الحب والإيثار بعد أن كنتم في الجاهلية أعداء يقتل بعضكم ببعضا عصبية في طاعة الشيطان والمماليك وحيث كنتم تنذبحون وياكل شديدكم ضعيفكم وأيام حروبكم مأثورة مشهورة كانت تأكل منكم الحريث والنسل، وتلف البلاد والعباد، وكنتم على طرف حفرة من جهنم بكفركم الذي كنتم عليه قبل أن يفضل الله عليكم بالإسلام ولم يكن بينكم وبين النار إلا أن تموعتا على ذلك من كفركم - وشفا الخفرة: حرفها وطرفها - فاستمسوا بالإسلام الذي خلصكم الله عز وجل به من الهاوية. وقوله عز وجل: «كل ذلك بين الله لكم أيه لعلكم تهتدون» أي مثل البيان المذكور بين الله لكم في كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ أسباب سعادتكم وعذركم من أسباب شقوتكم لكى تهتدوا فتجتنبوا طريق الشر وتسلكون سبيل الرشاد ولا شك أن ما حصل للأوس والخزرج من الألفة بالإسلام كان آية من آيات الله وقد أشار الله عز وجل إلى ذلك حيث يقول: «وألف بين قلوبهم لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألطف بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم» إنه عزيز حكيم) وقد روى البخاري ومسلم واللفظ للبخاري من طريق عبّاد ابن تيمية عن عبد الله بن زيد بن عاصم قال: لما أفاء الله على رسوله ﷺ يوم حين قسم في الناس في المؤلفة قلوبهم ولم يعط الأنصار شيئاً فكانهم وجدوا، إذ لم يصبهم ما أصاب الناس، فخطبهم فقال: «يا معشر الأنصار، ألم أجدكم ضلالاً فهذاكم الله بي، وكنتم متفرقين فألقوكم الله بي، وعالة فأغناكم الله بي» كلهما قال شيئا قالوا: الله ورسوله أمن، قال: «ما يمنعكم أن تحيوا رسول الله ﷺ» قال: كلهما قال شيء قالوا: الله ورسوله أمن، قال:
لو شئتتم قلتم: جتننا كذا وكذا، أترضون أن يذهب الناس بالشاة والبعير، وتذهبون بالنبي صلى الله عليه وسلم إلى رحالكم، لولا الهجرة لكان امرأ من الأنصار، ولو سلك الناس واديًا وشيوعاً لسلكت وادي الأنصار وشبها، الأنصار شعار، والناس دثار، إنكم ستلقؤون بعدي آثرة، فاصبروا حتى تلقوني على الحوض".
قال تعالى: «ولكن منكم أمة يدعون إلى الخير وياهمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، وأولئك هم الفلاحون* ولا تكونوا كآلذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البيتات، وأولئك هم عذاب عظيم.»

قال الفخر الرازي رحمه الله: إن العلم أنه تعالى في الآيات المتقدمة عاب أهل الكتاب على شئين: (أحدهما) أنه عابهم على الكفر، فقال: «يا أهل الكتاب لم تكفرون» ثم بعد ذلك عابهم على سعيهم في إلقاء الغير في الكفر، فقال: «يا أهل الكتاب لم تصدون عن سبيل الله» فلها انتقل منه إلى خاطبة المؤمنين أمهم أولاً بالتقوى والإيمان، فقال: «أتقوا الله حقت نصبه ولا تموتون إلا وأنتم مسلمون» واعتصموا بحبل الله جميعًا ثم أمهم بالسعي في إلقاء الغير في الإيان والطاعة، فقال: «ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير» وهذا هو الترتيب الحسن الموافق للعقلاء وقوله عز وجل: «ولكن منكم أمة يذعرون إلى الخير وياهمرون بالمعروف وينهون عن المنكر» أي ولن توجد منكم جامعة قائدة رائدة داعية إلى الخير وآمرة بالمعروف ونادرة عن المنكر. (من) في قوله عز وجل: «ولكن منكم» يحتلم أن تكون تبعضية، وذلك لأن هذه مهمة الشريعة الجميلة لا يقدر على القيام بها إلا أهل العلم والمعرفة والنفسة العالية، وليس كل الناس قادرين على ذلك. فدل قوله تبارك وتعالى: «وما كان المؤمنون لينفروا كافئًا، فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذوا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون» ويثبت أن تكون (من) ليبون الجنس أي كأنوا أمة داعية إلى الخير وآمرة بالمعروف ونادرة عن المنكر، وعلى كل حال فإن جنوح الخطاب إلى الكل مع إساد الدعوة إلى البعض لتحقيق معنى فرضتيها على الكفاحية وأنها متحكمة على الجميع إلا أنه إذا قام بها البعض سقطت عن الباقين، ولو أخل بها الكل.
أنموا جمعاً كسائر فروع الكفاية، ولا شك أن قوله عز وجل:  "كتبت خير أمة أخرجت للناس تأمون بالمعرفة وتنهون عن المنكر وثمنون بالله" يشعر بحتمية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر على جميع أفراد المكلفين من الأمة بحسب معارفهم وقدراتهم على تغيير المنكر والأمر بالمعروف وإدراكهم بحدود ما يقدمون عليه، فقد روى مسلم في صحيحه من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "من رأى منكم منكراً فليغفر له بديه، فإن لم يستطع فبلبه، وذلك أضعف الإيمان". هذا ولا بد في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر أن يكون عالماً بما يأمر به أو ينهي عنه ومرتبته من الدين، حتى لا يأمر بمنكر أو ينكر عن معروف، أو يغفل في مقام اللين أو ينكر على من لا يزيده الإنصاف إلا التهازي والإصرار، أو ينكر على رجل رفع القدر أمام قومه مما يعتبر فضيحةً لا نصيحة، والأمر بالخير في قوله عز وجل: "يدعون إلى الخير" هو الإسلام وشرائعة التي شرعها الله عز وجل لعباده، وجيم ما يجلي للناس المنفع، ويدفع عنهم الأذى والضرر في معاشهم ومعادهم، وسائر أبواب الخير التي تُدخِل على الناس السرّ، وتحميهم من المشرّة، كإفشاء السلام وإطعام الطعام وصلة الأرحام، وإقامة المساجد والمدارس والمستشفيات ونشر العلوم النافعة، كما قال عز وجل: "يا أيها الذين آمنوا اركعوا واسجدوا وأعبدوا ربيكم وافعلوا الخير لعلكم تفلحون" وقد رسم الإسلام للدعوة إلى الخير الآمنين بالمعروف والناهين عن المنكر أحسن المناهج وأجمل الوسائل حيث يقول عز وجل: "ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والمعظمة الخمسة وجادِهِم بالتي هي أحسن" وقال عز وجل: "قل هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني وسبحان الله وما أنا من المشركين" وقد وضع القرآن الكريم في هاتين الآيتين الكريمتين للدعوة إلى الله قاعدة تحتها ثلاثة أبواب، فالقاعدة
أن يكون الداعي إلى الله الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر على بصيرة، وهي أن يعرف الداعي الطريق الذي يدعو به إلى الله عز وجل، والبصيرة تقتضي أن يكون الداعي على هدى ونور و بينة ووضوح ومعرفة بقواعد الإسلام وشروط الدين. وأن يعرف أن من نكر هو منكر حذرت منه شريعة الإسلام، وأن ما يأتي به هو معروف حرضت عليه أواصر الله أو أواصر رسوله.
وتقتضي البصيرة في الداعية أيضاً أن يعرف درجات المنكر و يعرف صغار السيناء وكبار الذنوب حتى يكون أسلوبه في تغيير كل منكر بحسب درجة هذا المنكر. ليس النهي عن كشف الرجل فخذه يعادل النهي عن كشف الرجل إحدى سأواتيه. وليس النهي عن شيء مكروه كراءة تنزيه كالنهي عن الشيء المكرور كراءة تحريم أو المحروم، أما الأبواب الثلاثة التي تقع تحت هذه القاعدة التي رسمها الله عز وجل في كتابه الكريم للدعوة، فالباب الأول أن تكون الدعوة بالحكمة والباب الثاني أن تكون بالمعظمة الحسنة والباب الثالث أن يكون الجدال في موضع الجدال بالتي هي أحسن، وهذه القاعدة وأبوابها الثلاثة هي التي سلكها جميع الأنبياء والمرسلين في الدعوة إلى الله عز وجل.
وهي تقتضي أن يكون الداعي كالطبيب الحاذق الماهر، الذي يعني المريض الدواء بقدر حاجته، وفي الوقت المناسب له، وقد أشار الله تبارك وتعالى بدعوة الخير الآمنين بالمعروف والناهي عن المنكر، وجعل ذلك من أبرز سيات الإيمان حيث يقول عز وجل: "والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض، يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله، أولئك سراجهم الله، إن الله عزيز حكيم" وكما قال عز وجل: "الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر، والله عاقبة الأمور" وقال عز وجل: "التأمين العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمنون بالمعروف والناهون".

29
عن المنكر والحافظون لحدود الله، وبشر المؤمنين». وقوله عز وجل هنا: 
«وأولئك هم المفلحين، أي وهؤلاء المدعون إلى الخير والآمران بالمعروف والناهون عن المنكر هم الفائزين الناجون الناجون في الدنيا والآخرة، وقد أشار الله تبارك وتعالى إلى أن الآمنين بالمعروف والناهين عن المنكر ينجيهما الله عز وجل إذا أنزل بأسره بأهل المنكر الذين نصحهم هؤلاء فلم ينصحوا وزنموا فلم ينجزوا، حيث يقول عز وجل: "وإذ قالت أمة منهم متعظون قوماً الله مهلكهم أو معدمهم عذاباً شديداً قالوا معدرةً إلى ربك ولعلَّهم يتقتون، فلما نسو ما ذكروا به أنجينا الذين ينهون عن السوء وأخذنا الذين ظلموا بعداب بيس، بها كانوا يفسقون". وقوله تبارك وتعالى: "ولا تكونوا كالذين تفرَّقوا واختلتفوا من بعد ما جاءهم البينات، وأولئك لهم عذاب عظيم"، قال ابن جرير رحمه الله: يعني بذلك جل ثناؤه: "ولا تكونوا". يا لعشر الذين آمنوا "كالذين تفرَّقوا" من أهل الكتاب واختلفوا في دين الله وأمره ونبيه، "من بعد ما جاءهم البينات" من حجج الله فيها اختلفوا فيه، وعلموا الحق فيه فعمداً خلافهم، وخالفوا أمر الله، ونقضوا عهده وعهده جراءةً على الله، "وأولئك هم" يعني: وفؤلاء الذين تفرقوا واختلفوا من أهل الكتاب من بعد ما جاءهم عذاب من عند الله "عظيم" يقول جل ثناؤه: فلا تفرَّقوا يا لعشر المؤمنين في دينكم تفرَّقوا هؤلاء في دينهم، ولا تفعلوا فعلهم، ونستَّنوا في دينكم بسنتهم، فيكون لكم من عذاب الله العظيم مثل الذي هم آه وقد كان رسول الله ﷺ يحذر أشد التحذير من التفرَّق والاختلاف وأنه سبب هلاك الأمم، فقد روى مسلم في صحيحه من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنه قال: هجرت إلى رسول الله ﷺ يوماً، فقال: فسمع أصوات رجلي اختلفا في آية، فخرج علينا رسول الله ﷺ يعرف في وجهه الغضب، فقال: "إنيا هلك من كان قبلكم".
30
باختلافهم في الكتابة. وقد سالت في تفسير قوله عز وجل: ﴿وَلَهُ عَلَى
الناس حجة البيت من استطاع إليه سبيله﴾ ما رواه مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: خطبنا رسول الله ﷺ فقال: ﴿أيما
الناس قد فرض الله عليكم الحج فحجوا﴾، فقال رجل: أكل عام يا رسول
الله؟ فسكت حتى قالوا نزلت أمها، فقال رسول الله ﷺ: ﴿لما فقنت نعم
لوجبت، ولما استطعتم، ثم قال: ﴿ذروني ما تركنكم، فإنها هلك من كان
قبلكم بثورة سؤالهم، وابنهم اختلافهم على أنبيائهم، فإذا أمرتمهم بشيء فأتوا منه ما
استطعتم، وإذا نهيتهم عن شيء فدعوه﴾. وفي رواية للبخاري من حديث
أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: ﴿دوعني ما تركنكم، فإنها هلك من
كان قبلكم بسأله وابنهم اختلافهم على أنبيائهم، فإذا أمرتمهم بشيء
فاجتنبوه، وإذا أمرتمهم فأمرتمها ما استطعتم﴾. كما روى البخاري من
طريق النزول بن سمرة عن عبد الله أنه سمع رجلا يقرأ آية سمع النبي ﷺ خلافًا، فأخذت ببه فانطلق به إلى النبي ﷺ فقال: ﴿كلاً كاً محسنًا،
فأقرأ﴾. قال: ﴿فيمن كان قبلكم اختلفوا فأهلهم﴾. وفي لفظ
للبخاري من طريق النزول بن سمرة الهلالٍي عن ابن مسعود رضي الله عنه قال:
سمع رجلا قرأ آية وسمع النبي ﷺ يقرأ خلافًا فجفت به النبي ﷺ فأخبرته، فعرفت في وجهه الكراهية وقال: ﴿كلاً كاً محسنًا ولا تختلفوا فإن من
كان قبلكم اختلفوا فهلكلوا﴾. كما روى البخاري ومسلم من حديث أبي موسى
الأشعري رضي الله عنه أن النبي ﷺ بعده ومعادًا إلى اليمين فقال: ﴿يَسْرًا ولا
تعسرًا، ويشرًا ولا تنسرًا، وتطاوعًا ولا تختلفًا﴾. كما روى مسلم من حديث
أبي مسعود رضي الله عنه قال: ﴿كان رسول الله ﷺ يمسح مناكبنا في الصلاة
ويقول: ﴿استروا، ولا تختلفوا فكلبكم﴾ الحديث، وفي هذه الوصايا
الإلهية والتحذيرات النبوية ما يثبت المسلمون إلى أن سعادتهم في وحدتهم، وأن
الشر كل الشر في لنازعهم واختلافهم، وأن من سعى إلى تفريق المسلمين يدخل مع اليهود والنصارى في الوعيد الذي ذُبِّلت به هذه الآية الكريمه في قوله عز وجل: "وأولئك لهم عذاب عظيم".
قال تعالى: "يوم تبيض وجهه وتسود وجهه، فأتبع الذين اسودت وجههم أكثراً بعد إياهكم فذوقوا العذاب، يا كتمكم تكفرون!". وآيات الله تقالها علیك بالحق، وما الله يريد ظلماً للعالمين! والله ما في السماوات وما في الأرض، وإلى الله ترجع الأمور.

بعد أن حذّر الله المؤمنين من مشابهة اليهود والنصارى في تفرقهم واختلافهم من بعد ما جاءهم البينات، وهم عن الوقوع فيها وقع فيه هؤلاء المغضوب عليهم والضالون. أكد هذا التحذير بالتهليخ بالاختلاف من عاقبة الفرق والاختلاف بعد مجيء البينات، والترغيب في التمسك بأهداب دين الإسلام بإشاعتهم بأن المتفرقين المختلفين تسود وجههم يوم القيامة، وأن المستمسكين بالإسلام المبتعدين عن الفرق والاختلاف تبيض وجههم يوم القيامة، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في قاعدة في توحيد الله وتعدّد الشرائع:

بملازمة الإسلام، وبيّن أن المسؤولة وجههم أهل التفرق والاختلاف، يقال لهم: أيكم أكرمكم؟! وهذا دليل على كفرهم واردادهم، وقد تأولها الصحابة في الخوارج، وهذا نظر قوله للرسول: "أن أقيموا الدين ولا تفرقوا فيه". وقد قال في البقرة: "كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيها خلافاً فيهما". والآية، وقال أيضاً: "إن الذين فرّقوا دينهم وكانوا شيعاً لست منهم في شيء". وقال تعالى: "فقتطعوا أمرهم بينهم زبيداً كل حزب بنا لديهم فرحون". وقال تعالى: "أحكم وجهك للدينين حنيفًا ولا تكونن من المشركين". فمن الذين فرّقوا دينهم وكانوا شيعاً كل حزب بنا لديهم فرحون". وقال تعالى: "إنه الدين عند الله الإسلام وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بعياً بينهم" الآية. ونظرها في الجاثية أه. وقوله عز وجل: "يوم تبيّض وجهه وتسود وجهه: أي يوم تشرق وجهو أهل الإيام المبتعدين عن التفرق والاختلاف وتسود وت كُلْح وجهو أهل الكفر والتفرق والاختلاف. كما قال عز وجل: "وجهو يومئذ ناضرة* إلى ربا ناظرة* ووجهو يومئذ بآسة* تظن أن يُفعلا بها فاقرة". وكما قال عز وجل: "وجهو يومئذ مسورة* ضاحكة مستبشرة* ووجهو يومئذ عليها غمرة* ترهقها قرارة* أولئك هم الكفرة الفجرة". وكما قال عز وجل: "ويوم القيامة نرى الذين كذبا على الله ووجههم مسودة، أليس في جههم مثوى للمتكبرين". وقد أخبر رسول الله أن أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر، فقد روى البخاري ومسلم في صحيحهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: "قال رسول الله: "إنه أول زمرة يدخلون الجنة على صورة القمر، ليلة البدر، ثم الذين يلونهم كأشد كوكب دري في السماء إضاءة، قلوبهم على قلب رجل واحد، لا اختلاف بينهم ولا تناغش، لكل أمري منهم زوجتان من الحور العين، يرى
مغ سوقهم من وراء العظام واللحم من الحسن، يسبحون لله بكرة وعشيا، لا يسقون ولا يبولون ولا يفطرون ولا يقذون، ولا ينخضون آتيهم الذهب والفضة وأمشاطهم الذهب ووقود ماجرهم الألوة ورشتهم المسكن على حلقه رجل واحد على صورة أبيهم آدم، سطن ذراعا في السيا، كما روى مسلم من حديث صهيب رضي الله عنه عن النبي قال: إذا دخل أهل الجنة الجنة يقول الله تعالى: تريدون شيئا أزيدكم؟ فيقولون: ألم تبتيض وجهنا؟ ألم تدخلنا الجنة وتنجنا من النار؟ قال: فيرفع الحجاب، وينظرون إلى وجه الله، فما أعطى شيئا أحب إلىهم من النظر إليهم ثم قال: للذين أحسنوا الحسن وزيادة. وجعل بياض الوجهة أمانة سعادة أصحابها، وسواهم الوجهة أمارة شقاؤها أهلها إنها ذلك في الدار الآخرة، أما في دار الدنيا فإن الله تبارك وتعالى جعل ألوان الناس آية على قدرته على كل شيء وأنه جعل اختلاف ألوانهم آية يستند بها العلماء على ألوانهم وروبيتهم وأسائه الحسن وصفاته العليا كما قال عز وجل: ومن آياته تخليص السماوات والأرض وخلق بين السموم وأوالكم إن في ذلك آيات للعالمين فلا فضل لأسود على أبيض ولا لأبيض على أسود أو أحم أو أصفر إلا بقتو الله عز وجل، وقد روى مسلم في صحيحه عن حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله قال: إن الله لا ينظر إلي صوركم وأموالكم ولكن ينظر إلي قلوبكم وأعمالكم. وقد أوضح الله عز وجل ذلك آية إيضاح حيث يقول: إن أكركم عند الله أتقاكم قال الإمام أحمد: حدثنا وكيع عن أبي هلال عن بكر عن أبيذر رضي الله عنه قال: إن النبي قال له: انظر فإنيك ليست بخير من أحم ولا أسود إلا أن تفضل بقتوى الله وقوله عز وجل: فأما الذين أسودت وجوههم أكرمتم بعدها إباناكم فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرتم وأما الذين أبيضت وجوههم في رحمة الله
هم فيها خالدون». أعلم أن من الأساليب البلاغية اللّف والنشر وهو على قسمين: لفّ ونشر مرتّبٌ، ولفّ ونشر مشوش، فاللّف والنشر المرتّب أن يذكر شيئين على سبيل الإجمال ثم يذكر بعدهما وصفين بعودها يصل إلى الألف، ويعود الشاني إلى الثاني، وهو كثير جداً في كتاب الله كقوله تعالى:
«وِفَاكِهَةٌ وَأَبَا مَتَاعًا لَكُمْ وَلَانعَامٍ كُنْمَ» فقد ذكر الفاكهة والأب وهو المرعي ثم قال: «إِنَّ مَتَاعًا لَكُمْ» وهو يعود على الفاكهة. ثم قال: «وَلَانعَامٍ كُنْمَ» وهو يعود على الأب. وكذلك قوله تبارك وتعالى: «فَمِنْهُمْ شَقيٌّ وسَعِيدٌ» فأما الذين شُفِّقوا ففي النار لهم فيها زفري وشهيق خالدين فيها ما دامت السماوات والأرض إلا ما شاء ربك، إن ربك فعّال لما يريد وأما الذين سُعِيَّدوا ففي الجنة خالدين فيها ما دامت السماوات والأرض إلا ما شاء ربك.
عطاءٌ غير محدودٍ ومنه أيضاً قوله تعالى: «وَمَنْ رَجَحَ جَعَلَ لَكَ الْلِيلَ وَالنَّهارَ لِتَسَكَّنَّوا فِيهِ وَلِتَبَيَّنَوا مِنْ فُضُلِّهِ» فقوله: «تَسَكَّنْنِي فِيهِ» راجع إلى الليل وقوله: «وَلَتَبَيَّنَوا مِنْ فُضُلِّهِ» راجع لنهاير. أمّا إذا رجع الوصف الأول للشاني ورجع الوصف الثاني للألف كالذي في هذا المقام فإنه يسمى اللّف والنشر المشوش، فقد قال: «بِمِرْتَبَّةٍ وَسَحُورٌ وَتَسْوَدُّ وَجُوُهَ» ثم فصل ما يتصل بالثاني فقال: «فَأَما الْذِينَ أَشْدَدُوا وَجُوُهُمْ فَكَفَرُتُمْ بَعْدَ ابْتِعَاطِهِمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِاِنْتِبَاءٍ وَجُوُهُمْ» ثم فصل ما يتصل بالأول فقال: «وَأَمَّا الْذِينَ أُبِيضَتْ وَجُوُهُمْ فَرَحَةُ اللَّهِ وَمَا فِيهِ خَالَدُونَ» فقد ذكر الشيئين الذين فصلها بوصفين يعود الأول من الوصفين على الثاني ويعود الثاني على الأول، والأصل هو اللّف والنشر المرتّب، فإذا جاء به على سبيل اللّف والنشر المشوش فإنه يكون للكتّانة بلاغية تلقت انتباه البلغاء إلى لون من ألوان إعجاز القرآن، ففي هذا المقام تفصيل لأحوال الفريقين بعد الإشارة إليها إجمالاً، وقدّم في الإجمال ذكر حال السعداء لتعجيل مسرتهم، ثم قلّم في
التفصيل ذكر حال الأشقياء لتعجيل مسائتهم وما أنّ المقام مقام التحذير عن التشبيه بهم مع ما فيه من الجمع بين الإجلاك والتفصيل، والإفضاء إلى حكم الكلام بيان حسن حال المؤمنين كما بُدِّيَ بذلك عند الإجلاك، ففي الآية حسن ابتداء وحسن اختتام وهي صور بلاغية يعرفها علماء البديع، وقوله عز وجل: «أَكْفَرْتُم بِأَيَّا نِعْمَتِنَا أَيَّا يَقُولُ لَهُمْ: أَكْفَرْتُم بِأَيَّا نِعْمَتِنَا، والمراد بالكفير بعد الإيان في هذا المقام هو ما أشار الله عز وجل إليه بقوله تبارك وتعالى: «وَإِذَا أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِنَ الظُّهُورِ ذِرِّيَّتهِمْ وَأَشْهَدُهُمْ عَلَى أَنفُضَمْ أَلْسَتْ بَرِيَّكمْ قَالَوا بِلَ شَهِدْنَا» وَهُوَ يُشَيَّرُ كَذَلِكَ مِن ارْتَدَّ عَن دِينِ الإسلام بعد الدخول فيه، ليكون الحذر للمسلمين من محاولات أهل الكتاب تضليل أهل الإيان، وقد ذكر ابن جرير رحمه الله أن جل شئاؤه عن ذلك جميع الكفار وأن الإيان الذي يُعْيَنُون على ارتدادهم عنه هو الإيان الذي أَقْرَأُوا بِهِ يَوْمَ قِيَلَ لَهُمْ: «أَلْسَتْ بَرِيَّكمْ قَالَوا بِلَ شَهِدْنَا» ثمَّ قَالَ رَحْمَهُ الله: وَذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ جَلَّ شَناوُهُ جَعَلَ جَمِيع أَهْلَ الْأَخْرَهِ أَفْرِيقِينَ: أَحَدهَا سَوْدَاءَ وَجَوْهَهَا الَّتِينَ بَيْضَاءَ وَجَوْهَهَا الَّتِينَ فَمَعْلُومٌ إِذَا لَمْ يَكُن هَالَّاكَ إِلَّا هَذَا الْفَرِيقانِ أَنَّ جَمِيعَ الْكَفَّارَ دَاخِلُونَ فِي فَرِيقٍ مِنْ سَوْدَاءَ وَجَوْهَهُ، وَأَنَّ جَمِيعَ المؤمنين دَاخِلُونَ فِي فَرِيقٍ مِنْ بَيْضَاءَ وَجَوْهَهُ، فَلَا وَجَهُ إِذَا لَمْ يَقُولُ قَالُ قَالِ: عَنْهُ بَقُولِهِ: «أَكْفَرْتُم بَعْدِ إِيَّاَكُمْ» بَعْضُ الْكَفَّارِ دَاخِلُونَ بَعْضٍ، وَقَدْ عَمِّ اللَّهُ جَلَّ شَناوُهُ الخَيْرَ عَنْهُم جَمِيعهم، وَإِذَا دَخَلَ جَمِيعهمِ فِي ذَلِكَ ثُمَّ لَمْ يَكُن لِّجَمِيعهم حالة آمنة فيها ثُمَّ ارْتَدُوا كَافِرِينَ بَعْدَ إِلَّا حَالةٍ واحِدَةٍ كَانَ مَعْلُوماً أَنَّهَا المَرَادَ بَعْدَ ذَلِكَ، فَتَأْوِيل الآية إِذَا أُلْتَقِيْلُهُم مَعَابِدٌ عَظِيمَةُ فِي بَوْمِ تِمسَّقَ وَجَوْهَهُ قَوْمٌ وَتُسْوَدُّ وَجَوْهُ آخَرِينَ فَأَمَّا الَّذِينَ أَشْوَدَتْ وَجَوْهُهُمْ فَيَقُالُ: أَجَهَدُوا تَوْحِيدَ اللَّهِ وَعِهْدَهُ وَمِثَاقِهِ الَّذِي وَقَامَعَهُ عَلَيْهِ بَأَنَّ لَا تَشْرَكُوا بِهَا شَيْئًا وَتَفْلِصُوا لِهِ الْعِبَادَةَ، بَعْدَ إِيَّاَكُمْ أَيْ بَعْدَ تَصْدِيِّكُمْ بَعْدَ أَفْذَوُوا الْعِذَابَ بِذَا كَتَبَ تَكَفَّرُونَ يَقُولُ:
بأ كنتم تجدون في الدنيا ما كان الله قد أخذ ميثاقكم بالإقرار به والتصديق
» وأنا الذين إبست وجههم من ثب على عهد الله وميثاقه، فلم يبدل
دنه، ولم ينقلب على عقبيه بعد الإقرار بالتوحيد، والشهادة لربه بالألوه،
وأنا لا إله إلا الَّذِي خلقني، ففي رحمة الله يغني: في جنته،
ونعيمها، وما أعد الله لأهلها فيها، هم فيها خالدون أي بآباؤهن فيها أبداً
بغير نهاية ولا غاية، وقوله عز وجل: تلك آيات الله تتلوها عليك
بالمثل، وما الله يريد ظلما للعالمين أي هذه حجج الله وبيناته الموضحة
لأحوال المؤمنين في الدنيا والآخرة وأحوال الكافرين في الدنيا والآخرة، نقصها
عليك يا محمد لا يعترضها وهم ولا خطا، فمن عاقبه بسوء وجهه وتخليده
في جهنم ومن أكرمه بطيب ووجه وإدخاله في جنت النعيم، فبغير ظلم
منه لأن من عذبه فبعدله ومن أكرمه ففضلله، وما الله يريد ظلما للعالمين
بل من كفر بالله هو الظالم لنفسه وقد قطع الله حجته حيث أنزل الكتب
وأرسل الرسل وأقام البراهين على أنه لا إله إلا هو ولا ريب سواه، وقوله عز
وجل: فَوَلَّهُ مَا في السَّمَوَاتِ وَمَا في الأرض وَإِلَى اللَّهِ تَرْجُعُ الأمور أي جميع
الخلائق ملكه وعبد له وهو الحاكم المتصرف في الدنيا والآخرة وهو على
صراط مستقيم.
قال تعالى: «كنتم خير أمَّةٍ أخرجت للناس تأدررون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله، ولو أمن أهل الكتاب لكان خيرًا لهم، منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون*، لن يضرِّوا إلا أذى وإن يقاتلونكم بولؤكم الأدبار ثم لا ينصرون* ضربت عليهم جزاءً أين ما تفتقوا إلا بحلب من الله وحلب من الناس وبناءوا بغضب من الله وضربت عليهم المسكنة، ذلك بأنهم كانوا يكفرُون بالآيات الله ويقتنون الأسباط بغير حق، ذلك نفاوى عصوا وكانوا يعتدون* ليسوا سواءً، من أهل الكتاب أمةً قائمة يتنون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون* يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيات وأولئك من الصالحين* وما يفعلوا من خير فلن يكفروا، والله عليم بمقرين».

بعد أن أمر الله عز وجل المؤمنين أن يكونوا دعاءً إلى الخير وأمرهم بالمعروف ونهاهن عن المنكر وبشرهم بالفلاح، وحذروهم من سلوك طريق الضالين المضللين من أهل الكتاب المتفرقين المختلفين، ذكر هنا بشارة عظيمة للمؤمنين حيث أن بالله يخبرهم بأنه جعلهم خير أمَّةً ظهرت على الأرض، وأنه فضلهم على سائر الأمم وأنهم سيهانهم هَي أنهم يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويؤمنون بالله، حيث قال عز وجل هُنا: «كنتم خير أمَّةً أخرجتم للناس تأدررون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله» ومجيء هذه البشارة في هذا المقام بعد قوله تبارك وتعالى: «ولكن منكم أمة يدعوون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم الفلاحون» يفيد أن المسلمين سارعوا إلى الاستجابة لأمر الله عز وجل فكانوا أمة يدعوون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر، وقد حازت هذه الأمة قصب السِّبق إلى الخيات حيث جعل الله عز وجل نبيها أشرف خلق الله، وسيد ولد آدم.
وإمام المرسلين، وأعطاه الحوض المورود، والمقام المحمود وهو أول من تفتح له الجنة، وبعده بأكمل شريعة وأتم دين، وبعثه إلى الناس كافياً، ونسخ بشره جميع الشرائع، وجعل شريعته صالحة لكل زمان ومكان وقطر وعصر إلى يوم القيامة، وبارك له ولأمته، ونشر دينه في مشارق الأرض ومغاربها ووصى الكتاب الذي أنزله عليه من التحرير والتبديل، وجعل لامته مواسم خير يضاف لهم فيها الحسنات، وجعل لهم ليلة هي خير من ألف شهر، وأعطاه ما لم يعط أحداً من العالمين، وجعلهم أرفع بني آدم لبني آدم وقال عز وجل فيهم: "وكلذك جعلناكم أمّة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً" ولم يعرف في التاريخ أمّة جلبت الخير للناس كأمة محمد ﷺ ولذلك قال البخاري رحمه الله: حدثنا محمد بن يوسف عن سفيان عن ميضر عن أبي حامد عن أبي هريرة رضي الله عنه: "كنتم خير أمة أخرجت للناس" قال: "خير الناس للناس، تأثون بهم في السلاسل في أعقابهم حتى يدخلوا في الإسلام". كما روى البخاري ومسلم واللفظ لسلم من حديث ابن عباس رضي الله عندها عن النبي ﷺ قال: "عرضت علي الأمم فرأيت النبيّ ﷺ ومعه الركاب والنبي ومعه الرجل والرجلان والنبيّ وليس معه أحدٌ، إذ رفع لي سماوًا عظيمًا فظننت أنهم أمتي، فقال لي: هذا موسى ﷺ وقومه، ولكن انظر إلى الأفق فنظرت فإذا سماوًا عظيمًا، فقال لي: انظر إلى الأفق الآخر، فإذا سماوًا عظيمًا، فقال لي: هذه أمتك ومعهم سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب ثم تهبط معدخل مزليقة، فخضّ الناس في أولئك الذين يدخلون الجنة بغير حساب ولا عذاب، فقال بعضهم: قلْتُم الذين صبحبوا رسول الله ﷺ، وقال بعضهم: فلعلّهم الذين وردوا في الإسلام، ولم يشركوا بالله، وذكرى أشياء، فخرج عليهم رسول الله ﷺ، فقال: "ما الذين خفوا فهم؟" فأخبرته، فقال: "هم الذين لا
يرجعون، ولا يَشْرُقونَ، ولا يَنْطِقُونَ، وعلى ربي يَتوكلونَ. فقام عُمَّاشة بنُ مُحَيَّض فقال: أذَّنَ الله أن يجعلني منهم، فقال: "أنت منهم"، ثم قال رجلٌ آخر فقال: أذَّنَ الله أن يجعلني منهم، فقال: "سَبِّتْكِ بِهَا عُمَّاشة". وقوله عز وجل: "ولو آمن أهل الكتاب لكان خَيْرًا لهم" هذا تنديد بأهل الكتاب بعد الشعائر على المستجيبين والله ورسوله، وتأنيب لم لم يدخل في دين الإسلام من اليهود والنصارى، ورغبهم في الدخول في الإسلام، وأنهم لم يدخلوا في الإسلام لحقتهم هم الخيرية التي جعلها الله عز وجل لأمة محمد ﷺ. بل يجعل الله عز وجل لهم أجرًا إن كا جاء في الحديث الذي رواه البخاري ومسلم من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: "ثلاثة يَؤْتُونَ أجرهم مرتين: رجلٌ من أهل الكتاب، من بنيه وآمن بي، فله أجران، ويعد مملوك أدى حق الله وحق موالاه، فله أجران، ورجل أدى أمته فأحاسى تأديبها ثم أعطتها وتزوجها فله أجران". وقوله عز وجل: "وهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون" أي قليل من أهل الكتاب من يؤمن بالله وما أنزل إليهم وما أُنزل إليهم، وأكثرهم على الضلال والكفر والفسوق والعصيان. وقوله عز وجل: "لَن يُضَرْكُم إلَّا أَذَى وَإِن يُقَاتِلُوكُم يُولِّكُم الأَذْبَارَ ثُمَّ لَا يَنْصَرُونَ" هذه بشارة للمؤمنين بأن الله عز وجل ناصرهم على أعدائهم الكفرة الفجرة من أهل الكتاب، ووعده من الله عز وجل لعباده المؤمنين بتأييدهم على من عاداه ومحاسنة على إخوان الفجرة والخنازير من اليهود، وقد أنجز الله وعده، فأذَّن أعداءهم وازعَم أنوفهم، ومنعى: "لن يضروكم إلا أذى، أي لن يتمكن اليهود من الغلبة عليكم وإنها الضرر لكم إلا شيئاً سيروا ينتسب به الغافلون فيرجع إلى الله عز وجل، ومها حاول اليهود من القضاء على دينكم فلن يستطيعوا ذلك بحال من الأحوال، وقوله عز وجل: "وَإِن يَقَاتِلُوكُم يُؤَاخِذُوهُم الأَدْبَارَ" أي وإن قابلوكم في ميَّدان الحرب
قَرَوْا مَنْ كُنْتمُ مِنْ مَهْرِمِم، فَتَولِيَّةُ الأُدْبَار كُتَابَةً عَنَّ الْإِسْحَام، لِأَنَّ الْمَهْرِمَ يُحْكَّمُ ظُهُورهُ إِلَى جَهَةٍ مَقَاتِلهُ هَرُّرًا مِنْهُ إِلَيْهُ جَهَةً يَنْجُوُهُ فِي نَفْسِهِ، وَطَالِبَةً فِي أَثَّرِهِ، فِيَكُونُ دَبْرُهُ فِي وَجْهِ طَالِبِهِ، وَالِيَهُودُ هُمْ أَجْيَنُ خَلِقُ الله قَاطِبةً كَيْ قَالَ عَزِ وَجَلَّ فِيهِمُ: وَفِي إِخْوَانِهِمْ المُنْفَاقِينَ: "لَا أَتَبْعَثُ رَبِّي عَلَى مَنْ أَتْبَعَ اللَّهَ مُخْتَصَّةً أَوْ مِنْ وَزَاءِ جَذِرٍ، بِأَشْهَمِ بِنِي شَيْبِي، غَشَّيْهُمَا جَعَلَ أَيْضًا وَقُلُوبَهُمَا شَيْئًا، ذَلِكَ كَانَتْ قَوْمٌ لَا يَقُلُّونَ إِلَّا يَقُولُونَ "مُستَأْفٌ لِإِفْدَاة أَنْبَهْ حِمْوَةً عُرْقَةً، وَقَولُهُ عِزٌ وَجَلَّ: "نَمْلَا يَتَّبُعُونَ" مُسْتَأْفٌ لِإِفْدَاة أَنْبَهْ حِمْوَةً عُرْقَةً مُنْصَرَوْنَ عَلَيْكُم مَّتَلَقِّئٌ، سَوَاءً قَاتَلُوكُمْ أَوْ لَمْ يَقَالُوكُمْ، وَلِذَلِكَ لَمْ يُعْطَهُ عَلَى قِوَالِهِ: "إِنْ يَقَالُوكُمْ يُولُوكُمُ الأُدْبَارُ"، وَلَكَ مَعْطُوفُ عَلَيْهِ هَذِهِ النُّون مِنْ قِوَالِهِ: "لَا يَنْصَرُونَ" كَأَنْ قَوْمَهُمْ كاَحْذَفَتْ مِنْ قِوَالِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: "إِنْ تَتَّبِعُوا يُسْبِبْلَ قَوْمًا غَيْرَ كَنَّا لَا يَكُونُوا أَتَّبِعِيْنَ"، فَإِنَّ قَوَلُهُ عِزٌ وَجَلَّ: "لَا يَكُونُوا مَعْطُوفٌ بِمُهَّتِمْ" عَلَى قِوَالِهِ: "يُسْبِبْلَ"، وَجَزِؤُهُمْ فِي جَوَابِ الشَّرَّ أَوُلُو دُوْرَهُ، وَأَصْلُهُ: "لَا يَكُونُونَ"، فَحَذَفَ النُّونَ لِلْجَزِئ. وَفِي هَذِهِ الآيَةُ الْكَرِيمَةُ مَعْجِزةُ ظَاهِرَةٌ، وَمَكَانَتُ الْجَوَابِ الْأَضْرَائِ فِي قَبْلَهَا وَأَنْجُزَ اللَّهُ وَعَهْدَهُ قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ رَحْمَةُ اللَّهِ فِي تَفْسِيرَ هَذِهِ الآيَةِ: هُكَذَا وَقَعَ فِي إِنْهُمْ يَوْمًا خَيْبَرُ أَذْهَمُ اللَّهُ وَأَرْغَمُ أَنْسُوْهُمْ وَكَذَلِكَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ يَوْهُ المَدِينَةِ بَنِي قَيْتَعْ عِبَادُ اللَّهِ وَبَنِي النَّضِيرِ وَبَنِي قَرِيَّة، كَلَّهُمْ أَذْهَمُ اللَّهُ، وَكَذَلِكَ النُّصَارَاءُ بِشَامٍ، كُسِّرُوا الصَّحَابَةُ فِي غَيْرِ مَوَطِنٍ، وَسَلَبُوْهُمْ مَلَكَ الشَّامِ، أَبْدَا الأُبْدِينَ وَدُهَرَ الدَّاهِرِينَ، وَلَا تَزَالُ عَصَابَةُ الإِسْلَامِ قَائِمَةً بِشَامٍ حَتِّى يُنْزِلَ عِيْسَى ابْنُ مَرْيَمْ وَهُمْ كَذَلِكَ وَيُحِكَّمُ بِمَلََةُ الإِسْلَامِ وَشُعِيْبُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَمَنْ أَنْتَ فِي الْحَيَاةِ وَالْحَيَاةِ، فِيَكَسَرُ الصَّلِيبَ، وَيَقُلُّ الْخَنزِيرُ، وَيُضِعُ الجَزِئَةَ، وَلَا يَقُولُ إِلَّا الإِسْلَامُ وَهُمْ عِزٌ وَجَلَّ: "مُسْرِبُ يَعِيْنُهُمْ الْذَّلِلَةُ أَيْنَ مَا نُفِقُوا إِلَّا بِحَيْلٍ مِنْ اللَّهِ وَحِيلٍ مِنَ النَّاسِ وَبِبَاءِ بِغَضَبِ مِنْ اللَّهِ وَضَرَبَ عِيْنُهُمْ الْمِسْكِينَةَ"، عَدَّ تَقْدِيمَ تَفَسِيرِ سَيْرِ الْذَّلِلَةِ ٤٢
والمسكنة عليهم ومعني: «وباءوا بغضب من الله» عند تفسير قوله عز وجل في سورة البقرة: «وَضُرِّبَتْ عَلَيْهِمْ النَّزْلَةَ وَالمسكنة وباءوا بغضب من الله» ومعني: «أين ما تَفْقَدُوا» أي حيثما وجدوا فإن الذللة تلاحقهم وتصيبهم، وقوله عز وجل: «إِلا بِحِبَّلٍ مِن اللَّه وحِبَّلٍ مِن النَّاس» أي إلا بإمداد من الله عز وجل يكون بسبب تقصير من سلسلة اليهود عليهم لتقصير هؤلاء المتسيئين للإسلام في حق الله وتفريطهم في جنده وعدم إقامتهم شريعة الله، فإن اليهود الرعادي الجباناء لم يتضروا على المسلمين ويعتبرون بين المقدس في عصرنا بشجاعتهم، وإنما بذونوا وتفترق كلامنا لأنه إعضا عن الله من يعرفه سلسل عليه من لا يعرفه، كنا أنهم قد يُمسدون من بعض الأمم المعادية للإسلام لا حبا في اليهودية، وإنها حرب الإسلام، ولا شك أن قوله عز وجل: «إِلا بِحِبَّلٍ مِن اللَّه وحِبَّلٍ مِن النَّاس» معجزة ظاهرة على مدى التاريخ يشاهدها القاصي والداني في مشارق الأرض ومقاربها. وقوله تعالى: «ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بَيَاتِ اللَّه وَيَقْتُلُونَ الأَنْبِيَاء بِغَيْرِ حَقّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَعْتَدُونَ» قد تقدّم بيان معاني مفرداته وجعله عند تفسير قوله عز وجل في سورة البقرة: «ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بَيَاتِ اللَّه وَيَقْتُلُونَ الْبَيْنِ بِغَيْرِ الْحَقّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَعْتَدُونَ». وقوله عز وجل: "ليسوا سواء" أي ليس كل أهل الكتاب على حد سواء، بل منهم من شرح الله صدره للإسلام كعبد الله بن سلام رضي الله عنه وقد كان حبرهم وابن حبرهم، فلما رأى رسول الله ﷺ أيقن أن وجهه ليس بوجه كذاب فسار إلى الدخول في الإسلام، فهو من أهل الكتاب بأعتبر ما كان ثم صار من أهل الإسلام وأفضل أصحاب رسول الله ﷺ، وكذلك ثعلبة بن سمعة وأسید بن سمعة وأسید بن عبيد ومن أسلم معهم من اليهود، وهؤلاء من آمن من أهل الكتاب قد صاروا بعد الإسلام أئمة مسلمين، من خيرة أصحاب رسول الله ﷺ.
، وقد قال الله عز وجل في بعض من آمن من أهل الكتاب للثناء عليهم والتنديد بالمشاركين من العرب: ﴾قل أرأيت إن كان من عند الله وكرمت به وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله فأمن واستكبرتم إن الله لا يهدي القوم الظالمين ﴿، وهم المؤمنون المشارك إليهم قريبًا في قوله عز وجل: ﴾منهم المؤمنون وأكرهم الفاسقون ﴿، وقد أثنى الله عز وجل عليهم ووصف اجتهادهم في طاعة الله وملاءة القرآن الكريم حيث يقول عز وجل: ﴾من أهل الكتاب أمه قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون ﴿، يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات وأولئك من الصالحين، وما يفعلوا من خير ﴾لم يُكَفَّرُوهُ ﴿، والله عليم بالمتقين، ومعنى قوله عز وجل: ﴾لم يُكَفَّرُوهُ ﴿، أي لن يضيع أجرهم عند الله بل سيجزيه بح أحسن الجزاء، وكان مقتضى السياق أن يقال: ﴾له عليم بهم، لكن الحال يقتضي وضع الظاهر وهو قوله: ﴾بالمتقين ﴿، موضع الوضوء لتسجيل صفه التقوى لهم، وبشارتهم بها.
قال تعالى: «إن الذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا وأولئك أصحاب النار، هم فيها خالدون» مثلما ينفقون في هذه الحياة الدنيا كمثل ريح فيها صير أصابت حروه قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته، وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم ظلمون بنأيا الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونهم لا يألونكم خبالاً ودعا ما عتمت قد بدت البغضاء من أفواهم وما تخفى صدورهم أكبر. قد بينا لكم الآيات إن كنتم تعقلون* ها أنتم أولا تخبئون ولا يحاسبون وتؤمنون بالكتاب كلله وإذا لقوتم قالوا آمنا وإذا خلوا عضوا عليكم الأنانس من الفيشة، قل موتوا بغيركم، إن الله عليم بذات الصدور* إن تمسكم حسنات تسهم وإن تص bek سيئة يفرحوا بها وإن تصرفوا وتنفقوا لا يضربكم كيدهم شيئا، فإن الله بها يعملون محيط.»

بعد أن أثنى الله عز وجل على الطائفة المؤمنة من أهل الكتاب الذين استجابوا له ورسوله وسارعوا إلى الدخول في دين الإسلام، حذر عموم الكفار من سوء عاقبتهم إذا استمروا على كفرهم وعنادهم، ثم حذر المؤمنين من موالاتهم وحِبهم، وبيَن للمؤمنين أن الكفار يترصبون الدوائر بهم، وقوله عز وجل: «إن الذين كفروا لن يغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا وأولئك أصحاب النار، هم فيها خالدون» قال ابن جرير رحمه الله: قال أبو جعفر: وهذا وعيد من الله عز وجل للامة الأخرى الفاسقة من أهل الكتاب الذين أخبر عنهم بأنهم فاسقون، وأنهم قد باءوا بغضب منه، ولم كان من نظائرهم من أهل الكفر بالله ورسوله وما جاء به محمد ﷺ من عند الله، يقول تعالى ذكره: «إن الذين كفروا» يعني الذين جحدوا نبأ محمد ﷺ، وكذبوا به، وبا جاءهم به من عند الله »لن يغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا» يعني: لن تدفع أمواله التي جمعها في الدنيا، وأولاده الذين رُباهم.
فيها، شيئاً من عقوبة الله يوم القيامة إن أجرها لهم إلى يوم القيامة، ولا في الدنيا إن عجلها لهم فيها، وإنما خص أولاده وأمواله لأن أولاد الرجل أقرب أسبابه إليه، وهو على ماله أقدر منه على مال غيره، وأمره فيه أوجز من أمره.
فغير ذلك من أقربائه وسائر أسبابه وأموالهم أبعد من أن تغني عنه من الله شيئاً، ثم أخبر جل ثناؤه أتتهمهم أهل النار الذين هم أهلها بقوله: "وأولئك أصحاب النار فإنا جعلتم أصحاباً لأنهم أهلها الذين لا يخرجون منها ولا يفارقوها، كصاحب الرجل الذي لا يفارقه وقرينه الذي لا يزاله، ثم وجد ذلك بإخباره عنهم أنهم "فيها خالدون" أن صحبتهم إياها صحبة لا انقطاع لها، إذ كان من الأشياء ما يفارقو صاحبه في بعض الأحوال، ويزاله في بعض الأوقات، وليس كذلك صحبة الذين كفروا النّار التي أصلوها، ولكنها صحبة دائمة لا نهاية لها ولا انقطاع، تعزود بالله منها بما قريب منها من قول أو عمل اهده وقوله عز وجل: "مثل ما ينطقون في هذه الحياة الدنيا كمثل ريح فيها صسر أصابت حُرَّت قوم ظلموا أنفسهم فأهلقتهم" بعد أن بشر المؤمنين بأن كل ما فعلونه من الخير لن يضيع عند الله عز وجل الذي أعد لهم به أحسن المشروعة وأعظم الأجر في جنات النعيم حيث يقول: "وما فعلوا من خير فلن يكفروه" بين هنا أن الكفار لو أتفقوا أموالهم في أبواب الخير كإطعام الطعام وصلة الأرحام وبناء الرباطات والإتفاق على الأرامل والمساكين والأيتام فإن الله عز وجل لا يتقبل إلا من المتدينين، وكما قال عز وجل: "وقد قُمنا إلى ما عملتما من عمل فجعلناه هباء منثوراً" وقال عز وجل: "إِنَّ اللَّهُ يَفْرِجُ عَنْ أَمْوَاهُمْ لِيَصْدَوْا عَنْ سِبْبِ اللَّهِ فَسَينفَضُونَ ثُمَّ تَكُونُ عليهم حَسَّةً ثُمَّ يُغْلِبُونَ" وقال عز وجل:
والذين كفروا أعيالهم كسراب بقية يحسبه الظلالاء ماء حتى إذا جاءه لم يجده
شيئا ووجد الله عنته فوقا حسابه وذلك أن الكفر كالنار الحرقة التي تأكل
الأحمر واليابس وقد شبه الله عز وجل ضياع نفقات الكفار سدى ومنذ
انطفاعهم بما أبدلواه في أبواب الخير من زرع زرعا وأنفق عليه الأموال،
وتبث في استنباطه وشاركه أصحابه في بذل الجهد فيه فليما دنا وقت الحصاد
سلل الله عز وجل ريا شديدة البرد مصحوبة بنار كالإعصار الصحوب
بالنار فأحمرَت هذا الزرع في لحظات مع ما اشتملت عليه من صوت مزعج
خفيف فذهب ما أمله وبقي له حزنه ورعبه وإذا كان هذا فيما أنفقوه من
الأموال في وجه الخيرات فإن بالك يا أنفقوه في إيذاء رسول الله ﷺ وفي الصد
عن سبيل الله وفي تقبل المسلمين أو تخريب ديارهم فإن الأمر في ذلك أعظم
والخطيب أطمُ. والأمر هو البرد الشديد تحمله الرياح وقد يصحب بنار
محرقة وصوت مزعج كما قال عز وجِل: «فأصابها إعصار فيه نار
فاحترقت» وقوله عز وجِل: «ظلموا أنفسهم» بيان للسبب الذي أحبط
أعيالهم وضعِبْنفقاتهم وهو ظلمهم لأنفسهم حيث كفروا بالله عز وجِل
وعصوه وتعدوا حدوده فوضعوا الكفر موضع الشكر، ولذلك قال عز وجِل:
«وما ظلمهم الله ولكن أنفسهم ظلمون» قال ابن جرير رحمه الله: قال أبو
جعفر يعني بذلك جل ثناؤه وما فعل الله به ظلائه الكفار ما فعل بهم، من
إحباطه ثواب أعيالهم وإبطاله أجورها ظلها منهم هم يعني وضعا منه لما
فعل بهم من ذلك في غير موضعه، ويعد غير أهله بل وضع فعله ذلك في
موضعه، وفعل بهم ما هم أهله لأن عملهم الذي عملوا لم يكن لله وهم له
بالوحدانية دائمون ولأمره متبعين ولرسله مصداقون بل كان ذلك منهم
وهم به مشركون ولاهم مخالفون، ولرسله مكدبون بعد تقدم منه إليهم أنه
لا يقبل عمالا من عامل إلا مع إخلاص التوحيد له والإقرار ببدوة أنيبياته
وتصديق ما جاءهم به، وتوكيده الحجة بذلك عليهم، فلم يكن يفعله ما فعل بمن كفر به، وخالف أمره في ذلك بعد الإعذار إليه، من إحباط وفر عمه—له ظالمًا، بل الكافر هو الظالم لنفسه، لإكساءها من معصية الله وخلاف أمره، ما أوردها به نار جهيمة، وأصلاها به سعير سقره وقوله عز وجل: "أيا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطهانة من دونكم لا يألونكم خيارًا وذو ما عنيم. أي يا أيها الذين صدّقاوا الله ورسوله وأقروا بها جاءهم به محمد من عند الله لا تجعلوا لأنفسكم أصدقاء وأخلاء وأصفياء ومستشارين من الكفار، تطعنونهم على أسراركم، لأنهم متطوعون على غشكم وخيانتكم لا يقضرون في إلحاق الشر بككم وهم يبذلدون كل ما يطلبون في إضعافكم وإضراركم وإفساد ذات بينكم ويتمنون القضاء عليكم وعلى دينكم، وإلحاق العنت والمشقة بككم ويطالون الرجل هم خاصة أهله الذين يطلعون على أسرارهم ويعرفون مدخله وخرجه لشدة قريم منه، ومنه بحث الفواد وهي ما يلي البطن منه بخلاف الظهارة، والبطانة السريرة أيضا، ومعنى: "من دونكم" أي من غير مبنكم، ومعنى: "لا يألونكم خيارًا" أي لا يقضرون في خبالكم، والAXBال الفساد، كما قال عز وجل في المنافقين: "لو خرجوا فيكم ما زادكم إلا خبالا" وأصل الخبال ما يلحق الجسم من مرض وفتور فيده فسادًا واضطرابًا وخروجًا عن حد العدال، ومعنى: "ودوع ما عنم" أي تموا اعتتكم أي إلحاق أشد الضرر والمشقة بككم، قوله عز جل: "قد بدأ البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر" أي قد لاح لكم أيها المسلمين على صفحات وجههم وما تسعونه من فلتات ألسنتهم ومن حرصهم على بقائهم على دينهم، على أن ما تخفي صدورهم من العداوة لكم أكبر مما بدأ من أفواههم، فلا تتخذوا منهم بطانة ولا تولواهم، والعداوة على الدين هي العداوة التي لا زوال لها إلا بانتقال أحد المتصدرين إلى دين الآخر.
كما قال الشاعر:

كل الادعاء قد ترجى إزالتها إلا عداوة من عاداك في الدين
وقد روى البخاري في صحيحه من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: "ما بعث الله من نبي، ولا استخلف من خليفة إلا كانت له بطانة، بطانة تأمره بالخير وتضعه عليه، وبطانة تأمره بالسوء وتضعه عليه، والمعصوم من عصمه الله" قال ابن كثير: وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو حذافة أبو أيوب محمد بن الوزان حدثنا عيسى بن يونس، عن أبي جعفر التيمي عن أبي الزنابيع عن ابن أبي الذهقان قال: قيل لعمر بن الخطاب رضي الله عنه: إن هنالك عذاب من أهل الحيرة، حافظ كتاب فلو اختذته كابنها؟ فقال: قد اتخذت إذا بطانةً من دون المؤمنين إه يا للذين أخذت فأعملوا لكم الآيات إن كنتم تعالون" أي قد أوضحنا لكم أن بها المؤمنون منهج سعادتهم، وسلامتهم من كيد أعدائهم وما انطوت عليه قلوبهم من بعضكم وبغض دينكم، فلا تتخذوا منهم بطانة، ولا تطلعواهم على أسراركم، وخططات أمن دولتكم، وتهكاك جيوشكم، وتوجهاتكم، وقاله: "إن كنت تعالون" هو للحذر على استعمال العقل في تأمل هذه الآيات، وتدبر تلك البدائل، لأن من يتخذ بطانة من عدوه يكون كمن يُلقي الأفعى يده، ولا يفعل ذلك عاقل. وقوله عز وجل: "هذا أنا أهل القرين لا يجبونكم وتؤمنون بالكتاب كله وإذ أطلقوا عما إذا خلوا أعباؤكم الآمنة من الغيظ" هذا تحذير آخر وتنفير من أن يتخذ المسلم بطانة من الكافرين بسبب قراءة من رضا أو مصاهرة أو غير ذلك، لأنه لا يلقى المؤمن أن يكون الكافر أشد صلابة في دينه الباطل من المؤمن في حقه، فكيف يرضى المؤمن أن يجب كافرا لأجل
قراءة أو نحوها في الوقت الذي يغضبه فيه هذا الكافر تعصباً لديه الباطل، وهل يليق بمؤمن يصدّق كل الكتب السماوية أن يوالى من يكفر بالقرآن العظيم؟ وهل يليق بمؤمن أن يجالل من إذا جلس مع المؤمنين أدعى أنه مؤمن فإذا انصرف من عند المؤمنين تمنى أن يمزق أجناد المسلمين وأخذ بعض باستناده أطراف أصابعه من شدة الغيظ والحنق على الإسلام وأهله؟ وقوله عز وجل: «قل موتوا بِغِيظكم إنّ الله عليكم بذات الصدور» أي أخبر يا محمد هؤلاء الحاضرين على الإسلام وأهله بأن الله معرَّ دينه فليزدد غيظكم حتى تهلكوا لأنكم لن تروا ما يسكركم، وعند الله عز وجل علم خفياً صدوركم وقوله تبارك وتعالى: «إن تسسسكم حسنة تسؤهم وإن تصبكم شرهاً يفرحوا بها وإن تصردوا وتنقوا لا يضركم كيدهم شيئاً، إن الله بما يعملون محيط» بياناً لشدة عداوة الكفار للمؤمنين كأنه قيل لهم: كيف تتخذون بطانة من إذا نزل بكيم خير امتلاط قلوبهم غيٍّاً وهمًا وغيظًا، وإن أصابكم بلاء طاروا فرحًا، وإن تصردوا وتطيعوا أواامر الله وتجنبوه يحفظكم من شرهم، إن الله لا يخفى عليه شيء من كيدهم ومكرهم، ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين.

50
قال تعالى: "واءذ غذوئ من أهلك تبويَّؤ المؤمنين مقاعد للقتال، والله سمِّعَ عليهم* إذ هُم طائفة منك من تفَّشَّت ولم يَفعَّلها، وعلى الله فليشوك المؤمنون* ولقد نصرك الله ببدر وأنتم أذله فاتقوا الله لعلكم تشكرون* إذ تقول للمؤمنين ألقن يكفكم أن يمذكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين* بل، إن تصرفوا وتلقوا وياتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسَّومن* وما جعله الله إلا بشرى لكم ولتمثِّل قلوبكم به، وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم* ليقطع طرفًا من الذين كفروا أو يكبتهم فينالون خانينَ.

بعد أن بئس الله عز وجل للمؤمنين أنهم إن يصبروا ويتحروا يدفع الله عز وجل منهم كيد أعدائهم وينصر المسلمين على الكفرة، أشار عز وجل هنا إلى معركتين شهريتين عند العرب والعجم، وهما معركة أحمد ومعركة بدر، حيث خلف بعض الرماة أمر رسول الله ﷺ يوم أحد ولم يصبروا فانهزموا، وأنهم لما تابوا وصبروا واتقوا في يوم بدر مع أنهم كانوا قليلين في عدهم وعددهم انتصروا. وقوله عز وجل: "واءذ غذوئ من أهلك تبويَّؤ المؤمنين مقاعد للقتال، والله سمِّعَ عليهم* إذ هُم طائفة منك من تفَّشَّت ولم يَفعَّلها، وعلى الله فليشوك المؤمنون* أشار الله عز وجل بهاتين الآيتين إلى معركة أحد، وقد كانت في شوال من السنة الثالثة للهجرة النبوية، وكانت قريش تريد الثأر لقتالها يوم بدر، وأجعليا على حرب رسول الله ﷺ، فجمعت جموعها، وخرجت بحداها وحديدها وأباحيشها ومن تبعها من بني مكانة وأهل تهامة، وأخرجوا معهم نساءهم، ومغنياتهم، حتى لا يفرّوا، وخرج أبو سفيان على رأس المشركين ومعه زوجته هند بنت عتبة بن ربيعة

51
لتألَّب على المسلمين، وتعود على حربهم لقتال أبيها وأختها وعمها يوم بدر، فأقبلوا حتى نزلوا بعشيّتين، وهو جبل بطن السِّيخة من قناته، على شفير الوادي مقابل المدينة، قرب جبل أحد، يفصل الوادي بينه وبين جبل أحد، فاستشار رسول الله ﷺ الناس، واستقرَّ رأياً على الخروج إلى أحد، فخرج بهم رسول الله ﷺ وهم نحو ألف رجل، والمشركون نحو ثلاثة آلاف، غير أن عدو الله ﷺ رأس المنافقين عبد الله بن أبي ابن سهل رفع بنحو ثلث الناس قبل أن يصل إلى أحد، فحاول عبد الله بن عمرو بن حزام السُّلَيمي والد جابر رضي الله عنهما أن يحملهم على تابعة رسول الله ﷺ وقال لهم: تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو أدعوا، فقال عبد الله بن أبي ومن معه من المنافقين: لا نعلم قتالاً لأتمناكم، وقد كادت طائفتان من المؤمنين أن يتأثراً ب;kامل عدو الله ﷺ عبد الله بن أبي وتفشلاً وها من بني حارثة وبيني سلامة لكن الله تعالى عصم هاتين الطائفتين، وثبتهما على الحق، وبنو سلامة غربي سلعة مباشرة وبنو حارثة شمال شرق سلعة وبنوهم المدخلي كما روى البخاري في صحيحه الحديث رقم (1822) نا إسماعيل بن عبد الله قال حدثني أخي سليمان عن عبد الله بن عمر عن سعيد المقبري عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: (حرم ما بين لابتٍ المدينة على لسانٍ) قال: وآتي النبي ﷺ علي حارثة وقال: (أراكم يا بني حارثة قد خرجتم من الحرم) ثم التفت فقال: (بلى أنتم فيه). وقد استمر رسول الله ﷺ سائرًا حتى نزل الشَّعَب من أحد، في غَدُد الوادي، وجعل ظهره وظهر عسكره إلى أحد. وأخذ يُؤزِر المؤمنين مقاعد للقتال، ويسْوَي صفوهم، وأجلس جيشًا من الرَّماة فوق جُبَيل على مقربة من عسكر رسول الله ﷺ بالجنوب الشرقي من أرض المعركة ليضحا من المسلمين بالندب، وكانوا خمسين راميًا، وليمحموا ظهر المسلمين إذا أقبلوا على قتال المشركين الذين كانوا إلى الجهة الغربية من مكان المسلمين وأمر على الرَّماة عبد الله بن
جَعَلَ أَخَا بِي بَيْعَةً عَوَفَ وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ لِلْرُّمَةَ وَاَمِيرِهِم: «لا تَبْرَحُوا، إن رَأِيَتِمَا نُظَهِّرُونَا عَلَيْهِمْ فَلا تَبَرَحُوا وإن رَأِيَتِمَا ظُهِّرُونَا عَلَيْهِمْ فَلا تَبَرَحُوا» حَتَّى قَالَلَهُمْ: «إِن رَأِيَتِمَا نُظَهِّرُونَا الطَّيْرُ فَلا تَبَرَحُوا حَتَّى أَرْسِلَ إِلِيْكُمْ» فَلَمْ أَقْطَعُوا الْجِمَاعَةَ أُخْذِ الْمُسْلِمُونَ يَصِدُّونَ المُشْرِكِينَ حَصْدًا، فَهَبَ المُشْرِكُونَ حَتَّى حَقَّ بَعْضَهُم بِالْطَّائِفَةِ، وَهَبَت نَسالأَهُمْ إِلَى الْجِبَلِ يَشَكِّدُونَ فِيهِ، وَرَفَعُوا عَن سَوقِهِ، حَتَّى بَدَتُ خَلَاكِهِنَّ، فَلَمْ رَأَى الرُّمَةُ ذلِكَ نَسَأَة رَوْقِي رَسُولِ اللَّهِ ﷺ لَهُمْ، وَأَخَذُوا يُقُولُونَ: الْغَيْنِيَةُ، الْغَيْنِيَةُ. فَنَهَاهُمْ أَمِيرُهُمُ عَبْدُ اللَّهِ بْنِ جُبَيْرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّزُولِ وَأَمِرُهُمْ بِالشَّيَاطِينِ فِي مَكَانِهِمْ تَفْقِيحاً لِّلْوَصْيَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، لِكَانَتْ فِي غَمْرَةٍ فِرْحِهِمْ بِهَا النُّصْرُ انْدَفَعُوا إِلَى أَرْضِ الْمَعَرَكَةِ يَجْمَعُونَ الْمُغَنَّمَّ، فَفَضْلُ هُمْ خَالِدٌ بَيْنَ الْوَلَيدِ وَكَانَ عَلَى خِيلِ المُشْرِكِينَ. وَمَاةً فَارِسُ، فَأُسْتَدَارَ بَعْضُهُنَّ عَنِ وَرآئِهِمْ، وَكَانَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ جُبَيْرُ أَمِيرُ الرُّمَةِ لَمْ يَبْحُ مَكَانَهُ حَتَّى إِسْتَشْهَدَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَأَخَذَتْ فَرْسَانِ المُشْرِكِينَ صِبْبَ الْمُسْلِمِينَ، وَأَخَذَ كَثِيرٌ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ يُضِعِدُونَ وَلَا يَلْبُؤُونَ عَلَى أَحَدٍ، وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ ثَابَتُ يَنَادِيهِمْ فِي أَخْرَاهُمْ: «إِلَّي عَبْدَ اللَّهِ إِلَيْ عَبْدَ اللَّهِ»، وَلَا بَقَى مَعَهُ الْبَيْعُ أَثْنِيَ عَشَرَ رَجُلاً، وَقَدْ صَرَّخَ إِبْلِيسُ بَيْنَ المُشْرِكِينَ الْمُهْنَمِينَ: أُيُّ عَبْدَ اللَّهِ أَخْرَاَكُمْ، فَرَجَعَتْ أُوْلَاهُمْ، وَالتَّحْمَوَا فِي الْمَعَرَكَةِ مَعَ الْمُسْلِمِينَ، وَأَصَابُ الْمُسْلِمِينَ غَمْ شَدِيدٌ، حَتَّى صَارَ بَيْضَبْ بِعَضُواً وَهُمْ لَا يَشَعُروْنَ، وَقَدْ رَوَى الْبَخَارِي فِي صَحِيْهِ مِن حَادِثَةِ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنَّا قَالَتْ: هُزُّمَ المُشْرِكُونَ يُرِيدُ هَذَا هَزْمَةً بِيْتٌ، تَعْرِفُ فِيهِمْ، فَصَرَخَ إِبْلِيسُ: أُيُّ عَبْدَ اللَّهِ أَخْرَاَكُمْ، فَرَجَعَتْ أُوْلَاهُمْ فَاجْتَلَتْ هَيُّ أَخْرَاهُمْ فَنَظَرَ حَذِيفَةُ ابنِ الْبَيْمَانِ فَإِذَا هُوَ بَعْضُهُ، فَقَالَ: أَيُّ، أَيُّ، قَالَتْ: فَوَلَِّ اللَّهُ مَا أَخْرَحَوْاُ حَتَّى قَتَلَوْهُ، فَقَالَ حَذِيفَةُ: يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ، قَالَ عَرْوَةُ: فَوَلَِّ اللَّهُ مَا زَالَتْ فِي حَذِيفَةٍ مِّنْهَا بَقِيَّةٌ خَيرٌ حَتَّى لَقِيَ اللَّهُ. زَادُ فِي رَوْاَيَةٍ: وَقَدْ كَانَ أَهْمَزُ مِنْهُمْ قُوَّةً حَتَّى
الحقوا بالطائف اه، وفي تأكيد رسول الله ﷺ أن لا يبرحوا مكانهم بعدة تأكيدات إشارة إلى إيقان رسول الله ﷺ بخطورة هذا المنزل الذي بُوأه الرمامة، وفيه معجزة من المعجزات حيث كانت بلوزى المسلمين من هذا المكان، وأن رسول الله ﷺ لا يقدر على رد المقدور، وأن ما شاء الله كان وما لم يشاً لم يكن، وقد روى البخاري ومسلم في صحيحهما من حديث جابر بن عبد الله ﷺ قال: فينزلت: "إذ هم شت الطائفتان منكم أن تفسّلن" الآية: قال: شن الطائفتان بنو حارثة وبنو سلمة، وما يسرى أنها لم تنزل لقوله تعالى: "ولاّ وليهما". وفي قوله عز وجل: "غدورت من أهلك" إشارة إلى قرب أرض المعركة من المدينة التي بها أهل رسول الله ﷺ، وأنه لم يمتح في الوصول إلى أرض المعركة إلى مشقة سفر طويل كالذي احتاجوه يوم بدر ومع ذلك نصرهم الله في بدر، لأنهم صبروا واتقوا، بخلاف يوم أحد حيث خالف أكثر الرمامة أمر رسول الله ﷺ وأصيب المسلمون من قبليهم، ولقد عفا الله عنهم. وقوله عز وجل: "أن تفسّن" أي أن تُجيباً عن القتال وترجعا إلى المدينة مع عدو الله عبد الله بن أبي حين رجع من الطريق، وقوله عز وجل: "والله وليهما" أي والله عز وجل مثبتهما ودافع عنهما كيد الشيطان فلم ينصروا، وقاتلا أعداء الله مع رسول الله ﷺ وفاز بعضهم بالشهادة، وقوله عز وجل: "وعلى الله فيتوكل المؤمنون" أي وجب على المؤمنين أن تكون ثقتهم بالله وحده واعتمادهم عليه دون غيره، فإن النصر بيد الله وحده لا إله إلا غيره ولا معبود بجح سواه، وقوله عز وجل: "ولقد نصركم الله ببر وأنتم أذلة" بياناً لتتأكيد ووجب الاعتماد عليه وحده، وأن النصر إذا ينال بطاعته عز وجل وبطاعة رسول الله ﷺ، ومعنى: "أذلة" أي قليلون في غددهم وغددهم وليس المراد من "أذلة" في هذا المقام ضد الأعزة، لأن المسلمين أعزة دائمًا كما قال عز وجل: "ولله العزة ورسوله وللمؤمنين" بل المراد
هنا قلة السلاح والمال والعدّد حيث كانوا ثمانيون وبضعة عشر رجلاً، كما تقدم في تفسير قوله عز وجل: "فقد كان لكم آية في فتنتين التقتان"، ومعنی قوله: "فاتقوا الله، لعلكم تشكركم" أي فاجعلوا كل همكم تقوى الله عز وجل لكي تفزوا بتأييده ونصره ويزيدكم من فضله، وتشكروا نعمه. وبدْر موضع بين مكة والمدينة وبينه وبين المدينة حواله خمسون ومائة كيلومتر وقد صارت الآن قرية كبيرة وكانت في الأصل من مياه غقّار، وكان بها سوق في الجاهلية. وقوله عز وجل: "إذ تقول للمؤمنين أين يكمفك أن يجعلكم ربككم بثلاثة آلاف من الملائكة مُنذرين" قبل إن تصبروا وتنتموا وابنوتكم من فورهم هذا يعدكم ربككم يخمسة آلاف من الملائكة مُشْؤوِمين ببيان للنصر وذكر لشرطة، ف (إذ) في قوله عز وجل: "إذ تقول للمؤمنين" ظرف لقوله: "نصركم الله بدر" وقوله: "إذ تصبروا وتنتموا" بيان لشرط النصر. وقد أكد الله عز وجل أن الصبر والتقوى هما سبب دفع الشرور عن الإنسان وسبب جلب النصر والرفعة والتأييد له، حيث قال: "إذن تصبروا وتنتموا لا يضركم كيفهم شيئاً" وقال هنا: "إذ تصبروا وتنتموا وبأتونكم من فورهم هذا يعدكم ربككم يخمسة آلاف من الملائكة مُسْؤوِمين" وقال: "إذن تصبروا وتنتموا وابنوتكم فإن ذلك من عزم الأمور" وقال: "فاصبر إن العاقبة للمتقبلين" وقال عز وجل: "إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أفраж الخمسين" وقال في سورة النحل: "فاصبر وما صبرك إلا ببُيَّن الله، ولا تخز علية ولا تك في ضيق مما يعكرُون" إن الله مع الذين اتقوا والذين هم محسون وقَدْ قَام رسول الله ﷺ يحضر المؤمنين على القتال وعدهم بنصر الله عز وجل لهم وبيشّرهم بأن الله عز وجل مُبِدنهم بالملائكة، حيث وعده الله عز وجل في البشارة الأولي أنه ممّدّه بألف من الملائكة مُرْؤِفين أي يتبعهم غيرهم، وَلا أشتدت استغاثة رسول الله ﷺ برهم بشره بثلاثة آلاف من الملائكة ينزلون من
السماء، ثم زاد في طمأنينته بالنصر بأن المشركين لو سارعوا للقتال الآن
والهجم عليهم وصدِّرت واتتقتم فإن الله يمددكم بخمسة آلاف من الملائكة
مسؤلين أي معلمين للمؤمنين كيفية القضاء على أعدائهم ومنتَبِهن لهم، كما
قال عز وجل: {إذ يُوحى ربك إلى الملائكة أي مبعِّم فثبتوا الذين آمنوا
سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم
كل بَنَان}. وقوله عز وجل: {وما جعله الله إلا بشرى لكم ولتعمم
قلوبكم به، وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم} أي وما أنزل الله
الملاكاة وأعلمكم بإزالهم إلا بشارة لكم وتعمم قلوبكم وإلا فإنا النصر
من عند الله الذي لو شاء لأهلك أعداءكم بدون قتال منكم أو إمداد من
الملاكاة، لأنه ذو العزة التي لا تُكرام، والحكمة الناتجة البالغة في أمره وقدره.
وقوله عز وجل: {ليقطع طرفًا من الذين كفروا أو يُكَبِّرُون فينقلبوا خائبين}
اللهم في قوله عز وجل: {ليقطع} متعلقة بقوله عز وجل: {نصركم الله
بدر} أي نصركم بدر ليهلك أئمة الكفر من قريش كأبي جهل وعثبة بن ربيعة
وشيبة بن ربيعة والوليد بن عتبة وأمية بن خلف، فهؤلاء طرف من الذين
كفروا قطعهم الله وأهلكهم يوم بدر، وقوله: {أو يُكَبِّرُون} أي يُلحق بهم
الذل والإحازة والعن والهزيمة والغيض، وقوله: {فينقلبوا خائبين} أي
فيرجع هذا الطرف الكافر إلى أهله خائباً محروماً لم يحقق له أمل، وترجعون
أيها المسلمون بالعز والنصر والتأييد وتكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين
كفروا السفلي والله عزِّيز حكيم.
قال تعالى: «ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعدّهم فإنهم ظالمون* ولهما في السّماوات وما في الأرض، يغفر من يشاء ويعذّب من يشاء، والله غفور رحيم*» يا أباها الذين آمنوا لا تأكلوا الزّبّا أضعافًا مضاعفة* واتقوا الله لعلّكم تفلحون* واتقوا النّار التي أعدّت للكافّرين* وأطيعوا الله والرسول لعلّكم ترحمون*»

بعد أن ضرب الله عز وجل مثلين: أحدهما ما أصاب المسلمين يوم أحد مع حرص رسول الله ﷺ على نصحهم، وإنزالهم مقاعد للقتال، وتشديد عليه الرّمّة بأنّ لا يبرحوا مكانتهم منها كال وخالفة أكثر الرّمّة لأمر رسول الله ﷺ وقد كانت هذه الاختلافة لأمر رسول الله ﷺ هي السبب المباشر فيها أصاب المسلمين من قرح، وثاني المثلين ما حصل للمسلمين في بدر من نصر الله وتأييده لاعتقادهم على الله وصبرهم وتقواهم، وآباء الله عز وجل حبيبه ورسوله محمد ﷺ بألّامة: «أنّ الأمر كله لله الحكيم العلي»، فقال عز وجل لرسوله محمد ﷺ: «ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعدّهم فإنهم ظالمون*» أي ليست أمرّ الكون بيدك، وإذا كانت ليست بيد حبيبه ومصطفاه محمد ﷺ فإنّها من باب أولي ليست بيد غيره من خلق الله، وإنّها هي بيد الله وحده، يفعل ما يشاء، يحكم ما يريد، لا رادٍّ لقضائه، ولا معقّب لهكم، وإن تعجب فعجبوت لأولئك الذين قد يتسببون للإسلام والتّثبيت ثم يعتقدون أن بعض مشايخهم يفعون ويضررون، ويتصّرّعون في الكون وهم يقرّرون قول الله عز وجل لسيد الأولياء والأنبياء والملسّين محمد ﷺ: «ليس لك من الأمر شيء* وآوى في قوله عز وجل: «أو يتوب عليهم*» هي عاطفة لقوله عز وجل: «يتوب*» على قوله عز وجل: ـ ۰۷
عن الفشل وإبن الأنباءي أنَّ (أو) بمعنى (لَّا أن)، ومعنى: ليس لك من أمرهم شيء إلا أن تتوبي الله عليهم فتفرّج به، أو يعذّبهم فتتشبّش منهم، وأيا ما كان فهو كلام مستأنف سبق لبيان بعض الأمور المتعلقة بغيزوة أحد إثر بيان بعض ما يتعلق بغيزوة بدر لما بينهما من التناسب الظاهرة، لأن كلًا منها مبنيّة على اختصاص الأمر كلّه بالله تعالى. ومُنْيَى عن سلبه عمن سواء يد وقوله عز وجل: «يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الرّبا أضعافًا مضاعفة» مناسبة النهي عن أكل الرّبا في هذا المقام المسوق في شأن غزوة أحد للإرشاد إلى أن أساس كل فوز ونجاح ونصر وسعادة هو تقوى الله عز وجل، وحسب النفس عن المحرمات، وأن أكل الخمر وال алкогول والطهوات من الرّزق هو ولياَّكُ قبول الطاعات واستجابة الدعاء والنصر على الأعداء لأن الله طيب لا يقبل إلا طيبًا، فمن أكل الحرام - أبخثه الرّبا - كان حريًا بما خصصه الله وحرمته من عون الله وتأييده، كما أرشد إلى ذلك رسول الله ﷺ فقد روى مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «يا أيها الناس إن الله طيب لا يقبل إلا طيبًا، وإن الله أمر المؤمنين بإمر به المرسلين فقال: «يا أيها الرسل كلوا من الطيارات وإعملوا صالحًا إنما تعملون على» وقال: «يا أيها الذين آمنوا كلوا من الطيارات ما رزقتكم» ثم ذكر الرجل يطلب السفر أشتعت أبه، ومطعمة حرام وملبسه حرام، وغذي بالحرام، بمَا يديه إلى السقاء: يا ربٌّ، يا ربي، فأثنى يستجب بذلك وقد أكد الله عز وجل لفت اتباع المؤمنين إلى أثر الأموال في التقرب إلى الله عز وجل واستجابة رضوانه والفوز بجنت النعيم حيث صدر صفات المتقين بعد ثلاث آيات من نهي عن الرّبا هنا يقوله عز وجل: «الذين ينقرون في السراء والضّراء» ولا يسوق عز وجل: «أضعافًا مضاعفة» شرطاً في تحريم الرّبا، فإن الرّبا ضرر، بل هو من أكبر الكبائر حتى ولو لم يصل إلى الضعف.  

٦٠
ففضلًا عن الأضعاف المضاعفة، لأن المقصود من إيراد هذا الوصف هو التشنيع على ما كان أهل الجاهلية يفعلونه وتريبهم على جشعهم وظلمهم وامتثال أغنيائهم دماء فقراءهم حيث كان الرجل يُربي إلى أجل، فإذا حل هذا الأجل قال للصُنادين: نحن في المال حتى أزبدك في الأجل، ففعل، ويتكرر هذا مرارًا كثيرًا حتى يصر الرجا أضعاف أضعاف رأس المال، والقاعدة عند الأصوليين أن القياد إذا كان ليحان الواقع فإنه لا مفره له، وقد مثل له الأصوليون بهذه الآية الكريمة. وقوله عز وجل: {واتقوا الله لعلكم تفلحون} تأكيد على أن تقوى الله عز وجل هي سبب فلاح المتين وفوزهم ونصرهم وتأييدهم على أعدائهم، وقوله عز وجل: {واتقوا النار التي أعدت للكافرين} أي احتفظوا أنفسكم من الأسباب التي تانكم في نار جهنم التي ظلَّت وجيِّبت، فمن كفر مع الله، في هذا تخدير شديد من أكل الربا، وأنه قد يكون سببا في نزع الإيمان من قلوب أكلة السردة ومومتهم على الكفر عياذًا بالله، وفي هذا دليل أيضا على أن النار أعدت في الأصل للكفار ولعلن ذلك أن يعذب بها بعض العصاة من المؤمنين لكنهم لا يُنكرُون فيها بل يخرجون منها إما بشفاعة رسول الله،{أو بشفاعة بقية النبيين والرسل والملائكة والمؤمنين}, فقد روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله،{فال في حديث طويل: {حتى إذا فرغ الله من القضاء بين العباد، وأراد أن يخرج برحمة من أراد من أهل النار، أمر الملائكة أن يخرجوا من النار من كان لا يشرك بالله شيا، ومن أراد الله أن يرحنه من يشهد أن لا إله إلا الله، فيخرجونهم في النار بأثر السجود، تأكل النار ابن آدم إلا أثر السجود، حرم الله على النار أن تأكل أثر السجود، فيخرجون من النار قد امتحشوا، فيصَب عليهم ماء الحياة فيبنيون تحته كما تحتت الحياة في كييل السيل}} الحديث - وفي لفظ لمسلم من حديث أبي سعيد الخدري أن ناسا سألوا رسول الله: {هل
نرى رَبّنا يوم القيامة؟ قال رسول الله ﷺ: "نعم" وساق الحديث إلى أن قال:
"فيقول الله عز وجل: شَفِّعت الملائكة، وشفّع النبيون، وشفع المؤمنون ولم يبق إلا أرحح الراحين، فيقبض قبضة من النار فيخرج منها قوما لم يعملوا خيرا قط، قد عادوا حُميًا، فظلوا في نهر في أفواه الجنة يقال له نهر الحياة فيخرجون كنا تخرج الحياة في حي السبيل، ألا ترونها تكون إلى الحجر أو إلى الشجر، ما يكون إلى الشمس أصبيع وأحَيْض، وما يكون منها إلى الظل يكون أبيض" فقالوا: يا رسول الله كأنك كنت ترعى بالبادية! قال: "فيخرجون كاللؤلؤ في رقابهم الخواتم، يعرفهم أهل الجنة، هؤلاء عتصام الله الذين أدخلهم الله الجنة بغير عمل عملوه، ولا خير قدّموه" الحديث. وقوله عز وجل: "أطيعوا الله والرسول لعلكم ترحمون" هو حض وترغيب للع pazن على النواجذ بأسباب النجاة من النار، والفوز برحمة الرحيم الغفاري، بملزمة
طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ.

٢٢
قال تعالى: «وسارعوا إلى مغفرة من ربك وجنّة عرضها السمولات والأرض أعدت للمتقين الذين ينفقون في السرء والضِّرَاء والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس، والله يحبّ المحسنين والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لهنّوهم ومن يغفر الذَّنوب إلا الله ولم يصرّوا على ما فعلوا وهم يعلمون أولئك جزاؤهم مغفرة من ربيم وجنّات تجري من تحتها الآهان خالدين فيها، ونعم أجر العاملين».

بعد أن رَّحَّب الله عز وجل المؤمنين في عطفه، وحَّرَّم بهم من النار التي أعدّها لأعدائهم الكفرة الفجوة، وحَّرَّم عليهم طاعة الله وطاعة رسوله محمد ﷺ التي تجلب لهم الفلاح والفوز والنصر على الأعداء، رغبهم في المبادرة إلى الأعمال التي تجلب مغفرة الله ورحمة، وتمكنهم فسيح جنّته، فقال عز وجل: «وسارعوا إلى مغفرة من ربك وجنّة عرضها السمولات والأرض أعدت للمتقين» وتقديم الترهيب على الترغيب، لأن الترهيب تخلية، والرغيب علبية، والتحليمة مقدّمة على التحلية، كما هو مقتضى الفطرة والطبع، والعقل والشرع، ومعنى: «وسارعوا إلى مغفرة من ربك وجنّة عرضها السمولات والأرض أعدت للمتقين» أي سارعوا وبدروا إلى الفوز بِمغفرة الله وجنّة النعيم الفضيلة الواسعة، كما قال عز وجل: «سابقوا إلى مغفرة من ربك وجنّة عرضها كعرض السواء والأرض أعدت للذين آمنوا بِه ورسِلُه» والعرِّف يطلق على معنى السّعة وعلى ما يقابل الطّلّو، وهو أقصر الامتدادين، ومن استعمال العرض بمعنى السّعة قوله عز وجل: «إِن أصابه الشّرِّ فذُو دعاء عريض» على أنه لو كان المقصود من قوله عز وجل: «عرضها السمولات»
والأرض) هو ما يقابل الطول فإن المراد السعة أيضا لأنه إذا كان عرضها كالسموات والأرض في بالك بطولها؟ ومنعى: "عرضها السملوات والأرض" أي لو جعلت السموات والأرض طبقا طبقا بحيث يكون كل واحدة من تلك الطبقات سطحا مسقفا من أجزاء لا تتنجز ثم وصل البعض بالبعض حتى صار كل طبقا واحدا لكان ذلك مثل عرض الجنة، وهذا غاية في السعة لا يعرفها إلا الله، وفيه إشارة إلى سعة ملك الله وأنه ليس مقتصرًا على السموات والأرض، وإذا علم أن الجنة فوق السموات السبع وأن سقفها عرش الرحمن، وأن كرسي الله عز وجل وسع السموات الأرض لم يكن هناك محل للتساؤل بأنه إذا كانت الجنة عرضها السموات والأرض فأين النار؟ لأن هذا التساؤل إنها يكون من يظن أن ملك الله هو السموات والأرض فقط، وقد روى البخاري في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "من آمن بالله وبرسوله، وأقام الصلاة، وصوم رمضان كان حقا على الله أن يدخله الجنة، جاهد في سبيل الله أو جلس في أرضه التي وُلد فيها"، فقالوا: يا رسول الله أفلا نبشِ الناس؟ قال: "إن في الجنة مائة درجة أعلدها الله للمجاهدين في سبيل الله ما بين الدراجتين كما بين السباء والأرض، فإذا سألتم الله فاسألوه الفردوس فإنه أوسط الجنة، وأعلى الجنة" آراءه: "فوقه عرش الرحمن، ومنه تفجر أنهار الجنة" قال محمد بن قيثح عن أبيه: "فوقه عرش الرحمن، كما روى مسلم في صحيحه من حديث المغيرة ابن شعبة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ. قال: "سأل موسى رضي الله عنه: ما أدنى أهل الجنة منزلة؟ قال: هو رجل يجيء بعد ما أدخل أهل الجنة. فيقال له: ادخل الجنة، فيقول: أية ربة كيف وقد نزل الناس منازلهم وأخذوا أخذاتهم؟ فيقال له: أتريض أن يكون لك مثل ملك من ملوك الدنيا، فيقول: رضيت ربي، فيقول: لك ذلك ومثله ومثله ومثله ومثله
الإسلام وإعلاء كلمة الله، وقوله عز وجل: «والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس» أعلم أن الغيظ هو ما يعتري النفس من شدة الغضب وسوءه، فإن كان سببه الحقد والحسد فهو كالنار التي تتأجل في الصدر لا يطفئها إلا زوال النعمة عن المحسود، وهذا هو الذي وصف الله به أعداء المسلمين في قوله عز وجل: «إذا لقومكم قالوا آمنا وإذا تحلوا عصاوا عليكم الأنايل من الغيظ، قل موتوا بغياككم، إن الله عليم بعدات الصدور» وقد يكون سبب الغيظ أدى بلحمه من شخص دون أذي حقه منه فتغضب لذكذلك، وهذا هو الذي حض الله عز وجل على كظمه هنا، وهو من أبرز صفات المتقين، وكظم الغيظ هو حبس النفس عن متابعة هواه في الغضب، وأصل الكظم خرج النفس ويطلق على الإمساك والحبس ومنه: كظم البعير كظموا إذا أمسك على ما في جوفه ولم ينجز، والكاظم: المكروب والمحتال غيظًا وأسقًا، وكظم الغيظ يجمع بين صفي الصبر والحلم، وقوله عز وجل: «والعافين عن الناس» أي والتاركون عقوبة من أساء إليهم وهم قادرون على مجازاتهم واستيفاء حقوقهم، وقد أثني الله تبارك وتعالى على الكاظمين الغيظ والعافين عن الناس في مواضع من كتاب الكريم وجعل الإحسان إلى من أساء إلى الإنسان من أعظم ما يزدلف به العبد إلى الله عز وجل حيث يقول: «ولا تستدر الحسنة ولا السيئة، ادفع بالتي هي أحسن، فإذا الذي بينك وبينه عداوةً كأنه ولبٌ حليمٌ ولا يلُقَّها إلا الذين صبروا وما يلبقها إلا ذو حظٍ عظيم» وقال عز وجل في سورة الشورى في وصف المؤمنين: «وإذا ما غضبوا هم يغفرون» وقال عز وجل في نفس المقام: وجزاء سبعة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله» وقال عز وجل في نفس المقام أيضا: «ولن صبر وغفر إن ذلك من عزم الأمور» وقال تعالى: «خذ العفو وأمر بالغفر وأعرض عن الجاهلين» وقال تعالى: «فاصفح الصفح الجميل».
قال عز وجل: «وليعفوا وليصفحوا ألا تعببن أن يغفر الله لكم». ولقد كان رسول الله ﷺ، مثل الأعلى في هذا الباب، فقد روى البخاري ومسلم من حديث عائشة رضي الله عنها أنها قالت للنبي ﷺ: "هل أني عليك يوماً كان أشد من يوم أحد؟" قال: "لقد قلت من قومك، وكان أشد ما ليهم يومك العقبة، إذ عرضت نفسى على ابن عبد يلاب بن عبد كلال، فلم يجريني إلى ما أردي فانطلقت وأنا مهموم على وجهي، فلم أستفق إلا وأنا بقرن الثعالب، فرفعت رأسي وإذا أنا بسحابة قد أطلنتني، فنظرت فإذا فيها جبريل ﷺ، فناداني فقال: إن الله تعالى قد سمع قول قومك لك، وما ردوا عليك، وقد بعت إليك ملك الجبال لتنثمرها بها شئت فيهم، فناداني ملك الجبال فسلم عليه ثم قال: يا محمد إن الله قد سمع قول قومك لك، وأنا ملك الجبال وقد بعشي ربي إليك لتأمرني بأمرك، فإن شئت؟ إن شئت أطبقت عليهم الأشياء، فقال النبي ﷺ: "بل أرجو أن يخرج الله من أصليهم من بعد الله وحده لا يشرك به شياً". وروى ابن ماجه بسنده رجاله محتج بهم في الصحيح من حديث ابن عمر رضي الله عنها قال: قال رسول الله ﷺ: "ما من جزء أعظم عند الله من جزء غيظ كظمها عبده اتبعوه وجه الله". كما روى أبو داود والترمذي وحساه وابن ماجه من حديث معاذ ابن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: "من كظم غيظا وهو قادر على أن يُتقدِّد دعاه الله سبحانه على رؤوس الخالقين حتى يغفر من الحور العين ما شاء". وقوله عز وجل: "والمهمنين تذيبَ مقرَّرَ لضمن ما قبله، وتقرير أن الإنفاق في السراء والضراء، وكظم الغيظ والعفو عن المسئ، من الناس من الإحسان الذي يجهي الله عز وجل وبصيف أهله أحسن الثواب. وقوله عز وجل: "والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكرى الله فاستغفروا لذنوبهم ومن يغفر الذنوب إلا الله ولم يصروا على ما فعلوا وهم
يعلمون؟ أي والذين إذا ارتكبوا جريمة من كبرى السرايا وأثبواها كالزناء
ونحوه أو ضيعوا على أنفسهم بعض أسباب سعادتها بترك بعض القربات أو
فعل بعض السرايا التي لم تبلغ حد الفاحشة من المعاصي تذكروا عظمة الله
ومقامهم بين يديه يوم القيامة فطلبوا من الله عز وجل مغفرة ذنوبهم وتابوا
إليه، ولا يغفر الذنوب أحد إلا الله عز وجل، ولم يقيموا على معصيتهم بل
أقلعوا عنها وندموا على فعلها وعزموا ألا يعودوا إليها، وهم يعلمون أن من
توب تاب الله عليه وأنه لا توبة مع إصرا ولا ذنب مع استغفارا، وهذا كقوله
عز وجل: <<ومن يعمل سوءاً أو يظل نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفوراً
رحياً>>، وهذا من فضل الله على المؤمنين أن قرن النائب من الذنوب منا كان
بالمنفقين في السراء والضراء والكاظمين الغيظ والعفان عن الناس المحسنين
ذنوابهم الله عز وجل. وقد روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة
رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "إن عبداً أذنذب ذنبا فقال: رب
أذنذب فاغفره، فقال ربه: "أعلم عبدا أن له ربا يغفر الذنوب ويأخذ به
غفرت لعبد، ثم مكت ما شاء الله ثم أذنذب ذنبا فقال: رب أذنذب ذنبا
فاغفره، فقال ربه: "أعلم عبدا أن له ربا يغفر الذنوب ويأخذ به، غفرت
لعبد، ثم مكت ما شاء الله ثم أذنذب ذنبا، قال: رب أذنذب ذنبا آخر
فاغفر لي، فقال: أعلم عبدا أن له ربا يغفر الذنوب ويأخذ به غفرت
لعبد فليفعل ما شاءه»، وكما قال عز وجل: "إذنها التوبة على الله للذين
يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب فأولئك يتوب الله عليهم، وكان
الله عليها حكراً» وقوله عز وجل: "أولئك جزؤهم مغفرة من ربي ونحن
تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها، ونعمل أجر العاملين"، وعد من الله عز
وجل لؤلاء السعداء، جعلنا الله بفضله منهم.
قال تعالى: «قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين* هذا بيان للناس وهدى وموظفة للمؤمنين* ولا تهنوا ولا تخزئوا وأنتم الأعيان إن كنتم مؤمنين* إن يمسكتم قره فقد مس القوم قره مثله، واتركوا الأمهات نداولاها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء، والله لا يحب العلّامين* وليمتى الله للذين آمنوا ويمحق الكافرين.»

بعد أن أشار الله عز وجل إلى أن ما أصاب المسلمين يوم أحد كان بسبب ترك بعضهم البعض يوم بدأ لهم صيروا واتقوا والتزموا بوصايا رسول الله ﷺ ثم أرشهد الله عز وجل المسلمين إلى أسباب جلب الانتصار على الأعداء بالمحافظة على الطاعة والابتعاد عن المعصية واجتناب الرما والمسارعة إلى جناء عرضها السمون والأشد على الإنسان والضياء وكظم الغيظ والعفو عن المسيئين ومسارعة من يقع في معصية إلى الاستغفار والإناقة والتوه التصوير، شرع في هنا في إكال بقية قصة غزوة أحد وذكر أهم أحداثها وما فيها من العب والنظائر والآيات الشهادات بأن محمد ﷺ رسول الله حقا وصدقا، قال البخاري في صحيحه: باب غزوة أحد، وقول الله تعالى: «وإذ غدتم من أهل بيوت المؤمنين مقاتلين للقتال والله سميع عليم» وقوله جل ذكره: «ولا تهنوا ولا تخزئوا وأنتم الأعيان إن كنتم مؤمنين* إن يمسكتم قره فقد مس القوم قره مثله، واتركوا الأمهات نداولاها بين الناس وليعلم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء، والله لا يحب العلّامين* وليمتى الله للذين آمنوا ويمحق الكافرين. أم حسب أن تدخلوا الجنة بل يعلم الله الذين آمنوا ويجعل منكم الصابرين* ولقد
كنت تمتنون الموت من قبل أن تلقوه فقد رأيتتموه وأنتم تنظرون، وقوله: "ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنها حتى إذا فشلتكم وتنازعتم في الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون، منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة، ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ولهد عفا عنكم، والله دى فضل علي المؤمنين"، وقوله: "ولا تحسون الذين قتلى في سبيل الله أمواتا" الآية. حديثنا إبراهيم بن موسى أخبرنا عبده الله رضي الله عنهما خالد عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال النبي ﷺ يوم أحد: "هذا جبريل آخذ برأس فرسه، عليه أداة الحرب"، وقوله: "قد خلت من قبلكم سنين فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين". هذه تعزية ومواسة من الله عز وجل لنبيه ﷺ ولأصحابه رضي الله عنهم، أي قد مضت مني وقائع نفخة في المكذبين لرسلي المشركين في كعب وتمود وقوم لوط وأصحاب مدين، قد ألميت لهم ثم أخذتهم فكيف كانت عقوبتهم لهم، فلا تظروا أن نقمتي انقطعت عن عدوه وعبدوكم لله الدولة التي أغلبهم بها عليكم لأبليكم بذلك، فامشوا في ديار الأمم الذين كانوا قبلكم من كان على مثل ما عليه كفار قريش، فانظروا كيف أحلي الله عقوبته بالمكذبين وجعل العاقبة الحسن في الدنيا والآخرة للمؤمنين، وقد مر في تفسير قوله تعالى: "قل يا أهل الكتاب تعلوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم الآية"، قول هرقل لأبي سفيان في الحديث الذي رواه البخاري ومسلم من حديث ابن عباس رضي الله عنها: فهل قاتلتموه أو قاتلكم؟ قلت: نعم. قال: فكيف كانت حربه وحربكم؟ قلت: كانت دولاً وبيجالاً، يبدلاً علينا المرة ونبدلاً عليها الأخرى. وقد ذكر ابن عباس رضي الله عنها أن هرقيل قال لأبي سفيان: وسألتك: هل قاتلتموه وقاتلكم فزعمت أن فعل وأن حربكم وحربه تكون دولاً وبدال عليكم المرة وتدالون عليهما الآخرين وكذلك الرسّل تُبلى ويتكون لها العاقبة. وقوله عز
وجل: (هذا بيان للناس وهدى ووعظة للمتّقين) أي هذا الذي أوضحته لكم وعرضتموه تفسير للناس وإيضاح للأمم لتعريفهم بالابتلاع بالنصر والهزيمة ومرة ذلك، وهذا التفسير نور وأدب لم من أطاع الله وأطاع رسوله محمد ﷺ، وقوله عز وجل: (ولا تنهوا ولا تحزنوا) أي لا تضعفوا ولا تتأسوا على ما أصابكم بأحد من القرح، وقوله تعالى: (وأنتم الأعلون) أي وأنتم الظاهرون عليهم المرفوعون فوقهم في الدنيا والآخرة، فالعاقبة الحسنة لكم، وقيل عز وجل: (فلا تنهوا وتدعوا إلى السلم وأنتم الأعلون والله معكم ولن تزوركم أفعالكم) وقال البخاري في كتاب الجنائز من صحيحه: وكان ابن عباس رضي الله عنها مع أمه من المستضعفين ولم يكن مع أبيه على دين قومه. وقال: الإسلام يعفو ولا يعفي. وقوله تعالى: (إن كنت مؤمنين) أي إن كنت صدقتم رسولي ﷺ فيها جاءكم به من عندي فلا تنهوا ولا تحزنوا. والمقصود تبييض المسلمين وحضهم على سرعة الامتثال لأمر الله وأمر رسوله ﷺ والصير على ما أصابهم من القرح، وقوله عز وجل: (إن يمسككم قرح فقد مس القوم قرح مثله) أي إن يكن قد أصابكم في أحد قتل وجراح فقد أصاب عدوكم في بدر وفي أحد قتل وجراح مثل ما أصابكم، حيث كان شهداء بعد أربعة عشر شهيدا، وكان شهداء أحد سبعين شهيدا، وكان قتلى المشركين يوم بدر سبعين قتيلًا وكان قتلاهم في أحد نيفاً وعشرين قتيلاً، وكان من بين قتلاهم يوم أحد صاحب لوانهم، كأصبها بجراحات كثيرة في أحد، وعقر عمامه خيلههم بالبلبل، وقد أسرى من المشركين سبعون يوم بدر ولذلك قال عز وجل: (أوه أصابتم مصيبة قد أصبحت يمثلها قلبتم أثّى هذا قل هو من عند أنفسكم) ، وقوله عز وجل: (ولا ينفخوا بين الناس) أي نصرفها بين الناس للبلاء والتمحيص، وقوله عز وجل: (وعلِّم الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب الظالمين).
قحافة؟ - ثلاث مرات - ثم قال: أفي القوم ابن الخطاب؟ - ثلاث مرات - ثم رجع إلى أصحابه فقال: أما هؤلاء فقد قتلوا، فإئله عمر نفسه، فقال:

كذبت والله يا عدو الله، إن الذين عدت لأحياء كلهم، وقد بقي لك ما يسوسؤك، قال: يوم بيوس بدر، والحرب سجالًا، إنكم ستجدون في القوم مُثله، لم آمر بها ولم تسنئ. ثم أخذ يرتجز: إعلُ هَبْل، إعلُ هَبْل، فقال النبي ﷺ: "ألا تخبرون؟" - وذكره إلى قوله: "ولا مولى لكم". وقد أخرج البخاري ومسلم من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال: لما كان يوم أحد، انهمت الناس على النبي ﷺ، وأبو طلحة بين يدي النبي ﷺ يحَجَّب عليه بالحَجَّة، وكان أبو طلحة رجلا رامياً، شديد النزاع، لقد كسر يومئذ قوسين أو ثلاثة، وكان الرجل يمرر معي الجُعْة من النَّبِل، يقول: انثروا لأبي طلحة، قال:

ويصَنف النبي ﷺ ينظر إلى القوم، فيقول أبو طلحة: يا أبي طلحة: يا نبي الله بأبي وأمي لا تُصَنف، لا يصيبك سهم من سهام القوم، تحري دون نحوك، ولقد رأيت عائشة وأم سليم وإليا بمشمرتان، أرى خدماً سُوقها ينقلان القرَّاب على متونها، ثم تفرغانه في أفواه القوم، ثم ترجعان فتملأنها، ثم تجيئان فتفرغانه في أفواه القوم، ولقد وقع السيف من يد أبي طلحة، إما مرتين وإما ثلاثاً من النعاس.
قال تعالى: «أم حسبتم أن تدخلوا الجنة وما يعلم الله الذين جاهدوا منكم وعلم الصابرين!» لقد كنتم متموناً الموت من قبل أن تلقؤوقد رأينوه وأنتم تنظرون وما محلل إلا رسول قاد خلت من قبله الرسل، أفلان مات أو قتل انقلبتم على أعقاكم، ومن ينقلب على عقبه فلن يضر الله شيئاً، وسيجزي الله الشاكرين!»

بعد أن بين الله عز وجل بعض أسباب مداخلة الحرب بين المسلمين والكافرين من تقييز المؤمنين من المناقنين، وإكرام بعض المؤمنين بالشهادة في سبيل الله، وحب الله للمؤمنين وبغضه للظلماء، وتمحيص الذين آمنوا بمغفرة ذنوبهم ورفع درجاتهم، وحق الكافرين، شرع هنا بين السبب الأصلي والغاية القصوى من مداخلة الحروب بين المؤمنين والكافرين، وأن طلاب الجنة لا يبتكرون أن يبذلوا في سبيل الوصول إليها كل غال ونفس من أنفسهم وأموالهم، لأنهم طلاب السلعة الغالية وكما قال أبو فراس:

"تهون علينا في المعالي نفوسنا... ومن يطلب الحسناء لم يُغلى المهر والجنة أفضل سلعة على الإطلاق، وقد كان أصحاب رسول الله ﷺ أحترس الناس على الحصول عليها وبذل النفس وكل شيء من الغالي والنفيس في سبيل ذلك، فقد روى مسلم في صحيحه من حديث أسن بن مالك رضي الله عنه أن النبي ﷺ أفراد يوم أحد في سبعة من الأنصار ورجلين من قريش، فلما رجعوا قال: «من يردهما عنا وله الجنة؟» أو «هو رفيقي في الجنة» فتقدم رجل من الأنصار فقال: «من يردهما عننا وله الجنة؟» أو «هو رفيقي في الجنة» فتقدم رجل من الأنصار فقال: «من يردهما عننا وله الجنة؟»».

لصاحبهن: «ما أنصحنا أصحابنا» كما روى البخاري ومسلم في
صحابيه واللفظ للبخاري من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال:
غاب عمي أنس بن النضر عن قتال بدر فقال: يا رسول الله، لئن أشهد الله كتابه الله كتابه ملكه الله. في رواية: لئن أشهدني الله مع النبي ﷺ. ليرين الله ما أجد، فإن كان يوم أحد، وإن كنت المسلمون، فقال:
اللهن إني أعذر إليك مما صنع هؤلاء، يعني أصحابه، وأقرأ إليك مما صنع هؤلاء، يعني المشركين، ثم تقدم، فاستقبله سعد بن معاذ، فقال: يا سعد ابن معاذ، هذه الجنة ورب النضر، إني أجد ريحها من دون أحد، فقال:
سعد: فها استطعت على ما صنع، قال أنس: فوجدناها ببضعة وثمانين ضربة بالسيف، أو طعنًا ببرمح، أو رمية بسيهم، ووجدناها قد قتل، وقد مثل به المشركين، فإنا ظننا أخته، وهي الزبيدة بنت النضر، برغبة أو ببنائها، قال أنس: كنت نرى أو نظنا أن هذه الآية نزلت فيه وفهي أشباهها:
من المؤمنين رجال صدقو ما عاهدوا الله عليه، فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدّلوا تبديلاً. أما لفظ مسلم عن أنس رضي الله عنه قال: عمه الذي سميت به لم يشهد مع رسول الله ﷺ، بدرًا، فشُق عليه، وقال: أول صهود شهده رسول الله ﷺ. غبت عنه، فإن أراني الله مشهده فيها بعد مع رسول الله ﷺ. ليرين الله ما أصنع. قال: فهاش أن يقول غيرها، قال: فشهد مع رسول الله ﷺ. يوم أحد، قال: فاستقبل سعد بن معاذ، فقال له أنس: يا أبا عمرو، أين تمر؟ قال: واهًا لريح الجنة، أجزه دون أحد، قال: فقال لمحتا حتى قتل، قال: فجاء في جسده بضعًا وثمانين من بين ضربة ورمية وطعنًا. ثم ذكر نحو ما تقدم، وقد روى البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنها قال: قال رجل لرسول الله ﷺ. يوم أحد: أرأيت إذ قتلت، أين أنا؟ قال: في الجنة، فأطلق ثم مرت في يده، ثم قاتل حتى قتل. كما روى مسلم من حديث أنس بن
وصواحيها مُشَمَّرات هوارب، ما دون أخذهن قليل ولا كثير، إذ مالت الرماة إلى العسكر حين كشفنا القوم عنه، وخلوّوا ظهورنا للخيل، فأتينا من خلفنا، وصرخ صارخ: ألا إن محمدًا قد قتل، فانكتفنا وانكتفا علينا القوم بعد أن أصبنا أصحاب اللواء، حتى ما يدنه منه أحد من القوم. وقد روى البخاري في صحيحه من طريق جعفر بن عمرو بن أمية الضمري عن وحشٍ: قال:

إن حزنة قتل طعيمة بن عدي بن الخياَر بدر، فقال لي مولاي جَبِير بن مطعم: إن قتلت حزنة بعْمَي فأتت حرَّ، قال: فلما أن خرج الناس عام عَيْنِي، وعَيْنِي جبل بحيل أحد، بينه وبينه وادي، خرِجت مع الناس إلى القتال، فلما اصطعفت القتال، خرج سباع فقال: هل من مبارزٍ؟ قال: فخرج إليه حزنة بن عبد المطلب، فقال: يا سباع يا ابن أم أنار مقطعة البُنْظَور، أُحَلَّت الله ورسوله؟ قال: ثم شد عليه، فكان كأمس الذاهب، قال:

وكمسنت حزنة تحت صخرة، فلما دنا مني رميته بحريني فأضعها في ثنيه حتى خرِجت من بين وُرَكِيه، قال: فكان ذاك العهد به. الحديث، ومع أن الجولة كانت للمشركين، فقد دفع الله تبارك وتعالى بالرعب في قلوبهم، فانصرفوا عن أرض المعركة، وامتطوا إببهم راجعين إلى مكة، ففرّ المسلمون لشهدائهم وجرحائهم رضي الله عنهم. (وأَم) في قوله عز وجل: «أم حسبتم أن تدخلوا الجنة وما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين» بمعنى (بل) التي للإضراب الانتقائي وهمزة الاستفهام الإكباري حيث امتنع من مواساتهم على ما أصبوا به من القرح وما بينهم لهم من جَهَّيه إلى بيان الغايةǐ القصوى من مداولة الحرب بين المشركين والمسلمين، وإنكار أن يتمي الإنسان السلعة الغالية دون بذل ثمن لها، أي أظنت أن تدخلوا الجنة ولم يُبْتَلَّوا بالقتال والشدادات ويظهر المجاهدون والصابرون إلى حزف الوجود والظهور والشهود، وهذا كقوله عز وجل: «أم حسبتم أن تدخلوا الجنة وما يأتكم مثل الذين

78
خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين 
آمنوا معه متي نصر الله، ألا إن نصر الله قريب» وكا قال عز وجل: 
†اللهم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون» ولقد أظهر الله عز وجل المجاهدين والصابرين من أصحاب رسول الله ﷺ حتى صاروا مضرب المثل في الشجاعة والصبر، وعطف الصابرين على المجاهدين ليشمل النساء الصابرات حيث لا جهاد عليهن، ولقد صارت بعض الصحابيات في ذلك مثلًا يتذكّى، فقد قال ابن إسحاق: حدثني عبد الواحد بن أبي عون عن إسحاق بن محمد عن سعد بن أبي وقاص قال: مر رسول الله ﷺ بمارأة من بني دينار وقد أصيب زوجها وأخوها وابنها مع رسول الله ﷺ بأحد فلما نعى لها وقالت: فما فعل رسول الله ﷺ؟ قالوا: خيرا يا أتم فلان، هو بحمد الله كا تعبّين، قالت: كلّ مصيبه بعدك جليل، اه أي كلّ مصيبه إن سلم لنا رسول الله ﷺ سهيلة يسرة، فألجل من الأضداد يطلق على السهل اليسير وعلى العظيم الكبير الكثير. وقوله عز وجل: »ولقد كنتم تمنون الموت من قبلك أن تلقوه فقد رأيتهم وأنتم تنظرون» هذه الآية إشارة إلى ما كان من حرص بعض أصحاب رسول الله ﷺ على الاستشهاد في سبيل الله ممن لم يكونوا قد حضروا معركة بدر وتمنوا لقاء آخر مع المشركين رجاء النصر على أعداء الله أو الموت في سبيل الله فلما صارت معركة أحد نبت بعضهم وانهزم بعضهم فكانت هذه الآية الكريمة ثناء على الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه، وعتابا للذين إنهزموا، ومثنيهم الموت هو رغبهم أن يموتنا شهدا في سبيل الله، وليس ذلك من باب تمنى الموت الذي نهى عنه رسول الله ﷺ، فقد روى البخاري ومسلم من حديث أبي السفيان رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لا يعنون أحدكم الموت من ضرر أصابه» الحديث. ومثنيه: »فقد رأيتهم وأنتم تنظرون» أي فقد شاهدتم الموت عيانًا عندما قتل الشابثون من
صاحب رسول الله ﷺ بما أرى منكم ومنظر، وقوله عز وجل: وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل، أفراد مات أو قتل انقلبتهم على أعقابكم، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً، وسيجزي الله الشاكرين. قد سبق لتربيت نفس المسلمين وتوليت قلوبهم على أن محمدًا ﷺ لن يخلد في الدنيا وأن البقاء له وحده، الذي يرسل الرسول وينزل الكتب، فلا يلبق بعاقل أن يرتد عن دين محمد إذا مات محمد، لأن وظيفة محمد ﷺ هي تبليغ رسالة الحي القيوم الذي لا يموت. وأن من ارتد عن دينه إذا مات محمد ﷺ أو قتل، فإنه لا يضر إلا نفسه ومن استمسك بالإسلام في حياة محمد ﷺ أو بعد موته على حد سواء فهو شاكر الله وسيجزي الله الشاكرين أحسن الجزاء.

وسبقت هذه الآية هنا في قصة غزوة أحد لما أشيع من أن رسول الله ﷺ قد قتل، وليس قوله عز وجل: «إِنَّمَا مَاتُ وَإِنَّمَا قُتِلَ» شكا في علم الله بمصير محمد ﷺ إلى الموت أو القتل، إذ المقصود المراد على من أشاع في المعركة أن محمدًا ﷺ قتل، والواقع أن الله جمع لرسوله ﷺ بين الموت على فراسه والشهادة، حيث كان من أسباب موته ﷺ أكله من الشاة المسمومة يوم خيبر، وقد روى البخاري من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: كان النبي ﷺ يقول في مرسه الذي مات فيه: «ما أزال أحد ألم الطعام الذي أكلت بخمر، فهذا أووان وجده انقطاع أبيرة من ذلك السم». هذا وعندما مات رسول الله ﷺ غلب الخزون على الناس حتى كاد بعضهم يجه، وقد روى البخاري عن ابن عباس أن أبا بكر قال: أما بعد من كان منكم يعد محمدًا فإن محمدًا قد مات ومن كان منكم يعبد الله فإن الله حي لا يموت قال الله ﷺ: «وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قِبَلِهِ الرُّسُلُ» إلى قوله: «الشاكرين» قال: والله لكان الناس لم يعلموا أن الله أنزل هذه الآية حتى تلاها أبو بكر. الحديث.
قال تعالى: "وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتابا مؤجلا، ومن يد ثواب الدنيا نؤته منها ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها، وسنجزي الشاكرين وكأنين من نبي قاتل معه ريبون كثير فا وهننا ما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا، والله جبب الصابرين وما كان قولهم إلا أن قالوا ربك انغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين فأتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة، والله جبب المحسنين".

بعد أن بُينت بارك وتعالى أن محمد ﷺ ما هو إلا رسول من رسول الله الكريم عليهم السلام، الذين بعثهم الله عز وجل ليبذلوا رسالات الله، وليس عليهم إلا البلاغ، وقد مضت سنة الله في المرسلين أنهم يَتَلُّون وتكون لهم العاقبة الحسننة، وأنهم لا خلدود لهم على الأرض، وأنه يجب على المؤمنين أن يستمتعوا بديثهم بعد موت النبي عليه السلام كاستماساهم به في حياة النبي ﷺ لأن الله عز وجل هو المعبدو وحده لا شريك له وهو الحي الذي لا يموت، بل عز وجل هنا أنه كتب لكل نفس أجلا مسمى لا يتقدم ولا يتأخر حيث يقول عز وجل: "وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتابا مؤجلا" أي وما كان لروح أن تفارق جسد صاحبها إلا بقضاء الله وقدره الذي جعل لكل نفس أجلا مسمى، وأن لكل أجل كتابا، وكل نفس ذائعة الموت سواء كان بقتل أو غير قتل إذا جاء أجلها المكتوب لها من غير تقديم أو تأخير كما قال: عز وجل: "كل نفس ذائعة الموت، وإنها توفي أن أجوركم يوم القيامة وقال عز وجل: "كل نفس ذائعة الموت ونبلوكم بالشر والربر فتنة وإليتنا ترجعون" وكم قال عز وجل: "كل أجل كتاب" وكم قال عز وجل: "إن أجل الله لا يضمن ولا يстанав من عُمْره إلا في كتاب" وكم قال عز وجل: "وأما يعمَّر من يعمر ولا يُنصَفُ من عُمْره إلا في كتاب".
هو الذي خلقكم من طين ثم قضى أجلاً وأجل مسمى عنده ثم أتمت تمتهون وقيل عز وجل: (ولتبلغوا أجلاً مسمى) وقيل عز وجل: (فإذا جاء أجلهم لا يستأنرون ساعة ولا يستقدمون) وفي ذلك حض على الجهاد في سبيل الله وأن الإقدام والشجاعة لا يعجل الموت، وأن الجن والضرار لا يعجل الموت، ومعني: (كتاب موجلاً) أي كتب الله عز وجل كتاباً أقتضته فيه الآجال فلا تموت نفس إلا إذا جاء أجلها المؤجل لها عند الله عز وجل ولا تتأخر عن أجلها بحال من الأحوال كما قال عز وجل: (ولن يؤخر الله نفسا إذا جاء أجلها) وقد روى البخاري ومسلم واللفظ للبخاري من حديث ابن مسعود رضي الله عنه قال: حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدق قال: (إن خلق أحدهكم يجمع في بطن أمه أربعين يوماً، ثم علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يبعث إليه ملك، فيؤمر بأربع: برزقه وأجله وشقى أو سعيد، فوالله إن أحدهكم أو الرجل يعمل بعمل أهل النار حتى ما يكون بينه وبينها غير باع أو ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة فيدخلها، وإن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها غير باع أو ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها.) كما روى البخاري ومسلم من حديث أنس بن مالك رضي الله عن النبي ﷺ قال: (وكل الله بالرجم ملكنا، فقول أرب نطفة، أرب علقة، أرب مضغة) فإذا أراد الله أن يقضي خلقها قال: أرب أذكر أم أني، أشكر أم سعيد، فما الرزق، فإما الأجل، فلكتب كذلك في بطن أمه. هذا ونصب (كتاباً) في قوله عز وجل: (كتابا مؤجلاً) على المصدر من معنى الكلام الذي قبله فهو مفعول مطلق مؤكد لمضمون الجملة التي قبله فعامله مضمور تقديره: كتب الله ذلك كتاباً، نحو (صلى الله عليه وسلم) و(غفر الله) و(كتب الله عليك) وهكذا سائر ما ورد في
القرآن الكريم من نحو ذلك، وقوله عز وجل: «ومن يرد ثواب الدنيا نؤته
منها ومن يرد ثواب الآخرة نؤته منها»، وسنجزي الشاكرين» أي من كان
عمله للدنيا فقط أعطيتاه منها ما فقدرتنا له فيها ولم يكن له في الآخرة من
نصيب، ومن قصد بعمله الدار الآخرة أعطيتاه ما يأمله ووفقاً ما يأمله لأنه
من الشاكرين الذين تآدّن الله عز وجل بأن يزيدهم من فضله، ولذلك قال
هنا: «وسنجزي الشاكرين» وكما قال عز وجل: «من كان يريد حرف
الآخرة تركه في حرته ومن كان يريد حرف الدنيا نؤته منها وما له في الآخرة
من نصيب» وكما قال عز وجل: «من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما
نشاء من نريد ثم جعلنا له جههم يصلاها مذموماً مدحوراً»، ومن أراد الآخرة
وعسى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً. وقوله عز
وجل: «وكأيّن من نبي قاتل معه ربيّون كثيراً فيا وكحنوا لما أصابهم في سبيل
الله وما ضغفوا وما استكانوا، والله يحب الصابرين» هذا تأديب يؤذّب الله
عز وجل به المؤمنين، ويربي به النفوس المسلمة على استقبال ما قد يصيبهم
من القرح في ميدان الحرب عندما تكون الجولة لأعدائهم عليهم كما حدث في
معركة أحد، والواقع أن المسلمين وعوا هذا الدروس ثامناً، وانصقت به
نفوسهم، وخلال مشاعرهم، وصار ملكة لهم حتى ضرب بهم مثل في هذا
السبيل، وفي ذلك يقول كعب بن زهير في قصيدته المشهورة «بانت سعاد» في
وصف أصحاب رسول الله ﷺ:
ليسوا مفارقين إن نالت رحاتهممو
قوماً وليسوا مجازيّإذا ينلوا
وكذلك وصفهم حسان بن ثابت رضي الله عنه في قصيدته التي يردّ بها على
الزبير قان بن بدر عندما قدم في وفد بني تميم وألقى قصيدته المشهورة التي
مطلعها:
نحن الكرام فلا حي يعادلنا منا الملوك وفينا تنصبُ البيت

83
فأجابه حسنان رضي الله عنه بقصيدة تقول فيها في وصف أصحاب رسول الله ﷺ:

لا يفخرون إذا نالوا عدوهمـو
وإن أصيبوا فلا خور ولا ملعـ
كأنهم في الوقى والموت مكتبـع
أسد بخيلية في أرساغها فـدع
ومعنى قوله عز وجل: «وأببوا من نبي قاتل معه ربيون كثير» أي وكثير من الأنبياء قاتلوا في سبيل الله وقاتل معهم جميع كثيرة من أتباعهم لتثبيت دين الله ونصرة رسالته، فقوله: «كأين» هي بمعنى «كم» الخبرية التكريرية كما قال عز وجل: «كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة» ف(كم) فيها هي الخبرية التكريرية، والربينهم الجمع وقد وصف الله عز وجل الربين المقاتلين مع الرسول بأنهم كثير وهو يدل على أن المراد بالربين العدد أو الجمع المصوف بأنه كثير، وقوله عز وجل: «فما وحنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفا وما استكانوا» يفيد أن هؤلاء الزبائن الكثر المقاتلين مع رسولله لنصر دينهم قد ابتكروا كثيرا، وصارت الجولة لأعدائهم عليهم مرات، ومع ذلك تبتوا مع رسولهم ولم يفرروا، واحتسبوا ما ناهمن من القرح في سبيل الله عند الله عز وجل وصبروا. وقد مدحهم تبارك وتعالى وأثنى عليهم ووصفهم بقوله عز وجل: «فما وحنوا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفا وما استكانوا» وهذه الصفات الثلاث هي البذارة في الثبات على الحق، والرسوم في الإيان، والصبر عند الشدائد، فقد نفي الله تبارك وتعالى عنهم الوهن عند المصيبة، والضعف، والاستكانة، وهذا هو المثل الأعلى للعزة بالإسلام والثبات عليه، ومعنى: «فما وحنوا لما أصابهم في سبيل الله» أي فما جُبنوا، وما استولى الخوف عليهم، وما فتلت عزيمتهم بسبب ما مسهم من القرح، لأنهم يحسبون ذلك عند الله عز وجل، وقوله: «وما ضعفا» أي وما خارت

84
قواهم، وقوله عز وجل: (وما استكانوا أي وما تضععوا وما خشعوا أمام عدوهم)، وقد ذكرت قريبا ما أورده البخاري في صحيحه من حديث البراء بن عازب رضي الله عنها أن أبا سفيان نادي بعد المعركة يوم أحد: أفي القوم محمد؟ - ثلاث مرات - أفي القوم ابن أي قحافة؟ - ثلاث مرات - أفي القوم ابن الخطاب؟ - ثلاث مرات - ثم رجع إلى أصحابه فقال: أما هؤلاء فقد قتلوا، وكيف أجابه عمر إذ قال له: كذبت والله يا عدو اللّه إن الذين عددت لأحياء كلهم، وقد بقي لك ما يسؤك، وهذا لا شك مظهر من مظاهر عزة الإسلام في نفوس المسلمين بعد معركة أحد مع أن الجولة كانت عليهم. وقوله تبارك وتعالى: (وأيما يحب الصابرين) دليل على أن أبرز صفات الصابرين هي تحمل الشدائد في سبيل الله، وحب النفس عن الوهن والضعف والاستكانة وأن من كان بهذه المثابة أحبه الله عز وجل، ومن فاز بمحبة الله فاز بعذ الدنيا والآخرة، وقوله تبارك وتعالى: (وما كان قومهم إلا أن قالوا ربي اغفر لنا ذنوبنا وسأرنا في أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين) بعد أن أثنى الله عز وجل على هؤلاء المجاهدين في سبيل الله بنغي الوهن والضعف والاستكانة عنهم، أتبع ذلك هنا بذكر محاورهم القولية معطيّةً على ما تقدمهما من الجمل المبدعة لمحاسنهم الفعلية، أي وما كان دأبهم وديدنهم إلا قولهم مع ثباتهم وصبرهم وحسن فعلهم: (ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرازنا في أمرنا وثبت أقدامنا وانصرنا على القوم الكافرين). وهذه الدعوات الأربعة تقول أن الإنسان السوي منها بلغ من التجلد والعصر والسبائل فإنه يتحتم عليه أن يحارب العدوه، وأن يهاجمه كما يهاجم عدوه، وأن يعتقد في قرار قلبه أنه لا حول ولاقوة إلا بالله، وأن يحتف على نفسه من خوفة المفاص والتهجر في حق الله، وأن يطلب من ربه مغفرة ذنوبه وإسرافه في أمره، لأن الإنسان كلما كان بالله
أعرف كان من الله أخوف، والمؤمن دائما وأبدا يخفف عن نفسه من سيئته وانها كالجبيل يخفف أنيق عليه، وأن يسأل الله عز وجل أن يثبت أقدامه عند لقاء العدو، لأن من أخطر ما يسبب الهمبنة هو زلزلة الأقدام بسبب زلزلة القلب، ولذلك كان من دعاء أصحاب رسول الله ﷺ الذي كانوا يرتجون به ومعهم رسول الله ﷺ:

اللهُمَّ لولا أنت ما اهتدينا ولا تصدنا ولا صلتنا فتأزلْن سكينة علينا وثبت الأقدام إن لاقينا.

وأن يعتقد المسلم اعتقادا جازما بأن النصر من عند الله فيضرع إلى الله عز وجل أن ينصره على القوم الكافرين. وقوله عز وجل: «فأتاهم الله ثواب الدنيا وحسن شوائب الآخرة، والله يحب المحسنين» أي فاستجاب الله عز وجل لهم ومنحهم ثواب الدنيا من التمكين في الأرض والنصر على الأعداء والثناء الجميل، والحياة الطيبة، كما منحهم حسن شوائب الآخرة حيث يدخلهم جنت النعيم ويصيرون في مقعد صدق عند مليك مقتدر. وإنها خص شوائب الآخرة بالحُسن للتنبيه على جلالته وعظمته لأنه غير زائل ولا يشوبه تنفيض، ولم يصف ثواب الدنيا بالحُسن لأنه نعيم زائل مع ما يشوبه من التنفيض، وفي تذيل الآية الكريمة بقوله: «وَاللَّهُ يَحبَّ المحسنين» بشاره عظيمة للمنكسرين بين يدي الله عز وجل الثابتين على الحق في السراء والضراء بأن الله عز وجل يحبهم وأنهم محسنون، وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان.
قال تعالى: «يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا اللذين كفروا يريدوكم على أعقابكم فنتقلبا خاسرين* بل الله مولأكم وهو خير الناصرين* سنلقي في قلوب الذين كفروا الرعب بما أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاننا، وعندهم النار وبئس مثوى الظالمين* ولقد صدّقتم الله وعده إذ تحسونون بهذئه حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تخبّون منكم من يريد الدّنيا ومنكم من يريد الآخرة ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ولقد عفا عنكم، والله ذو فضل على المؤمنين".

بعد أن حَمَّل الله تبارك وتعالى المؤمنين على الاقتضاء بأنصار الأنبياء الذين قاتلوا معهم في سبيل الله، فإذا كانت الجولة عليهم ثبتوا على الحق، فها وفنا لما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا، وذكر بعض صفاتهم ليتأسّس بهم المؤمنون، حذّرهم هنا من طاعة الكافرين وبخاصة اليهود والمنافقين الذين استغلّوا فرصة ما أصاب المسلمين من القرح وأخذوا يُجّفون بين المسلمين، ويشرون الأكاذيب ويتفوّهون بكلمات من الشر لإنزال قلوب المؤمنين كقوهم في تأييذ موقف عدو الله عبد الله بن أبي رأس المناقين: لو أطاعونا ما قتلوا، وقوهم: لو كانوا عندما ما هُزموا، وما قتلو، وقوهم: لو كان محمد رسولًا من الله ما جُرح وما هُزم جنوده. وقوله تبارك وتعالى: «يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا الذين كفروا يريدوكم على أعقابكم فنتقلبا خاسرين» أي يا معاصر من آمن بالله ورسوله من أصحاب محمد واتباعهم: إن تتقادوا للذين كفروا وتنبأوا ما يلقونه لكم من الشبه، وتصدّقوا بما يفرعونه على الإسلام ما يعوضونه نصحا لكم، يحملوك على الرّدة بعد الإيان والكفر بالله وبآياته ورسوله بعد الإسلام لأنهم ودّوا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء، ويتمنون أن يرجعوا عن دينكم، ولو أطاعتموه خسرتم الدنيا.
والآخرة، وقوله عز وجل: «أَبْلَيْلَلَّهُ مَسْلُولَكُم وَهُوَ خِيرُ النَّاسِ» هو إضراب عما يُفْهَم من مضمنها آياته المبنية عليه، أقول لسببين: إنهم ليسوا أنصارًا لكم ولا أعيانًا ولا أولياء ولا ومن يحب الخير لكم حتى تطيعوه، بل الله هو وليكم ومُعینكم وناصركم على أعدائكم فلا تطلبوا النصرة إلا منه فاستنصره دون غيره وأحزروا كل الحذر أن تستنصرعوا بأعداء الله وأعداء المسلمين وأعدائكم فإنهم يغونكم الغوائل، يريدونكم بالكراهية يترصون بكم الدوائر، فاعتتصموا بحبل الله لأنه تبارك وتعالى خير النصارين إذ هو القادر الذي لا يعجز شيء، العالم الذي لا يخفى عليه شيء، الكريم الذي يحود على أوليائه بإعازهم وتكريمهم من واسع فضله وجزيل عطائه، المالك للدنيا والآخرة. وقوله عز وجل: «سَلَقَيْنَى فِي شَرِّ الْخُلَقِ كَفِيْرًا بِالْزُّرْعِ»: أشاروا بهما ما لم ينزل به سلطانًا هذا وعد من الله عز وجل للمؤمنين وبيان لكون من ألوان نصر الله عز وجل لهم وطريقهم من طريق خذلان عدوهم، وهو إلقاء الزرب من المسلمين في قلوب أعدائهم، وقد فعل الله ذلك في نفس غزوة أحد كما نبهت لذلك أكثر من مرة حيث كانت الجولة للكافرين ومع ذلك انطلقوا على وجههم بعد المعركة متمتين إبلهم متجهين إلى مكة، وقد خض الله نبيه محمد ﷺ من بين الأنيبياء والرسل بخصائص منها نصره بالربع مسيرة شهر، فقد روى البخاري ومسلم واللفظ للبخاري من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: «أَعْطَيتُ خَمَسًا لِيَعْطِهَنَّ أحَدٌ قَبْلَيْنَ». تُصِرَت بالربع مسيرة شهر، وجُملت في الأرض مسجدًا وطهورًا، فأتينا رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل، وأجلت في الغنائم ولم يحل لاحد قبله، وأعطيت الشفاعة، وكان النبي ﷺ يبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى أئمة عاماً، وللفظ مسلم من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنها قال: قال رسول الله ﷺ: «أَعْطَيتُ خَمَسًا لِيَعْطِهَنَّ أحَدٌ قَبْلَيْنَ».
كل نبي يبعث إلى قومه خاصية ويعيذ إلى كل أخر وأسود، وأحلت في الغنائم ولم تعل لأحد قليلا، وجعلت في الأرض طيباء مهوارا ومسجل فأيا رجل أدركه الصلاة صلى حيث كان، ونصب بالرعب بين يدي مسيرة شهر، وأعطيت الشفاعة ومعنى قوله عز وجل: "سلقي في قلوب الذين كفروا الزعاب" أي سأسامل قلوب المشركين خوفاً وفزعًا وهلعًا وجعلوا من المسلمين بما ينزل أقدام المشركين عند ملاقاة المسلمين، وقوله عز وجل: "بيا أشركوا بالله ما لم ينزل به سلطانًا" أي بسبب شرهم لله وعبادتهم للأصنام، وانقيادهم للشيطان دون دليل أو برهان، وقوله عز وجل: "ومأواهم النار وبش مثوى الظلمين" أي وأجمعهم مع خزي الدنيا عذاب الآخرة حيث يصيرون إلى جهنم خالدين فيها أبدا قد جعلها الله عز وجل مأواهم ومثواهم، والفرق بين المأوى والمثوى أن المأوى هو المكان الذي يأتي إليه الإنسان، والمثوى هو مكان الإقامة المنبعثة عن المكت، نعوذ بالله من مأواهم ومثواهم، وقوله عز وجل: "ولقد صدفكم الله وعذده إذ خسرون بهذة" هذا تذكير للمسلمين بأنهم ينصرون على أعدائهم مداموا صابرين متقيين مسارعين إلى طاعة الله وطاعة رسوله محمد ﷺ، ولذلك عندما التقى المسلمون والكافرون في أحد وبدأت المعركة كانت قلوب المسلمين مطمئة وأقدامهم ثابتة في أرض المعركة وكانت قلوب المشركين مملوءة رعبا وفزعًا مع كثرة عدد وعدد المشركين وقلة عدد وعدد المسلمين حتى صار المسلمون يُفصّلون المشركين أي يتأثرونهم فتلا بإذن الله ولا يثبت أمامهم أحد من المشركين وفرزوا من أرض المعركة حتى حتى بعضهم بالطائف كما ذكرت في تفسير قوله عز وجل: "وليمحص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين" ما أورده البخاري في صحيحه من حديث الهر بن عازب، رضي الله عنها قال: "لقينا المشركين يومئذ، وأجلس النبي ﷺ جيشا من الرماة، وأمر عليهم..."
عبد الله، وقال: «لا ترحوا، إن رأيناكما ظهرنا عليهم فلا ترحوا، وإن رأيناكما ظهروا على ناقة التعبنوت» فلها لقينها هرموها، حتى رأيت النساء يشتددن في الجبل، رفع عن سوقهم حتى بدأ خلافهم، فأخذوا يقولون: الغنيمة، الغنيمة، فقال عبد الله: عهد النبي  أن لا ترحوا. الحديث. فالحسن هو الاستئصال بالقتل كأ قال جرير:

الشَّيْفُ كَمَا تَصَامِيُّ حَرِيقُ النَّارِ فِي الأَجَمِّ الحَصِيد

وقال آخر:

حسنناهم بالسِيف حتمًا فأصبحت بقيتهم قد شردهوا وتبددوا واحسنت بالسيف شبه بالخَشْ وتحصى بالمنجل، حيث كان أصحاب رسول الله صلَّى الله عليه وسلم يحصى المشركين حصدا كأ يحصى الإنسان الزروع والنبات بالمنجل، ومعنى قوله تبارك وتعالى: «إذ بإناه» أي يعلم وجهه وحكمه وقضائه وتسليطه إياكم عليهم، بسب إياكم وصبركم وتقواكم واطعكم الله ولا رسوله محمد ﷺ، وقوله عز وجل: «حتى إذا فشلت وتنازعتم في الأمر وعصيتم من بعد ما أراكما ما تحتون» المقصود من فشلهم وتنازعهم في الأمر وعصياعهم هو ما كان من الرماة عندما رأوا المسلمين حصدوا المشركين وانتصروا عليهم وهربوا من أرض المعركة وسقط لؤوهم بعد قتل صاحبه، وانكشفت أرض المعركة من المشركين وظهرت الغنائم، فأخذ بعض الرماة يقولون: الغنيمة، الغنيمة، فذكرهم أمرهم عبد الله بن جبير رضي الله عنه وعنهم وصية رسول الله ﷺ، لكنهم في غمرة فرحة النصر فشلوا أي تراكوا وضعف صبرهم، وناتعوا أمرهم، وعصوا أمر رسول الله ﷺ، حيث أمرهم بأن لا يرحوا مكانهم مهمة حدث للمسلمين من نصر أو هزيمة إلا إذا أمرهم رسول الله ﷺ بالنزل من مقاعدهم التي بوأهم إياها للقتال، فكان ما حدث من الرماة سببا في أصاب المسلمين من القرح بعد ما أراههم ما يحبون.

90
من نصر الله وتأييده لعباده المتقين، وقد جاء في حديث البخاري الذي
سُقت صدره آنفًا عن البراء بن عازب رضي الله عنها قال: فلما لقينا هربوا,
حتى رأيت النساء يشيذدن في الجبل، رفعن عن سوءهم حتى بدت
خلالهم، فأخذوا يقولون: الغنيمة، الغنيمة، فقال عبد الله: عَزِيد النبي
أن لا تبرحوا، فأبثوا، فلا أنكر صرف الله وجههم الحديث. وفي لفظ
للبخاري من حديث البراء بن عازب رضي الله عنها قال: جعل رسول الله
علي الرجالة يوم أحد، وكانوا خمسين رجلاً، وهم الرماة، عبد الله بن
جبير، فقال: "إن أردتمونا مخشكونا الطير فلا تبرحوا، حتى أرسل إليكم".
فهزمهم الله، فلما والله رأيت النساء يشيذدن وقد بدت خلالهم
وأسوؤهم، رافعات ثيابهم، فقال أصحاب عبد الله بن جبير، الغنيمة أي
قوم، الغنيمة، ظهر أصحابكم، فإنا ننظرون، فقال عبد الله بن جبير:
أنسيتم ما قال لكم رسول الله ﷺ؟ قالوا: والله لنأتي الناس فنصيبون من
الغنيمة، فلما أتوهم صُرفت وجههم فأقبلوا منهزمين الحديث. ولا شك
أن شؤم المعصية وآثارها السيئة قد تصيب من ارتكبها وينال عُباسها من
يرتكبها، ولذلك بُع الله تبارك وتعالى المسلمين في هذه القصة إلى هذه الحقيقة
ليعلم من يرتكب معصية أنه قد يضر المجتمع الذي يعيش فيه وإن لم
يشاركوه في هذه المعصية، وقوله تبارك وتعالى: "منكم من يريد الدنيا
ومنكم من يريد الآخرة". بجان حال الفريقين المنزليين من الرماة، فالذين
يريدون الدنيا هم الذين تركوا مقاعدهم التي برأَهم إياها رسول الله ﷺ،
والذين يريدون الآخرة هم الذين ثبتوا في مقاعدهم التي أقعدهم فيها رسول
الله ﷺ وعلى رأس هؤلاء أميرهم الجليل عبد الله بن جبير رضي الله عنهم
جمياً، وقوله عز وجل: "ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ولقد عفا عنكم، والله
ذك فيض على المؤمنين" أي ثم رذَّكم عن قالotel المشتكين بعد أن أراك فيهم ما
تحبون من هزيمتكم إياهم وظهوركم عليهم فصرف وجهكم عنهم لتخاذفة بعضكم أمر رسول الله ﷺ ليخبركم ويلتحنكم وليبتهم على الحرص على طاعة أوامر رسول الله ﷺ الذي لا يأمركم إلا بما فيه خير دينكم ودنياكم، ولقد تفضل الله عليكم فصفح عنكم ولم يذكر لكم عقوبة مخالفةكم هذه إلى يوم القيامة، بل جعل ما أصابكم في المعركة كفاية لهذه المخالفة، والله تبارك وتعال صاحب جُود وإحسان وتفضّل على المؤمنين، ومن جليل وجليل فضلهم عليهم عفواً عن الرماة الذين تركوا مقاعدهم فلم يستأصلهم، ولم يجعل عقوبتهم بعداب النار.
قال تعالى: «إذ تُصعدون ولا تذؤبون على أحد والرسول يدعوكم في أخراكم فأثابكم غيماً بغمّ الكيلا تحزنوا على ما فاتكم ولا أصابكم، والله خبير بما تعملون» ثم أنزل علیكم من بعد الغمّ أمنة تعاوٌنا يغشي طائفة منكم وطائفة قد أهمنهم أنفسهم يظنون الله غير الحقيقة أولياء الجاهلية يقولون هل لنا من الأمر من شيء، قل إن الأمر كلله، يخفون في أنفسهم مالا يبدون لك يقولون لو كان لنا من الأمر شيء ما قتلتنا ههنا، قل لو كنت في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم وليتلي الله ما في صدوركم وليمخص ما في قلوبكم، والله عليكم بذات الصدى».

لما ذكر الله تعالى وتعالى أنه صرف المسلمين عن المشركين لليتليهم بين هذين صفة صرفهم عن المشركين فقال عز وجل: «إذ تُصعدون ولا تذؤبون على أحد والرسول يدعوكم في أخراكم أصروفكم عنهم حيث انطلتم على وجهكم ماعدين في الأرض ولا يلتفت أحد منكم إلى ما وراءه ولا يقف أحد لأحد، ورسول الله ﷺ ثابت في أرض المعركة يناديكم من ورائكم: إلی عباد الله، إلی عباد الله، وإنما فصل بين قوله: «صروفكم عنهم ليتليكم» وبين قوله: «إذ تُصعدون» بقوله عز وجل: «ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين» لتعجيل البشارة بعفو الله عز وجل عمن فرَّ عن رسول الله ﷺ يوم أحد، وأن الله عظيم الفضل والجود على المؤمنين، وفي هذا تنبه للناس إلى منزلة أصحاب رسول الله ﷺ، وأنه لا يليق بمن ينتمي إلى الإسلام من يجيلون بعد الصحابة أن يجعلوا أنفسهم حكاماً على أصحاب رسول الله ﷺ ورضي الله عنهم، ويتناولون عليهم، كما يفعل أهل الأهواء الذين يرعى أصحاب رسول الله ﷺ ورضي الله عنهم أجمعين، وقد بُيّن إلى ذلك رسول الله ﷺ في قصة حاطب بن أبي بلعة عندما كتب كتاباً لأهل مكة، وبعثه مع
ظعنية علمهم يا عزم عليه رسول الله ﷺ من غزوهم ليتخذ بذلك عندهم
يبدًا، فأطلع الله عز وجل نبيه ﷺ على ذلك فأرسل عليًا والزبير والمقداد
وادركوا المرأة في روضة خانك كما أرشدهم إلى ذلك رسول الله ﷺ وأخذوا
الكتاب، وأتى به رسول الله ﷺ فلما قال عمر رضي الله عنه لرسول الله ﷺ:
«إحنا قصد شهد بدرا، دعني أضرب عنك هذا المنافق، فقال له رسول الله ﷺ:
وما يدرك الله اطلب إلى أهل بدر فقال: اعملوا ما شئتتم فقد غفت
لكم»، ولذلك كان مذهب أهل السنة والجماعة الترضي على جميع أصحاب
رسول الله ﷺ وحبيبهم جميعًا، والكف عا شجر بينهم أو ذكر عنهم، وحمله
على أحسن المحامل، فإن ساعة منهم مع رسول الله ﷺ تعادل دُهُورًا من
أعمال غيرهم، وقد أشار رسول الله ﷺ إلى شيء من ذلك حيث يقول فيها رواة
البخاري ومسلم واللفظ للبخاري من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله
 عنه قال: قال النبي ﷺ: «لا تسبوا أصحابي فلو أن أحدهم أنفق مثل أحدٍ
ذهب ما بلغ معد أهدهم ولا نقينه»، كما روى مسلم من حديث أبي هريرة
رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تسبوا أصحابي، لا تسبوا
أصحابي، فهو الذي نفسي بهذه، لو أن أحدهم أنفق مثل أحدٍ ذهب ما أدرك
معد أحدهم ولا نقينه». هذا والعرب يفرقو بين قولهم: أصعد يُضِعِد
إصعدا، وقولهم: صيد يُضِعَدُ صعودًا، فالإصعاد هو الانطلاق والذهاب
في الأرض المستوية وبطون الأودية والشعاب، أما الصعود فهو الارتفاع
والارتفاع على الجبال أو السلاليم أو الزحر وفيه ذلك من المرتفعات. ومن
استعمال الإصعاد بمعنى مطلق السفر قول أهشى قيس في قصيدته التي قالها
يمدح بها رسول الله ﷺ: قبل أن يكون المشركين بينه وبين الإسلام:
ألا أتى هذا السائلي أيمن أصعدت فإنها من بطين يشرب موعدا
في إحدى روايات هذا البيت، فقد استعمل أصعد بمعنى أبعد في

94
الذهاب وأمعن فيه. وأنشد أبو عبيد:
قد كنت تبكيين على الإسعاد فاليموم سرحنت وصاح الحادي
وكان قال الآخر:
هواي مع الركاب اليانين مسدهج جنيب وجشاني بِمِكَة مُوقِنٍ
وفي قوله عز وجل: {والرسول بدعوكم في أخراكم} لفت انتباه إلى ثبات
رسول الله ﷺ وشجاعته وكَانَطمأنيتة عند مواجهة الكفار في أحلام
الأوقات، وهو شبيه بموقفه كذلك يوم حنين عندما تولى المسلمون
مسدرين قبل أن تنزل السكينة عليهم، قال ابن كثير في تفسيره: وفي
الصحيحين من حديث شعبة عن أبي إسحاق عن البراء بن عازب رضي
الله عنها أن رجلاً قال له: يا أبا عمارة، أفرّتم عن رسول الله ﷺ يوم حنين؟
 فقال: لكَن رَسُول الله ﷺ لم يفر، إن هوازنا كانوا قوماً رماة، فلا لقياهم
وحلنا عليهم انهموا، فأقبل الناس على الغنائم، فاستقبلونا بالسهام فاتهم
الناس، فلقد رأيت رسول الله ﷺ - وأبو سفيان بن الحارث آخذ بلجام بغلته
البيضاء - وهو يقول: {أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب}. قلت:
وهذا في غاية ما يكون من الشجاعة التامة، إنه في مثل هذا اليوم في حومة
الوغى، وقد اكتشف عنه جيشه، وهو مع هذا على بلغة، وليس سريعة
الجري، ولا تصلح لفرز، ولا تكرم، ولا هرب، وهو مع هذا أيضا يرّضها إلى
وجوههم، وينطق باسمه ليعرفه من لم يعرفه، صلى الله وسلم عليه دائما
إلى يوم الدين، وما هذا كله إلا ثقة بالله وتقواه عليه، وعلمه منه بأنه
سينصرف، ويُنْهُي ما أرسله به، ويظهر دينه على سائر الأديان اهـ وقد قدمت
قرباً ما رواه البخاري من حديث البراء رضي الله عنه في قصة الرماة: فقال
أصحاب عبد الله بن جبير: الغنيمة أي قوم، الغنيمة، ظهر أصحابكم، فا
تتظرون؟ فقال عبد الله بن جبير: أنسيتم ما قال لكم رسول الله ﷺ؟ قالوا:
واقتنا الناس لأنفسهم من الغنيمة، فلياَ أتوهم ضُرقت وجههم فأقبلوا منهزمين، فذلك قوله تعالى: "والرسول يدعوكم في أخزامك فلم يبق مع النبي غير اثني عشر رجلا. الحديث. وقوله عز وجل: "عُتُبةكم غيابكم بعُدكم، لكِي تَنْذِرَوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم" قال أبو جعفر ابن جبرير رحمه الله: يعني بقوله جل ثناؤه: "عُتُبةكم غيابكم بعُدكم" أي فجازاكم بفراكم عن نيبكم، وفشككم عن عدوكم، ومعصيتكم ربككم غيابكم بعُدكم. يقول: غيابكم بعُدكم وسمى العقوبة التي عاقبكم بها من تسليط عدوهم عليهم حتى نال منهم ما نال (ثراء) إذا كان وُصِيَّا من عملهم الذي سخطه ولم يرضيه منهم، فذَل فهذا جل ثناؤه أن كل عوضات كان لملأين من شيء من العمل خيرًا كان أو شرًا أو العوضي الذي بذله رجل لرجل أو يد سلفت له إليه، فإنه مستحق اسم "ثواب" كان ذلك العوض نكمرة أو عقيدة، ونظر ذلك قول الشاعر:

أخف زيادة أن يكون عطاؤه أداهم سوءًا أو محذرة سمارًا فجعل العطاء القيود أه وذا الشاعر هو الفرزة، والمراد بالأداهم جمع أدهم وهو القيود، والمحذرة: السباهت، وقد أحق الله عز وجل بهم عمومًا كثيرًا منها عمهم بما أصابهم من العدو في أنفسهم وأمواتهم، وغمهم بالهزيمة، وغمهم بما أصابه الرسل من الشجاعة وكره الرفاوية والغم الأكبر بما رجف به المرجف من أن رسول الله قد قتل، وغمهم بما صاروا يخفونه على أنفسهم من غضب الله بسبب محصلة ترك مقداد القول التي بوأها رسول الله للرسامة. وقد بَلَّت الله عز وجل أن عفا عنهم وتفضل عليهم لإيانهم بالله ورسله، وأنه إذا أحق بهم هذه المصائب لتربيته أنفسهم على الحرص على طاعة الله وطاعة رسوله، وبين عجز الإنسان عن معرفة عاقبة الأمور حيث قد يُذَكَّر بخير تكُون عاقبة شراً وقد يمتنح بشر تكون
عاقبته خيراً، كما قال عز وجل: «وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم، والله يعلم وأنتم لا تعلمون» وإذا أسلم الإنسان وجهه لله عز وجل وأطاع الله و أطاع رسوله فإن عاقبته تكون حديدة ما دام مستممسكاً بطاعة الله وطاعة رسوله ﷺ، لأن الشريعة لا تأمر الإنسان إلا بما ينفعه في الدنيا والآخرة، وإذا أطبق الإنسان بذلك وعلم أن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن فإنه لا يجزع على ما فاته أو أصابه كما قال عز وجل: «ما أصاب من مصيبه في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن تكبره، إن ذلك على الله يسيرٌ لكيا تأسسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بها آتاكم، والله لا يجب كل خاتم فخور» وقوله عز وجل: «والله خبير بما تعملون» وعد للمستجيبين لله ورسوله ﷺ ووعيد من لا يستجيب لله ورسوله ﷺ. وقوله عز وجل: «ثم أنزل عليككم من بعد الفهم القدرة تُعاصمَّنا يغشي طائفة منكم» هذه آية من آيات الله عز وجل جعلها الله عز وجل للمؤمنين يوم بدر ويوم أحد حيث سلّم النعاس على المؤمنين كأذكر هنا وكيا ذكر عن نعاسهم يوم بدر بقوله تبارك وتعالى: «إذ يُعَشِّيكُم النَّعَاسُ أمنةً منه» وقد روى البخاري ومسلم من حديث أن النبي رضي الله عنه قال: لقد وقع السيف من يد أبي طالحة إما مرتين وإما ثلاثين من النعاس. كما روى البخاري من حديث أبي طالحة رضي الله عنه قال: كنت من يُغشى النعاس يوم أحد حتى سقط سيفي من يدي مراة، يسقط واخذه، ويسقط وأخذه، وكان من أية الله أن أنزل النعاس على هذه الطائفة المؤمنة تسكنها لنفسهم وتطمئن لهم، أما الطائفة الأخرى التي لم ينزل عليها النعاس فقد وصفها الله بصفات، الأولى: أنهم أهتموا أنفسهم فلا يهمهم إلا نجاة أنفسهم من القتل دون أن يهموا بنجاة الرسول ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم، وهذا يشعر بتفاقم وجبهم وخوفهم. والصفة الثانية: أنهم يسيرون الظن بالله كأهل الجاهلية.
وأن الله لن ينصر رسوله كأ قال عز وجل: {بل ظنت أن لن يتقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبداً ورزق ذلك في قلوبكم وظنت أن السوء وكنتم قوماً بوراً} والصفة الثالثة: إظهارهم أنهم خرجوا كرهاً وله كان الأمر لهم ما خرجوا مع رسول الله ﷺ، ومقصودهم بث الفتنة وإساءة الظن برسول الله ﷺ، فرّداً عز وجل شهتهم وباطلهم ببيان أن أمر الحياة والموت وسائر الأمور يبدوه وحده، ثم نبه رسول الله ﷺ إلى نفاق أصحاب هذه المقالة وفضحهم حيث يقول: {قل إن الأمر كله لله، يُعَفَّون في أنفسهم ما لا يُبْدَئُونه} يقولون لوح كأ لنا من الأمر شيء ما قبئناه هناء أي ما قبئت منا أحد. ثم بين عز وجل أن من كتب عليه القتل لن يتأخر عن مكان مصرعه فقال: {قل لو كنت في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم} كما قال عز وجل: {أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنت في بروج مسجدة} فالحذر لا ينجي من القدر، والتدبير لا يدفع التقدير، فمن كتب الله عليه القتل في مكان لا بد من خروجه وبرزه إلى مصرعه، وقوله عز وجل: {وليستي الله ما في صدوركم وليُخْصَصِ ما في قلوبكم، والله عليهم بذات الصدور} أي وقد جعل الله عز وجل الجولة الأولى في أخذ للمسلمين ثم جعل الجولة الثانية للكافرين لحَكَّم لا يحصيها إلا الله، وليميز الخبيث من الطيب، وبرز للمؤمنين ما تكنه صدور المنافقين، والله عليم بالسرائر والضياع.
قال تعالى: ﴿إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان إياها استسلموا للشيطان بعض ما كسبوا ولقد عفنا الله عنهم إن الله غفور حليم﴾. ما إذا أياها الذين آمنوا لا تكونوا كأيام الذين كفروا وقالوا لإخوانهم إذا ضربوا في الأرض أو كانوا غزوا لو كانوا عندنا ما سأوا وما قتلوهم ليجعل الله ذلك حسرة في قلوبهم، والله يحي ويميت، والله يعمالون بصيرٍ ولين قتلتهم في سبيل الله أو ماتم لمغفرة من الله ورحمة خير مما يجمعون ولين متهم أو قتلتهم إلى الله تعالى.

بعد أن ذكر عز وجل الآية التي تفضيل بها على المؤمنين في معركة أحد من إنزال النعاس عليهم تأمينهم لهم وطمئنًا، وهي معجزة ظاهرة، ثم ذكر شيئًا من فئات أسماء المنافقين وفضحهم وكشف سرهم، وبين أنه أخرى معركة أحد على هذا الوجه الذي تمت به الحكم جليلًا ومنها إظهار ما في الصدور وتضحيس ما في القلوب، ذكر تبارك وتعالى هنا ما تفضل به على المؤمنين الذين رضى أقدامهم فانهزموا عن رسول الله ﷺ في أحد وأعلن للعامين البشارة بعفوهم وتجاوزه عن عللهم حيث يقول عز وجل: ﴿إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان إياها استسلموا للشيطان بعض ما كسبوا ولقد عفنا الله عنهم﴾. وفي قوله عز وجل: ﴿منكم إشارة إلى أنهم مؤمنون وليسوا منافقين، ومنعى: ﴿تولوا منكم يوم التقى الجمعان أي إنهزموا عن رسول الله ﷺ يوم التقى جمع المسلمين وجمع المشركين في أحد، وقوله عز وجل: ﴿إيما استسلم الشيطان بعض ما كسبوا أي إنها كان سبب انهم ألم الشيطان أوقعهم في هذه الزلة غير المتعمدة التي لم تكن كفروا ولا عنادًا وهم غير معصومين من مثلها، مع أنهم ما أطلقوا زمن التولي والفرض بل كفروا ورجعوا، وأحدهم برسول الله ﷺ واستشهد منهم من استشهد، وكان من
فضل الله عز وجل عليهم تعميل بشارتهم بعفوه عنهم وتجاوزه عن زلتهم، والمعروف كم تقدم قريبا أن أهم إسهامة عرفت عنهم هي تركهم مقاعدهم. وأدرك الله عز وجل أنه عفا عنهم بقوله تبارك وتعالى: «ولقد عفا عنكم» وقال هنا: «ولقد عفا الله عنهم»، وقوله عز وجل: «إن الله غفورٌ حليمٌ» تذيد لتعليل عفو الله عنهم وتأكيده، ولم يثور بحمد الله عن واحد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه تكلم بكلمة تشعر بندمه على الخروج مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أحد، بل كان الواحد منهم يتمى أن يمزق جسمه قطيعة. ولا يشارك رسول الله صلى الله عليه وسلم بشوكة، بخلاف من غيروا بالنفاق وغرموا به فإنهم هم الذين فضحتهم فتات ألستهم، كما ذكر الله عز وجل عنهم في الآية السابقة، ولذلك حذر الله تبارك وتعالى المؤمنين من التشبه بهم في أقوالهم الدالة على مرض قلوبهم، ووصفهم بالكفر حيث يقول عز وجل: «فيا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا وقالوا لأخوانهم إذا ضربوا في الأرض أو كانوا غزراً لكانوا عندنا ما ماتوا وما قبلا ليجعل الله ذلك حسرة في قلوبهم» وفي هذا تحذير شديد من أن يقول أحد هذه المقالة، وأن من قال عن إنسان سافر للتجارة أو غيرها فمات أو خرج ماجاهدا فقتل، له لم يسافر ممات، أو له لم يجاهد ما قتل، فإن من قال هذه المقالة كفر ب⼦ة المحي المميت، الذي قدر لكل نفس أجله موت عند نهاية أجملها، وحدد لها أرضا لانتagara الروح ب.Sendela.إليها، كما قال عز وجل: «وأنا نذر نفس بأي أرض تموت»، وله الشاعر حيث يقول:

مسئيًا خطأ قتيلت علينا ونُعْمِيت عليه خطيء مشاه، ومن كانت مدينًا بأرض فليس يموت في أرض سواها، ومعنى: «قالوا لأخوانهم» أي قالوا هذا القول من أجل إخوانهم الذين ماتوا أو قتلوا، وليس المراد أنهم تحذروا بقولهم هذا مع إخوانهم الذين ماتوا أو
قالوا: وهذا أسلوب معروف عند العرب ومنه قوله عز وجل: {وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيرا ما سبقونا إليه} ومعنى قوله عز وجل: {إذا ضربوا في الأرض} أي إذا سافروا فيها وسأروا للتجارة أو غيرها، والمقصود أنهم ماتوا في سفرهم هذا، وأصل الضرب في الأرض هو الذهاب فيها من قُولهم: ضربت الطير تضرب أي ذهبت تبتغي السرقو، وضرب في الأرض صربا وضربتانا: خرج تاجرا، ومنه قوله عز وجل: {وآخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله} وكما قال عز وجل: {وإذا ضربتم في الأرض} فليس علينا جناح أن نقتصروا في الصلاة ومعنى قوله: {أو كانوا غزيا} {أي أو كانوا غزاة} وإنها عطف قوله: {أو كانوا غزيا} على قوله: {ضربوا في الأرض} من باب عطف الخاص على العام، إذ الخروج في الغزو ضربً في الأرض وإنها ذكر بعد دخوله فيها قبله لأنه المقصود بالذات في هذا المقام وما ذكر قبله هو توطئة له، على أنه قد يوجد الغزو بدون الضرب في الأرض كما في قصة غزوة أحد، والغزى جمع غاز كرَ كَ وراكع، وصَ وم وصائم ونَ وم ونائم وسَ هد وشاهد وغيب وغائب، وقوله عز وجل: {ليجعل الله ذلك حسرة في قلوبهم} أي إذا صنعان المسلمون أنفسهم ولم يتفظوا مثل كلام هؤلاء المنافقين الكافرين وأيقنوا أن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن وأن القعود في الغزو لن يمنع من الموت إذا جاء الأجل، وحرص المسلمون على الخروج إلى الغزو والجهاد كان ذلك حسرة في قلوب المنافقين ولاسيما إذا وصل المسلمون بسبب الغزو إلى الغنائم العظيمة والاستيلاء على الأعداء والفوز بالنصر، وقوله عز وجل: {وَاللَّهُ يُحْيِي وَيُمِيتُ} أي بالحياة والموت يده، وحده فإليه يرجع الأمر كله ولا يحيا أحد ولا يموت أحد إلا بقضائه وقدره، وقوله عز وجل: {وَاللَّهُ بِيَادَ يَعْمَلُونَ بِصِيَانِ} وعد للمؤمنين الذين يمثلون تعاليم الإسلام ويتعبدون عن مشاهدة الكفار والمنافقين في أفعالهم وأفعالهم.
واعتقاداتهم المنخرفة عن الصراط المستقيم، وتعديد لم يمثل أواصر الله عز وجل وأوامر رسوله ﷺ. وقوله عز وجل: "ولكن قتلتم في سبيل الله أو متم لعفوه من الله ورحمة خير مما يجمعون" شروط في تحقيق أن ما يذرون ترتبه على الغزو أو السفر من القتال في سبيل الله أو الموت ليس ما ينبغي أن يدرب بل ما يجب أن يتنافس فيه المنافسون، ويجرب عليه العقلاء الراشدون، لأن الموت سبيل كل حي، كما قال قطري بن النجاة الخارجي:

أقول لهما وقد طارت شعاعاً من الأبطال يجكي لن تراجعاً 
فإنك لو طلبت بقاء يوم سبيل الموت غاية كل حي 
فداعيه لأهل الأرض داعي
فإن سبيله الخللود بمستطاعاً 
ففي موت في جبال الموت صبراء 
ولا ثوب البقاء بشوب عصر 
والموت في سبيل الله هو من أغلب أماني الصالحين، علمهم بها أعداء الله عز وجل من يموت في سبيل الله من رقيع الدرجات في جنات النعيم، فقد روى مسلم من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:

"من رضي بالله رباً، والإسلام ديناً، وبرحم رسولك، وجبت له الجنة"،

فعجب ها أبو سعيد، فقال: أعدها عليّ يا رسول الله، فأعطاها عليه، ثم قال: "ولئن يرفع الله بها العبد مائة درجة في الجنة ما بين كل درجتين كيا بين السواء والأرض"، فقال: وما هي يا رسول الله؟ قال: "الجهاد في سبيل الله، الجهاد في سبيل الله"، كما روى البخاري ومسلم من حديث أنبى رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: "ما أحد يدخل الجنة يجب أن يرجع إلى الدنيا وله ما على الأرض من شيء إلا الشهيد، يعتمى أن يرجع إلى الدنيا فيظل عشر مرات لما برى من الكرامة"، وفي رواية: "ما برى من فضل الشهادة" قال ابن جرير رحمه الله في تفسير هذه الآية: قال أبو جعفر: يعطى جل ثناؤه عبادة

106
المؤمنين، يقول لهم: لا تكتموا أيها المؤمنون في شك من أن الأمر كله بيد الله، وأن إليه الإحياء والإماتة كا شك المنافقون في ذلك، ولكن جاءدوا في سبيل الله، وقاتلوا أعداء الله، على يقين منكم بأنه لا يقتل في حرب، ولا يموت في سفر إلا من بلغ أجله وحزانت وفاته، ثم وعدهم على جهادهم في سبيله المغفرة والرحمة، وأخبرهم أن موتًا في سبيل الله أو قتلاً في الله خير لهم مما يجمعون في الدنيا من حطامها، ورغد عيشها الذي من أجله يتناقلون عن الجهاد في سبيل الله، ويتأخرون عن لقاء العدو اه، وقال الفخر الرازي ريح الله: إن رحمة الله ومغفرته خير من نعيم الدنيا لوجوده، أحدهما أن من يطلب المال فهو يتعب من ذلك الطلب في الحال، وعله لا ينفع به غذا لأنه يموت قبل الغد، وأما طلب الرحمة والمغفرة فإنه لا بد وأن ينفع به لأن الله لا يخفي وعده، وقد قال: فمن يعمل مثل ذرة خيرًا يره، وثانيها: هب أنه يأتي إلى الغد لكن لعل ذلك المال لا يبقى إلى الغد، فحكم من إنسان أصبح أميرا وأمسى أسيرا، وخيات الآخرة لا تزال لتقوله: والباقات الصالحات خير عند ربك وقولة: وما عندكم ينفد وما عند الله باقي وثانيه: بقدر أن يبقى إلى الغد ويقيم المال إلى الغد لكن لعله يحدث حدث يمنعك عن الاندفاع به مثل مرض وألم وغيرهما، ومنافع الآخرة ليست كذلك، وخارجها: هب أن تلك المنافع تحصل في الغد خالصة عن الشوارب ولكنها لا تدوم ولا تستمر، بل تنقطع وتتفرج، وكلا كانت اللذة أقوى وأكمل كان التأسف والتحسر عند فواتها أشد وأعظم، ومنافع الآخرة مصنورة عن الانقطاع والزوال، وسادسها: أن منافع الدنيا حسية ومنافع الآخرة عقلية، والحسية خسية، والعقلية شريفة، أتري أن اندفاع الحجار بلدة بطنه وفرجه يساوي ابتهاج الملائكة المقربين عند إشراقها بالألوان الإلهية؟ اه، وقوله عز وجل: أولئك منتم أو قتلتم لِلله تَحْـَـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْـْ~

103
مفارةقة أرواحكم أبدانكم سواء كانت بموت أو بقتل، فإنّ مصركم وحضركم
وجمعكم إلى الله عز وجل وحده لا شريك له، المعبد بالحق، العظيم
الشأن، الواسع الرحمة، الجزيل الإحسان، الذي يجري كل عامل بأعماله،
ويزيد الصالحين من فضله وجوده وإحسانه، ولا حاكم سواه يوم القيامة،
كما قال عز وجل: "فمن الملك اليوم الله السواحد القهار" وكما قال عز وجل:
"والامر يومئذ يبصع الله" وكما قال عز وجل: "مالك يوم الدين" وقد ذكر الله
تبارك وتعالموت والقتل في ثلاثة مواضع في هذا المقام من سورة آل عمران
تقادم الموت على القتلى في الأول منها وفي الثالث وتقدم القتل على الموت في
الثاني وذلك في الأول لمناسبة ما قبله من قوله عز وجل: "إذا ضربوا في
الأرض أو كانوا غزّى" فرجع الموت لم ضرب في الأرض والقتل لم غزا، وأما
الثاني فلا لأنه محل تخريض على الجهاد فقدّم الأهم الأشرف، وأما في الثالث
فقدّم الموت لأنه أغلب وأكثر، فقد جمعت الآية بين ألوان بلاغية من المعاني
والبديع.
قال تعالى: «فَقَبْلَهَا رَحْمَةٌ مِّنَ اللَّهِ لِنَتْهَاكُم وَلَوْ كَنْتُ فَظًا غَيْبًا قَلْبٌ.»

لا ينقضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم في أمر الله فإذ راعم فتوكل على الله، إن الله يحب المتوكيلين* إن ينصركم الله فلا غالب لكم وإن يجعلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده، وعلى الله فليكن المؤمنون».

بعد أن أخبر عز وجل أنه تفضل فعلاً عن المنزهمين عن رسول الله ﷺ من المؤمنين يوم أحد أشار إلى حسن معاملة رسول الله ﷺ لهم، ورحمة بهم وأنه لم يذلهم بالمغالط والتشديد ولم يكس عليه بسبيب اهتزازهم عليه ولم يتخث أو يعتف أحد منهم، وأثنى على رسله ﷺ بسبيب لين معاملته لهم وأمره بالعفو عنهم والاستغفار لهم، واستشارتهم في الشئون ذات البار، حيث يقول عز وجل هنا: «فبِئْرِ رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لَنَتْهَاكُم» (ما) في قوله عز وجل: «فبِئْرِ رَحْمَةٍ لِإِفَادَةٍ تَعَظِّيمِ رَحْمَتِهِ وَتَفْخِيمَهَا وَتَوْكِيدَهَا كَأنِهِمْ قِيلٌ: فَبِسَبِيلِ رَحْمَةٍ عُظِيمَةٍ طُبِعَ الله عليها، وجعلها لك سجية وملكة عاملة** من المنزهمين عنك بالليل والرفيق والرحلة والتنقل، وقد وصف الله رسوله محمد ﷺ بأنه بالمؤمنين رفيع رحيم حيث يقول عز وجل: «لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما أعتمت حريص عليهم بالمؤمنين رفيع رحيم» وفي خصص رحمة ورفعته بالمؤمنين إشعار بأن أعداء الله وأعداء المرسلين ليسوا أهلو لرحمة الله ولا لرحمة رسوله ﷺ ولا لرحمة المؤمنين، وقد أشار الله تبارك وتعالى إلى ذلك حيث يقول في وصف رسله ﷺ وأصحابه رضي الله عنهم: «محمد رسول الله، والذين معه أشداء على الكفار رحمهم بينهم» وكما قال عز وجل: «أذَلَّتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعْزَأَةٌ عَلَى الْكَافِرِينَ» وقوله عز وجل: «ولو كنت فظًا غليظ القلب لانفضوا من حولك» فإذ الله عز وجل عن رسوله وحبه وسيد خلقه وأفضل أبنائه محمد ﷺ الفضالة وغلمانه

١٠٥
القلب، والفظاظة هي الجفوة في العشرة قولاً وفعلًا، وغلظ القلب هو كونه جافيًا قاسيًا خالياً من الشفقة والرحمة واللين والزقية والرفق، والفظاظة تنشأ عن غلظ القلب، وإذا قدم ذكر الفظاظة على ذكر غلظ القلب لأن الفظاظة هي المشاهد الظاهرة المدرك بالحس المنبئ عن قسوة القلب وغلظه، وقد كان من أبرز صفات رسول الله ﷺ التي عرفها الله عز وجل للأنبياء السباقين ليصفوه ﷺ لأمهم حتى يعرفوه إذا بعث ﷺ أنه ليس بفظ ولا غليظ ولا صحاح في الأسواق، فقد روى البخاري في صحيحه من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنها أن هذه الآية التي في القرآن: "لا أيها النبي إذا أرسلناك شاهدة ومبشراً ونذيراً" قال: في النوراء يا أيها النبي إذا أرسلناك شاهداء ومبشراً ونذيراً، وجزاً للأمينين، أنت عبد ورسولي، ساميتك النوراً، ليس بفظ ولا غليظ ولا صحاح بالأسواق، ولا يدعم السيدة بالسيدة، ولكن يعفو ويصفح، وإن يقبضه الله حتى يقيم به الليلة العوجاء، بأن يقولوا: لا إله إلا الله، ففتح به أعيننا، وآذاناً صفاً، وقلوباً غلفاً. ومراد عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنها من قوله: في النوراء، هو من إطلاق كلمة النوراء على جميع كتب العهد القديم، لا أنها النوراء المنزلة على موسى عليه ﷺ، وهو اصطلاح لبعض المسلمين وبعض أهل الكتاب، إذ أن هذا النص الذي ذكره عبد الله بن عمرو رضي الله عنها إنها هو موجود في نبوات بعض أبنائه بني إسرائيل من بعد موسى عليه السلام، ومعنى قوله عز وجل: "لا أنقضوا من حولك" أي لتفرقوا عنك، ولم يسكنوا إليك وتركوا في مهاوي الرد، فمن فضل الله على الناس أن ملأ قلوب رسله إليهم بالرحمة والرفق، ونبهتهم إلى ذلك كما قال موسى وحارون عليه السلام لما أرسلها لفرعون: "فقولا له قولاً لينا لعله يتذكر أو يغشي" وقوله عز وجل: "فأعف عنهم واستغفر لهم وشأورهم في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله".

106
هذه قواعد السياسة الرشيدة التي تربط بين الراعي والرعية بربط الحب والثقة والإطمينان، وفي قوله عز وجل لرسوله وحيبه محمد ﷺ: "فاعف عنهم" أي تجاوز عن مسيئتهم فيها ليس من حقوق الله عز وجل، ولذلك كان رسول الله ﷺ لا يتمنى لنفسه قط، فقد روى البخاري في صحيحه من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: ما حُبِّ النبِي ﷺ بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثم فإذا كان الإمام كان أبعدهما منه، والله ما انتقم لنفسه في شيء يؤتي إليه قط حتى تنتهك حرمات الله فينتقم الله. وفي رواية لسلمان من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: ما ضرب رسول الله ﷺ شيئا قط يده ولا أمرا ولا خادما إلا أن يشاهد في سبيل الله، وما نبل منه شيء قط فينتقم من صاحبه إلا أن ينتهك شيء عن محارم الله تعالى فينتقم الله تعالى. كما روى البخاري ومسلم عن حديث أنس رضي الله عنه قال: كنت أشمي مع رسول الله ﷺ وأعليه بُشرُدُ نجراً غليظ الحاشية فأدركه أعرابي فجيده برائته جبزة شديدة، فنظرت إلى صفحته عائشة النبي ﷺ وقد أثرت بها حاشية البد من شدة جبذته ثم قال: يا محمد مُرّ لي من مال الله الذي عندك، فالتفت إليه، فضحى ثم أمر له بعطاء. وفي أمر الله عز وجل لرسوله ﷺ هنا بقوله تعالى له في المهنيزين عنده يوم أحد: "فاعف عنهم" مع قوله تبارك وتعالى عنهم: "ولقد عفا عنكم" وقوله تبارك وتعالى: "ولقد عفا الله عنهم" مع ما قدمه في وصف المسارعين إلى مغفرة من رهيب وحجة عرضها السمومات والأرض حيث يقول عز وجل: "والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس" في كل ذلك إشارة إلى حب الله عز وجل للفتو عن عباده والصفح عنهم، ولذلك أمر إمام المرسلين محمد ﷺ بالعفو والصفح في مواضع كثيرة من القرآن العظيم حيث يقول عز وجل: "خذ العفو وأمر بالعفو وأعرض عن الجاهلين" ويقول: "فاصلح الصفح الجميل" ويقول: "فاصلح عنهم"
وقل سلام، وقله عز وجل: {وإذ تمغفر لهم}. هذه هي القاعدة الثانية من قواعد السياسة الرشيدة، أي وسأل الله عز وجل أن يغفر للمسيتين، كما قال عز وجل: {ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم}. الرسول لوجدوا الله توابا رحيمًا. أما القاعدة الثالثة من قواعد السياسة الرشيدة فهي قوله عز وجل: {وشاورهم في الأمر}. أي واستخرج آراءهم فيها تريد أن تفعله من الأمور ذات البال التي لم ينزل عليه وحي بها، تطبيقًا لقوله: {ولست بولادة أمر المسلمين من بعدك}. وأصل الاستشارة والمشاورة مأخوذة من قولهم: {يابر العسل}، وأشاره واستخاره إذا استخرجه من الخلقية أو الوقبة، والوقبة هي الكَوْة والقفرة في الصخرة ونحوها يتخذه النحل بيتا ويطبع فيها العسل. وقد أعظم الله عز وجل شأن الشوري حيث يأمر هذا أكمل خلقه عقلا وإدراكا ووعيًا وفهمًا ومعرفة وخبرة بالأمور أن يستشير أصحابه رضي الله عنهم فيما لم ينزل عليه وحي في إذا استخار ما عندهم من آراء، وكان إذا استشار أصحابه وأشاروا برأي واحد أخذ به وإذا اختلفت آراءهم اختار الأيسر منها على المسلمين، وقد جعل الله عز وجل الشوري من أبرز صفات المسلمين حيث يقول عز وجل في سورة أطلق عليها اسم سورة الشوري: {أمهم شوري بينهم}. قال البخاري في صحيحه: باب قول الله تعالى: {أمهم شوري بينهم}. وشاورهم في الأمر، وأن المشاورة قبل العزم والتبين لقوله تعالى: {فإذا عزمت فتوكل على الله}. فإذا عنمز الرسول وليكن الله التقدم على الله ورسوله. ثم قال البخاري رحمه الله: وكانت الأئمة بعد النبي صلى الله عليه وسلم يستشيرون الأئمة من أهل العلم في الأمور المباحة ليأخذوا بآساهما، فإذا وضح الكتاب أو السنة لم يعدوا إلى غيره اقتفاء بالنبي صلى الله عليه وسلم، ورأى أبو بكر فقال من منع الزكاة، فقال عمر: كيف تقاتل الناس وإلا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: {أمرت أن}
أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله فإذا قالوا لا إله إلا الله عصموا مني دماهم وأموالهم إلا بحقهما وحسابهم على الله فقال أبو بكر: والله لأقاتلن من فرق بين ما جمع رسول الله ﷺ ثم تابعه بعد عمر، فلم يلتقي أبو بكر إلى مشواره، إذ كان عنه حكم رسول الله ﷺ في الذين فروا بين الصلاة والزكاة، وأرادوا تبديل الدين وأحكامه، قال النبي ﷺ: "من بدل دينه فاقتله" وكان القراء أصحاب مشورة عمر كهولاً كانوا أو شباناً، وكان وقفاً عند كتاب الله عز وجل اه وتحتم على المستشار أن يمضح من استشرائه النصح وأن يخلص في الاستشارة، وأن يكون أميناً، وأن يثير عليه بما فيه المصلحة، فقد روى أبو داود والترمذي وقال: هذا حديث حسن عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: "المستشار مؤمن". وروى ابن ماجه من حديث أبي مسعود قال: قال رسول الله ﷺ: "المستشار مؤمن". قال في الزاوين: إسناد حديث أبي مسعود صحيح، رجاله ثقات اه ولا شك أنه ما ندم من استشار، وينبغي أن يستشار في كل أمر أهل الخبرة به بعد الوثوق من سلامة دينهم وعقولهم وجههم للخير ونصحهم كما قال الشاعر:
شاور صديقك في الخفيّ المشكّل وقابل نصيحة ناصح متفضّلٍ في قوله: شاورهم وتوكّل
وكما قال الشاعر الآخر:
وإن باب أمر عليك النوير فشأور لنبيه ولا تعصيه
ومعنى قوله عز وجل: "إذا عزمت فتوكل على الله، فإن الله يحب المتوكلين" أي إذا صبح عزمك على إمضاء ما تريد، من جهد عدوك مما رأيت فيه المصلحة لدينك وأمتك فأمضى لما تريد بغض النظر عن خلاف من خالفك ووفاق من وافقك، وكن في عزمك معتمدا على الله وحده ومتسكلا عليه دون غيره راضيا بما يقضيه الله عز وجل لأنه يجب المعتمدين عليه، وفي
هذا دليل ظاهر على أن بذل الأسباب والاستشارة لا ينافي التوكل على الله، وقوله عز وجل: "إِن يَنَصَرُكُمُ اللَّهُ فَلاَ غَلِبَ لَكُمْ وَإِن يُخَذَّلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنَصَرُكُمْ مِن بَعْدهُ"، وعلى الله فليتوكل المؤمنون! أي إن يُعِينِكُمْ اللَّهُ عَلَى عدوكم فلن يغلبكم أحدٌ منهما كان عدده وعُدَّده، وإن يُخَذَّلْكُم في كلكم إلى أنفسكم ويترك نصركم فلن تنصروا لَوُ كان مَعِكِم من العدد والعدد أضعاف ما عند عدوكم، فمن نصره الله فهو المنصور ومن لم ينصره الله فهو المقهور، ونصر الله يَنَال بطاعته وقواه فاعتمدوا على الله وحده وعلى الله فليتوكل المؤمنون.
قال تعالى: "وما كان النبي أن يغل، ومن يغل يأت به غالب يوم القيامة، ثم توقَّف كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون. أفمن اتبع رضوان الله كمن باء بسخط من الله ومأواه جهنم، وبئس المصير. هم درجات عند الله، والله بصير بها يعملون. لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلوا عليهم آياته ويزكيم ويعملهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين.

بعد أن أَكَّد تبارك وتعالى أن من يُنصَّرُهُ الله لا يُغلَّهُ أحد، وأن من يُقْلِهُ الله لا يُنصَّرُهُ أحد، وأشار إلى أن الاعتقاد على الله والتوكل عليه هو سبب النصر والفلاح. حذر هنا أشد التحذير من الغُولِ ويبين شؤوّة عاقبتهم، وأن الله عز وجل يَفْضِّلُ الغال بهوّة فيكم يوم القيامة على رؤوس الخليَّة، ومن المجاهد في سبيل الله ما يُبْلِطُ عمله، ويُبْلِطُ جهاده لأن الله طيب لا يقبل إلا طيباً، وقوله عز وجل: "وما كان النبي أن يغل" هو شبيه بقوله عز وجل: "وما كان لبشر أن يؤمنوا أن يؤمنوا، وأن ينكرُوا أن ينكروا". أي ما يأتي في العقل أن يُضْطَلِقِ الله إنسانا يبعثه الله عز وجل بنياً يُغْلَّ، وقد ذكرت في تفسيرها أن هذا النوع من النفي يُعْتَبِر عنه بالنفي التام لأن النبي فيه من جهة العقل أو يستحيل عقلاً أن يَضْدَرُّ هذا من نبي من أُهْدِى الله المخصَّصين الأخيار والمسدود من هذا النفي هنا هو تشديد أمر الغُول وبيان قُصْحُ يُغْلِهُ.

قال الحافظ ابن حجر في فتح الباري: "الغُولِ بضم المكشطة واللام أي الخيانة في المغنم قال ابن قتيبة: سمي بذلك لأن آخره يُغْلِهُ في متاعه أي يخفّف فيه، ونقل النروي الإجماع على أنه من الكبائر. هـ ومعنى قوله عز
وجل: ومن يغلب يأت بغاً غلً يوم القيامة؟ أي ومن يأخذ شيئًا من المغنم خفية يَفْصِّلُهُ الله عز وجل على رؤوس الخلائق يوم القيامة حيث يبعثه حاملاً ما غلٌ وقد روى البخاري ومسلم واللفظ للبخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قام فينا النبي ﷺ فذكر العلفون، فقال: فَعَظِمْهُمَّ وَعَظَمَ أَمْرَهُ، قال: لا أَلْيَنَّ أَحَدُكُمْ يوم القيامة على رقبته شأةً لها ثوابًا، على رقبته فوس له خِمْطَةٌ يقول: يا رسول الله أَغْنَى فَأَقْوُلُ: لا أَمْلِكُ لَكِ شَيْئًا، قد أَبْلَغْتُكَ، وعلى رقبته بعير له رَحْماً، يقول: يا رسول الله أَغْنَى فَأَقْوُلُ: لا أَمْلِكُ لَكِ شَيْئًا قد أَبْلَغْتُكَ، وعلى رقبته صامتًا، يقول: يا رسول الله أَغْنَى فَأَقْوُلُ: لا أَمْلِكُ لَكِ شَيْئًا قد أَبْلَغْتُكَ، أو على رقبته رقاحٌ حَمَّامٌ، يقول: يا رسول الله أَغْنَى، وقوله في الحديث: وعلى رقبته صامت وفق عنقه ذهب وفضة أو هو كل مال لا رُبُح لَهُ. كِا روى البخاري من حديث عبد الله بن عمر بن العاص رضي الله عنها قال: كان على نقل النبي ﷺ رجل يقال له كَرِيْفًا فإنه، فقال رسول الله ﷺ: هو في النار، فذهبا ينظرون إليه، فَوَجِّهَا عَبَايَةً قَدْ عَلَّهَا، كَا روى مسلم من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: ما كان يوم خِيَبةٌ أَقْبَل نَفْرٌ من أصحاب النبي ﷺ، فقالوا: فلأن شهيد، وفلان شهيد، حتى مرُوا على رجل فقالوا فلان شهيد، فقال النبي ﷺ: كَلّا، إن رأيته في النار، فَبِذَكَّةٍ غلَّهَا أو عَبَايَهَا. كَا روى مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: خرجنا مع النبي ﷺ إلى خيبر، ففتح الله علينا، فلم نُعْمَنُ ذَهَباً ولا وَرَقاً، غَيْبًا المَنَاعَ والطعام والطيب، ثم انطلقتنا إلى الوادي ومع رسول الله ﷺ وَأَبُو راكان. كَا روى أبو داود والبخاري وطائفةٌ من بني الصبيّب، فلما نزلنا الوادي قام نَبِيُّ السَّوَاء الله ﷺ يَقُولُ رَحْلَةً قَرِيبًا يَقُولُهُمْ: فكان فيه خِيَافَةً، فقالنا: هنَّئَلَهُ للشِّهادَةِ يا رسول الله، قال رسول الله ﷺ: كَلّا، والذي نَقُسُ!
محمد بنه، إن السُمْحَة لأتَلثَبَ عليه ناراً، أخذها من الغنائم يوم خيبر، لم تصبها المقاسم قال: ففرز الناس، فجاء رجل يشراك أو شراكين فقال: يا رسول الله أصبت يوم خيبر، فقال رسول الله ﷺ: شراك من نار أو شراكان من نار. كأ هو من مسلم من طريق مصبع بن سعد قال: دخل عبادة بن عمر على ابن عامر يعوذُه وهو مريض فقال: ألا تدعو الله لي يا ابن عمر؟ قال: إنني سمعت رسول الله ﷺ يقول: لم تؤظَّن كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون. قال أبو السعود العادي في تفسيره: أي تعظّة وافياً جزاء ما كسبت، خيراً أو شراً كثيراً أو بسيأ، ووضع المكشوب موضوع جزائه تحققاً للعدل، ببيان ما بينهما من نماد التناسب كا وكيننا كأنها شيء واحد، وفي إسناد التنؤية إلى كل كاسب، وتعليمها بكل مكشوب، مع أن المقاسد بُيِان حال العثال عند إتيانه بها غلبه يوم القيامة، من البلاطة على فخامة شأني اليوم، وهؤلاء مطالبته وملامحه في بيان فظاعة حال الغثال ما لا يخفى، فإنه حيث وَقَّع كل كاسب جزاء ما كسبه، ولم ينقص منه شيء وإن كان جُرُمه في غاية القليلة والخلاقة فلا لأن ينقص من جزاء العثال شيء وجرمه من أعظم الجرائم أظهر وأجلي وهم أي كل الناس المدلون عليهم بكل نفس لا يظلمون بزيادة عقابهم أو ينقص ثوابهم وقوله عز وجل: أُفمن اتبع رضوان الله كمن باء بسخط من الله ومأو به جهنم أي أيسوري في عقل أحد من آمن بالله وصدق رسول الله ﷺ وعمل بطاعة الله وسعى في مرضاته وترك الغلول وسائر ما ناهه الله عز وجل من المعاصي، هل يستوي هذا الصالح الطباع حُزُوم ومن يكفر بالله، ويَكذّب رسله، ويغصي ربه بالغلول أو غيرها من المعاصي؟ لا يستويان أبداً في عقل من له أدنى مسكينة من عقل، إذ أن الصالح ثوابه الجنة والفَجَر مأواته ومصيرون إلى جهنم، وقوله عز وجل: وبئس المصير أي.
وفقًا وذمَّ مصير هؤلاء الفجار، وقوله تبارك وتعالى: "هم درجات عند الله".

تأكيد مضمون الآية السابقة، وأن الصالحين والفجار لا يستورون، فهم خُلَّفوا المنازل، حيث يصير المؤمنون إلى جنة عرضها السماوات والأرض في درجات ما بين الدرجة والدرجة كما بين السماوات والأرض، ويسير الفجار إلى دركات النار التي يُحيي بعضهم إلى بعضها سبعين خريفاً، وقوله تبارك وتعالى:

"وَاللَّهُ بِصِيرَةٍ بِيُعملون" أي إنه لا يظلم أحداً لأنه شهيد على ما عملوا ويجزي كل عامل بما عمل وهذا المقام نظير قوله تعالى:

"أَفَنِجَعَ الْمُسْلِمِينَ كَالْمَجْرِمِينَ" ما لكم كيف تعكمون. وقوله تعالى: "أَمْ نِجِعَ الْذِّينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُلْكِسِينَ" في الأرض أم نجعل المتبقين كالفجار؟ وكما قال عز وجل:

"وَضَربَ اللَّهُ مَثَلاً رَجُلينَ أَحَدَهُمَا أَبَكَّرَ يَقِدُرُ عَلَى شَيْءٍ وَهُوَ كَلٌّ عَلَى مُوَالَةٍ أَيْنَ يُؤْهِجُهُ يَأْتِي بِخَيْرٍ هَلِ يِسْتَوِي هُوَ وَمَن يًأَمَرُ بِالْعَدْلِ وَهُوَ عَلَى صَرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ". قال عز وجل: "وَلَكِنْ أَمْرُ الْمَعْلُومِ" وذلك قوله تعالى:

"أَفْمَان كَانَ مُؤْمِنًا كَمْ كَانَ فَاسِقًا لا يَسْتَوِونَ" أَمَا الذِّينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فِلَهُمْ جَنَّاتُ النَّارِ نَزُلًا بِكَانَوا يَعْمَلُونَ. وأَمَا الذِّينَ فَسَقُوا فَمَا أَوْهُمْ النَّارُ" الآية. وحتى في نظر الشيعة الذين يقولون: لا إله ولا كون مادة فإنه لا يستوي عندهم من يسرق أموال الناس ومن يبذل ماله للناس فيها يرون من مصالحهم، مع اكتساب فضائل وإتقان مواعز الحق لديهم، وهل ينسى أحدٌ يشاهد كافل اليمين ويبين من يأخذ أموال اليمين ؟ وقوله:

"لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنفُسِهِمْ يُنَّذِرُهُمْ أَيَّاَهُ وَيَزْكِيهِمْ وَيَعْلَمُهُمْ الْكُتُبَ الْمُكْرَمَةَ وَيَكُونُوا مِنْ قِبْلِ لَهِ ضَلَالَ مَا بِهِ". بعد أن وصف الله عز وجل حبيبه محمد صلى الله عليه وسلم بأنه، ووصف له قواعد السياسة الرشيدة وأمر المؤمنين بالاعتناء على الله.

114
والتوكل عليه، والالتجاء إليه وحده لا شريك له في طلب النصر على الأعداء ووصف جميع أنبياء الله بطهارة النفس، وفرق بين من اتبع رضوان الله ومن باع بسخط من الله، مما أطبقت العقول على التفريق بينها حيث لا يستوي الصالحين والفجار في نظر عاقل، ذكر نعمته الكبرى وينتهيه العظيمة على المؤمنين الذين استجابوا الله ولرسوله ﷺ بأنه تفضَّل عليهم بأعظم رسول وأفضل نبيٍّ وأكمل شريعة، وأبقى دين وأوفي نظام وأشمله وأدقه حيث أنعم عليهم وأحسن إليهم إذ بعث لهم نبيًا من أنفسهم يقرأ عليهم القرآن الكريم المشترك على جميع قواعد العقائد والسوم والمعالمات وما يتعلق بالدنيا وما يتصل بالآخرة وقد جعله الله عز وجل تبيانًا لكل شيء ومهميتنا على كل كتاب قبله، فيه نباً المتقدمين، وخبر المتأخرين وحل قضايا الناس أجمعين، وهو الفضل ليس بالهلع، من تركه من جبار قسمه الله، ومن ابتغى الهدوى في غيره أصله الله، وهو حبل الله الذين، والذكر الحكيم، والسياط المستقيم، لا تزين به الأهواء، ولا تلبس به الألسنة، ولا يشعُّ منه العلماء، ولا يخلِّص عن كثرة الزهور، كلما تكررت زادت حلاوته، ولا تنقص عجبه، وهو مهدب الله المعروضة بين عباده لتغذية أجساههم وأرواحهم، وشفاء أمراضهم وأسقامهم، من قال به صدق، ومن عمل به أجر، ومن حكم به عدل، ومن استمسك به وأتبع منهجة هداه إلى جنات النعيم. ومنعه قوله عز وجل: ﴿وَيَبْرِكَهُمْ أَيُّهَا الْمُؤْمِنُّ وَيَطَّهِرْهُمْ بَرَيْهِمْ فِي الطَّيْبَاتِ وَتَرْهِبِهِمْ مِنَ الْمُحْرَمَاتِ وَتَخْزِينِهِمْ مِنْ سَائِرِ النَّجَاسَاتِ، سَوَاءٌ كَانَ حَسَبَةٌ أَوْ مَعْنِيَةًٌ﴾.}

115
يتفكرون. والحكمة هي الفقه في الدين واتباع سنة النبي الكريم، ووضع الأمور في مواضعها، وفي قوله تعالى: "وإن كانوا من قبّل لفي ضلال مبين. إشارة إلى كهلا نعمة الله وتمام منه حيث أخرج الله عز وجل العرب والعجم من الظلال إلى النور فقد كانت أمم الأرض عند بعثته بسم الله في حرة وضلال، فقد نظر الله عز وجل إليهم فمقتهم عزرهم وعجمهم، إذ كانوا كلهم يتخطبون في دجاجة ظلام الجاهلية، وكانت بلاد العرب لا تعرف غير الغارة والسلب والنهب، وواديات النبط، وانتهاء الكرمة، وكان الرجل المجوسى يتزوج بنته، ويشعل النار ثم يسجد لها ويعدها، وكان الأوروبيون لا يقولون في جهاليهم عن الأسبي و الإفريقيين، فلما جاء الإسلام أرشد الناس إلى قواعد العدل، وعُدّ إلى الصراط المستقيم. لقد كانت مدينة روما لا يُعرف فيها طريق معبّد، ولا سراح يضيء حاراتها وشوارعها، فلما جاء الإسلام وعرف المسلمون المدينة الحقيقية بلطفوا الشوارع ونظّمواها. كتب عمر رضي الله عنه إلى عماله في الأمصار بتطهير الشوارع في الحاضرة والبادية، وأسفيت الشوارع بالليل، وانتشر كل هذا بعد ذلك في غرب أوروبا لما دخلوا في الإسلام، ثم انتشرت هذه المدينة في سائر أوروبا لأول مرة في التاريخ. وقد أشار الله عز وجل إلى نعم الله هذه على الناس حيث يقول: "هو الذي بعث في الأميين رسلًا منهم يتعلوا عليهم آياته ويركزهم ويعملهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين. وآخرين منهم لما يلحقو بهم، وهو العزيز الحكيم. ذلك فضل الله يؤتيه من بشاء، والله ذو الفضل العظيم".

116
قال تعالى: \( \text{أو ما أصابكم مصيبة قد أصابت مثلها قلتم أنى لهذا قل} \)

هو من عند أنفسكم، إن الله على كل شيء قدير. وما أصابكم يوم التقي الجماعي فبإذن الله وليعلم المؤمنين. وليعلم الذين نافقوا، وقيل لهم تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادعوا قاتلوا لو نعلم قتالا لابنناكم، هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيّان، يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم. والله أعلم بما يحكمون. الذين قالوا لأخوانيما وقعدوا لو أطاعونا ما قتلوا. قل فادعوها عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين.

بعد أن ذُكر الله عز وجل المؤمنين بنعمته الكبرى ومنته العظيم بإرسال أفضل رسله وأفضل خلقه محمد ﷺ إليه بأكمل الشرائع، وأن الله أخرجهم به من الظلمات إلى النور وهداهم به من الضلال الذين كان يحيط بهم من كل وجه، نبأنا هنا إلى إعزازه لعباده الصالحين المتبين لرسوله محمد ﷺ. وأن ما قد يصيب المسلمين إنها هو بسبب من تقصيراهم في طاعة هذا الرسول العظيم والنبي الكريم، وأجاب عن شبهة أثارها بعض الناس من يظنون بالله غير الحق ظنًا الجاهلية حيث تساءلوا: من أين جاءت هذه المصيبة؟ وكيف تُحزم ورسول الله ﷺ معنا ونحن مسلمون وهم كافرون؟ والقصد من السؤال هو إثارة الشبه بين المسلمين، وقد كان الجواب الذي أجاب الله عز وجل به في هذه الآية الكريمة قاطعا لشبهتهم مفعولا لهم، حيث ذكر أن المشركين إن كانوا تألوا من المسلمين مرة فقد نال المسلمون منهم مرتين، وإن كان المشركين أصابوا عددا من المسلمين فقد أصاب المسلمون منهم مثل العدد الذي أصيب من المسلمين فأخبرنا وإن كانت دولا فإن كفته المسلمين كانت راجحة، حيث انتصر المسلمون في بدر وهزم المشركون وانتصر المسلمون في أول معركة أحد فكانت للمسلمين جولتان: جولة في 117
بدر وجولةٌ في أحد، ولم يحصل المشركون إلا على جولة واحدة، كما أن المسلمين أصابوا من المشركين يوم بدر أربعين ومائة رجل: سبعين قتلا وسبعين أسيرا، وأصاب المشركون من المسلمين في أحد سبعين شهيدا، فالمسلمون أصابوا منهم مثل ما أصابوا من المسلمين. ثم بُنِيَ أن ما أصاب المسلمين في أحد ليس بسبب الإسلام بل بسبب خلافة أمر الإسلام حيث ترك بعض الرمامة مقاعدهم التي بَوْأْهُم إياها رسول الله ﷺ وحذرهم أن يتركوها إلا إذا أرسلَ إليهم، فلها خالفوا أمر رسول الله ﷺ أصيبوا بالصيحة التي أصابتهم. وفي ذلك يقول عز وجل: «أوّلما أصابكم مصيبة قد أصبهم مثليها قلتم أنتى هذا؟»، ﷺ وقالهم عز وجل: «إن الله علّك كل شيء قدير»، ﷺ إن الله تبارك وتعالى قادر على نصركم لو فتحتم وصبرتم، كما أنه قادر على التخلي إذا خالفتم وعصيتم، وهو سبحانه لا يعجزه شيء، ولا يفوته شيء، وأمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون، وبعد أن بين عز وجل أن ما أصاب المسلمين يوم أحد كان بسبب من عند أنفسهم وأنه عز وجل قادر على كل شيء أشار كذلك إلى بعض وجه الحكمة في جعل الجولة في آخر المعركة يوم أحد للمشركين حيث يقول تبارك وتعالى: «وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَتُ النَّقِيَّةِ الْجَمِيعُ كَأَنْ هَلََّبَتْ الْجَمِيعُ»، ﷺ ويعلم الذين نافقوا، وقيل لهم: تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا قالتوا لو نعلم قطلاً لا تُبِينناكِم»، ﷺ أي وما حديث لكم يوم تواجه الجمعان: جمع المسلمين الذين كانوا مع رسول الله ﷺ وجمع المشركين الذين كانوا مع أبي سفيان، وكان التقاء الجمعان يوم أحد، ومعنى قوله: «فَإِذْنَانِ اللَّهُ»، ﷺ في حكم نصر الله بعلم الله وقضائه وقدره وحكمته البالغة التي من جملتها أن نصر الله إذا تجبُّ بطاعته وطاعة رسوله ﷺ وهذا تأكيد لقوله تعالى في الآية السابقة: «قل هو من عند أنفسكم»، ﷺ ومن حكمته كذلك تميز المؤمنين من المنافقين،
حيث يقول عز وجل: {وليعلم المؤمنين} أي وليظهر في عالم الوجود والتنجيز ما علمه عز وجل أزى من نجاح المؤمنين عند هذا الامتحان والابتلاء، إذ ظهر منهم كمال الإيام والاستسلام لله عز وجل، ولذلك بشرهم الله عز وجل أكثر من مرة بعفوه عنهم كا تقدم، وقوله عز وجل: {وإليس الذين نافقوا} أي وليظهر في عالم الوجود والتنجيز ما علمه عز وجل أزى من ظهور نفاق المنافقين، فإن المصائب تبرز العذور من الصديق كا قال:

الشاعر:

جزى الله الشدائد كل خير، علمت بها أعذري من صديقي، وإنما قال عز وجل: {وإليس الذين نافقوا} ولم يقل: {وإليس المنافقين} كا قال: {وإليس المؤمنين} لإقامة ثبات المؤمنين على الإيام واستمرارهم عليه ورسوؤهم فيه أن النفاق قد حدث لبعض ضعاف الإيام، فعبر في جانب المؤمنين بصيغة اسم الفاعل الداله على الاستمرار وعبير في جانب الآخرين بوصول صلة الفعل للدلالة على التجدال والحدوث كأنه قيل: وما أصابكم يومذ فهو كائن إذن الله ولتميز الثابتين على الإيام؛ الذين أظهروا النفاق. وقيل تبارك وتعالى: {وقيل لهم تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا قالوا لعلم قاتلنا لانعناك}، هو مستأثف لبيان بعض مواقف المنافقين المخزية من كان نفاقهم قد عرف قبل معركة أحد، وهو عبد الله بن أبي أبّي إسحق لعنه الله ومن معه، الذين خرجوا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أحد فاذا كانوا في بعض الطريق رجع عبد الله بن أبي بثث الجيش، وقد ذكرت في تفسير قوله تبارك وتعالى: {إذ غدوت من أهلك تجوؤ المؤمنين مقاعد للقتال} أن رسول الله صلى الله عليه وسلم استشار الناس، واستقرن عليهم الخروج إلى أحد، فخرج بهم رسل الله صلى الله عليه وسلم نحو ألف رجل، والمشاركون نحو ثلاثة آلاف، غير أن عدو الله عبد الله بن أبي أبّي إسحق لعنة الله، 119
بنحو ثلث الناس قبل أن يصل إلى أحد، فحاول عبدالله بن عمرو بن حرام السُلَّامِي، والد جابر رضي الله عنه أن يجعلهم على متابعة رسول الله ﷺ، وقال لهم: تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا، فقال عبدالله بن أبي ومن معه من المناققين: لو نعلم قتالا لاببعناكم، وهذه المقالة ولا شك أظهرت لكثير من المؤمنين الذين كانوا يغرون بعد الله بن أبي ويعسبون مسليا حقا أنه رجل سوء، ولذلك كان إظهار عبدالله بن أبي هذه المقالة من أظهر جَمَّة معركة أحد التي قضاها الله عز وجل وفدّها، فقد أبرزت هذه المقالة مكتن نفسه، وكما قال الشاعر:

ومها تكن عند امرئ من خليقة إن خالها تخفي على الناس تعلّم فقد فضحه الله عز وجل، وفي قول عبدالله بن عمرو بن حرام الأنصاري رضي الله عنه لعبد الله بن أبي والذين معه: تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا، إشارة إلى خبرة عبدالله بن عمرو بن حرام رضي الله عنه بفنون الحرب، وأن من لا رغبة له في القتال والالتحام في المعركة مع العدو يمكن أن يستفاد منه بأن يجعل في الخط الخلفي من المعركة ليحمي ظهور المقاتلين، وقوله عدو الله عبدالله بن أبي ومن معه من المناققين: لو نعلم قتالا لاببعناكم هو كذب ظاهر من هؤلاء المناققين؛ لأنهم يعلمن أن أبا سفيان ما جاء بجيشه العرّم ينزل عند أحد إلا لقتال المسلمين والثائر لقتيل المشركين يوم بدر، وفي قوله تبارك وتعالى: هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيام، إشارة إلى تذبذب المناققين وترددهم بين الإيام والكفر. وأنهم قد يقتربون من الكفر حينا ويعتركون من الإيام حينا كما قال عز وجل فيهم: مدعيين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء وكما شهدوه الله عز وجل بقوله تبارك وتعالى: يكاد البرق يخفف أيضهم كما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: لما انهزم المسلمون يوم أحد.
وشج وجه النبي صلى الله عليه وسلم، وكسرت رُبّاعيّتُه، أرتدت طائفة، نافقو، فقال تعالى:

ولنا هنوا ولا نخزونو وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين. إن يمسكم قرح فقد مسَّ القوم قرح مثله وتلك الأيام نداوها بين الناس ويلعَل الله الذين آمنوا ويتخذ منكم شهداء والله لا يحب المظلّلين، وليمحص الله الذين آمنوا ويبحق الكافرين. وقال تعالى: وما أصابكم يوم النذير بالجمعان فإذا نزل الله وليعلم المؤمنين. وليعلم الذين نافقوا، وقيل لهم تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا قالوا لو نعلم فتالا لانتبعناهم، هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيضاء، يقولون بأفواهم ما ليس في قلوبهم، والله أعلم بما يكمنون. وقال فيه: وليعلم الذين نافقوا ظاهر فيمن أحدث نفاقا وهو يتناول من لم ينطق قبل ومن نافق ثم جدّد نفاقا ثانيا، وقوله: هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيضاء» بِيِنَّ أنهم لم يكونوا قبل ذلك أقرب منهم، بل إنا أن ينتفاخوا. إنما أن يكونوا لإيضاء أقرب، وكذلك كان، فإن ابن أبي لما انخلذ عن النبي صلى الله عليه وسلم في اليضاء، يوم أحد، اعترف بأولئك الناس، قبل كانوا نحو ثلاثمائة، وهؤلاء لم يكونوا قبل ذلك كله منافقين في الباطن، إذ لم يكن لهم داع إلى النذير، فإن ابن أبي كان مُظهَراً لطاعة النبي صلى الله عليه وسلم والإيضاء، وكان كله يوم جمعة يقوم خطيباً في المسجد، يأمر باتباع النبي صلى الله عليه وسلم، ولم يكن ما في قلبه يظهر إلا لقليل من الناس وإن ظهر، وكان مُعطياً في قومه، كانوا قد عزموا على أن يتمّوا، ويجعلوه مثل الم calloc عليهم، فلم جاءت النذير كانت، فتخمَّل النذير وإلا فلم يكن له قبل ذلك دين يدعو إليه، وإنما كان هذا في اليهود، فإني جاء النبي صلى الله عليه وسلم، وقد أظهر الله حسن ونوره مالت إليه القلوب، لا سبباً لما شعره الله يوم بدء، ونَصَرٌ على يهود بني قينقاع صار معه الدين والدنيا، فكان المقتضى للإيضاء في عامة الأنصار قابلاً، وكان كثير منهم يعظم ابن أبي تعظياً كثيراً ويثوَّاليه، ولم يكن ابن أبي أظهر تحالفه توجّبً
الامتياز، فلما انزل يوم أحد وقال: يدع رأيي ورأيهم وياخذ برأي الصبيان أو كما قال، انزل معه خلق كثير، منهم من لم ينافق قبل ذلك أه وقول ابن تيمية رحمه الله: يبين أنهم لم يكونوا قبل ذلك أقرب منهم، بل إما أن يتساويا، وإما أن يكونوا للإيابان أقرب، وكذلك كان. يريد رحمة الله أن هؤلاء المنافقين كانوا قبل هذه الموقعة إما قد تساووا عندهم الإيابان والكفر أو كانوا للإيابان أقرب، لكنهم عند هذه الواقعة كانوا أقرب إلى الكفر وأبعد عن الإيابان، وقوله عز وجل: «يقولون بأنموههم ما ليس في قلوبهم، والله أعلم بها يكتمون». أي يظهرون الإسلام بأنستهم ويبطون النفاق والله لا تخفى عليه خافية، وذكر الأنفوس للتأكيد كما في قوله: «يطير بجانايه». وقوله عز وجل: «الذين قالوا إخوانهم وقدموا لو أطاعونا ما قتلوا، قل فادروا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين». أي يقولون لأجل إخوانهم في النسب أو الندادر والجواز لا أنهم إخوانهم في الدين، الذين استشهدوا يوم أحد: لو أطاعونا وإن أخذلا عن محمد كنا إنجلنا عنه وقعدنا عن لقاء جيش أبي سفيان ما قتلوا، فنوفهم الله عز وجل وردنا باتلههم بقوله عز وجل: «قل فادعوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين» أي قل لهم يا محمد إن صدقتم في مقالتكم فادعوا الموت عن أنفسكم وهو آت لكم لا محالة. 

122
قال تعالى:

ولا تحسن الذين قتلو في سبيل الله أمواتا، بل أحياء عند ربهم يرزقون. فرحين بما آتاهم الله من فضله ويبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون. يستبشرون بنعمة من الله وفضل وأن الله لا يضع أجور المؤمنين. الذين استجابوا له والرسول من بعد ما أصابهم القرآن للذين أحستوا منهم واتقنا أجر عظيم. الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاحشؤهم فزادهم إياه وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل. فاتقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسه سوء واتبعوا رضوان الله، والله ذو فضل عظيم. إنها ذلوك الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوه وخافون إن كنت مؤمنين.

هذه الآيات هي خوائاتهم المسلك التي نزلت في قصة غزوة أحد، وبعد أن فضح الله مقالة المنافقين الذين أظهروا الشهادة للمسلمين فيها أصيبوا به من شهاداتهم حيث قالوا: لو كنا عندنا ما ماتوا وما قتلوا، ورددهم بأن يدفعوا عن أنفسهم الموت إذا جاءهم إن كانوا صادقين، بشر هذا المسلمين بأن شهداءهم أحياء عند ربهم يرزقون، حيث يقول عز وجل: ولا تحسن الذين قتلو في سبيل الله أمواتا، بل أحياء عند ربهم يرزقون. أي ولا تظنن يا محمد أو يا كل من يتأتي منه أن يفطر بهذا الخطاب أن من فارقت روحه جسده وقتله أعداؤه الله واستماسك بهدين الإسلام هو ميت كسائر الموتى الآخرين، لأن الله تعالى خصّهم بمزية لا ينالها إلا من قتل في سبيل الله حيث أحياءهم حياة كريمة خاصة بهم وأجرى عليهم أرزاقهم، فهم يحسون، ويلتنزون، وينعمون، وهم خُوًّون مُفْلِضُون بِما منحهم الله من الكرامة والفضل، وبها حباهم به من جزيل الثواب والعطاء والأجر، وقد ذكرت في تفسير قوله عز وجل: ولا تقولوا لمن يقتل في سبيل الله أمواتٍ، بل أحياءً.
ولكن لا تُشْعُرُونَ. أن الله تبارك وتعالى ينبع المسلمين إلى عدم إطلاق لفظ الموتى على الشهداء الذين يُقتلون في سبيل الله، سواء كانوا قد قتلوا في معركة مع الكافرين كشهداء بدر وغيرهم، أو قتلوا في غير المعركة كعميّة أم عامر. ابن ياسر رضي الله عنها التي كان عدوًا الله أبو جهل يُعدِّبُهَا بالنار. ويقول لها: اذكري إلهتَا بخير، وأذكري محمدًا بسوء، فتستشهد أن محمدًا رسول الله

فَضَرْبُهَا بِحَزْرِينَهَا فَقَدَّلَهَا فَكَانَتْ أَوْلَىٰ شهيد في الإسلام، وقد أخبر الله عز وجل أن الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون، وليس المقصود من هذه الحياة أنها حياة دنيوية بل هي حياة يرزق عينها منَّهَا الله تبارك وتعالى للشهداء، وقد فسرها رسول الله ﷺ، فقد روى مسلم في صحيحه عن طريق مسروق قال: سألنا عبد الله بن مسعود عن هذه الآية: ولا تحسنُ الذين قتلوا في سبيل الله أمواتٍ، بل أحياء عند ربهم يرزقون، الآية، قال: فإنما سألنا عن ذلك، فقال: أرواحهم في أجواءٍ طيب حضرة، لها فتانتان مُفَلَّحة بالعرض، تسرب من الجنة حيث شاءت، ثم تأتي إلى تلك الفاتنان، فتطلع عليهم أرواحهم في الاطلاع، فقال: هل تشهرون شيئًا؟ قالوا: أي شيء نشتكيه ونحن نسرح من الجنة حيث شتنا، ففعل ذلك بأربع مرات، فلما رأوا أنهم لن يتركوا من أن يسألوا. قالوا: يا رب! نريد أن تزداد أرواحنا في أجسادنا حتى نقتَلَ في سبيلك مرة أخرى، فلما رأى أن ليس لهم حاجة غرٍّ، وقلوه عز وجل: ولكن لا تشعرون بِأَن حياة الشهدا لا يعلمها إلا الله عز وجل، ودائم قد أخبر ربٌّ العزة جل وعلا أن الشهداء أحياء عند رحم يرزقون، وعلَّمَنا رسول الله ﷺ بعض صور من حياتهم التي عَلَّمَهُ الله عز وجل بها فَعَلَّمنا إلا التسليم، مع يقيننا أنهم فارقوا الحياة الدنيا، وأن أرواحهم خرجت من أجسادهم كما يدَّلُ عليه الحديث الصحيح المتقدم حيث قالوا: نريد أن كُرَّدَ أرواحنا في أجسادنا حتى نقتَلَ في سبيلك مرة أخرى لكننا لا نسمَّهم.

١٢٤
أمواتنا، وإننا نسميهم شهداء، وقد استشهد في غزوة أحد سبعون شهيداً، أربعة من المهاجرين وهم حمزة بن عبد المطلب سيد الشهداء، ومصعب بن عمرو، وعبد الله بن جحش وشجاع بن عثمان الخزاعي رضي الله عنهم. واستشهد من الأنصار ستة وستون شهيداً، وقوله تبارك وتعالى: "فأخرجوا أنتوه من فضل الله ويسبرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون. يستبررون بنعمة من الله وفضله وإن الله لا يضع أجر المؤمنين". أي إن الشهداء عند ربه أحياء يرزقون حال كونهم مسرورين بها منحهم الله عز وجل من فضله حيث شرّفهم بالشهادة، والفوز بالحياة الأبدية السعيدة، والنزف في من الله عز وجل، والتمتع بالنعيم المخلد المُعجَّل لهم، وهم مسروون من إخوانهم الذين تركوه من خلفهم أحياء في الدنيا على منهج الإيان والجهاد وطاعة الله ورسوله ﷺ. وإنهم إذا استشهدوا في سبيل الله حلقوا بهم ونالوا من كرامة الله وجوده مثل ما نالوا، وأنهم لا يخفون مما أمامهم، ولا يحزنون على ما تركوه وراءهم، وكأنهم يستبرون ويفرحون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم فإنهم يستبرون ويفرحون أيضاً لأنفسهم بما رزقوه من نعم الله التي أنعم بها عليهم، وفضلنا الذي منحهم إياه، وقد قال محمد بن إسحاق: حدثني إسحاق بن أمية عن أبي الزبير عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «ما أصيب إخوانيك بأحد جعل الله أرواحهم في أجواء طيبر خضر، ترد آثار الجنة، وتآكل من ثراها، وتأوي إلى فنادق من ذهب، في ظل العرش، فلما وجدهما طيب مشرّهم ونافعهم وحاسن مقبلهم» قالوا: يا ليت إخواننا يعلمون ما صنع الله لنا، لئلا يزدهروا في الجهاد، ولا ينكلوا عن الحرب فقال الله تعالى: فأن أبلغتهم عنكم، فأنزل على رسوله ﷺ هؤلاء الآيات: "ولا تحسوا..." قال ابن إسحاق وحدثني الحارث بن الفضيل عن محمود بن لبيد الأنصاري عن ابن عباس أنه قال:
قال رسول الله ﷺ: الشهداء على بارق نهر باب الجنة. في قبة خضرة، يخرج عليهم رزقهم من الجنة بكرة وعشيا. أه. وقوله عز وجل: "ولأن الله لا يضيع أجر المؤمنين" أي وفقرانون أيضا بأن الله يتقبل من جميع المؤمنين أعيالهم الصالحة، ولا يبطل جزاء من صدقة رسوله وعَمْلَه با جاءه به من عند الله، وقوله عز وجل: "الذين استجابوا الله والرسول من بعد ما أصابهم القرح للذين أحسسوا منهم واتقوا أجر عظيم". الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إياكنا وقالوا حسينا الله ونعم الوكيل. فانقلبوا بنعمة من الله وفضل السوء وأسهموا ضراً وسنوا رضوان الله، والله ذو فضل عظيم. هذه الآيات تتحدث عن قصة غزوة حرام الأسد التي توجه إليها رسول الله ﷺ في اليوم الثاني من غزوة أحد، وقد ذكرت أكثر من مرة في سياق تفسير الآيات السابقة التي تتحدث عن غزوة أحد أن الله عز وجل ألقى الرعب في قلوب المشركين مع أن الجولة الثانية وهي الأخيرة كانت لهم فانصرفوا عن أرض المعركة وامتطوا إليهم راجعين إلى مكة وقد أظلم الله تبارك وتعالى رسوله محمد ﷺ أن يخرج في اليوم الثاني من معركة أحد في إثر المشركين خائفة أن يرجعوا، ليريهم أن بأصحابه قوة، وأن معركة أحد لم تختصس شوكة المسلمين، فقدب المسلمين الذين شهدوا معركة أحد مع ما بهم من القرح فانتدب منهم سبعون رجلاً، فخرج بهم رسول الله ﷺ حتى نزلوا بحمراء الأسد على الطريق بين مكة والمدينة - وهي على بعد ثمانية أميال من المدينة المنورة، فعُمِّسَوا بها، وكان المشركون قد نزلوا بالرَّحَاء، فلما أفادوا من رعبهم تلألوا وقالوا: أصبت أشراف أصحابه محمد وقادتهم ثم نرجع قبل أن نستأصلهم؟ فأجابوا الرجعة إلى رسول الله ﷺ وأصحابه، وقد ذكر أن رضي الله أبا مُعَبَّد، ابن أبي مَعَبَّد الخزاعي، مراً برسول الله ﷺ وهو مقيم بحمراء الأسد وكان معبدٌ يوم ثم مشركًا إلا أن خزاعة مسلمُه وقَاتَلُهُم كانوا عنيفة نُصِح لرسول الله ﷺ
بتهامة، صَفَقْتُمْ مَعَهُ لا يَحْفُونَ عَنْهُ شَيْئًا، فَقَالَ مَعْبَدُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ:
يا مَهْدٌ، أَنَا وَاللَّهِ لَقَدْ عَرِّ عَلَيْنَا مَا أَصَابَك، وَلَوْ دَادُنا أنَّ اللَّهَ عَافَاكُ فِيهِم، ثُمَّ انتَلَقَ مَعْبَدٌ وَرَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِحَمْرَاءِ الأَسْدِ حَتًى أَقَيَّ أَبا سَفِيَانَ وَمَنْ مَعِهِ.
بالرَّوَاحَةِ وَالرَّوَاحَةِ عَلَى الْطَرِيقِ بِيَنِ مَكَّةَ وَالْمُدِينَةِ وَهَيْشَ عَلَيْنَا رَبِّي أَثْرِيكَ وَمَنْ مَعِهِ.
وَقَدْ أَخَذَ أَبُو سَفِيَانَ وَمَنْ مَعِهِ مِنَ المُشَرِّكِينَ."مَلَا مِنَ الْمَدِينَةِ إِلَّا أَحْيَا مَغْرِبًا.
الرَجَعَةِ لِلْاِسْتِصْالِ الْمُسْلِمِينَ، وَكَانَ مَعْبَدُ الخَزَاعِيُّ قَدْ تُحَرَّرَ مِن ثَيَابِهِ عِنْدَمَا أَقَلَّ عَلَيْهِم مَعْكَانًا فِي تَحْكُمَ المُشَرِّكِينَ عَلَى عَادَةِ الْتَنْذِيرِ الْعَرِبِيَّ، فَلِمَا رَأَى أَبُو سَفِيَانَ مَعْبَدًا قَالَ: مَا وَرَأَكَ بَا مَعْبَدٌ؟ قَالُ: مَهْدٌ خُرْجَ فِي أَصْحَابِهِ ﻓِي جَعْسِ لَمْ أَرْ مَثَلَهُ قَطُّ، يَتَحَرَّقُونَ عَلَيْكُمْ مَحْرُوفًا، قَدْ اجْتَمَعَ مَعِهِ مِنْ كَانَ مَرْحَبَتُهُ عِنْهُ فِي يَوْمِكُمْ وَنَدُمْوا عَلَى مَا صَنَعْتُوا، فِيهِمْ مِنَ الحَنْطِي عَلَيْكُمْ شَيءٌ لَمْ أَرْ مَثَلَهُ قَطُّ، قَالَ: وَيَكُ مَا تَقْوَلُ؟ قَالَ: مَا أَرْيُ أَنْ تَرْجَلَ حَتَّى أَرْيِ نَوَايَتِهِ، قَالَ: فَوَلَّاهُ لَقَدْ أَجْعَلْتُ النَّكَرَةَ عَلَيْهِمْ، لَسْتَ أَجْعَلُ تَتونَ بِبَيْنِهِمْ، قَالَ: فَإِنَّمَا أَنْهَاكَ عَنْ ذَلِكَ، وَلَقَدْ حَمَلَيْنِ ما رَأِيْتُ عَلَى أَنْ قَلَتْ فِيهِمْ أُبْيَانًا مِنْ الْشَّعْرِ، قَالَ: مَلَّتْ؟ قَالَ: قَلْتُ:
إِذْ سُلَّّتْ الأَرْضُ بِالجُرْدِ الأَعْيُنِ
مَزِيدًا يَأْسِرُ كَرَامَ لا نَتَأْبِيَّة
لَا سَخَّرُوا بِرَيْبِ غَيْرِ مَخْزُوشٍ
إِذَا تَمْطَعُّتُ البَطْحَاةُ بِالجُرْدِ
أَنْذَرْ بَيْنِ أَحْمَدٍ لا وَخْشِ تَنَآٰبُ
وَلَسْتُ بَيْسَ مَا أَنْدَرَتْ بِالْقُلُوبِ

وَمَا أَنْ سَمَعَ الْمُشَرِّكُونَ مِنْ مَعْبَدٍ مَا قَالَ لَهُمْ حَتَّى كَادَتْ قَلُوبُهُمْ تَنْخَلُعُ مِنْ الْرَّبِّ وَالْذَّعْرِ، فَانْتَلَفَوا عَلَى وَجْهِهِمْ نَحْوَ مَكَّةِ، وَلَقَّيَ أَبُو سَفِيَانَ نَعْيَمَ بِن
مسعود الأشجعيَّ أو ركباً من عبد القيس، فجعل من لَقَيى منهم محمدًا ﷺ وأخبره أن أبا سفيان والذين معه قد جَمعوا ملتقاة محمد ﷺ وصحب ورَدَّه عليهم أن يعطيهم أحملاً من زبيب بعكاظ، فجاء تعيم بن مسعود الأشجعي أو الرهط من عبد القيس إلى رسول الله ﷺ وصحب وحالوا له ولمسلمين: إن الناس قد جمعوا لكم فاحذروا لقيائم وخفافهم، فإنه لا طاقة لكم بهم، فلما سمع ذلك رسول الله ﷺ والمسلمون زادهم ذلك القول إبداناً بالله وقياناً بنصره، وقالوا عَبْسًا الله ونعم الوكيل، ومساء تلك المشركين هُزَّوا إلى مكة رجعوا بنعمة من الله وفضل لم يمسهم سوء، وأنزل الله عز وجل في قصة حراء الأسد هذه الآيات. وقد روى البخاري ومسلم واللفظ للبخاري من طريق هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة: ﴿الذين استجابوا الله والرسول من بعد ما أصابهم القرح للذين أحسسونا منهم واتقوا أجر عظيم. ﴿قالت لعروة: يا ابن أخي، كان أَبوُوكَان منهم: الزبير وأبو بكر، لما أصاب رسول الله ﷺ ما أصاب يوم أحد، وانصرف عنه المشركون خاف أن يرجعوا، قال: من يذهب في إِثْرُهم؟ فانتدب منهم سبعون رجلاً، قال: كان فيها أبو بكر والزبير. كما روى البخاري من حديث ابن عباس قال: حسنُنا الله ونعم الوكيل قالها إبراهيم عليه السلام حين أَلقي في النار، وقال: محمد ﷺ حين قالوا: إن الناس قد جمعوا لكم فاحذروهم فزادهم إبداناً وقالوا: حسنُنا الله ونعم الوكيل إهد الناس في قوله: ﴿قال لهم الناس إن الناس ﴿ هو عام أريد به الخصوص فما يراد بالناس الذين قالوا: هو تعيم الأشجعي أو الرهط من عبد القيس، والناس الذين جمعوا هم أبا سفيان ومن معه. ومعنِي: حسنُنا الله ونعم الوكيل: أي الله يَحَفظنا من كل شر ونعم المولى لن وليه وكَفَّلَه من فَوَّض أَمره إليه، وقوله: ﴿فانقلبوا بنعمة من الله ﴿ ففضل لم يمسهم سوء واتبعوا رضوان الله، والله ذو فضل عظيم ﴿ أي
رجعوا إلى المدينة بالنعمه والفضل وصرف السوء واتباع الرضا. وفضل الله كبير وقوله: "إني ذللك الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافواهم وخافون إن كنتم مؤمنين" أي إن ذللك الشيطان يخوفكم أولياءه المشركين فلا تخافوا منهم لأنهم حزب الشيطان وحزب الشيطان هم الخاسرون، وامنعوا قلوبكم أن يتصرف له الخوف إلا من الله وحده لأن هذا هو شأن المؤمنين.
قال تعالى: ﴿ولا يُجزنك الذين يسارعون في الكفر، إنهم لن يضروا الله شيئاً، يريد الله ألا يجعل لهم حظاً في الآخرة وله عذاب عظيم. إن الذين أشتروا الكفر بالإيام لن يضروا الله شيئاً وله عذاب أليم. ولا يحسب الذين كفروا أنها نمي لهم خير لأنفسهم، إنها نمي لهم ليزدادوا إثماً، وله عذاب مهين. ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب، وما كان الله ليطلعكم على الغيب ولكن الله يجري من رسوله من يشاء فآمنوا بالله ورسله، وإن تؤمنوا وتقوا فلكم أجر عظيم.﴾

بعد أن أشار الله تبارك وتعالى إلى قصة غزوة حمراء الأسد وما فيها من الدلالة على رسول الإيام في قلوب المهاجرين والأنصار الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القَرْحِ وأن الله عز وجل صانهم من كل شر وأرجعهم إلى المدينة بنعمة من الله وفضل لم يمسهم سواء واتبعوا رضوان الله ولما كان رسول الله ﷺ قد أحرزه اندفاع المنافقين في الضلال، وارتداد بعض ضعاف الإيام إلى الكفر بعد مصائب المسلمين في أحد، وكان رسول الله ﷺ شديد الحرص على دخول الناس في الإسلام ليُستَلُّموا من عذاب يوم القيامة، وكان هذا الحزن يؤثر على نفس رسول الله ﷺ كما أشار الله عز وجل إلى ذلك في قوله تعالى: ﴿فَلَعِلَّكِ بَاخِعٌ نَفْسَكَ ﺑِهِ ﻋَلَى ﺃُثَرَهُمْ إِنَّا لَا نَمُؤُنْ بِهِ ذَٰلِكَ الحَدِيثِ أَبْسَا ﴿. وكما قال عز وجل: ﴿لَعِلَّكِ بَاخِعٌ نَفْسَكَ أَلَا يَكُونُوا مِؤْمِنِينَ ﴿. لذلك نهى الله عز وجل رسوله ﷺ عن الحزن إذا رأى اندفاع الكفار في كفرهم، وبين له ﷺ أن كفر الكافر لا يضر الله شيئاً. وأن الله لو أراد أن يجعل لهم حظاً في الجنة لَوْفَقَهُمْ للدخول في الإسلام. وفي هذا تسلية لرسول الله ﷺ ومواساة له، وفي ذلك يقول تبارك وتعالى: ﴿ولا يُجزنك الذين يسارعون في الكفر﴾ أي لا يؤول ما تراه من اندفاع بعض الناس في الكفر.
وتتابعهم لشيَّاطين الجن والإنس، وكما قال عز وجل: «أي أبا الرسول لا يحزنك الذين يساريون في الكفر من الذين قالوا آمنا بأفعالهم ولم تؤمن قلوبهم» وقوله عز وجل: «إنهم لست ضياء الله شيتا» زيادةً شبيه ومواساة وتسليم لرسول الله ﷺ ولتقرير حقيقة أن معصية العظام وكفر الكافرين لا يضر الله شيتا وإنها وبالأذن على مركبته، كما أن طاعة الطائعين لا تنفع الله شيتا؛ لأن الله غني عن العالمين ولذلك قال هنا: «يريد الله ألا يجعل لهم حظا في الآخرة ولهم عذاب عظيم» وقُد روى مسلم في صحيحه عن طريق سعيد بن عبد العزيز عن ربيعة بن يزيد عن أبي إدريس الخولاني عن أبي ذر عن النبي ﷺ فيه روى عن الله تبارك وتعالى أنه قال: «يا عبادي إن حرمتُ الظلم على نفسك وجعلته بينكم خيرا فلا تظالموا، يا عبادي كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهديكم» يأبي كلكم جائع إلا من أطعمته فاستطعمني أطعمكم، يا عبادي كلكم عار إلا من كسوته فاستكسوني أكسكُم، يا عبادي إنكم تخطون بالليل والنهار وأنا أغفر الذنوب جميعًا فاستغفرني أغفر لكم، يا عبادي إنكم لست بطلِّوا ضَرِّي فتُصُرُّوني ولن تبلغوا تفْعِي فانْفَعُونِي، يا عبادي لو أنّي أُولَّكم وأُخْرِكم وإنكم وِجْنَكُم كانوا على أثني قُلّب رجل واحد منكم ما زاد ذلك في ملكي شيتا، يا عبادي لو أن أُولَّكم وأُخْرِكم وإنكم وِجْنَكُم كانوا على أثني قلب رجل واحد ما تنصّ بذلك من ملكي شيتا، يا عبادي لو أن أُولَّكم وأُخْرِكم وإنكم وِجْنَكُم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك ما عندي إلا كما ينقص المحيطُ إذا أدخَل البحر، يا عبادي إنها هي أعبالكم أخصيهمًا لكم ثم أوفِّيكم إيابًا فمن وجد حيًا فليحمد الله ومن وجد غيّر ذلك فلا يلَّومنَ إلا نفسه». قال سعيد: كان أبو إدريس الحولاني إذا حدث بهذا الحديث جنًا على ركبتيه ﷺ وإمرًا بالارادة في قوله عز وجل: «يريد الله ألا...»
يجعلهم حظًا في الآخرة هي الإرادة الكونية القُدُرِيَّة التي بمعنى المشيئة لا الإرادة الشرعية التي بمعنى الحزية، والمراد بالوجود هنا هو النصيب من نعيم الجنة، وقوله تبارك وتعالى: «إن الذين اشتروا الكفر بالإنان لينضروه الله شيئًا وهم عذاب أليم» هو مزيد مؤاساة لرسل الله ببيان أن عموم الكفار الذين رضوا بالكفر بالله ورسله بِذل الأنان بالله ورسله هم أصحاب الصفقة الخاسرة، فإن وَيَّال كفرهم عائد عليهم، ولن يضروا الله شيئًا ولن يمنعوا عز الإسلام وانتشاره وارتفاع رايتهم في العالمين ولن يتمكنوا بكفرهم من إطفاء نور الله مهما جمعوا وشددوا وفي هذا حث للفقراء على إخلاص اليقين والانقطاع إلى الله وحده ووالرسالة بطائاتهم وقيد، وبذل النفس والنفيس في سبيل الله وانتقاء مرضاته، ليسلموا من عقوبة الله الموجبة التي أعدها لمن اشترى الكفر بالإنان، وقوله تبارك وتعالى: «ولا يحسبن الذين كفروا أنهم نملة لهم خير لأنفسهم، إنها نملة لهم ليزدادوا إليها، وهم عذاب مهين.» أي ولا يُظن الذين كفروا أنهم نسوغ عليهم في أرزاقهم وزغ عيشهم وعدم تعجيلهم بعقوبات معاصفهم هو لمصلحتهم، بل إنها تفعَّل ذلك بهم استدراجاً لهم من حيث لا يعلمون، فإن حكمة الحكيم اقتضت أنه إذا سخط على العبد واشتد غضبه عليه أمَّل له وأَرْحَى له في عيشه ليأخذ أحد عزيز مقيد فيكون ذلك أشد في العقوبة، وأعظم في الإيلام وفي ذلك يقول تبارك وتعالى: «والذين كذبوا بآياتنا سنستدرجوهم من حيث لا يعلمون. وأملي لهم، إن كيدي متين.» وكما قال عز وجل: «فذرني ومن يكذب بهذا الحديث سنستدرجوهم من حيث لا يعلمون. وأملي لهم، إن كيدي متين.» وكما قال عز وجل: «أيحسبون أنهم نمذُّهم بد من مال وبيين. نسارع لهم في الخيات، بل لا يشعرون.» وكما قال عز وجل: «فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا وترهق أنفسهم وهم

١٣٢
كفاً. وكما قال عز وجل: «ولا تعجبك أموالهم وأولادهم، إنما يريد الله أن يعذبهم بما في الدنيا وترتهق أنفسهم وهم كفاً.» وأصل الإملاء هو التوسعة والإخاء يقول: «أوصلي للبصير في القيد أيا أرخت له ووسعت، والعاقل إذا تواترت عليه النعم ازداد شكره عز وجل مع خوفه أن تكون استدراجاً، والفاجر إذا تواترت عليه النعم ازداد تغياً وكفرًا وطغياناً، والله تبارك وتعالى يعطي الدنيا ممن يحب ولم لا يحبه، ومن يحبه الله عز وجل إذا أعطاه النعمة شكر الله عليها، ومن لا يحبه الله إذا أنعم الله عليه بنعمة اعتقد أنها من علّمه وقد قال عز وجل في وصف غور بعض الكفار بالنعمت: إذا فسِّر الإنسان ضَرُّ دعنا ثم إذا خولساه نعمه ومن قال إنا أوتيته على علم، بل هي فتنة وليكن أكثرهم لا يعلمون.» وكما قال عز وجل عن قاون: «فإن قاون كان من قوم موسى فبغي عليهم وآيتاه من الكنوز ما إن مقاطعته لتنوء بالعصة أولى القوة إذ قال له قومه لا تضر إن الله لا يحب الفرحين. وابن في آتناك الله البدار الآخرة ولا تسنصيبك من الدنيا وأحسن كأحسن الله إليك ولا تبغ الفمساد في الأرض إن الله لا يحب المفسدين. قال إننا أوتيته على علم عندنا الآيات. وقد روى البخاري ومسلم واللفظ للبخاري من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: إن الله أَيْمَلُ للظلم حتى إذا أخذه لم يفلتَهُ، قال: ثم قرأ: «وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظلمة إن أخذها أليم شديد.» وقاله عز وجل: «ما كان الله ليَذَّرُ المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الحبيب من الطيب، وما كان الله ليُهْلِعَكم على الغيب ولكن الله يَجْتَنِبِي من رسله من يشاء فآمنوا بالله ورسله، وإن تؤمنوا وتنقوا فَلَكُم أجر عظيم.» هذه هي خاتمة الآيات التي تحدثت في هذه السورة الكريمة عن غزوة أحد وغزوة حراء الأسد الملحة بها، وقد أشار الله تبارك وتعالى في هذه الآية إلى
الفقه فيها إبتيح له المسلمون في غزوة أحد وفى غزوة حمراء الأسد، وهو أنَّ المجتمع السعيد لا يقوم على أفراد مختلفي العقائد، متناقضي الميول والاتجاهات في الباطن في الوقت الذي يبدو للناس أنهم وحدة متاسفة، متحابون متعاطفون؛ لأن اختلاف الحبث بالطيب يلتح الضرر بالطيب من حيث لا يدري أن الذي يمالأله خبيث، واختلاف المنافقين بالأؤمنين دون تمييز أخطر على الأؤمنين من أن تختلف بهم الأفاضي والحيات والعقارب، ولما كان المنافق يظهر كفره ويظهر الإسلام والانقياد الله ورسوله، وقد حجب الله عز وجل الغيب عن الخلق لأنه وحده هو علام الغيوب، ولا يظهر على غيبه أحد إلا من ارتضى من رسول فليطبعه على بعض الغيب، اقتضت حكمة الله عز وجل أن يطبع رسوله على أشخاص بعض المنافقين قيصرهم بأسائهم أو سبائهم أو خيال القول، ولم يكن من الحكمة أن يعرف ذلك كل منؤمنين، فلذلك هياً الله تبارك وتعالى من الحوادث والجرولات بين الأؤمنين والكافرين في أُحدهما وفانتكشف نفاق كثير من المنافقين وعرف المنافقون الحبض من الطيب والعدو من الصديق، وعلى الأؤمن أن ينبي إلى الله وأن يستجيب لرسوله عليهم الصلاة والسلام ومن يؤمن بالله ورسوله ويتق الله عز وجل في جميع شأنه فله عند الله عز وجل أجور عظيم وفي ذلك كله يقول الله تبارك وتعالى: «ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أتم عليه» أي ما كان الله ليترك المؤمنين بنذال في صفوفهم المنافقين دون تمييز، ولذلك قال: «فإذا يتميز الحبض من الطيب» وأشار إلى أنه ليس من الحكمة إطلاع كل فرد فرد من الأؤمنين على نفاق كل فرد فرد من المنافقين حيث يقول: «وما كان الله ليطلعهم على الغيب، ولكن الله يجيب من رسوله من بضائع» أي فطلع الرسول على بعض الغيب، ومن ذلك تعريفه بعض المنافقين، وقد ذكر الله تبارك وتعالى الكثير من صفاتهم في سورة التوبة التي

134
فضحتهم وبينت مخازنهم، وقال عز وجل في سورة محمد عليه الصلاة والسلام: "أم حسب الذين في قلوبهم مرضى أن لن يخرج الله أضغانهم. ولو نشاء لذريناكم فلعرفتم بسياهم، ولتعرفن في لحن القول، والله يعلم أفعالكم. " وقد أخبر رسول الله ﷺ حديثة رضي الله عنه ببعض أسيا منافقين، وكان يسمى صاحب سر رسول الله ﷺ كا جاء في الصحيحين.

١٣٥
قال تعالى: ﴿ولا يحسن الذين يدخلون بها آتاهم الله من فضلهم هو خيراً لهم بل هو شر لهم سيطوفون ما بخلوا به يوم القيامة، والله ميراث السموات والأرض، والله بها تعملون خير.﴾ لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء، سنكتب ما قالوا وقتلهم الأنبياء بغير حق ونقلذوقوا عذاب الحريق. ذلك بيا قدمت أيدكم و أن الله ليس بظلام للعباد. الذين قالوا إن الله عهد إليتنا ألا نؤمن لرسول حتى يأتيتنا بقرون تأكله النار، قل قد جاءكم رسل من قبل بالبلين و بالذي قلتم فلم فتلمموه إن كتتم صادقين﴾.

بعد أن حُرَّض الله تبارك وتعالى على بذل النفس في الجهاد في سبيل الله، وأكد ذلك بصورة تجعل من به ريش يخسر على الحماية إعلان كلمة الله، شرع هنا في التحضير على بذل المال في سبيل الله، وأكد ذلك بيان الوعيد الشديد لم يدخل بذل المال في وجه الخير الذي أوجب الله على الأغنياء بذل جزء معين فيها وعلى رأسها الزكاة التي جعل الله تبارك وتعالى من مصارفها ما يبذل للغزاة، وقوله عز وجل: ﴿ولا يحسن الذين يدخلون بها آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم بل هو شر لهم سيطوفون ما بخلوا به يوم القيامة﴾. أي ولا يظن الذين يكترون أعمالهم ويشحون بها فلا يخرجون منها ما فرض الله عليهم فيهما، أنهم يفعلون خيراً لأنفسهم بل هم يفعلون لأنفسهم شراً ويقدمونها إلى عذاب الله، وأن الله تبارك وتعالى سيجعلها عليهم طوقاً في أعناقهم يوم القيامة وفي قوله عز وجل: ﴿بيا آتاهم الله من فضلهم﴾ أي هو عارية بأيديهم جعلهم الله عز وجل مستخلفين فيه، وقد جاء به عليهم، وقد أكد الله عز وجل وحامة عاقبة البخل بحَتْطاته أهله المتوهبين خُيَرَتُهُ، حيث قال: ﴿ولا يحسن الذين يدخلون بها آتاهم الله من فضلهم هو خيراً لهم﴾ ثم قال: ﴿بل هو شر لهم﴾ للاستجابة على مُرشَّحِه المفهومة من نقي.
خيريته للمبالغة في تأكيد أنه شرٌّ لهم، ولا خير لهم فيه بحال من الأحوال،
ثم قال عز وجل: «سيطروا ضعيفًا ما بخلوا به يوم القيامة» لبيان كيفية شرته
بذكر صورة مزعجة ضعيفة من صور عقوقية أهلها عند الله يوم القيامة، وقد قال
البخاري في صحيحه: باب: «ولا يحسن الذين يدخلون بها آيتهم الله من
فضله» هو خيرا لهم بل هو شرٌّ لهم سيطروا ضعيفًا ما بخلوا به يوم القيامة، والله
مرات السماوات والأرض، والله بها تعملون خيرًا.» سيطروا ضعيفًا كقولك:
طروخته بطوقٍ، حدثني عبد الله بن منير سمع أبا النضر حدثنا عبد الرحمن هو
ابن عبد الله بن دينار عن أبيه عن أبي صالح عن أبي هريرة قال: قال رسول
الله ﷺ: «من أتاه الله مالاً فلم يبتدأ رزابه مثلاً له ماله شجاعة أقوى، له
زيبَتينان، يتوقفه يوم القيامة يأخذ يلهَرُهُمْ يعني يشدَّقْه، يقول: أنا مالك،
أنا كملك، ثم تلا هذه الآية: «ولا يحسن الذين يدخلون بها آيتهم الله من
فضله» إلى آخر الآية، والمراد بالشجاعة الأقوى هو الشجاع الذي أيضًا رأسه
من كثرة السم، وقوله عز وجل: «ولله مرات السماوات والأرض» المقصود
منه بيتان أن هؤلاء البخلاء الذين يسخرون فلا يعودون ححق الله في أمواتهم
سيبتلون عنها لمحالة، إذ لا بقاء إلا للحلي القيوم الذي له ملك السماوات
والأرض، وقد كانت أموال الناس عاريةٍ بيد من جعلهم مستخلصين فيها فإذا
ماتوا رذأت العارية إلى صاحبها الذي كان قد أعزهم إياها، وقد فأتهم أن
يَّقِدُموا لأنفسهم خيرا إذا بخلوا بحق الله عز وجل فيها ولم يَبْدُوا ما أزلهم الله
تبارك وتعالٍ بأدائِه منها، ومال جميع ما في السماوات والأرض له وحده لا
شريك له كما قال عز وجل: «إنا نحن نرث الأرض ومن عليها ونأتي
برجعون».» وقوله عز وجل: «والله بها تعملون خيرًا» وعند شديد للذين
يدخلون بها آيتهم الله من فضلهم، ولكن من يخالف أمر الله عز وجل، ووعد
للمحسنين من عباد الله حيث أخبر عز وجل أنه ذو خبرة وعلم بجميع ما

١٣٧
يفعله عباده، معيش بذلك كله وسيجازى المحسن بإحسانه من فضله، ويجزى المسيئين بعده، ولا يظلم ربك أحداً مع عفوهم عن يشاء من عباده. وقوله تبارك وتعالى: «لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء، سنكتب ما قالوا وقتلهم الأنباء بغير حق.» هذه صورة من صور جهل الإنسان بربه وعدم معرفته بخالقه ورازقه، حيث قال بعض هؤلاء الجاهلين: إن الله فقير ونحن أغنياء، ولا شك أن اليهود يعتبرون أجراً خلق الله عز وجل على وصف الله تبارك وتعالى بها لا يليق به، فهم يصفون الله عز وجل بالبخل والشهب. كما قال تبارك وتعالى عنهم: «وَقَالَتِ الْيَهُودُ بِذِلِّكَ الله مغلولة، غلت أيديهم وعُلِّنوا بها قالوا، بل يداه مبسوطتان يتفق كيف يشاء»، وقد أضاف الله تبارك وتعالى إلى قبيح قولهم هذا قبيح فعلمهم حيث قال هنا: «وَقَتَلْهُمُ الْأَنْبَاءُ بِغَيْرِ حَقٍّ»، وفي هذا السياق الكريم تحذير شديد للمسلمين المذعوْنين للبذل في سبيل الله من أن تتآثر نفس بغضهم من بعض ما يلقيه اليهود من الشبه وما يفترلونه من وصف الله بما لا يليق به عز وجل، وفي اقتران ما وصفوه النفيّي الكرم بأنه فقير وأنهم أغنياء بأنهم قتلة الأنبياء مما يجعل من له مسكة من عقل يجذر منهم أشد الحذر، ولا يشبههم بهم في فعل ولا خبر، والسين في قوله عز وجل: «سَكَتْ عَلَيْهِمُ الْأَنْبَاءُ» لتؤكد الوعيد، أي لن يفوتنا أبداً تسجيله عليهم وتدويره في صاحبهم لكونه في غاية الجوّم والقصود أنه سيذبحهم به ويدقيقهم عذاب الخريف ولن يغفر لهم هذه الخطيئة أبداً، فلا يأملون عفو الله عنهم بحال من الأحوال، كما سكت عليهم قتلهم أنبياء الله بغير حق ولن نُفَعَ عمن قتل نبياً أبداً، وتتوسّط هذا الوعيد بين جرائهم في وصف الله بأنه فقير وأنهم أغنياء وبين جرائهم في قتلهم الأنبياء لتعجيل مسأليتم بأن لهم يمحو هذه الخطايا بحال من الأحوال، حيث صاروا أجرًا خلق الله على الله وعلى رسله، ولا شك أن

١٣٨
كل ذنب يرتكبه إنسان يكتب عليه في صحيفة عمله، وهو مكتوب قبل ذلك في اللوح المحفوظ، غير أن منَّ يَمْتَصَّ الْحَقَّ لَعَنَّهُ عَن ذِبَّهُ أو يَتَوَّبُ تويبًا نصوحًا في الوقت الذي تقبل فيه توبته فإن الله عز وجل يمحو سيئته من صحيفته ولا يؤخذ به ضرًا، أما هذا القول البشّر على الله عز وجل وكذلك قتل الأنبياء فقد أشار الله عز وجل بقوله: {سنكتب ما قالوا} إلى أنه لن يمحو هذه السيئة أبدا ولن يغفر لمريكها بحال من الأحوال ولذلك قال عز وجل بعدها: {ونقول ذوقوا عذاب الحريق}. {أي نقول للقائرين بأن الله فقير ونحن أغنياء، القائرين أنياء الله بيغرين حتى نقول لهم: ذوقوا عذاب الحريق أي عذاب نار محروقة ملتهبة، فالنار اسم جامع للملتهبة وغير الملتهبة قال ابن جرير: فإنها الحريق صفة لما يراد أنها محروقة كا قيل: عذاب أليم يعني: مؤلم. ووجيع يعني مرجع إلا فإن قال قائل: كيف قيل: {وقتِلهم الأنبياء بيغرين حتى} والمعروف أن الذين قالوا: إن الله فقير ونحن أغنياء هم المعاصرون لرسول الله ولم يكن من أولئك أحد قتل نبيا من الأنبياء فالمحاب: أن المعاصرين منهم القائرين بأن الله فقير راضون بما فعل أوائلهم وأسلافهم من قتل من قتلوا من الأنبياء، وكانوا على منهجهم من استحلال ذلك واستجرازه، وقد هم بقتل النبي أكثر من مرة فهم لم ينسخوا من أفعال آبائهم البشعة، ولم يخرجوا عن كونهم إخوان القردة والخنثازر وقتلة الأنبياء، وقوله تبارك وتعالى: {ذلك يا قدمت أنيديكم وأن الله ليس بظلمل للعباد} قال ابن جرير رحمه الله في تفسير هذه الآية: وأما قوله: {ذلك يا قدمت أنيديكم} أي قولنا لهم يوم القيامة: {ذوقوا عذاب الحريق} بها أسلفتم أنيديكم، واكتسبتمها أيام حياتكم في الدنيا، وأن الله عدل لا يجور وفِي تفاوت عبده لا يغير استحقاق منه العقوبة، ولكنك يجازي كل نفس بما كسبت، ويوفي كل عام جزاء ما عمل، فجازى الذين قال لهم {ذلك}
يوم القيامة من اليهود الذين وصف صيقتهم، فأخبر عنهم أنهم قالوا: 
"إن الله فقير ونحن أغنياءً" وقتلوا الأنيباء بغير حق بما جازتهم به من عذاب الحريق، بما استبوا من الآلام، واجتازوا من السيناء، وكذبوا على الله بعد الإعدار إليهم بالإنذار، فلم يكن تعالى ذكرها عاقبهم به من إدانتهم عذاب الحريق ظلمًا ولا واضعا عقوبةً في غير أهله، وكذلك هو جمل نثاؤه غير ظلم أهداً من خلقه، ولكنه العادل بينهم المتفصًّل على جميعهم بما أحب من فواضله ونعمة اه وبوقته تبارك وتعالى: "الذين قالوا إن الله عهد إلينا ألا نؤمن لرسول حتى يأتينا يُقربنا تأكلة النار، فلقد جاءكم رسل من قبل بالبيات وبالذي قلتم قلم قلتموه إن كنتم صادقين."
هذا بيان لفرية أخرى من متفرقات اليهود على الله وعلى رسله حيث زعوا أن الله وصاهم ألا يصدقو رسلهم من الرسل أو نبي من الأنبياء إلا إذا قدل أمامهم قربان الله عز وجل وجاءت النار وأكلت هذا القربان وهم بيصرون. وأرادوا بهذه الفرية الطعن في نبوة خاتم الأنبياء وسيد المرسلين محمد ﷺ حيث لم يجتهم بقبران تأكله النار، كأنهم يغللون بهذه الدعوى الكاذبة أمام رعاهم حيث يوهوههم أنهم لم يدخلوا في دين محمد لأنهم لم يجتهم بقبران تأكله النار، والثبت أن الله عز وجل لما جعل الغنائم محمرة على بني إسرائيل كانوا إذا جمعوا الغنائم جاءت نار فأكلتها، تعنت بعضهم فطلبوا من بعض أنبيائهم أنهم لن يصدقوهم مهما جاءوا بالمعجزات إلا إذا كانت إحدى هذه المعجزات أن يقرب النبي قربانًا وتأتى النار تأكله وقد أبد الله عز وجل بعض أنبيائه بهذه المعجزة، وليست لكل نبي ولا شرطاً في تصديق جميع الرسل، لأن الله عز وجل إذا أبد الرسول بأي معجزة كانت وجب تصديقه، ومعجزات موسى عليه السلام عند فرعون كانت بأمور ليس من بينها نار تأكل القربان، قارد الله عز وجل هنا باطلهم، وأفححهم في شبهتهم، حيث قال: "قل قد
جاءكم رسول من قبلي بالبينات، وبالذي قلتم فلم قتلىهم إن كنتم صادقين. أي قد جاءكم الرسول قبل محمد بمعجزات كثيرة ومعجزة التي طلبتموها تعني لا استرشادا. فلم قتل أسلافكم هؤلاء الأنبياء الذين جاءوهم بها طلبا ورضيتهم أبا المعاصرون من أبنائهم فعلهم إن كنتم أنتم تطلبون المعجزة للإرشاد لا للتمرن، مع أن محمد قد جاءكم بالبينات الحسية والمعنوية التي يؤمن على مثلها البشر، وأنتم تعرفون في قرارة نفوسكم أن محمد رسول الله كا تعزون أبناءكم ولكنكم تكتملون الحق وأنت تعلمون.
قال تعالى: "إِنَّكَ ذَٰلِكَ فَضِلُّ رَسُولِ اللَّهِ عِلْمًا وَضُرُّّبَ شَرِّكًا ضِعْفًا مِّنْ أُوْلِي الْأَوْلَادِ، وَلَٰكِنَّ الْيَوْمَ لَا تَزْهِبُ مِنَ الْكِتَابِ يُبَلَّغُونَ فِيهِ، وَلَا يَبْنُونَ فِيهِ ضَرًّا مِّنْ ذَٰلِكَ يُبَلَّغُونَ فِيهِ، وَلَا يَبْنُونَ فِيهِ ضَرًّا مِّنْ ذَٰلِكَ". }

بعد أن أبطل تبارك وتعالى شبهة الفاقدين لرسوله محمد ﷺ إن الله عهد إلينا ألا نؤمن لرسول حتى يأتي نبأ من تأكده النار، وأفحمهم بها لا يدع مجالاً للشك أنهم معتنون لا مسترشدون ذكر لرسوله محمد ﷺ. إنهم إذا لم يؤمنوا به بعد هذه الأفكار، واستمرا على التكذيب كان الحامل لهم هو العبادة لا طلب الحق، لأن شبههم قد أزيلت، ومتركونهم قد أبطلت فلا تبتنى بتكييفهم، فإن هذا التكذيب لك ليس أمراً خاصاً بكم من بين سائر الأنبياء بل شأن جميع الكفار تكذيب جميع الأنبياء وطعنهم فيهم مع أن حالفهم في ظهور المعجزات على أيديهم وفي نزول الكتب إليهم كما قالَّ ومع هذا فإنهما صبروا على ما تألموا من أولئك الآمرين احتملوا ما تعرضوا له من الأذى في سبيل تبليغ رسالة الله عز وجل، فكان منتأسياً بهم، سالكاً مسلكاً، حيث يقول عز وجل: "إِنَّكَ ذَٰلِكَ فَضِلُّ رَسُولِ اللَّهِ عِلْمًا وَضُرَّبَ شَرِّكًا ضِعْفًا مِّنْ أُوْلِي الْأَوْلَادِ، وَلَٰكِنَّ الْيَوْمَ لَا تَزْهِبُ مِّنَ الْكِتَابِ يُبَلَّغُونَ فِيهِ، وَلَا يَبْنُونَ فِيهِ ضَرًّا مِّنْ ذَٰلِكَ يُبَلَّغُونَ فِيهِ، وَلَا يَبْنُونَ فِيهِ ضَرًّا مِّنْ ذَٰلِكَ" أي فلست أول مكذب حيث كذب إذوانو المسلمون من قبلك، ولا شك أن ما يهون عن النفس مصيرها كونها عامة كما قال الله ﷺ: "وَلَوْلا كَثِّرَةُ الْبَاكِيِّينَ حُولًاٍ لَّوَانْشِئُ عَنْهُمُ اللَّهُ وَأُولَٰئِكَ يُصِبُّهُمْ مُّجَلَّلًا وَنُوحًا تَنْتَهُهُ بِمَآءٍ نَّحْسٍ".
وما يقين مثلّ أخذي ولكنّي أُسْلِمُ النفس عنه بالتأسسي
والمراد بالبيانات: المعجزات والحُجج والبراهين الدالة على صدقهم، والمراد
بالزهر: الكتب كما قال امرؤ القيس:
كَجَمَّرُ في عَسَبِ يُمَانِي
وعلى هذا فالعطاف في قوله: "والكتاب المنير" لزيد فضله وتأكيد شرفة،
وقد يراد بالزهر الصفح وبالكتاب المنير التوراة والإنجيل، وقد يراد بالزهر:
الرواح والمواعظ من الزهر وهو الزهر يقال: زَبَرْتُ الرجل إذا زجرته عن
الباطل وسمي الكتب زبورا لما فيه من الزهر والزهر عن خلافة الحق، وقد
سُمِّي كتاب داوود عليه السلام زبورا لكثرة ما اشتمل عليه من الرواح
والمواضع، والمراد بالمنير: أي الواضح المضيء الذي ينير الطريق للسالكين إلى
الله عز وجل فيسرون على منهج الرشد، وهم على بصيرة وبرهان وصراط
最主要的، وقد ذكر الله تعالى وتعالى هذا الذكر في مقام آخر من كتابه الكريم
في سورة فاطر حيث قال: "وإن يكذبوك فقد كذب الذين من قبليهم
جاءتهم رسولهم بالبينات والزهر وبالكتاب المنير. ثم أخذت الذين كفروا
فكيف كان نكير. وقوله عز وجل: "كل نفس ذاتية الموت، وإنها تفرون
أجوركم يوم القيامة" هو لتأكيد تسليمة رسول الله ﷺ والبالغة في إزالة الحزن
من نفسه، وفيه وعيد لِمَتَّعِدِين في ضلالهم، المعاندين للحق، بعد ما تبين،
المكلفين لرسول الله ﷺ مع ظهور براهين صدقه ومعجزاته ﷺ، وكأنه قيل
هؤلاء المعاندين: لن تفلتماً من عقوب الله، فستموتون، وستلقون من عقاب
الله وعدبهما ما تجرى به على عناكم وكفركم واستمراركم على ضلالةكم
وعيكم، وستم بمخلّدين في هذه الدنيا، بل أنتم راحلون عنها متنقلون إلى
دار الحساب والإجزاء في الآخرة حيث تُوقى كل نفس ما كسبت وهم لا
يظلونون، والدنيا ليست دار جزاء وإنها هي دار العمل، وقوله عز وجل:

١٤٦
فمن يُحرِّج عن النار وأدخل الجنة فقد فاز، وما الحياة الدنيا إلا متعة العز وجل وان كل نفس توق مما كسبت وهم لا يظلون آثاراً إلى أن الناس في الآخرة فريقان: فريق في الجنة وفريق في النار، لأنهم إما شقيٌّ أو سعيد، فأما الذين شقوا ففي النار لهم فيها زفير وشهيق. خالدين فيها ما دامت السماوات والأرض إلا ما شاء ربك إن ربك فعال لما يريد. وأما الذين سعبدوا ففي الجنة خالدين فيها ما دامت السماوات والأرض إلا ما شاء ربك عطاءً غير محدود. ولذلك قال عز وجل هنا: فمن يُحرِّج عن النار وأدخل الجنة فقد فاز، وما الحياة الدنيا إلا متعة الغرور. أي فمن نُحي عن النار وأبعد عنها فقد نجا وظل في العليم المقيم، وما لذات الدنيا وشهواتها وزينتها وزأرها فإنها إلا متعة مضمَّجة لا بقاء لها ولا دوام فلا يركن إليها إلا المغدورون المخدعون، وقد روي مسلم في صحيحه عن حديث عبد الله بن عمر بن العاص رضي الله عنه قال: كنا مع رسول الله ﷺ في سفر، فنزلنا منزل، فمن يصلي خباه ومما نستغل ومنه هو في جشه إذ نادي منادي رسول الله ﷺ: الصلاة جامعه، فاجتمعنا إلى رسول الله ﷺ، فقال: إنه لم يكن نبي قبلي إلا كان حقاً عليه أن يندى أمه على خير ما علمه لهم، ويُندوهم شر مما يعلمهم لهم، وإن أمتكم هذه جعل عافية لها وأوصيتكم بها، وقيد أخري فبلاء وأمور تكرونها، وتقيء فتنة فيرتفع بعضها بعضها، وتقيء الفتنة فيقول المؤمن من هذه مهلكي ثم تكشف، وتقيء الفتنة فيقول المؤمن: هذا، هذـ ها. فمن أحب أن يُحرِّج عن النار ويدخل الجنة فلتتأذى، مثلي هو يؤمن بالله واليوم الآخر وليأتي إلى الناس الذي يُحب أن يوتى إليه الحديث. وقاله تبارك وتعالى: أُثقل في أمولكم وأنفسكم وظلمتم عن من الذين أتوا الكتاب قبلكم ومن الذين أشركوا أداول كثيرة، وإن تصرحوا

١٤٤
وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور. هذا مقام آخر من مقامات مواصلة رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأصحابه رضي الله عنهم وإشارة إلى أن أذه أعداء الإسلام للمسلمين لن يتوقفون، وأنهم سيذلون كل ما يمكنهم من إيذاء المسلمين في أنفسهم وفي أموالهم، والغرض من هذا الإعلام هو أن يوطئ المسلمون أنفسهم على الصبر وعدم الجزع مما قد يصيبهم مستقبلاً، لأن من عادة النفس إذا تهأت للبلاء قبل نزوله، كان وقوعه أخف، وقعًا عليها ومعنى: "لَتَتَبَلَّوْنَ في أموالكم وأنفسكم وتشمَّعَنَّ من الذين أتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشَّروا أذى كثيرًا، أي لتنطُبُّوا بشيء من الأذى يصيبكم في أموالكم وأنفسكم لرفع درجاتكم أو تكفير سيناتكم، وسَيَتَكَلَّمُنَّ أذى كثير من الكتابين والمشركين. قال البخاري في صحيحه: باب: "وشمَّعَنَّ من الذين أتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشَّروا أذى كثيرًا، حدثنا أبو الليثٍ أخبرنا شَعْبَانُ عن الزهري قال: أخبرنا عروبة بن الزبير أن أسامة بن زيد رضي الله عنها أخبره أن رسول الله ﷺ رَكِبَ على حمار، على قطيفة قَدْرِيَّةٍ، وأردف أسامة بن زيد وراءه يُعَوُّد سعد بن عبادة في بني الحارث بن الخزرج قبل وقعة بدر، قال: حتى مَرَّ بِمَجَلِّيسٍ فيه عبد الله بن أبي بكر سُلَول، وذلك قبل أن يَتَسَلَّمَ عبد الله بن أبي بكر، فإذا في المجلس أخلوًّا من المسلمين والمشركين عبدة الأوثان واليهود، وفي المجلس عبد الله بن رُؤَاهة، فلما غَشِيَّتِ المجلس عِجْاجة الدَّاِبَّةِ حَمَّر عبد الله بن أبي بنَسَأله بردائه، ثم قال: لا تَعْتَبَرونا علينا، فسَلَّمَ رسول الله ﷺ عليه ثم وقف، فنزل فدعاه إلى الله، وقرأ عليهم القرآن، فقال عبد الله بن أبي بكر بن سُلَول: أيها المرء إنه لا أحسن مما تقول، إن كان حقًا فلا تؤذنا به في مجلسنا، ارجع إلى رُكَّلك، فمن جاءك فاقصص عليه، فقال عبد الله بن رُؤَاهة: بل يا رسول الله، فاغشتنا به في مجلسنا فإنا نُجِبَ ذلك، فاستَبَ المسلمون والمشركون واليهود حتى كادوا يَيَتَفاوَزُون، فلم
يزل النبي ﷺ يَتَفَصَّلُونَهُمْ حتى سكنوا، ثم ركب النبي ﷺ دابته، فسار حتى دخل على سعد بن عبادة، فقال له النبي ﷺ: يا سعد! ألم تسمع ما قال أبو حِجَاب؟ يريد عبد الله بن أبي، قال: كذا وكذا. قال سعد بن عبادة يا رسول الله، أعف عن عمه، وأصلح عنه، فوالذي أنزِل عليه الكتاب لقد جاء الله بالحق الذي أنزل عليه الكتاب لقد جاء الله بالحق الذي أنزل عليه الكتاب لقد جاء الله بالحق الذي أنزل عليه الكتاب لقد جاء الله بالحق الذي أنزل عليه الكتاب لقد جاء الله بالحق الذي أنزل عليه الكتاب لقد جاء الله بالحق الذي أنزل عليه الكتاب لقد جاء الله بالحق الذي أنزل عليه الكتاب لقد جاء الله بالحق الذي أنزل عليه الكتاب لقد جاء الله بالحق الذي أنزل عليه الكتاب لقد جاء الله بالحق الذي أنزل عليه الكتاب لقد جاء الله بالحق الذي أنزل عليه الكتاب لقد جاء الله بالحق الذي أنزل عليه الكتاب لقد جاء الله بالحق الذي أنزل عليه الكتاب لقد جاء الله بالحق الذي أنزل عليه الكتاب لقد جاء الله بالحق الذي أنزل عليه الكتاب لقد جاء الله بالحق الذي أنزل عليه الكتاب لقد جاء الله بالحق الذي أنزل عليه الكتاب لقد جاء الله بالحق الذي أنزل عليه الكتاب لقد جاء الله بالحق الذي أنزل عليه الكتاب لقد جاء الله بالحق الذي أنزل عليه الكتاب لقد جاء الله بالحق الذي أنزل عليه الكتاب لقد جاء الله بالحق الذي أنزل عليه الكتاب لقد جاء الله بالحق الذي أنزل عليه الكتاب لقد جاء الله بالحق الذي أنزل عليه الكتاب لقد جاء الله بالحق الذي أنزل عليه الكتاب لقد جاء الله بالحق الذي أنزل عليه الكتاب لقد جاء الله بالحق الذي أنزل عليه الكتاب لقد جاء الله بالحق الذي أنزل عليه الكتاب لقد جاء الله بالحق الذي أنزل عليه الكتاب لقد جاء الله بالحق الذي أنزل عليه الكتاب لقد جاء الله بالحق الذي أنزل عليه الكتاب لقد جاء الله بالحق الذي أنزل عليه الكتاب لقد جاء الله بالحق الذي أنزل عليه الكتاب لقد جاء الله بالحق الذي أنزل عليه الكتاب لقد جاء الله بالحق الذي أنزل عليه الكتاب لقد جاء الله بالحق الذي أنزل عليه الكتاب لقد جاء الله بالحق الذي أنزل عليه الكتاب لقد جاء الله بالحق الذي أنزل عليه الكتاب لقد جاء الله بالحق الذي أنزل عليه الكتاب لقد جاء الله بالحق الذي أنزل عليه الكتاب لقد جاء الله بالحق الذي أنزل عليه الكتاب لقد جاء الله بالحق الذي أنزل عليه الكتاب لقد جاء الله بالحق الذي أنزل عليه الكتاب لقد جاء الله بالحق الذي أنزل عليه الكتاب لقد جاء الله بالحق الذي أنزل عليه الكتاب لقد جاء الله بالحق الذي أنزل عليه الكتاب لقد جاء الله بالحق الذي أنزل عليه الكتاب لقد جاء الله بالحق الذي أنزل عليه الكتاب لقد جاء الله بالحق الذي أنزل عليه الكتاب لقد جاء الله بالحق الذي أنزل عليه الكتاب لقد جاء الله بالحق الذي أنزل عليه الكتاب لقد جاء الله بالحق الذي أنزل عليه الكتاب لقد جاء الله بالحق الذي أنزل عليه الكتاب لقد جاء الله بالحق الذي أنزل عليه الكتاب لقد جاء الله بالحق الذي أنزل عليه الكتاب لقد جاء الله بالحق الذي أنزل عليه الكتاب لقد جاء الله بالحق الذي أنزل عليه الكتاب لقد جاء الله بالحق الذي أنزل عليه الكتاب لقد جاء الله بالحق الذي أنزل عليه الكتاب لقد جاء الله بالحق الذي أنزل عليه الكتاب لقد جاء الله بالحق الذي أنزل عليه الكتاب لقد جاء الله بالحق الذي أنزل عليه الكتاب لقد جاء الله بالحق الذي أنزل عليه الكتاب لقد جاء الله بالحق الذي أنزل عليه الكتاب لقد جاء الله بالحق الذي أنزل عليه الكتاب لقد جاء الله بالحق الذي أنزل عليه الكتاب لقد جاء الله بالحق الذي أنزل عليه الكتاب لقد جاء الله بالحق الذي أنزل عليه الكتاب لقد جاء الله بالحق الذي أنزل عليه الكتاب لقد جاء الله بالحق الذي أنزل عليه الكتاب لقد جاء الله بالحق الذي أنزل عليه الكتاب لقد جاء الله بالحق الذي أنزل عليه الكتاب لقد جاء الله بالحق الذي أنزل عليه الكتاب لقد جاء الله بالحق الذي أنزل عليه الكتاب لقد جاء الله بالحق الذي أنزل عليه الكتاب لقد جاء الله بالحق الذي أنزل عليه الكتاب لقد جاء الله بالحق الذي أنزل عليه الكتاب لقد جاء الله بالحق الذي أنزل عليه الكتاب لقد جاء الله بالحق الذي أنزل عليه الكتاب لقد جاء الله بالحق الذي أنزل عليه الكتاب لقد جاء الله بالحق الذي أنزل عليه الكتاب لقد جاء الله بالحق الذي أنزل عليه الكتاب لقد جاء الله بالحق الذي أنزل عليه الكتاب لقد جاء الله بالحق الذي أنزل عليه الكتاب لقد جاء الله بالحق الذي أنزل عليه الكتاب لقد جاء الله بالحق الذي أنزل عليه الكتاب لقد جاء الله بالحق الذي أنزل عليه الكتاب لقد جاء الله بالحق الذي أنزل عليه الكتاب لقد جاء الله بالحق الذي أنزل عليه الكتاب لقد جاء الله بالحق الذي أنزل عليه الكتاب لقد جاء الله بالحق الذي أنزل عليه الكتاب لدى فأمرهم الله، ويصرّون على الأذى، قال الله عز وجل: ولتسمعون من الذين أتوى الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرًا الآية، وقال الله: وَدَيْدُ كِرَامَ نَفْسِهِمْ إِلَى أَخَرِ الْآيَةَ، وكان النبي ﷺ يتَأْيِرُ العَفُوَّ ما أُمَّرَ به، حتى أذن الله فيهم، فلما غزا رسول الله ﷺ بدراً، فقتل الله به صناديد كفار قريش، قال ابن أبي ابن سلول ومن معه من المشتركون وعَبِدَةِ الأُوْلَيْاءَ: هذا أمر قد تَوَجَّهَ، فبايعوا الرسول ﷺ على الإسلام، فأسلّموا. وقال عز وجل: وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور. أَيْ، وإن تحسوا أنفسكم عن الخُطْبِ في رَأْسِهَا تَتَخَرِّضُونَ له من الاتباع والاختيار في أموالكم وأنفسكم وما تتعرضون له من أذى الذين أتوى الكتاب والمشركين وتَحْسَبُونَ ما تصابون به من ذلك عند ربك فإنكم تكونون قد أخذتم بأحسن مناهج الرشيد مما ينبغي لكل عاقل أن يلزم عليه ويُلْتَمِّزُ به. ولذلك أمر الله عز وجل المسلمين بالصبر والتقوى في هذه المقامات المقاربة من سورة آل عمران للتتأكد على المسلمين بسلوك هذا المنهج الرشيد حيث قال: وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً وقال: بل، إن تصبروا وتتقوا ويأتونكم من فورهم هذا يمدّدكم ربكم بخمسة آلاف من
الملاكمة مسؤولين. لينال المسلمون بذلك الدرجات العلي ويحصلوا على الفوز في الدنيا والآخرة وليكونوا من المحسنين كما قال عز وجل: "إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين". 
قال تعالى: "وإذ أخذ الله ميثاق الذين أتوه الكتاب لتبيينه للناس ولا تكتمونه فنذره وراء ظهورهم واشتروا به ثمنا قليلا فبفس ما يشترون. لا تحسن الذين يفرحون بها أتوا ويجبون أن يحمدوا بها لم يفعلوا فلا تحسنهم بحفاوة من العذاب وهم عذاب أليم. والله ملك السماوات والأرض، والله على كل شيء قدير. إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار آيات لأولى الألباب.

بعد أن أشار الله تبارك وتعالى إلى بعض أقوال اليهود المنحرفه من زعمهم أن الله فقير وهم أغنياء، وما افترون على الله حيث قالوا: إن الله عهد إلينا ألا نؤمن لرسول حتى يأتيتنا بقرابتنا تلك النار وما رد الله عز وجل وجه شهتهم وادحض فريقهم، وقبل فعلهم حيث وصفهم بأنهم قتلة الأنياء، ووقتَن نفوس المسلمين على استقبال ما ينالهم من أذى المشركين واليهود بالصبر وتقوى الله عز وجل، ذكر عز وجل هنا قبيحة من قبائحهم وهي نبذهم كتاب الله وراء ظهورهم وبيعه بثمن زهد من حطام الدنيا الفانية حيث يقول عز وجل: "وإذ أخذ الله ميثاق الذين أتوها الكتاب لتبيينه للناس ولا تكتموه فنذره وراء ظهورهم واشتروا به ثمنا قليلا فبفس ما يشترون. قال ابن كثير رحمه الله: هذا نصيحة من الله وتهديد لأهل الكتاب الذين أخذ الله عليهم العهد على أئمة الأنياء أن يؤمنوا بمحمد ﷺ ﷺ، وأن يُانونوا يذكروا في الناس ﷺ ﷺ على أحبة من أمره، فإذا أرسله الله تابعوه، فكتموا ذلك وشغصوا به وعدهوا عليه من الخير في الدنيا والأخرى بالذين الطيف، والخط الديني السخي، فشبيّة الصفة صفقتهم، وبشيت البيعة بيعتهم، وفي هذا تحذير للعلاء أن يسلكه مسلكه، قصد بتهم ما أصابهم، ويسلك بهم مسلكه، فعلالعلاهة أن يبذلوا ما يبذلون من العلم النافع، الدال على
عمل صالح، ولا يكتمو منه شيئاً، فقد ورد في الحديث المروي من طريق متعددة عن النبي ﷺ أنه قال: "من سئل عن علم فكتمه أليم بلجام من ناره وقوله عز وجل: «ولا تحسّن الذين يفرحون بها أنوه ومجون أن يحذموا بها لم يفعلوا فلا تحسّنهم بمفازة من العذاب وفهم عذاب أليم» هذا وعيد لكل من يعمل معصية ويفرح بها، ولكن من يحب أن يبنى عليه فعلياً لم يفعله، كا هو شأن المناققين واليهود، وقد روى البخاري ومسلم واللفظ لمسلم من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رجالاً من المناققين في عهد رسول الله ﷺ و المسلم كانوا إذا حرج النبي ﷺ للغزو حذفوا عنه وفرحوا بمقعدتهم خلف رسول الله ﷺ، فإذا قدّم النبي ﷺ اعتذروا إليه وحلفوا، وأحيى أن يحذموا بها لم يفعلوا فنزلت: «لا تحسّن الذين يفرحون بما أنوه ومجون أن يحذموا بها لم يفعلوا فلا تحسّنهم بمفازة من العذاب» كا روى البخاري ومسلم واللفظ لمسلم أن مروا قال: اذهب يا رافع - لبزابه - إلى ابن عباس فقال: لن كان كل أمرئ منا فرح بما أنوه واحب أن يحذم بما لم يفعل معذباً لعذابين أجمعين، فقال ابن عباس: ما لك وهذا الآية؟ إنها أنزلت هذا الآية في أهل الكتاب، ثم تلا ابن عباس: «إذ أخذ الله ميقات الذين أوتوا الكتابSTEM للفساق ولا تكتمموه» هذه الآية، وتلا ابن عباس: «لا تحسّن الذين يفرحون بما أنوه ومجون أن يحذموا بها لم يفعلوا» وقال ابن عباس: "سألهم النبي ﷺ عن شيء فكتموه إياه وأخبروه غيره، فحجزوا قد أروى أن قد أخبروه بما سألهم عنه واستحذموه بذلك إليه، وفرحوا بها أنوه من كتبهم إياه ما سألهم عنه واحب.» ولا شك أن حديث أبي سعيد الخدري نصّ متفق عليه بأن هذه الآية نزلت في المناققين ولا يمنع ذلك أن تكون نزلت في المناققين وفي اليهود كما أن قول ابن عباس رضي الله عنها: إنها أنزلت هذه الآية في أهل الكتاب، لا يمنع أن تكون نزلت فيهم وفي المناققين، والسياق
العام للايات هو في المنافقين واليهود كما أن لفظ هذه الآية عام يشمل الوعيد لكل من فعل فعلًا غير محمود وفرح به، وأُحب أن يتعمَّد بما لا يفعل سواء كان متسبّبًا بِالإسلام أو كان من أهل الكتاب لأن العمرة بعمومه لفظ لا بخصوص السبب وإن كان السبب يدخل فيه دخولًا أوًّاً لأن لفظ العام سببًا من أجله فلا يخرج منه كما نص على ذلك الأصوليّون، أمّا ما يفعله الإنسان من عمل صالح، ويفرح بتوفيق الله عز وجل له وإعانته عليه فليس بداخل في هذا الوعيد حيث آخر رسول الله ﷺ أن المؤمن تُرَاحَّه حمَّلة أو وضعوه سجّنته فقد روى الترمذي من طريق عبد الله بن دينار عن ابن عمر قال: "تخليصًا عمَّر بالخراجية فقال: يا أبا الناس إنَّ قُمّت فيكم كمَّقّام رسول الله ﷺ فينا، فقال: أو صلبكم وأصحابي ثم الذين يَلَوْنُهُم ثم الذين يَلَوْنُهُم، ثم يُقَلِّل الكذبُ حتى يَفْتَنُ الرجل ولا يُصَلَّح، يُتَّبَعْ الشاهد ولا يُصَلَّح، ألا لا يتعلَّوَّنٌ رجلًا بامرأة إلا كان شاهدة الشيطان عليه بالجماعة، وإياكم والفرقة فإن الشيطان مع الواحد، وَهُوَ من الآثرين أبَعْدًا، من آراءً يحبثها الجنة فليزلجماً الجماعة، من سرية حسنات ونساءته سيجّرها ذلك المؤمن. قال أبو عيسى: هذا حديث حسن صحيح غريب من هذا الوجه، وقد رواه ابن المبارك عن محمد بن سوقة وقد روى هذا الحديث من غير وجه عن عُمر من النبي ﷺ ومعبَّن قوله: "فلا تحسبهم بمغزاة من العذاب ولمهم عذاب أليم. "] فَلا تَثْلُبُوا بِهِمْ وَقَبَلُوهُ: "فَلا تَسْبِرُوا "، وقوله: "فَلا تَعْسَبُوا " لكل من يتآتى منه الحسبان، والمقصود على كل حال هو قطع طمع هؤلاء المنافقين واليهود في النجاة من عذاب الله وأليم عقبات، وفي توجيه الخطاب لغيرهم للتنبيه على بطلان آراء هؤلاء المنافقين واليهود الخطيط من قدرهم، لا أن رسول
الله يفقه أمهم بمنجاة من عذابه وعقولته إن كان الخطاب له، وذكر قوله: "فلا تحسثهم" بعد قوله: "لا تحسِّبين" للتأكيد وطول الفصل بين المفعول الأول وهو قوله: "الذين يفرحون بها أتوا وبحبون أن يحمدو بها لم يفعلوا" والمفعول الثاني وهو قوله: "بمفازة من العذاب" والمفازة هي الصحراء والفلاحة والبرية الفقرر الخالية من الماء، مأخوذة من الفوز وهو يطلق على النجاة والظفر بالخبر وعلى الهلالك فهو من الأضداد قال في القاموس المحيط: والمفازة النجاة والمحلكة والفلاقة لا ماء بها وقوُر مات وقال الجموهر في الصحاح: الفوز: النجاة والظفر بالخبر، والفوز أيضاً: الهلالк، تقول منها: قارُ يُفُرُّ، وقوَّر أي مات، ومنه قول الشاعر:
فَمِن لِلْقَوْفِينِ شَأْنَهَا مَنْ يُكُبْهُمْ
إذَا مَا نْوَى كُبَّب وقوَّر جَمَّرَؤْل. وقال الكمَّيَثُ:
ولا ضرِّها أنَّ كُبْبَا تَصَوًّأ وقوَّر من بعده جَمَّرَؤل.
ولا تفَّاؤلًا بالسلامة والفوز إلا ح Gebäله أبو السعود العبدي في تفسير قوله عز وجل: "ولهم عذاب أليم" باعدها يشير إلى عدم نجاتهم من مطلق العذاب حَقُق أن لهم فردًا منه لا غاية له في المدة والشدة، كما تُفْنَى بِهِ الجماعة الأسمية، والتكسير التخنيمي والوصف اهـ وقوله عز وجل: "ولله ملك السُّمُوعات والأرض"، أي والله وحده لا شريك له السلطان القاهر في السماوات والأرض يتصرف فيها، كيف يشاء ويريد إيجادًا أو إعدامًا أو إحياء أو إمالة أو تعذيبًا أو إشباعة دون أن يكون لغيره شائبة مُدخَل في شيء من ذلك بوجه من الوجه، وقوله تعالى: "وَالله عَلَى كُل شَيْء قَدِير" زيادة.
تقرير لكمال ملكيته ومقام قدرته وшимول مشيئته لكل شيء في السماوات وفي الأرض. وفي ذلك تنديد بالذين قالوا إن الله فقير، وأنهم ليفتتوا عن عقاب الله لمكة السماوات والأرض وممالكها، وربّ كل شيء وسُمّيده، الحَكَم العدل، الذي له الملك وله الحكم، وله الخلق وله الأمر، وقوله عز وجل:

«إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب.» استناداً سيق لتقرير مضمون ما سبق من اختصاصه عز وجل بالسلطان القاهر، الملك الباهري، والقدرة الكاملة الشاملة، وتصدر هذه الجملة الكريمة لتأكيد الاعتناء بتحقيق مضمونها وليفت انتباه ذوي الصائر للفكر فيها، لتشاهدوا براهين الله وربوبته وأسائه الحسن وصفاته العلّى، كما قال عز وجل: «قل انظروا ماذا في السماوات والأرض» وقد ذكر عز وجل في هذا المقام: خلق السماوات والأرض، واختلاف الليل والنهار. وقد قال عز وجل في سورة البقرة: «إن في خلق السماوات والأرض وأختلف الليل والنهار وفلكي التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحب المُسْحَر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون.» ولما كان المقام في سورة البقرة مقام سياق أدلة الله واحده حيث قال:

«إِنَّ اللَّهَ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْرَّحْمَنُ الْرَّحِيمُ» ناسب أن يُقَضَّل دلالات التوحيد، أما في هذا المقام فإنّ المقصود هو ردع القائلين بأن الله فقير وردع الذين يفرحون بما أنشأه يريدون أن يحثوا بما سماه فأكثروا في هذا المقام بذكر شواهد ملكيه وقدرتة، حيث ينبه على ذلك بخلق السماوات والأرض وتعابد الليل والنهار وتكوين الليل على النهار وتكوين النهار على الليل، حيث إن من كان له لب وفهم فإنه برى في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار آيات وحججاً وبراهين تدل على أن الله تعالى هو الحق المبين.
الغني عن العالمين، الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر الخالق البارئ المصير، جل جلاله وتقدست أسياوه، ولا يدرك ذلك إلا أولو الألباب أي أصحاب العقول، ولذلك ختم هذه الآية الكريمه بقوله: «لآيات لأولى الألباب» كما ختم آية سورة البقرة بقوله: «لآيات لقوم يعقلون».
قال تعالى:

» الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السماوات والأرض ربكنا ما خلقه هذا باطلًا سبحانك فقنا عذاب النار. ربكنا إنك من تدخل النار فقد أختزنته وما للظالمين من أنصار. ربكنا إننا سمعنا منادياً ينادي للإيام أن أمنوا بربك فآمنا، ربكنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عننا سيئانتنا وتوفنا مع الأبرار. ربكنا وآتينا ما وعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة، إنك لا تخلف الميعاد.

بعد أن ذكر الله تبارك وتعالى شَجَّهَاهُ مَلِكِهِ وَفَضَّلَهُ وَبِنَبَّاهُ إلى أنه إنما ينتفع بهذه البراءات والأيام أولو الألباب وأصحاب العقول، ذكر هذا جملةً من صفات أولى الألباب وهي تذُؤُور بين الذكر والفيكر وهما أبرز صفات أولى الألباب وأصحاب العقول فقال عز وجل: » الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السماوات والأرض أي الذين يشيَّلون ألسنتهم بذكر الله عز وجل وتحميه وتقديسه وتمجيده والثناء عليه وشكره على آلهة، وترديد أسبائه الحسنى وصفاته العلي فإنه من أحب شيئا أكثر من ذكره في سائر أحواله كما قال عنيته:

وَلَقد ذَكَّرُوكَ الْرَّمَاحُ تَوَاهُمْ

وَلَقد أشار الله عز وجل بقوله: » قياما وقعودا وعلى جنوبهم » إلى أنهم يستغرقون عموم أحوالهم وأوقاتهم، ولا يفترون عن ذكره وشكره وإثناء عليه، وهم يزدّون فِكَرُكِهِم وَبَذَكَّرُهُم فيهما يحيط بهم وتقع عليه أغُليهم من العالم العلوي والسفلي حيث يجدون صُنُحاً بديعاً مُفطخاً مُفتوحاً، يندل على أن خالقه وصانعة ومعبدة إله واحد حي قيوم متصرف بجميع صفات الكمال لذاته منزه عن كل نقص، له الأسباء الحسن والصفات العلي، وقد ذم الله تبارك وتعالى من لا يتفكرون في خلق السماوات والأرض حيث يقول عز وجل: » وَكَأَنَّهُمْ مِنْ
آية في السموم والأرض يصرّون عليها وهم عنها مُعَرَّضون. وَكَيْما قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: قَلْ إِنَّهُم مَّا ضَعِبُوا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تَغْنِي الْآيَاتُ وَالنَّذَرُ عَنْ قُوَّمٍ لَا يُؤْمِنُونَ. وَكَيْما قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: أَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفَسَهُمْ، مَا خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ والأَرْضَ وَمَا بَيْنَهَا إِلَّا بِحَكْمَةٍ وَأَجْلِ السِّمْعِ. وَقَدْ ذَكَرَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنَّ ذُو الْأَلْبَابِ الذاكِرُينَ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ، وَالْمَتَفَكِّرِينَ فِي خِلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ يقُولُونَ: رَبِّنَا مَا خَلَّقْتَ هَذَا بَاطِلًا سَبِحَانَكَ أَيَّا سَبِيلًا وَمَاكِلْتَ أَمَورَنَا وَمُضْلِعُ شَوْنَا مَا خَلَّقْتَ وَأَجْلِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ البَديِّعَةِ الصَّنْعِ العظيمةُ السَّلَّمُ بَاطِلًا. أَيْ عَبِيَّا عَارِيًا أَنَّ الحَكْمَةَ تَنزَفَتْ عَنْ ذَلِكَ بِعَلَمَ يَا حَكِيمًا، وَقَدْ أَشَارَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى إِلَى خِلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ بِالْحَقِّ إِلَى مَقَامِ إِثْبَاتِهِ للمَبِحَاتِ وَالْحَسَابِ وَجَزَاءِ الْكَافِرِينَ بِالنَّارِ وَجَزَاءِ الْمُؤْمِنِينَ بِالجَنَّةِ وَأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُن هَذَا حِسَابًا وَثَوَابًا وَعَقَابًا بِيْنَ الْقِيَامَةِ لِكَانَ خَلَقُ السَّمَوَاتِ والأَرْضِ وَمَا بَيْنَهَا بَاطِلًا. أَيْ عِبَيْاً وَأَلْبِيَا يَقِنِنَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَنْهُ وَجَلَّ بعِلَامِ ذَلِكَ رَبِّنَا: رَبِّنَا خَلَّقْنَا السَّهَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهَا بَاطِلًا، ذَلِكَ ظَنُّ الْذِّينَ كَفَرُوا قَوْلُ اللَّهِ ﷺ لِلْذِّينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ. أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُسْتَلِيمِينَ فِي الأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمَتَّقِينَ كَالْفَجَارِ؟ إِذًا لَّسْ كَلُّ فَاجْرٍ وَظَلَّ مِنْ جَزَاء فِي جَنَّةٍ وَظَلِمَهُ فِي النَّارِ، فَكَمْ مِنْ حَجَّةٍ لِلْحَيَاةِ الدُّنْيَا فَكَمْ مِنْ حَجَّةٍ لِلْحَيَاةِ الدُّنْيَا، لَكِنَّهَا لَنْ يَنْفَعُ لَلْأَرْضِ الَّذِي يَضُعُّ الْمُؤَذِّنُونَ لِيْلَ الْقِيَامَةِ فَلاَ تَمُهِّدُنَّ نَفْسِي، وَيَنْفَعُ نَفْسِي. وَفِي مَا حَكِيَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَنْهُ وَجَلَّ عَنْهُ وَجَلَّ عن هَؤُلَاءِ الصَّالِحِينَ مِنْ تَقْدِيمًا مِنْ هَذَا القول: رَبِّنَا مَا خَلَّقْتَ هَذَا بَاطِلًا سَبِحَانَكَ المُقْرِنُ بِالْتَفَكُّرِ فِي خِلْقِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِشْعَارًا بِالْتَوَسُّلِ إِلَى اللهِ عَزَّ وَجَلَّ بَيْنِينّ يَدَّوِيَ الدعاء بِالْعَمْلِ الصَّالِحِ وَتَنْزِيْهَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ عَنْ كُلِّ نَقْصٍ لَّوْلَا ذَلِكَ رَبَّنَا الدعاء عَلَى هَذَا التَّوَسُّلِ لِبَفَاءٍ مِّنْهُمْ قَالَوْا: فَقَنَا عَذَابَ الْنَّارِ أَيْ قَصْبًا وَاحْفَظْنا أَجْرًا مِّنْ عَذَابِ جَهَنَّمَ. وَقُولُهُ عَزَّ وَجَلَّ: رَبِّنَا
إنك من تدخل النار فقد أخزته وما للظلمين من أنصار.  

بيان لضرع الصالحين إلى الله عز وجل وجُوَّارهم إلى سبحانه بذكر السبب الذي يحملهم على طلب الوقاية من عذاب النار لان من دخُلَّها أُخْزِيَ جَزَى لا يُجْزَى أكبر منه، وَعَذَّب عذابًا لا عذاب أشد منه، وأهين إهانة لا إهانة أفطنع منها، حيث لا يدفع عنهم عذاب الله دافع، وكان مقتضى السياق أن يقول:

وما لهم من أنصار، لكن مقتضى الحال اقتضى وضع الظاهر وهو لفظ الظلمين موضوع الضمير لذمهم والإشعار بسبب دخولهم النار وهو ظلمهم بوضعهم معصية الله موضوع طاعة وأن الله عز وجل ما ظلمهم بإدخالهم النار، ولكنهم هم الظلمون، وقوله عز وجل: ربنا إننا سمعنا منادياً ينادي للإبائين أن آمنوا بربكم فآمنا. هذا توسُّل شنآن بين يدي خمس دعوات طلبتها من الله عز وجل، حيث توسَّلوا إليه تبارك وتعالى بأنهم استجابوا لرسول الله محمد ﷺ لما سمعوه يدعو إلى الإبائين فأمانوا بالله وصدَّقوه المرسلين، ولا شك أن كل داع إلى الإبائين من أصحاب رسول الله ﷺ وأتباعهم بإحسان إلى يوم القيامة إذا يَدْعُون على منهج كتاب الله وهذي رسول الله ﷺ، والذين يستجيبون لهم في حكم المستجيبين لرسول الله ﷺ والدعاء الأول من الدعوات الخمس هي طلب مغفرة ذنوبهم، والدعاء الثانية هي طلب تكفير سيئاتهم، والدعاء الثالث هي أن يُلْحِقَهم الله عز وجل بالصالحين ويتفاهم مع الأبر وينعم أعمالهم بالصالحين، والدعاء الرابعة هي أن يؤتِهِم الله عز وجل ما وعدهم على السببة من نعيم الجنة من مات على الإبائين، والدعاء الخامسة هي أن ينجبهم من النار المخزية يوم القيامة، وفي ذلك يقول عز وجل: ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكرهنا سيئاتنا وتوفينا مع الأبار، ربا وآتنا ما وعدناه على سلوك ولا تخزنا يوم القيامة، إنك لا تخلف الميعاد. وفي بدء الدعوات في هذا المقام الكرم بسِؤال الله عز وجل أن

١٠٦
قيقهم عذاب النار المُفَرِّقَة لمن يُذْهَبُها، وحَتَّى هذه الدعوات بسُؤال الله عز وجل أن لا يُذْهَبُهم يوم القيامة بدخول النار إشارة إلى أن الفائز السعيد هو من رُهِبَ عَن النار وأدخل الجنة، والله در القائل:

تقولون مالك لم تضحك وقد نظرت عيناك مضحكة تكفي ذات أفكار قلُت مِـن ضُـحِكِكِ جَهْلٌ عابئي وإنما يضحـك الناجي من النار.

وقد روى البخاري ومسلم عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: 

"يا أمة محمد! والله لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكتم كثيراً" في حديث الكسوف وفي تذيل هذه الدعوات بقوله عز وجل: "إِنَّكَ لَا تَخَفَّ عَنِ الْمَيْتَانِ إِنَّكَ لَا تَخَفَّ عَنِ الْمَيْتَانِ" إشعار بكلا الضراعة والابتهاج إلى الله عز وجل بالثناء عليه بأنه لا يخف المريق والمقصود من هذا النفي التأكيد بأنه صادق الوعيد والإشارة إلى أنهم لا يخفون من خلف وعده عز وجل ولكنهم يخفون من أن يُعَزَّ مِن الشيطان ويشاًكرون على أنفسهم من سوء العاقبة نسأل الله عز وجل أن يثبتنا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة إنه سميع الدعاء. ومواد بالمصدق الوعي، وقوله عز وجل: "فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيناتنا" هو شبه بقوله عز وجل: "وما كان قولكم إلا أن قالوا بني ابيسماعيل لنا ذنوبنا وإسراعنا في أمرنا" هذا وقد كان رسول الله ﷺ إذا قال من نومه فقَدْ فَنَظَرَ إلى السماك ثم قرأ: "إِنَّ مِن خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَخَلْقِ اللَّهِ وَهُوَ الْحَكَمُ وَالَّذِي نَظُرَ إِلَيْهِ مَا زَلَّتْ ذَلِكَ الْحُكْمُ وَهُوَ الْحَكَمُ وَهُوَ الْحَكَمُ".

"فَخَرَجَ البَخَاَرِي مِن طَرِيقِ شَرِيكَ بن عبَدَالله بن أبي نَحَيَّر عن كُرْنَبَ شُفَعه رضي الله عنها فإِنَّهُ خَالِت مِيمُونَة فَنُظِرَتْ رُسُولِ الله ﷺ مَعَ أَهْلِهِ سَاعَةً ثُمَّ رَقَدَ فَلَا كَانَ ثَلَثُ الْلِّيْلَ الْآخِرِ قَدَمَ فَنُظِرَ إِلَى السَّمَاءِ، فقال: "إِنَّ مِن خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَخَلْقِ اللَّهِ وَهُوَ الْحَكَمُ وَالَّذِي نَظُرَ إِلَيْهِ مَا زَلَّتْ ذَلِكَ الْحُكْمُ وَهُوَ الْحَكَمُ وَهُوَ الْحَكَمُ".

ثم قام فتوشا، واعدة قستل إحدى عشرة ركعة ثم أطْنَبَ بلالٍ، فصل ركعتين ثم خرج فقَسَلَ الصَّحِيحِ وَفِي لَفْظِ البَخَاَرِي

107
من طريق مَحْرَمةٍ بن سلیمان عن كُرْبَانٍ عن ابن عباس رضي الله عنها قال: 

بيتُ عند خالتي ميمونة، فقالت: لأنظرُ إلى صلأة رسول الله ﷺ، فنظرُ حيثُ لرسول الله ﷺ وسادةً، فقام رسول الله ﷺ في طولها، فجعل يُمستح النومَ عن وجهه، ثم قرأ الآيات العشر الأواخر من آل عمران حتى ختمَه، ثم أتيَّ شَنَا مَعْلَمًا، فأخذَه فنوضًا، ثم قام يصلي، فصُمتَ قَصَبُتُ مَثَلٌ مَّا صَنَعْ، ثم جئت قُصُبَتُ إلى جِنِبِه، فوضعَ يَدُه على رأسِي، ثم أخذ بَأَذْنِي قَجَعَهُ يَقْتُلُها، ثم صلى ركعتين، ثم صلى ركعتين، ثم صلى ركعتين، ثم صلى ركعتين، ثم صلى ركعتين، ثم صلى ركعتين، ثم صلى ركعتين، ثم صلى ركعتين، ثم صلى ركعتين، ثم صلى ركعتين، ثم صلى ركعتين، ثم صلى ركعتين، ثم صلى ركعتين، ثم صلى ركعتين، ثم صلى ركعتين، ثم صلى ركعتين، ثم صلى ركعتين، ثم صلى ركعتين، ثم صلى ركعتين، ثم صلى ركعتين، ثم صلى ركعتين، ثم صلى ركعتين، ثم صلى ركعتين، ثم صلى ركعتين، ثم صلى ركعتين، ثم صلى ركعتين، ثم صلى ركعتين، ثم صلى ركعتين، ثم صلى ركعتين، ثم صلى ركعتين، ثم صلى ركعتين، ثم صلى ركعتين، ثم صلى ركعتين، ثم صلى ركعتين، ثم صلى ركعتين، ثم صلى ركعتين، ثم صلى ركعتين، ثم صلى ركعتين، ثم صلى ركعتين، ثم صلى ركعتين، ثم صلى ركعتين، ثم صلى ركعتين، ثم صلى ركعتين، ثم صلى ركعتين، ثم صلى ركعتين.

فاضطَجعتُ في عرض الوضاد وتَضطَجعتُ رسول الله ﷺ وأهله في طولها، فقام رسول الله ﷺ حتى انصف الليل، أو قدّله، بقليل، أو بعَذَّبَهُ بقليل، فاستيقظ رسول الله ﷺ فجعل يُمستح النومَ عن وجهه بِيِّنَهُ، ثم قرأ العشر الآيات الخواتم من سورة آل عمران، ثم قام إلى شن مَعْلَمًا، فَقَصَبَتُ مَثَلٌ مَّا صَنَعْ، ثم ذهبَ قَصَبُتُ إلى جِنِبِه، فوضعَ رسول الله ﷺ يَدُهُ اليمنى إلى رأسِي، وأخذ بَذَنِي يَقْتُلُها، فصُمتَ قَصَبُتُ، ثم صلى ركعتين، ثم صلى ركعتين، ثم صلى ركعتين، ثم صلى ركعتين، ثم صلى ركعتين، ثم صلى ركعتين، ثم صلى ركعتين، ثم صلى ركعتين، ثم صلى ركعتين، ثم صلى ركعتين، ثم صلى ركعتين، ثم صلى ركعتين، ثم صلى ركعتين، ثم صلى ركعتين، ثم صلى ركعتين، ثم صلى ركعتين، ثم صلى ركعتين، ثم صلى ركعتين، ثم صلى ركعتين، ثم صلى ركعتين، ثم صلى ركعتين، ثم صلى ركعتين، ثم صلى ركعتين، ثم صلى ركعتين، ثم صلى ركعتين، ثم صلى ركعتين، ثم صلى ركعتين.

وفي لفظ لمسلم من طريق محمد ابن علي بن عبد الله بن عباس عن أبيه عن عبد الله بن عباس أنه رقد عند رسول الله ﷺ، فاستيقظ فَقَسَبَتُ وُضُوعًا، وهو يقول: إن في خلق السُّمَوَات والأرض واختلاف الليل والنهار لأيات لأولى الأَبُوَاب. فقرأ هؤلاء الآيات حتى ختم السورة ثم قام فصِّلَ ركعتين فأطال فيها القيام والركوع والسجود.

١٠٨
ثم انصرف فنام حتى نتح ثم فعل ذلك ثلاث مرات ست ركعات، كله ذلك يشتاق ويتوضأ ويقرأ هؤلاء الآيات، ثم أوتر بثلاث، فأذن المؤذن فخرج إلى الصلاة وهو يقول: اللهم اجعل في قلبي نوراً، وفي لساني نوراً، واجعل في سمعي نوراً، واجعل في بصري نوراً، واجعل من خلفي نوراً، ومن أسامي نوراً، واجعل من فوقى نوراً، ومن تحتي نوراً، اللهم أعطني نوراً، اه وساهمه، والظاهر أن رواية محمد بن علي بن عبدالله بن عباس عن أبيه عن ابن عباس كانت في ليلة أخرى، والعلم عند الله عز وجل، وفي قوله في الحديث: قرأ العشر الآيات الخواتم من سورة آل عمران هو تجوؤ لأياء إحدى عشرة آية لا عشر آيات، هذا والأوصاف التي ذكرها الله عز وجل لذوي الألباب في هذا المقام تشبهها الأوصاف التي ذكرها رسول الله ﷺ في الحديث الولد في فضل مجلس الذكر الذي أخرجه البخاري ومسلم عن حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: إن الله تعالى نذكرة نطوفون في الطرق يلتمسون أهل الذكر، فإذا وجدوا قومًا يذكرون الله عز وجل تناولوا: هلّمنا إلى حاجتهم، فحلفون بمثله إلى السهاء الدنيا، فيسألهم رحمه وهو أعلم: ما يقول عبادي قال: يقولون يسحبونك ويكونون وهم يعمدونك ويمجدونك، يقول هل رأوين يقولون لا والله ما رأوين يقول كيف لو رأوين قال يقولون لو رأوين كانوا أشد تلك عبادة وأشد تلك تمجيدا وأكثر تلك تسيحة: يقول فأذا يسألون قال: يقولون يسألونك الجنة قال يقولون وهل رأوين قال: يقولون والله يا رب ما رأوين قال يقولون كيف لو رأوين قال يقولون لو أنهم رأوين كانوا أشد عليها حرصا وأشد لها طلبًا وأعظم فيها رغبة قال فهم يتعوذون؟ قال: يتعوذون من النار. الحديث.
قال تعالى: "فاستجاب لهم ريبهم أي لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض ففالذين هاجروا وأخروا من ديارهم وأوتوا في سبيل وقاتلوا وقتلوا لأكفر عنهم سيئاتهم ولدخلنهم جنات تجري من تحتها الأنهار ثوابا من عند الله، والله عنده حسن الثواب. لا يغزنك تقلب الذين كفروا في البلاد. متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد. لكون الذين اتقوا لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها نزلا من عند الله، وما عند الله خير للأبرار. وإن من أهل الكتاب من يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم خاسرين الله لا يشترون بأياته ثمنا قليلًا، أولك لهم أجرهم عند ربيهم، إن الله سريع الحساب.

بعد أن ذكر الله عز وجل جملة من صفات أولى الأالباب التي اشتملت على بيان مواظيفتهم على ذكر الله، وتفكيرهم في خلق السماوات والأرض، وعبادتهم وابتهاجهم إلى الله عز وجل أن يقيهم عذاب النار المخزية من دخلها، وسأولهم ريبهم أن يغفر لهم ذنوبهم ويكفر عنهم سيئاتهم وأن يتوافهم مع الأبرار وأن يدخلهم الجنة، وأن لا يغزيمهم يوم القيامة، بعد تقديم الشيء عليه والتوسل بذلك، وباستجابتهم لدعاي الإيان، وانخراطهم في سلك المؤمنين بين يدي دعائهم ثم ختم هذا الدعاء بالثناء عليه يصلى وعده وأنه لا يخلف الميعاد، ذكر عز وجل هنا أنه استجاب لهم دعاهم ولم يجيب رجاءهم حيث قال تبارك وتعالى: "فاستجاب لهم ريبهم أي فأجابهم سيئهم ومالكمهم ومضحك شتؤهم ومصدرا أموهم، والعرب يستعملون استجاب له واستجابه وأجابه بمعنى واحد كأ قال عز وجل هنا: فاستجاب لهم" وقال في سورة الشورى: "ويستجيب الذين آمنوا وعملوا الصالحات وزيدهم من فضلهم" وكا قال عز وجل: "أمين يجيب المضطر"
إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض، وقد جمع الشاعرُ كعبٌ بن سعد العنُوّيُ بين استجاب وأجاب في بيت من شعره في رشام أبي المغوار.

حيث يقول:

وذاع دعاً: يا من يجيب إلى النذى، فلم يجيبه عند ذلكجيبُ.

وقد أتى الله تبارك وتعالى على الذين يدعونه ويسألونه حولهم، وبيتهم إله أمه وحده حيث يقول: وَإِذَا سألوك عبادي عنى فإني قريب أجيب دعوة الدعاء إذا دعان فليستجيروا لي وليؤمنوا بي لعلهم يشتدون.

وكما قال عز وجل: وَقَالَ رَبُّكِ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لِكُمْ، إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكِبِرونَ عَنِ عِبَادِي سَيَدْخُلُونَ جَنَّتَهُمْ دَاخِرِينَ.

وقبيله تبارك وتعالى:

أنى لا أضيف عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض بعد أن بشر الله تبارك وتعالى عباده الصالحين بأنه استجاب لهم دعاءهم حسب عموم عباده على الإقبال على طاعته، والتزوّد بالأعمال الصالحة، من أي لون كانوا أو من أي جنس، لأن الله عز وجل لا ينظر إليهم باعتبار ذكورهم أو إناثهم أو صورهم أو ألوانهم أو أنسابهم أو أوطانهم وإنها ينظر إلى قلوبهم وأعمالهم فتمنها عمل العبد عما فإنه عز وجل يحييه ويحفظه ويثبت عامله عليه، ولا يقطن شيء من عمل خلقه ولو كان مثالاً ذرة فنمن يعمل مثل ذرة خيراً يره. ومن يعمل مثل ذرة شراً يره. يُبعض النظر عن جيلاً أو قبيله أو كونه ذكراً أو أنثى فال بكل لآدم وآدم من تراب، وأكرم الخلق عند الله أتقاهم، وما كانت أعمال الخير متضاوئة الدرجات ذكر الله تبارك وتعالى، وتعالى هنا صورة مشرقة من أعمال الخير وجعلها تبارك وتعالى في الدنيا من العمل الصالح المستجاب لرضوان الله عز وجل، ووعيد أهلها بتخفير سيئاتهم، وإدخالهم جنات تجري من تحتها الأنهار حيث قال عز وجل هنا: فَالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأودوا في سبيل وقاتلوا وقتلوا لأكفرهم عنهم.
سيّواتهم ولا يَخلِّفُهُم جَنَّاتٌ تحْرِيرٌ من تحتها الأنهارُ نوّاباً من عند الله، والله عنده حُسُنُ النِّياب، وزهدها بالحَدِيث من أصحاب رسول الله ﷺ والمهاجرون من مكة إلى المدينة، ويدخل فيها كذلك سائر من يهاجرون من دار الكفر إلى دار الإسلام إلى يوم القيامة، وكذلك كل من أُوذى في سبيل الله وجَاهِد أعداء الله وأعصر بالشهادة في سبيل الله، وفي هذا حض لأصحاب رسول الله ﷺ ومن تبعهم بإحسان على الصبر وتقوية الله عز وجل ليوزعوا نوره عز وجل في هذا المقام الكريم من الذكر الحكيم أصحاب هذه الصفات بتكفير سيّواتهم وإدخالهم جنات النعيم. وقوله عز وجل: "ثواباً من عند الله، والله عنده حُسُنُ التواب" إشارة إلى أن الثواب الذي يسبّب الله عز وجل به المؤمنين جزاءً لهم على ما عملوا وأجلوا في الله عز وجل مَتَسَكباً بدينه واعتزازاً لشرعه ونُضرة لرسوله وكتبه، وجهاداً في سبيله هو ثواب عظيم لا يبلغه وصف lazım الالوفين لأنهم عتاباً من عند الله العظيم الكريم الذي أخبر عنه رسوله ﷺ وخطر أنيابه وأفضل خلقه محمد ﯽ ﹶ ﹶ ﹶ ﹶ ﹶ ﹶ ﹶ ﹶ ﹶ في رواه البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: قال الله تعالى: أعدت لعبادى الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، وإن شئت: "فلا تعلم نفس ما أخفي لهم من قوة أعين"، وقوله عز وجل: "لا يغرنك تقلب الذين كفرنا في البسيلة، متاع قليل ثم مأواهم جهنم وبئس المهاد، "، هذا خطاب لكل من قد يغترُب بما يشاهده ما عليه الكفّار من الترف والنعم والغبطة والسرور ورغد العبّى والصحة مما أسوّدهم الله عز وجل به إمالة لهم واستدراجاً لأنه قرب النزل، سريع الاضمحلال، ثم ينتقلون عنه ويخُفِّفونه وراءهم، ويستقبلون الحسرة التي لا تنتهي والحزن الذي لا يزول في
نار جهنم كما قال عز وجل: ﴿ما يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا فلا يغزرك تقلّبهم في البلاد.﴾ وكما قال عز وجل: ﴿سستدرّجهم من حيث لا يعلمون.﴾ وأمّا لهم ﴿إن كيّد متين.﴾ ومعنی ﴿لا تعرّف﴾ أي ﴿يجدّدَ عنك﴾، والتقلّب في البلد كنایة عن التقلّب والأسفار في طلب التجارات وجلب الأرزاق والحصول على ملذات الحياة الدنيا من جهات الأرض، لأن الدنيا هي جنتهم، وهي في الواقع سجّن المؤمن، لأن النعيم الحق والمتاع الذي لا ينزع ولا ينكر، ولا يذرك المنصّات، هو متعة الجنة ونعيمها. وقد روى المسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: الدنيا سجّن المؤمن وجنة الكافر. قوله تبارك وتعالى: ﴿لقد الذين اتقوا زميمهم ﴿مجنّات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها.﴾ نزل من عند الله، وما عند الله خير للابرار.﴾ لما ذكر عز وجل حالت الكفّار بقلة نفع تقلّبهم في التجارة وتصريفهم في البلد واستدراجهم برغد العيش، وما قد يتبوّههم أن التجارة من حيث هي مختصة بذلك فالسدران أن المتقين وإن تقلّبوا في البلد فإنه لا يضرهم ذلك وأن لهم ما وعدتهم الله عز وجل من جنات النعيم، ومعنی قوله تبارك وتعالى: ﴿نزلة من عند الله﴾ أي هي مّيظّة وإكراماً من الله عز وجل للمتقين، والنزل في الأصل هو ما يتعَّذ ويبني للضيف إكراماً له، ثم صار يطلق على كل رزق وعطاو ومكافأة ومنه قوله تعالى: ﴿أولئك لهم رزق معلومٌ﴾. فواكهة وهو مكرّمُون في جنات النعيم. على سرر متقلبين. يطاف عليهم يكأس من معين. بياض لذا للشاربين. لا فيها غوّال ولا هم عنها ينرفّون. وعندهم قاصرات الطرف عين. كأنهم بيض مكرون. فتأبل بعضهم على بعض يتساءلون. قال قائل منهم: إن كان لي قريب. يقول أئنك لمت صدقين. أدي ما طنا وكتابنا ترابا وعظامة أتينا لمدينون. قال هن أئتم مطلعون. فاطلع فرآه في سواء الجحيم. قال الله إنا كدت لتردين. ولولا
نعمتة ربي لكبر من المحضرين. أفلا نحن بمثاتين. إلا موتنا الأول وما نحن بهم الذين. إن هذا هو الفوز العظيم. لمثل هذا فليعمل العاملون. وأذلك خير نزال أم شجرة الزوام. وكيا قال عز وجل فيها أعدائه في النار: فنزل من حييم. وكيا قال عز وجل فيها أعدائه لأعيده في الجنة: ولعم فيها ما تشهي أنفسكم ولكم فيها ما تدعون. نزال من غفور رحيم. وقوله عز وجل: وما عند الله خير للابرار. هذا تذيل للإشعار بأن الصفات المذكورة هي من أعمال البر التي من مات عليها كان مع الأبز تحقيقا لدعوته: وتوفنا مع الأبز. وأن الذي أعده للابرار لا تذكيه نعمة من نعم متناك الحياة الدنيا والشاذة الفانية التي منحت للذين تقلوا في البلاد. وقوله عز وجل: وإن من أهل الكتاب لم يؤمنن بالله وما أنزل إليهم وما أنزل إليهم خاصين الله لا يشترون بآيات الله ثما قليلا. أولئك لهم أجهم عند ربه. إن الله سريع الحساب. هذا بيان محاسن بعض أهل الكتاب الذين سارعوا إلى الإيان بالله وتصديق رسوله محمد ﷺ والإيان بالقرآن واللائحة المنشئة على موسى وبالإنجيل الممزق على عيسى عليه السلام. كعبد الله بن سلام رضي الله عنه. وقد ذكر عز وجل لهؤلاء مثابين: الأول ظهور الخشوع لله عليهم المباح من إيانهم. والثانية أنهم يخلقون المحرمين لكلم من بعد مواضعه الكاذبين للحق من أهل الكتاب. فهم لا يبصرون ببيع ما علموا من الحق في مؤمن من الدنيا. ويهرون أمر الله عز وجل على قولوا: أو أنفسهم. وقوله عز وجل: أو أئنك لهم أجهم عند ربه إشاره إلى علو منزلتهم عند الله. وأنيهم يتأوون أجزهم مرتين بها صبروا. ويعتيون كيف يبلغون من رحمة الله. وفي قوله عز وجل في فواتح سورة آله عمران: ننزل عليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديك وأنزل التوراة والإنجيل. وقوله في خواتم السورة: وإن من أهل الكتاب لم يؤمنن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل
إليهم! تأييد للقول بأن الحروف المفرقة في أواخر السور إشارة إلى التحدي والإعجاز حيث يذكر الله عز وجل عقب هذه الحروف في افتتاحات السور القرآن صراحة أو ضمناً ثم يذكر اختلاف الناس بين مؤمن به أو مكذب له وإن المؤمنين يحصل لهم عز الدنيا وسعادة الآخرة وأن المكذبين يرجعون بخزي الدنيا وعذاب الآخرة ثم يختم السورة بمثل ما بدأها به من مدح القرآن والمؤمنين به وذم المكذبين وبيان سوء عاقبتهم كما أشرت إلى ذلك في افتتاحية سورة البقرة. وقال عز وجل: "إن الله سريع الحساب" تأكيد لنفوذ علمه بجميع أعمال خلقه. كما قال عز وجل: "وتنصع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها، وكفى بنا حاسبين."
قال تعالى: "فيا أيها الذين آمنوا أصابوا وصابروا ورابطوا وأتقوا الله تعلكم تفلحون"

هذه خاتمة المسك من سورة آل عمران، وقد أمر الله عز وجل المؤمنين في هذه الآية بالصبر والمصالحة والمرابحة والتقوى ويبين لهم أن تطبيق هذه الأوامر الأربعة يوصلهم إلى الفلاح والفوز والنجاة، ولما كانت هذه السورة المباركة اشتملت على قصة وقد نصари نجران خرج في ذلك نحو قينان آية من صدرها، واصممت على قصة غزوة أحد حيث نزل في ذلك نحو ستين آية، وفي كل قصة من القصتين تجلت ألوان من الصراع بين الحق والباطل، وانتهت بظهور الحق واندحار الباطل، إن الباطل كان زهووجاً، ولما كانت المجابهة بين الحق والباطل تقتضي من المؤمنين الالتزام الصبر لأنه دعامة من أهم دعامات النصر، ذكر الله عز وجل هذه الصفة الكريمة في مواطن كثيرة من هذه السورة الكريمة، وبدا ذلك بالثناء على الصالحين حيث جعلهم على رأس عباده الصالحين حيث يقول: "قل أؤنبكم بخير من ذلك، للذين آتوا عند ربهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواجه مطهرة ورضوان من الله، والله بصير بالعباد. الذين يقولون ربنا إننا آمنا فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار. الصابرين والصادقين والقانيين والمنفقين والمستغفرين بالأسحار.» وقال عز وجل في تبيين المؤمنين وتجذرهم من اتخاذ بطانة كافرة في الآية التي تلتها مباشرة الآيات التي نزلت في قصة غزوة أحد وحراء الأسد وكانتها بمشابهة التمهيد لذلك حيث يقول عز وجل: "إن تستمسيم حسنة تسؤهم وإن تصبكم سبيلاً ففرحوا بها وإن تصرفوا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً إن الله يا يعملون مهبط.» ثم قال عز وجل في مقدمات قصة غزوة أحد وحراء الأسد مذكرًا عباده المؤمنين بنصر الله لهم يوم
يُبين إن تصبروا وتتقوا ويأتونكم من فورهم هذا يمدحكم ربيكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين. ثم قال عز وجل في فقه غزوة أحد: "أم حسبتم أن تدخلوا الجنة وما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين. ثم قال عز وجل: "وكأثين من نبي قاتل معه ربيون كثيرًا فاً وقُنّوا ما أصابهم في سبيل الله وما ضعفوا وما استكانوا، والله يحب الصابرين. ثم قال عز وجل لتتوتين نفس المؤمنين على ما يصيبهم من الأذى من أعداء الإسلام: "لتبين في أمثالكم وأنفسكم ولتسمعون من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرًا، وإن تصبروا وتقروا فإن ذلك من عزم الأمور. ثم ختم هذه السورة المباركة بهذه الآية الكريمة حيث أمر المؤمنين فيها بالصبر والصبر والمرابطة وتقوى الله عز وجل حيث يقول: "يا أبا الذين آمنوا اصبروا وصابروا ورابطا واتقوا الله لعلكم تفلحون. "والفرق بين الصبر والمصابرة أن الصبر هو حبس النفس عن الجزع بما يصيبها من مصيبة أو يلقها من تكاليف وما قد تتعرض له من شهوات محمرة، وأما المصابرة فهي مغالية أعداء الله بالصبر في مواطن الحروب، وتخصيص المصابرة بالأمر بعد الأمر بمطلق الصبر لكونها أشد منه وأشتق، ومعنى قوله عز وجل: "وإذ رابطا" أي أقيموا في المغوار رابطاً خيلك فيها مترصدين للعدو، مستعدين له، كما قال عز وجل: "وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيول ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمواهم الله يعلمهم" وقد وعد الله تبارك وتعالى المرابطي في سبيل الله حفظ ثغور الإسلام، وصيانتهم عن دخول الأعداء إلى حوزة بلاد المسلمين بالأجر الجزيل والشهوات الجليل فقد روى البخاري ومسلم من حديث سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: "رباط يوم في سبيل الله خير من الدنيا وما عليها، ووضع سوط أحدكم".

١٦٧
من الجنة خير من الدنيا وما عليها، وروحه يروحها العبد في سبيل الله تعالى أو الغدَّة خير من الدنيا وما عليها، كما روى مسلم في صحيحه من حديث سلائى رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: رباط يوم وليلة خير من صيام شهر وقيامه، وإن مات فيه أجري عليه عمله الذي كان يعمل، وأجبر عليه رزقه، وأمن الناس ﷺ، كما روى أبو داود والترمذي وقال: حدث حسن صحيح عن قصادة بن عبيد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: كله ميتم على عمله إلا الذي مات مرابطًا في سبيل الله، فإنه ينتهى إلى يوم القيامة، ويوم من فترة القبر، كما روى الترمذي وقال: هذا حديث حسن صحيح غريب عن عنان بن عفان رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: رباط يوم في سبيل الله خير من ألف يوم فيها سواء من المنازل، كما روى ابن ماجه بسنده صحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: من مات مرابطًا في سبيل الله أجري عليه أجر عمله الصالح الذي كان يعمل، وأجري عليه رزقه، وأمن من الناس، وبعثه الله يوم القيامة آمنًا من الفزع الأكبر. كما روى الترمذي وقال: حديث حسن عن ابن عباس رضي الله عنها قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: عينان لا تغشى النار: عينين بنو خشين الله، عين بائنت تحرك في سبيل الله، هذا ويدخل في معنى المرابط في سبيل الله من ربط فرسه وأعدله للجهاد في سبيل الله وإن كان في أهل وقد أشار رسول الله ﷺ إلى فضلهم، فقد روى البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: طوي لقيتي أخذ بيعة فرسه في سبيل الله، أشعت رأسه، مغرة قدمًا، إن كان في الخراسان كان في الحراسة، وإن كان في السااق كان في السااق. الحديث. كما روى مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ممن خير معاش الناس لهم رجل مسند أعيان فرسه في سبيل الله، يطبق عليه مثليًا.
سماح هيئة أو قوعة طارع على منه، ينتهي الفتال أو الموت مطأته. الحديث.

كما روى البخاري ومسلم واللفظ لمسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
قال: قيل يا رسول الله: فأخيل قال: الخيل ثلاثة: هو لرجل وزر وهي لرجل سنتر، وهي لرجل أجر، فأما التي هي له ووزر فرجل زينتها ريبا وخفوا ونواة لأهل الإسلام فهي له وزر، وأما التي هي له سنتر فرجل زينتها في سبيل الله ثم لم ينسِ حق الله في ظهورها ولا رقابها، وأما التي هي له أجر فرجل زينتها في سبيل الله لاهل الإسلام في موجب ورودية، فيها أكثت من ذلك المرج أو المروضة من شيء إلا كتب له عددهما ما أكثت حسانتها، وكتب له عددها أرواحها وأبوابها حسانتها، ولا تقطع طرفًا فاستنذ شرقًا أو شرقين إلا كتب الله له عدد أثارها وأرواحها حسانتها، ولا مر بها صاحبها على نهر فشريت من وله لا يريد أن يسكبيه إلا كتب الله له عدد ما شريت حسانتها. الحديث.

كما روى البخاري في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: من أحبس فرسأ في سبيل الله إيانا به، وصديقنا بوقعه فإن شعبةُ ورية وزينة وثوابه في ميزانه يوم القيامة. يعني حسانتها. كما أشار رسول الله ﷺ إلى أن بعض الأحوال الصالحة تعد رباطا فقد روى مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ألا أذلكم على ما يمحو الله به الخطايا، ويرفع به الدراجات؟ قالوا: بل يا رسول الله، قال: إسباع الوضوء على المكاره، وكترة الخطا على المساجد، وانتظار الصلاة بعد الصلاة، فذالكم الرباط، فذالكم الرباط، وهذه البشارة لمن أسبغ الوضوء على المكاره وأكثر الخطا إلى المساجد وانتظار الصلاة بعد الصلاة بأنه مرابط شبيهة ببشارة رسول الله ﷺ من صل في مسجد قباء ركعتين بأن له أجر عُمُرة.

فقد روى الترمذي وقال حديث حسن غريب عن أسيدي بن مرير الأنصاري رضي الله عنه وكان من أصحاب النبي ﷺ يحدث عن النبي ﷺ أنه قال:
صلاةً في مسجد قباء كعمرة، وقد صحّه المندزي في الترغيب والترهيب حيث قال: ولا يعرّف لأسباب حديثاً صحيحًا غير هذا. أمّا روّى أحمد والسائِق وابن ماجه واللفظ له والحاكم وقال: صحيح الإسناد من حديث سهل بن حُليَّة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: من تظاهر في بيته، ثم أتى مسجد قباء فصل في صلاة كان له كأجر عمره. ولا خلاف عند أهل العلم على أن من كانت عليه عمرة فصل ركعتين في مسجد قباء لا تسقط العمرة عنه بهذه الصلاة التي صلاها في مسجد قباء، إذ المقاصد بيان عظيم الأجر لمن صلى في مسجد قباء، وكذلك بيان عظيم الأجر لمن أسيغ الوضوء على المكارو وآثار الخطا إلى المساجد وانتظار الصلاة بعد الصلاة، والفضل بيد الله يؤتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم، وقوله عز وجل:

وأتقوا الله لعلكم تفلحون. 

هذا هو الأمر الرابع من هذه الأوامر التي اشتملت عليها هذه الآية الخالقة الجامعة لأسرار الأحكام والحيكّم التي سبقت من أجلها هذه السورة المباركة، وتقديم الأمر بالصبر والمصافحة والمرابطة في الذكر قبل الأمر بتقوى الله عز وجل لأن الصبر والمصافحة والمرابطة كلها من أسباب تقوى الله عز وجل كجميع الأوامر والنواحي التي جاءت في كتاب الله عز وجل أو في سنة رسول الله ﷺ، إذ كلها تدور في ذلك تربية تقوى الله عز وجل في نفس عباده ليفوزوا في العاجلة والآخرة، ويستعذوا في الدنيا والآخرة، ولذلك جعل الله تبارك وتعالى القرآن العظيم هَنَّى للمتقين، وقد تبَّعَ الله تبارك وتعالى إلى ذلك عند ذكر كثير من الأحكام والعبادات سواء كانت بنذرة أو مالية أو غير ذلك كما في قوله تبارك وتعالى: 

لَيِسَ الَّذِي البَرُّ أن تُؤْهَكُمُ الْمَشْرِقُ وَالْأَمْغَابُ وَلَكَنَّ الَّذِي بَرَّ مِنْ أَمَنِ اللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخر والملاكَةَ والكتب والنبيين وآتِي المال على حبّه ذوي القدر واليضام والمصابين وابن السبيل والسلالين في الرقاب وأقام الصلاة وأتى الزكاة

١٧٠
والموفون بعهدهم إذا عاهدُوا والصابرين في البناء والضراء وحين البأس، أولئك الذين صدقو وأولئك هم المتوفون. ثم قال في تشريع القصاص: "ولكم في القصاص حياة يا أولى الألباب لعلكم تنفعون." ثم قال في تشريع الوصية: "حقًا على المتوفين." ثم قال في تشريع الصيام: "يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كنا كتب على الذين من قبلكم لعلكم تنفعون." وقد تفسير هذه السورة المباركة بعد صلاة فجر يوم الحرم السادس عشر من شعبان سنة تسعة وأربعين وألف من الهجرة النبوية بمنزلنا بمدينة الرياض。
فله الحمد والمنة.
تفسير
سورة النساء
قال تعالى: 
أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وثب منها رجالاً كثيراً ونساءً، واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام، إن الله كان عليكم رقيباً.

هذه سورة النساء، وقد يطلق عليها اسم سورة النساء الطويلة، كا قد يطلق على سورة الطلاق سورة النساء الفصري، وسميت سورة النساء لأن الله شرع فيها قواعد صيانة حقوق النساء وأخراجهن من رق الجاهلية إلى حرية الإسلام ورفعهن من أعباق المهانة والاستكانة إلى حيث استنشقن ربيع العزة والكرامة، وجعلهن نصيباً من الميراث بعد أن كن نصيباً من الميراث، وفرض الله ملحمة الأزواج مهراً جعله حقاً خالصاً للمرأة تصرف فيه كيف تشاء، وحرم على الرجال عضلهن، في أحكام كثيرة تميزت بها المرأة في الإسلام، ومناسبة افتتاحية هذه السورة الكريمة خاتمة السورة التي قبلها أنه ذكر في ختام السورة السابقة الأمر بتنوّع الله عز وجل حيث قال: 
واتقوا الله لعلكم تفلحون. 
وذكر في افتتاحية هذه السورة الكريمة الأمر بتنوّع الله عز وجل حيث يقول: 
أيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وثب منها رجالاً كثيراً ونساءً، واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام، إن الله كان عليكم رقيباً. 
كما أن الله عز وجل قال في خواتيم المسك من سورة آل عمران: 
أني لا أضيف عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض، وقال في مطلع سورة النساء: خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وثب منها رجالاً كثيراً ونساءً، مما يؤكد أن
بعضهم من بعض، فالمناسبة بين خواتيم سورة آل عمران ومطلع سورة النساء في غاية الوضوح والظهور. وهذه السورة مدنية فقد روى البخاري في صحيحه عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: وما تزنت سورة البقرة والنساء إلا وأنا عندها تعني أنه قد تزوجهها ودخل عليها قبل نزول سورة البقرة وسورة النساء، وهذا يزيد قول بعض الناس: إن قوله تعالى: (يا أيها الناس) حيث وقع في كتاب الله فهو مكفي. ولأنه قد وقع في البقرة: (يا أيها الناس اعبدوا ربكم) وقال: (يا أيها الناس كُلُواً مما في الأرض خلالا طيباً) وسورة البقرة مدنية كما جاء في حديث عائشة رضي الله عنها المذكور آنفاً، قال ابن كثير في تفسيره: والبقرة جمعها مدنية قبل خلافه، وهما ينبغي لفت الانتباه إليهم من وجه إعجاز القرآن أن الله تبارك وتعالى افتح سورتين من القرآن العظيم بقوله تعالى: (يا أيها الناس) وهم سورة النساء هذه وسورة الحج، ومن العجيب أن سورة النساء هي السورة الرابعة من النصف الأول من القرآن، وسورة الحج هي السورة الرابعة من النصف الثاني من القرآن. كما أنه بعد توجيه النداء إلى الناس في سورة النساء أمرهم بتنوى الله عز وجل حيث قال: (يا أيها الناس اتقوا ربكم) كأ أنه بعد توجيه النداء إلى الناس في سورة الحج أمرهم بتنوى الله عز وجل حيث قال: (يا أيها الناس اتقوا ربكم) ومن العجيب كذلك أنه بعد توجيه النداء إلى الناس أمرهم بتنوى الله عز وجل في سورة النساء علل ذلك بذكر نشأتهم الأولى، وأنه بعد توجيه النداء إلى الناس أمرهم بتنوى الله عز وجل في سورة الحج علل ذلك بذكر نشأتهم الثانية وعذرهم. فسحبت من أترَّل هذا الكتاب الذي أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير. وقوله عز وجل: (يا أيها الناس) خطاب يعم جميع المكلفين الموجودين عند نجى هذا الخطاب كما يعم من يجيء من الناس ويبلغ حد التكليف إلى يوم القيامة، ولا خلاف عند علماء أمة محمد ﷺ أن

١٧٦
آخر هذه الأمية مكَّلَفَ بها كُلُّهَا، وقد صدَّر الله عز وجل أوارم هذه السورة المباركة بتحذوئ عز وجل وهي مراقبته في السر والعلن والعصر والليسر والشهدة والرخاء والنشط والمكره، وفي جميع الأحوال، وقوله عز وجل:

الذي خلقكم من نفس واحدة تبنيه على قدرته عز وجل وأنه لا يعجزه شيء حيث خلق جميع الناس من نفس واحدة مع اختلاف ألوانهم وأشكالهم وصورهم وأقطارهم وأعصارهم، والمراد بالنفس الواحدة التي خلق الله عز وجل منها جميع الناس هو آدم عليه السلام، وقد خلق الله عز وجل من قبضة قبضته من تراب الأرض وقد اجتمع في هذه القبضة من التراب جميع ألوان تراب الأرض، ولذلك جاء بنو آدم على هذه الألوان كما روى أحمد وأبو داود والترمذي وقال الترمذي: حسن صحيح من حديث أبي موسى الأشقرى رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: إن الله خلق آدم من قبضة قبضته من جميع الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض، فجاء منهم الأبيض والأمر والأسود وليست ذلك، والسَّهل والعُريق وبين ذلك، والحديث الطيب بين ذلك. كما روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: خلق الله ﷺ آدم طوله ستون ذراعاً، ثم قال: اذهب فسَّلُه على أولئك النفر من الملائكة فاستمع ما يجيبونك فإنما جَيْبُونك وتحية ذريتك، فقال: السلام عليكم، فقالوا: السلام عليك ورحمة الله، فزادوا ورحمة الله، فكل من يدخل الجنّة على صورة آدم، فلم يزل الخلق ينقض حتى الآن. وقوله عز وجل: خلق منها زوجها هو زيادة تنبيه على عظيم قدرته ونعمته، أي وخلق وأوجد من هذه النفس الواحدة زوجة هذه النفس تسكن إليها وتتميّز بها والمراد بهذه الزوج حواء عليها السلام أم جميع بنى آدم حيث خلقها الله عز وجل من صلب من أضلاع آدم كما روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: استويا بالنساء
خيراً، فإن المرأة خلق فت من ضيّع، وإن أعوج شاء في الصَّلْع أعلاه، فإنها دَكْهَبْت تقيمه كسرتها، وإن تركته لم يزل أعوج، فاستوصوا بالنساء خيراً.
ووصف النفس بأنها واحدة مع أن المراد بها أدوم وهو ذكر لمرايعة لفظ النفس فإن لفظ النفس مؤنث حتى لو أريد به المذكر، كما أن لفظ الروج يطلق على الذكر وعلى الأنثى فيقال: هذا زوج فلالة وهذه زوج فلان. وقد بين الله عز وجل أن من آياته أن خلق للمرج زوجة يسكن إليها حيث يقول تبارك وتعالى: {هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها} كنا قال عز وجل: {فمن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجًا لسكنوا إليها وجعل بينكم موضة ورحة، فإن في ذلك لآيات لقوم يشكرون}. ففي تخصيص الله عز وجل الذكر بصفات وأعضاء الذكرية وتصنيف الإناث بصفات وأعضاء الأنثوية مما يحثُن للتحمل والولادة والإرضاع وغير ذلك آيات وبراءات لذوي البصائر والأفكار الذين يعمِّلون نظرهم ويتصرفون في خلق الذكر والأنثى فيهرون أن ذلك صُنعُ الله الذي أتقن كل شيء، وأنه لا إله غيره ولا معبد بحق سواء وقوله تبارك وتعالى: {وَبِنَائِٰها رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً} أي وَدَرَّ أَوْ نَشَرَ وَفَرَقَ من النفس الواحدة وزوجهها يعني أدوم وحواء ذكروا كثيرين وإناثاً كثيرة وفي قوله عز وجل: {وَنِسَاءً} ولم يقل: ونساء كثيرة اكتفاء على طريق الأسلوب البلاغي المعروف في علم البديع بالاكتفاء حيث ذكر هذا الوصف مع الرجال فاكتفي بذكره في ذلك عن ذكره في النساء وقوله: {رِجالًا} ومَنْ يَقِل: ذكروا وإنائنا لتأكيد الكثرة والبالغة فيها بوصول الكثير من النوعين إلى مبلغ الإنجاب على أن وصف الذكر بالرجولية قد يطلق عليه من وقت ولادته كما قال رسول الله ﷺ في رواية البخاري ومسلم من حديث ابن عباس رضي الله عنها ونافع: {أنزلت الفرائض بأهلها فما ليّ في فهر لأول رجل} 178
ذَكر. وقوله تعالى: ﴿واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام﴾ أي وامتنعون قلوبكم بالخوف من الله عز وجل حتى تكونوا على حذر شديد من مخالفة أمره أو الوقوع في معاصيه، واحذروا أن تقطعوا أرحامكم، وهذا على قراءة ﴿الأرحام﴾ بالنصب، وهي قراءة القراء السبعة ما عدا حمزة فإنه قرأها بالاجز، وعند قراءة العامة هذه إشعار بخطورة قطع الرحم، وتبنيه إلى وجوب التواصل بين الأقارب، ولذلك وعند الله عز وجل الرحمم بأن مَنّ وصلها وصله الله ومن قطعها قطعه الله، فقد روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: إن الله تعالى خلق الحبل حتى إذا قُطع منهم قامت الرحم فقالت: هذا مقام العائلا بمن القطعة قال نعم، أما ترجض أن أصل مَنّ وصلك وأقطع من قطعك، قالت: بل، قال: فذَلِك لَك ثُم قال رسول الله ﷺ: اقرأوا إن شئتم: ﴿فهله عسيتم إن توليك﴾ أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم. أولئك الذين لنعنهم الله فأصمهم وأعمي أبصرهم. ﴿وَبَلْ يَسَاء لَهُمْ الْعَبَادُ﴾. وفي قوله عز وجل: ﴿الذي تساءلون به﴾ تنبيه للعباد على أن الله عز وجل قد جعل النفس على الإقرار به حتى في الجاهلية إذ كانوا يقررون به، ويسأل بعضهم بعضًا به عز وجل فيقول الإنسان منهم من أراد منه حاجة أسلك بالله، كما يفعل ذلك المسلمون أيضاً ولذلك جاء في قصة الأبرص والأقرع والأعمى التي رواها البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع النبي ﷺ يقول: إن ثلاثة من بني إسرائيل أبرص وأقرع وأعمى أراد الله أن يتلهم. الحديث، وفيه أنه قال للأبرص: أسلك بالذي أعطاك اللون الحسن والجلد الحسن والمال بعد أن أبلغ عليه في سفري. وأنه قال للأعمى: أسلك بالذي رض عليك بصرك شاعة أبلغ بها في سفري. وقد حضر رسول الله ﷺ على قضاء حاجة من سال بالله، فقد قال أبو داود: حدثنا عثمان بن أبي شربه ثنا جرير عن الأعمى عن مjahid عن
قال تعالى: "فلاتروا اليتامى أمولهم ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم، فإن حربي كبير. وإن خفتتم ألا تقتضروا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فأن خفتتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أبائكم، ذلك أدنى ألا تعلوا".

بعد أن صدى الله تبارك وتعالى هذه السورة المباركة بأمر الناس بتقوى ربه الذي خلقهم من نفس واحدة وخلق منها زوجها، وبث منها رجالا كثيرا ونساء، ثم أكد ذلك الأمر حيث أمرهم مرة ثانية في نفس الآية بتقوى الله الذي يسأل بعضهم بعضاه حتى في جاهلتهم، وحذرتهم بعد ذلك من قطيعة الرحم، شرع يوصي عباده بوجب رعاية اليتامى والمحافظة على حقوقهم، وصيانة أموالهم، في ثاني أبيات بدأت من الآية الثانية من هذه السورة الكريمة إلى نهاية الآية التاسعة منها، نبه فيها بصفة خاصة إلى حقوق اليتيمات وحذرت أولياءهن من الحرص بهذه الحقوق أو تضيعها ولا سبب فيها يتصل بشأن الزواج منهن، وبين الطريق السوي لتدريب اليتامى على حسن المحافظة على أموالهم إذا بلغوا سن الرشد، ولما كان المال قد جعله الله عز وجل قيما للناس وكما قيل: المال عصب الحياة - صدى الله عز وجل هذه الوصايا بوجب المحافظة على مال اليتيم مطلقا حيث يقول تبارك وتعالى: "أثروا اليتامى أمولهم ولا تتبدلوا الخبيث بالطيب ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم، فإن حربي كبير" ثم ختم هذه الوصايا بقوله تعالى: "إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظليلا إنما يأكلون في بطشهم نارا وسيصلون سعيراً ومنعه قوله عز وجل: "أثروا اليتامى أمولهم" أي وأعطوا اليتامى أموالهم التي هي لهم تحت أبيكمي، باعتباركم أوصاء عليهم، وهذا الأمر يشمل صورتين: الأولى أن يكون اليتيم دون سن الرشد وحينئذ يكون الوصي
أمرنا بأن يدفع له ما يحتاجه من الطعام والكساء، إذا أنه قبل البلوغ لا يجوز أن يتمكن من الاستبداد بكامل ماله، كما قال عز وجل: فإن أنتم منهم رشدا فدفعوا إليهم أمواهم والصور البيانية هي تسليمهم كامل ماله بعد بلوغ الرشد، وأطلق عليه اسم اليتيم باعتبار ما كان، وفي التعبير به إشارة بسرعة الدفع إليه حيث هو قريب العهد بتسمية يتيه، وهو شبيه بقوله عز وجل في المطلق الراجعة: وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فأمسكوهن بمعرفة أور سرطون بistrarوف إذا المراد من بلوغ الرجل هو مقارنة بلوغ، لأنه إذا انتهى الرجل وانقضت العدة فإنه لا يملك عليها حق الراجعة، كما أوضح ذلك في تفسير سورة البقرة، قوله عز وجل: ولا تبدلوا الخبيث بالطيب تحذر شديد للأوصياء وغيرهم من أكثر المال الخامن مطلقًا، وتغذية الجسم به بدل تغذيته بالخلال الطيب، ويدخل في ذلك التحذير من أكثر مال اليتامى من باب أولى إذ السياق فيه، وقوله عز وجل: ولا تأكلوا أمواهم إلى أموالكم هو تحذر آخر شديد للأوصياء وغيرهم من الطعام في أموال اليتامى، وتنديد بين يكون غنيا من الأوصياء ولا ينور عن ضم مال اليتيم إلى ماله بقصد زيادة شروط الوصي وسلب حق اليتيم، وفيه إشارة إلى أن من كان فقيراً من الأوصياء فإن له الحق أن يأكل من مال اليتيم بالمعروف كما قال عز وجل: ومن كان غنياً فليستغفف ومن كان فقيرًا فليأكل بالمعروف والتعبير بالأسفل في قوله عز وجل: ولا تأكلوا أمواهم لأنه المقصود الأعظم من الاستبدل على المال، وليس ذلك قسرا للتحريم على الأكل وحده بل المقصود منه النهي عن أكل أموال اليتامى والاستيلاء عليها بطريقة غير مشروع سواء كان أكلا أو شربا أو كساء أو مركبا أو مسكتنا أو إفلاوة أو غير ذلك من وجوه إضاعة مال اليتيم. وقوله تبارك وتعالى: إنه 182
كان حربًا كبيرًا أي إن التعدي على أموال اليتامى إثم عظيم وجرائم كبيرة وذنب مهلك لصاحبته مثلي فnamespace:local:INAL_H: هذا الإمام وما لولا أن عمله عز وجل: "وإن خُفِّتم ألا تَفَصِّلَوْا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثل ثلاثة وثلاث ورباع" بعد أن أمر الله عز وجل في الآية السابقة بإبادة اليتامى أمواتهم وحُدَّر من إذلالها وأكلها شرع هنا في التنبيه على حقوق النساء اليتيمات ووجّه الخطاب لأولئك يتأمان النساء بوجوب المحافظة على حقوقهنّ وخصوصاً إذا كان أوليهمٌ بيتهم من يباح له الزواج بها، وحذّرهم من أفعال أهل الجاهلية حيث كان الواحد من هؤلاء الأولياء إذا كانت عنته ينتهاة وهو ولاية، فإن كانت جيلاً وله من ركب فيها لما هو وجهاً وتوسّعتها دون أن يعدل في صداقتها، فحذّرهم الله عز وجل من ذلك وأمرهم إذا لم يتمكنوا من الإقلاع في حق يتأمان النساء اللائي تحت ولايته أن يبتعدوا عن الزواج منهن، وأن الله عز وجل قد وسع عليها بأن أباح لهم أن يتزوجوا ما طاب لهم من النساء مثل ثلاثة وثلاث ورباع، ومنعت قولي عز وجل: "وإن خُفِّتم ألا تَفَصِّلَوْا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثل ثلاثة وثلاث ورباع" أي وإن خشيتم وعلمتم من أنفسكم أنكم لن تعدوا في يتأمان النساء اللائي تحت ولايتكم بإعتاشهن حَقَّين في الصداق وحسن العشرة، وعند أكل أموالهن فلا تُنَكَّحوهنُ وقد وسع الله عز وجل عليكم فتزوجوا غيرهن من النساء إذ شئتتم تزوجتم زوجتين أو ثلاثات زوجات أو أربع زوجات من طيات النساء، وقد أجمع علماء الأمة سنة يُعَدُّون بإجماعهم على تحريم الجمع بين أكثر من أربع نساء قال الشافعي رحمه الله: وقد دُلَّت سنة رسول الله ﷺ البينة عن الله أنه لا يجوز لأحد غير رسول الله ﷺ أن يجمع بين أكثر من أربع نساء قال ابن كثير رحمه الله في تفسيره: وهذا الذي قاله الشافعي جميع عليه بين العلماء إضافة إلى أن قال أبو عبيد في سننه: باب في من أسلم وعنده نساء أكثر
من أربع أو أثمان، حديثنا مسلمة ثنا هشيم ح وثنا وهب بن عبد القبه، أخبرنا هشيم عن ابن أبي ليلى عن حضرة بن الشمردل عن الحارث بن قيس قال:

مسدد: ابن عميرة وقال وهب: الأسدي قال: أسلمت وعندى ثان نسوة فذكرت ذلك للنبي ﷺ فقال النبي ﷺ: اختير منهن أربعًا. قال أبو داود: وحدثنا به أحمد بن إبراهيم ثنا هشيم بهذا الحديث فقال: قيس بن الحارث مكان الحارث بن قيس قال أحمد بن إبراهيم هذا الصواب، يعني قيس بن الحارث. حديثنا أحمد بن إبراهيم ثنا بكر بن عبد الرحمن قاضي الكوفة عن عيسى بن المختار عن ابن أبي ليلى عن حضرة بن الشمردل عن قيس بن الحارث بمعاهدهم وقد روى البخاري ومسلم في صحيحهما Said Nuzul This Ayah the Sacred Quran the Prophet ﷺ أن لا تقسموا في الydıام فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع قال: يا ابن أختي هي البيتيمة تكون في حجر وليها شاركه في ماله، فيمتخته سالما وجميلة، فيريد ولئن أن يتزوجها بغير أن يقصط في صداقها فيعطيها مثل ما يعطيها غيره فنقول أن ينكحون إلا أن يقصطوا لهن وينبعلوا بهن أعلى سنتين من الصداقة وأمروا أن ينكحوا ما طاب لهم من النساء سواءن قال عائشة: قال إن الناس استفتوا رسول الله ﷺ بعد هذه الآية فهبن فأنزل الله عز وجل: يُستفتننَّك في النساء قال الله ﷺ يَفْتِنِكُمْ فهبن وما تَبْنِي عليكم في الكتاب في يتمى النساء اللائي لا تَبْتُنُونَهُم ما كَبِبٌ لهم وترغبون أن تنكحون قال: والذي ذكر الله تعالى أنه ينفي عليكم في الكتاب الآية الأولى التي قال الله فيها: وإن خفتم أن لا تقصطوا في الydıام فانكحوا ما طاب لكم من النساء قال عائشة: وقول الله في الآية الأخرى: وترغبون أن تنكحون رغبة أحدكم عن ال البيتيمة التي تكون في حجره حين تكون قليلة المال والجمال

السماح

184
فنهوا أن ينكحوا ما زُجِبوا في مالها وجمالها من يتامى النساء إلا بالقسط من أجل زوجهم عنها. وفي لفظ لمسلم من طريق عروة عن عائشة في قوله: وإن خفت أن لا تنصسطوا في اليتامى قالت: أنزلت في الرجل تكون له الزيتونة وهو وليها ووارثها نمها مالها، ليس لها أحد يتصرف بهم دونها فلا ينكحها لما لها، فيصير بها، وببء صحبتها، فقال: إن خفت أن لا تنصسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء يقول: ما أهلت لكم ورث هذه التي تصرف بها، وفي لفظ لمسلم من طريق عروة عن عائشة في قوله: وما يتيّل عليك في الكتاب، في يتامى النساء اللائي لا تؤتونهن ما كتب لهم وترغبون أن تنكحوهن قالت: أنزلت في الزيتونة تكون عند الرجل فتشركه في ماله، فيرغب عنها أن يتزوجها، ويُكره أن يزوجها غيره، فتشركه في ماله، فيعطيها، فلا يزوجها ولا يزوجها غيره. وفي لفظ لمسلم من طريق عروة عن عائشة في قوله: يستفتك في النساء قل الله يفيتكم فيهن الآية قالت: هي الزيتونة التي تكون عند الرجل لعلها أن تكون قد شركته في ماله حتى في العدريق ويرغب يعني أن ينكحها ويكره أن ينكحها رجلا فتشركه في ماله فتعين عليها ما هو في لفظ للمخاري من طريق عروة أنه سأل عائشة عن قوله تعالى: وإن خفت أن لا تنصسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء منى وثلاث وربع فإن خفت أن لا تعدلوا فواحة أو ما ملكت أينكم ذلك أدنى أن لا تعقولوا. قالت: يا ابن أختي، الزيتونة تكون في حجر وليها ويرغب في مالها وجمالها، يريد أن يزوجها بأدنى من سنة صداقاً، فنهوا أن ينكحوهن إلا أن ينصسطوا فتشركه الزيتونة، وأمرنا بنكاح من سوفهم من النساء، وقوله عز وجل: فإن خفت أن لا تعدلوا فواحة أو ما ملكت أينكم وأي وإن خشيتم وعلمتم من أنفسكم أنكم لا تستطيعون العدل بين الزوجتين أو الزوجات إن عدتم الزوجات فاقتصروا على الزوج من امرأة

١٨٥
واحدة أو على الجواري السرائر حيث لا يجب القسم بينهم وإن كان مستحباً، وقوله عز وجل: "ذلك أدنى ألا تعلووا". أي ذلك أقرب إلى ألا تجوزوا، فالقول يطلق على الميل يقول: عمال الميزان عقولاً إذا مال وعمال في الحكم أي جنار وظلم، ولا شك أن شريعة الإسلام عندما أباحت تعدد الزوجات إلى أربع وإشترطت في التعدد أن يتوافر ركن العدل من جانب الزوج في الزوجات، كانت أكمل الشرائع السياوية في هذا الباب، كما هي كذلك في كل تشريعاتها ففي التوراة التعدد ولي إلى مئات، والذين حكموا التعدد سقطوا في براثن الخليلات، مع أن التعدد إلى أربع قد يكون ضرورة شخصية، وقد يكون ضرورة طبيعية وقد يكون ضرورة إجتماعية، والأصل في الحياة الزوجية السعيدة أن يكون للرجل زوجة واحدة وقد تمس الحاجة إلى كفالة الرجل الواحد لأكثر من زوجة، وأن ذلك التعدد قد يكون لصلحة الأفراد من الرجال والنساء، كما قد يكون لحماية المجتمع وحفظه من أدران الفساد، وله الحكمة البالغة.
قال تعالى: «وأتوا النساء صدقاتهن نحلة فإن طبن لكم عن شيء من نفسي فكلوه هنيئا مرينا. ولا تؤوا السفهاء أموالكم التي جعل الله لكم قياما وارزقوهن فيها و으سوهم وقولوا لهم قولا معروفاً.»

هى يك عن أبي هريرة عن النبي ﷺ قال: "إذا كان عند الرجل أمريتان فلم
يُعَدِّل بينهما جاء يوم القيامة وشفت ساقط". قال أبو عيسى: وإنها أُسْتَدَّ هذا
الحديث كمام بن يحيى عن قنادة، رواه هشام الأَلْدُسْتُوْنِي عن قنادة قال:
كان يُقَال. ولا نعرف هذا الحديث مرفوعا إلا من حديث كمام، وهمام نقص
حافظ آه. وقد أرشد رسول الله ﷺ من لم يستطع من ذوي النشاط الزواج أن
يصوم فقد روى البخاري ومسلم من حديث عبدالله بن مسعود رضي الله عنه.
قال: قال لنا رسول الله ﷺ: "يا ماعشر الشباب من استطاع منكم الباءة
فلتتزوج، فإنه أعَصُر للبصر، وأحسن للقرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم
فإنْه له وجاء". وبعد هذه الوصية الكريمة من الله ﷺ وعندًا برعاية حقوق
يتناقل النساء، وتحذير الرجال من الجؤر على الزوجات مطلقا فرض على
الرجال هنا إيتاء النساء صدقاتهن نحلة حيث يقول عز وجل: "فآنوا النساء
صدقاتهن نحلة فأوعْطُوا النساء مُهْؤَرَهُن عطية واجبة وفريضة لازمة،
وقد حتمت الشريعة الإسلامية في هذه الآية المهر للنساء على الرجال، ولم
يُبْثُ لأيْن أتزوج بلا مهر بحال من الأحوال وحرمت نكاح الشعائ، وقد
أشار الله عز وجل إلى أنه آذن لنبيه ﷺ دون غيره من الأمّة أن يتزوج من المرأة
التي وثبت نفسها للنبي ﷺ إن رغب في نكاحها بلا مهر ولم يجز الله عز
وجل ذلك لغير رسول الله ﷺ مطلقا حيث يقول تبارك وتعالى: "فيا أيها
النبي إن أهللنا لك أزواجك اللائي آتى أجرهن وما ملكت يمينك ما أفاء
الله عليك وبنات عمك وبنات عتاك وبنات خالك وبنات خالتك
اللائي كَأَجَرْنَ مال ومرة مؤمنة إن وَقَبَتْ تَفْشَهَا للنبي إن أراد النبي أن
يستنكحها خالصة لكي من دون المؤمنين، قد علمنا ما فرضنا عليهم في
أزواجهم وما ملكت أيامهم كي لا يكون عليك حرج، وكان الله غفورا
رحيا.

وبتحتم المهر على الزوجة وجَعْلِه حقيقة خالصة لها تنصرف فيه

188
كيف تشاء تكون المرأة في ظل الشريعة الإسلامية قد تميزت على نساء العالمين، لأن كتب العهد القديم وإن كانت قد فرضت للمرأة مهرا لكنها لا تُملِّكتُها بالفعل إلا إذا مات زوجها أو طلَّقتها، لأنها لا يُجِل لها عندهم أن تنصرف في ما لها ومنذ زوج. وفي قوله عز وجل: "نحلة" إشارة إلى أن هذا المهر عبيٌّة من الله للمرأة، كما أنه يجب على الرجل أن يعطي زوجته المهر بطيب نفس منه، والصدقات جمع صدقة بفتح الصاد وضم الدال وهو اسم من أسبياء المهر يقال فيه: صدقة بفتح الصاد وضم الدال ويقال فيه: صدقة بفتح الصاد والدال، ويقال فيه: صدقة بفتح الصاد وسكون الدال، وصداق بفتح الصاد صداق بكسر الصاد. كما أن النحلة تطلق على العطية من غير عوض عن طيب نفس كما أن في التعبير بها كذلك في هذا المقام إشعارًا بسمو مقصد هذه العطية في الإسلام وقال الزجاج "نحلة" تُدْنِيا، وقاله تبارك وتعالى: "إذا طين لكم الله من شيء فكم أحلم به، فكله من فلكه بهذا، أو إضرار منكم فكم فنحوه وانتفعوا به، وما أكمِن من هذه الصفة فهو لَهُنِي مَرَيْ، وخصوص الأكل بالذكر لأنه معظم وجوه التصرفات المالية كما أشرت إلى ذلك قريبا في تفسير قوله تبارك وتعالى: "ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم" والمقصود من قوله عز وجل: "فكله من فلكه هذا" هو المبالغة في إباحة الانتفاع به وإزالة آية تبعة بسببه، والمنى المرء هو الساقط الطيب المحمود العاقبة الذي لا تغيس فيه، الجالب للمسرة المزرل للمضرة، والتعبير بقوله: "إذا طين لكم عن شيء فكم تناولوا" ولم يقل فإن وحي الكم منه شيء للتأكيد على ضرورة التأكد من رضا المرأة وأن عطاءها هو عن طيب نفس لا يشوه إكره أو خداع من الزوج أو غيره، وهذا في غاية لفت الانتباه إلى صيانت حقوق النساء في الإسلام وإحاطتهن بسياج حصنية تحميهل من
العْبَث بحقوقه. وقوله عز وجل: ﴿ولا تُؤْثَرْوا السَّفَهَاءَ أموالكم التي جَعَلَ الله لكم قياماً﴾ بعد أن أمر الله عز وجل أوصياء الينابيع بإيابه الينابيع أموالهم، كأمر عز وجل بإياب النساء صدقاتهن نحلة نبى عز وجل هنا عن تمكن السفهاء من التصرف في أموالهم، وحرص إطلاق أيديهم فيها، واستبادتهم بها، مثنياً تبارك وتعالى أن الله عز وجل جعل الأموال قياماً للناس، تقوم عليها معايشهم، وتقوى بها أجسامهم وأنفسهم، ويخضلون بها على الكثير من مصالح دينهم ودنياهم، ويعلج الإنسان الرشيد بسبها عن مقعد الحسنة والنبنامة ولذلك كثرت وصايا الإسلام بالمحافظة على المال وصيانته حتى قطعت بد السارق في ربع دينار، وفي قوله عز وجل هنا: ﴿أموالكم التي جعل الله لكم قياماً وقوله عز وجل في سورة المائدة: جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس والشهر الحرام والهدي والقلائد﴾ إشارة إلى أن قيام الناس وصلاح معايشهم ومعادهم لا بد فيه من أمرين ضروريين وهما الدين الذي يُقومُ أرواحهم والمال الذي يُقومُ أبداههم، وقد رسم الله عز وجل للمسلمين أحسن المناهج للتصرف في الأموال حيث يقول: ﴿ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنك ولا تستطع كُل البسط فتقعد ملموماً محسورة﴾ وقال في وصف عبادة الصالحين: ﴿والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً والسفهاء جمع سفه، والسفه في اللغة يطلق على معان منها: الجنون والجهل والعيش، وخُفْصُ العقل وعدم الرشد وصيغَ السَّن والانحراف عن سواء السبيل، وبهذا قد يكون السفه صفةً ذمًا كما قد لا يكون صفةً ذم كصغر السن، قال ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية: ينهى سبحانه عن تمكن السفهاء من التصرف في الأموال التي جعلها الله للناس قياماً أي تقوم بها معايشهم من التجارب وغيرها، ومن هنا يؤخذ الحجر على السفهاء، وهم أقسام، فتارة يكون الحجر للصغر فإن الصغير 190
مسؤول العبارة، وِتَأَدَّبْتُ كَمَثَّ إلى الجَدَّةٍ لِّلماشخ، وِتَأَدَّبَتْ لَسُوء التصرف لنقص العقل أو الدين، وِتَأَدَّبَتْ لَلْقَلَّة وِهِم مَا إِذَا أَحَاطَتْ الديَّونُ بِرجل وِضَاقَ مَالُهُ عَن وَقَاتِهَا إِمَّا وَظَاهَرُ السياق يُشْعِرُ أن قَولَهُ: "أَموالكم" يَريِد الأموال المملوكة للسفهاء بإِلوَّى أو غِيره بِديل قَوله عَز وِجَلِّ في نَفَس الآية: "وَأَرْزَقْوهُم فيّا وَاكُشُوهُم" وِإِنَّا جَاءَتِ الإِضافة للمخاطبين لِأَنهم هُم المستولون عَن التصرف فيها، وِتَهَيْنَجَ عَواطفهم بشدة المحافظة عليها كِا يِحَافِظُونَ عَلَى أَموالهم التي يِمَلَكُونَها، وِهِذَا شَيْءٌ بِقَوْلِهِ تَبَارَك وِتَعَالَ: "لَقَد جَاءَ مُرْسُولٌ مَن أَنفَسْكُم وَقُولُهُ عَز وِجَل: "فَأَقْتَلُوا أَنفَسْكُم وَقُولُهُ عَز وِجَل: "ثُمَّ أنَّم هُؤُلَاءُ تَقْتُلُونَ أَنفَسْكُمْ وَمَعْلُومٌ أَنَّ الرَّجُل مِنْهُم ما كَانَ يُقْتَل نَفْسُهُ وَإِنَّا كَانَ بَعْضُهُم يُقْتَل بِبَعْضَا، كَأَنَّ فِي إِضْفَاءة الأَموال للمخاطبين إِفَادَة تَنَعِّي كَلِّ إِسْتَنَاس عِنّ تَسْلِيم مَالِه لِسُفَهِي مِن السفهاء وَعِن إِضِعَاءة المَال لَأ يِسْبُك كَانَ، وِهِذَا مِن كَيِّل تَنَبِيِّه النَّاس إِنَّ أنَّ المَال هُو عِصْبَتُ الحَيَاة وَأَنَّ اِتَّقَافُهُ وَتَبْذِيرُهُ هُوَ مِن أَعْمَال الْشَّيَاطِين وَلِذَّلِكَ قَالَ عَز وِجَل: "إِنَّ الْبَذَّرَين كَانُوا إِخْوَان الْشِّيَاطِين وَكَانُوا الْشِّيَاطِين لِرَبِّهِ كِفَّاراً وَقَالَ عَز وِجَل هَنَّا: "الَّتِي جَعْلَ اللَّه لَكُم قِيَامَا قَالَ الْفَحْر الْرَّازِي فِي تَفْسِير هَذِهِ الآيَة: أَعْلَم أَنَّهُ تَعَالِي أَمَرُ المَلْكِيِّين فِي مُواضِيع مِن كِتَابِه بِحَفْظ الأَموال قَالَ تَعَالَى: "وَلَا تَبْذَرُ الْبَذَّرَا. إنَّ الْبَذَّرَين كَانُوا إِخْوَان الْشِّيَاطِين" وَقَالَ تَعَالَى: "وَلَا تَتَنَبَّعْ إِلَى عَنْتَقك وَلَا تَبْطَسَك كَلَّ الْبَسْط فَتَقْعُد مَلْوَمَا عَسْوَراً وَقَالَ تَعَالَى: "وَاللَّهِنَّ إِذَا أَنفَقَتْنَ لَمْ يَسَرْفُوا وَلَا يَقْتُروْا" وَقَد رَغَّبَ اللَّه فِي حَفْظ المَال فِي آيَةِ الْمَدَيْنَة حِيْثُ أَمَرَ بِالْإِسْمَاعِ وَالْإِشْهَاد وَالرُّحْن، وَالعَلَّة أَيْضًا يُؤُدِّ ذلِك لَأَنَّ الْإِسْمَاع مَا لَمْ يَكُنْ فَارَغَ الْبَال لَا يُمْكِنُهُ الْقِيَّمُ بِتَحْصُل مَالِ الدُّنْيَا وَالْآخِرَة، وَلَا يَكُنْ فَارَغَ الْبَال إِلَّا بَوْسَاطَةَ المَال، لَكَثُنَّ بِيِمَكُن من جَلْبِ المَانِفَع وْدَفْعِ المَضْرَع، فَمِن أَرَادُ الدُّنْيَا هذَا الْغُرْضِ كَانَ
الدنيا في حقه من أعظم الأسباب المُعينة له على اكتساب سعادة الآخرة، أما من أرادها لنفسها ولعينها كانت من أعظم المعوقات عن كسب سعادة الآخرة، وقوله عز وجل: (وارزقوهم فيها واكسوهم) أي أجزوا عليهم ما يحتاجونه من الطعام والمسكن والكَسْوَة من هذه الأموال التي لم تحت أيديكم وتصرفكم، وإنما قال عز وجل: (وارزقوهم فيها) ولم يقل: وارزقوهم منها، إشارة إلى أنه ينبغي لن تحت يده أموال السفهاء أن يسعى في إنهائها بالوجه المشروعة كالاتجار بها واستهارها لتكون نفقة السفه من أرباحها لا من أصولها، وقوله عز وجل: (وقولوا لهم قولاً معرفة) أي وأحسنوا كلامكم مع السفهاء وقولوا لهم قولاً جيلاً يؤثر في القلب فيزيل السفه أو يقلصه لأن القول غير الجميل لا يزيد السفه إلا عليها، وقد تؤثر الكلمة الحسنة الليننة الجميلة في نفس السفه، تأثيراً تجعله من أرشاد الراشدين.
قال تعالى: «وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح فإن آنتم منهم رشداً فادفعوا إليهم أموالهم ولا تأكلوها إسرافاً وبداراً أن يكبروا، ومن كان غنياً فليستحف ومن كان فقيراً فليأكل بالموعود، فإذا دفعتتم إليهم أموالهم فأشهدوا عليهم، وKFبي الله حسباً. للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون وللساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون ما قلّ منه أو كثر، نصيباً مفروضاً».

بعد أن نهى الله تبارك وتعالى أولياء السفهاء عن تمكن السفهاء من الاستبداد بأموالهم وأمرهم أن يرزقونهم فيها ويكسوهم ويقولوا لهم قولًا معروفاً، أمر هنا أوصياء اليتامى بتدريب من تحت أيديهم من اليتامى على حسن التصرف في المال بأن يعطوه قليلاً من المال ويدأبوا عليهم في التصرف فيه لاختبارهم ومعرفة من بحسن التصرف، ومن سيء التصرف فإن ناهه وأحسن التصرف فيه كان ذلك أمارة نجابته وتوصيم الخير فيه، وإن أساء التصرف فيه وبدأه وبدأه كان ذلك أمارة تمكن السفهاء منه، على أنه إذا نجح هذا الديم في الاختبار وأحسن التصرف في المال فإنه لا يجوز دفع جميع ماله له إلا بشرطين: هما بلوغ الحلم وإيذاء الرشد. وفي ذلك يقول تبارك وتعالى: «وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح فإن آنتم منهم رشداً فادفعوا إليهم أموالهم»، أو اختبروا أيها الأوصياء يتامكم قبل بلوغهم الحلم بتدريبهم على التصرف في قليل من المال تحت إشرافكم فإذا بلغوا الحلم وأدركوا السن الذي يصلون فيه للكاح والإنجاب، وعلمتم منهم الرشد بما أبصروا من حسن تصرفهم في اختبرتهم به من المال القليل، وأنهم صاروا أهلاً للتجار في جملة أموالهم، فادفعوا أموالهم إليهم. ولا شك أن اختبار البتاعي يتفاوت بحسب بيتهم وظروف حياتهم وما يليق بهم، فإن كانوا من أهل التجارة

193
فيكون اختبارهم وتدريجهم في البيع والشراء، وإن كانوا من أهل الزراعة، فيكون اختبارهم وتدريجهم في هذا الشأن وكذلك الصناعة وأصحاب الحرف، وسائر الأمور التي يُعرفُ به جنابُ البيت أو سفاهته. وبلغ النكاح يكون بالاحتلال وهو أن يرى في منامة ما ينزل به الماء الدافى الذي يكون منه الولد وهو المني وإذا استيقظ رأى ذلك في ثيابه، كما قال تبارك وتعالى:

وإذا بلغ الأطفال منكم الخُلُم فليستأذنوا كما استأذن الذين من قبلهم.

وقد أعتبرت الشريعة الإسلامية ثلاثة أشياء يُعرفُ بها بلوغ النكاح في الذكور والإناث، وَقُدُّمَتْ بأي واحد منها البلوغ في الإناث، فالأشياء الثلاثة المشتركة بين الذكور والإناث هي الاحترام أو بلوغ خمس عشرة سنة أو نبات الشعر الخشنة المعروفة بالعانة، وأما يختص بالإنسان فهو الحيض والخِلْل.

وقد روى البخاري في صحيحه من طريق نافع قال حدثني ابن عمر رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ عَرَضَهُ يوم أحد وهو ابن أربع عشرة سنة فلم يُحَزَّن، ثم عَرَضَنِي يوم الخندق وانا ابن خمس عشرة سنة فأجازني، قال نافع: فقد قُدِّمْت على عمر بن عبد العزيز وهو خليفة، فحدثْتْهُ هذا الحديث فقال:

إن هذا حكٌّ بين الصغير والكبير، وكتب إلى عمَّاهُ أن يُفرضوا من بُلْغ خمس عشرة. وقال أبو داود: حدثنا محمد بن كثير أخبرنا سفيان أخبرنا عبد الملك ابن عمر حدثني عطية الفرضي قال: كنت من سبتي بني قريظة فكانوا ينظرون فمن أنبئ الشعر قتل ومن لم ينبئ لم يقتل فكانت فيما لم يبت.

حدثنا مسدد ثنا أبو عوانة عن عبد الملك بن عمر بهذا الحديث قال: فكُشفوا عنتَيَّ فِي مَجَالَدْوَة لم تثبت فجعلوني في السبي، وروى ابن ماجه والترمذي وقال: هذا حديث حسن صحيح من طريق عبد الملك بن عمر عن عطية الفرضي قال: عُرضنا على النبي ﷺ يوم قرطبة فكان من أئمنا نُبِئ وَمِن لم يُبِئْ خَليَّ سبيله، فكانت من لم يَبِئْ فِحْلَيْه سبيلا. وأورد النسائي في

194
باب: من يقع طلاق الصبي، من طريق عبّد الملك بن عمّار عن عطية
القرائي قال: كنت يوم حكم سعد في بني قريظة غلاما، فتشقاقي، فلم
يجدوني أنتبه فأستيقظت فها أنا ذا بين أظهركم. اه، وقد أجمع العلماء على أن
حيض الأنثى أو حبلها يعترب بلوغاً، وفي التعبير بالدفع في قوله عز وجل:
فادفعوا إليهم أمواهم، تبنيه إلى وجوب الإعطاء بالفعل وعدم جواز
التأخير، وقوله عز وجل: ولا تأكلوها إسراً وبداؤاً أن يكتبوا، هو تأكيد
للأمر بالدفع وتقريع له وتشديد في النهي عن حبسها عنهم، وإشارة إلى
جواز أكل النصفي من مال اليتيم بالمعروف عندما يكون النصفي فقيراً، وقد
تَّبَّى الله عز وجل هذا عن أمرين: الأول تحريم أكل النصفي من مال اليتيم
على طريق الإسراف، والثاني تحريم أكل النصفي من مال اليتيم على طريق
الاغتنام بأنه بلغ اليتيم وقبل انتزاعه من النصفي، وأصل الإسراف تجاوز
الحد المباح إلى ما لم يبح على طريق الإفراط، وقوله عز وجل: ومن كان
غنياً فليس نفت فوّها، ومن كان فقيراً فليأكل بالمعرف، هذا تصريح بجواز أكل
النصفي الفقير من مال اليتيم بالمعرف بعد التلويح بذلك في قوله تبارك
وتعالى: ولا تأكلوها إسراً وبداؤاً، كما ذكرت ذلك قريباً، وقد أخرج البخاري
في التفسير من طريق هشام عن أبيه عن عائشة رضي الله عنها في قوله تعالى:
فمن كان غنياً فليس نفت، ومن كان فقيراً فليأكل بالمعرف، أنزلت في
مال اليتيم، إذا كان فقيراً أنه يأكل منه مكانته قبله عليه بمعروف. وأخرج
البخاري في البیوی في باپ (من أجزاء أمر الأمصام على ما يتعارف بينهم في
البيوی والإجارة والكيل والوزن) من طريق هشام بن عروة عن أبيه أنه سمع
عائشة رضي الله عنها تقول: ومن كان غنياً فليس نفت، ومن كان فقيراً
فليأكل بالمعرف، أنزلت في ولي اليتيم الذي يقيم عليه ويصلح في ماله، إن
كان فقيراً أكل منه بالمعرف. وأخرج مسلم في التفسير من صحيحه من
طريق عبادة بن سليمان عن هشام عن أبيه عن عائشة في قوله: ﴿ومن كان غنيا فليستعفف ومن كان فقيرا فليأكل بالمعروف﴾ قالن: أنزلت في وリー مال اليتيم الذي يقوم عليه وبصلحه إذا كان يحتاجاً يأكل منه. ثم أخرجه من طريق أبي أسامة حدثنا هشام عن أبيه عن عائشة في قوله تعالى: ﴿ومن كان غنيا فليستعفف ومن كان فقيرا فليأكل بالمعروف﴾ قالن: أنزلت في وリー اليتيم أن يصيب من ماله إذا كان يحتاجاً بقدر ماله بالمعروف. وقوله تبارك وتعالى: ﴿فإذا دفعتم إليهم أمواتهم فأشهدوا عليهم﴾ أي إذا أعطيتهم يا معشر ولاء اليتيم أموال الذين بلغوا من اليتامى النكاح وبعد إيناس الرشد منهم وسلموهم أموالهم بالفعل فأشهدوا عليهم باستيفائهم ذلك منكم وأنكم قد برمت من عهدة أمواتهم التي كانت تحت أيدكم لمهم. ولهذا النظام الدقيق المحكم في حفظ أموال اليتامى وهي تحت يد الوصي، وفي صيانتها فلا تسلم لليتيم إلا بعد بلوغ النكاح وإيناس رشدته وفي التنبؤ على الإشهاد عند الاستيفاء، وأن الوصي قد برئت ذمته، مع الوصايا السابقة المحكمة المُتقنة برعاية حقوق اليتامى وحقوق النساء في هذا المقام الكريم من سورة النساء مع ما سبجته من التشريعات السامية والأنظمة الدقيقة البديعة التي ترسم للإنسانية أكرم المناهج وأحكم الأنظمة، قد سمعت شريعة الإسلام فوق كل تشريع، وارتفعت على كل نظام، ومن أحسن من الله حكايته لقوم يوقون. وقوله عز وجل: ﴿وكفى بالله حسبيا﴾ دليل على ما امتازت به الشرائع الساواوية على الأنظمة الأرضية، إذ أن من أبرز الفروق بين التشريعات الساواوية وبين القوانين الموضعية أن الشريعة لا تقتصر على مجرد وضع النظام الرشيد الشديد بل تعمل على تربية النفس على الخوف من الله عز والجل وأن من يخالف تشريع الله يتعرض لسخط الله ومقه وغضب، فتكون الإنسان رقياً على نفسه في تطبيق شرع الله، بخلاف الأنظمة الوضعية.
فإنها لا تلتفت إلى ذلك ولا تقدر عليه، فلو فُرض أن المسلم كان في صحراء خليفة، بعيدا عن أعين الناس، ورأى إحدى المغريات المحرمة عليه، فإنها لا يعتبر نفسه خليقاً، لعلمه أن عين الرقب الحسيب تراقب حركاته وسكناته كما قال الشاعر:

إذا ما خلوت الدهر يوما فتا نقل حلول ولكن كل علي رقيب
ففي تذليل هذه الآية الكريمة المشتملة على هذه التشريعات الرشيدة المسيدة بقوله: "وكفى بالله حسبيا" لفت انتباه إلى هذه الحقيقة، حيث ذَلِّلَا بهذا الوعيد الشديد من جَحَّد الحق أو ظلم الحق، والحسين تأتي بمعنى المحاسب وبمعنى الكافي، إذ يقول الإنسان لمن ظلمه: حسبْهُ الله، أي يحاسبه الله على ما يفعل من ظلم، وتقول: حسبك الله وحسبك أي كافيك، وهذا الوعيد لولي الليم إعلام له أن الله تعالى مطلع عليه يعلم باطنه كما يعلم ظاهره حتى يُطْلَب من تضيع شيء من مال الليم كما أن فيه وعبداً من بلغ من اللمام واستوى حقه من وصيه حتى يجد من أن ينكر شيئا قد استوفاه من وصيه ويدعو عليه ما ليس له بحق كما أن فيه وعبداً للشهادة حتى يجدوا من تغيير الشهادة أو كتاينها، وقوله عزر وجل: "للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون مأوى لهٌ من이나، أو كثير، نصيبا مفروضا" شروط في إبطال ما كان عليه عادةً أهل الجاهلية من خروج النساء والأطفال من المراث حيث كانوا يقولون: إنما يبرك من يُقَبِّل من الدمار ويدفع عن القليل ويحجز الغنائم. ولهما كان إخراج الناس عن عاداتهم بشق عليهم تدرج الإسلام في إثبات حق النساء والأطفال في اليراث، ليُسَهِّل على المسلمين تلقية، فأنزل الله تبارك وتعالى هذه الآية الكريمة بين فيها أن الإرث غير مختص بالرجال بل هو مشترك بين الكبار والصغار من الذكور والإناث سواء كان الميت والدًا أو
 قريبًا ثمّ أَكَّد عِز وجل هذا الحقّ بقوله: ﴿ما قَلْ مِنَهُ أَوْ كَثِيرٌ﴾ حتى لا يختص الرجال بأدوات الموتى من الرجال بل صار للإنسى حق في فرس الرجل وسيفه، وعباءته وعيانته، ورحمه ونعله وعصاه. ثمّ أَكَّد عِز وجل ذلك بقوله: ﴿نصيباً مفروضاً﴾ أي حظاً محته لا بد من تسليمه لمستحقه، كّا أن في تخصيص النساء بالذكر والنصيب كالرجال للإيذان بأصالتهن في استحقاق المراث، واقتصرت في هذه الآية الكريمة على مجرد إثبات حق الرجال والنساء في الميراث وأنّه نصيب مفروض، وذكر ذلك على سبيل الإجمال لتنشير النفس إلى معرفته وتستعد لتلقيه.
قال تعالى: "وإذا خَصَرَ القَسْمَةُ أُولُوا الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمُسَاكِينَ فَارْزُقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قُولاً مَعْرُوفًا. وَلِيُخْشِيَ الَّذِينَ لَمْ تَرْكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذَرِيَّةٍ ضَعَافَاءٍ خَافُوا عَلَيْهِمْ فَليَتَقُوا اللَّهُ وَلَيَقُولُوا قُولاً سَمِيدًا. إِنَّ الَّذِينَ يَأْكُلُونَ أَموَالَ الْيَتَامَى ۖ إِذَا يَأْكُلُونَ فِي بَطُونِهِمْ نَارًا وَيُقِيلُونَ قُولاً سَمِيدًا. يَوْصِيِّكَ اللَّهُ لِلْذِّكَرِ مِثْلَ حُزُّ الْأَنْثُيَنَ ۖ فَإِنْ كَانَ نَسَاءٌ فَوْقَ اثْنَيْنِ فَلْهِنَّ ثُلُّثُهَا مَنْ تَرَكَهَا وَإِنْ كَانَ وَلَدًا فَإِنَّمَا يُخْرِجُهَا لِلْأُمَّةِ مَنْ كَانَ لَهُ وَلَدًا تُرُكَهُ وَأَبَوَاهُ لَمْ يَكُن لهُ وَلَدًّا وَوُلِّيَهَا فَلْأُمَّةُ مَنْ كَانَ لَهُ بَنٌّ وَابْنُهُ لَمْ يَكُن لهُ بَنٌّ فَلْأُمَّةُ مَنْ كَانَ لَهُ بَنٌّ وَابْنُهُ لَمْ يَكُن لهُ بَنٌّ فَلْأُمَّةُ فَلْأُمَّةُ فَلْأُمَّةُ. مِنْ بَعْدٍ وَسَبِيلَ يَوْصُيُّهَا سِيَّةً وَأَبَاكُمْ وَأَبْنَاؤَكُمْ لا تَدْرُونَ أَيْمَما أَقْرَبَ لَكُمْ نَفْعًا فِي رَضْيَةِ مِنْ الدُّنْيَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْهَا حَكِيَّةً".

بعد أن مَهَدَّ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لِبِيَانٍ أَنْصَبَةَ المَوَارِثَةِ وَأَثْبَتَ حَقَّ النَّسَاءِ فِي الْمِرَاطِ وَأَبْطِلَ مَا كَانَ عَلِيَّ أَهْلُ الْجَاهِلِيَةِ مِنْ حُرَّمانِ النَّسَاءِ مِنْ الْمِرَاطِ لَقَتَ عِزٌ وَجَلٌّ حَنَا انتِبَاهُ النَّاسِ إِلَى أَنْ بَعْضَ الْأَقْرَبِ لا يُرْثُونَ مِنْهُ أَفْرُنَ أَثْبَتُونَ عِزَّ وَجَلَّ بِمَنْحِ مِنْ حَضْرِ الْقَسْمَةِ التَّرَكَةِ مِنْ الْأَقْرَبِينَ الَّذِينَ لا يُرْثُونَ جَبْأً لِخَوَاطِرِهِمْ شَيْئًا يَسِيرًا مِنْ التَّرَكَةِ عِنْدَ قَسْمَتِهَا لَا يَسِيرُ إِذَا كَانَ الْمِتْ لَمْ يُوْسِفُ لَهُمْ شَيْئًا مِنْ التَّرَكَةِ وَذَلِكَ إِذَا كَانَ الْقُرُوبُ كَبَارًا بَالْعَدَّةِ رَاشَدُّينَ مَنْ يُقْبَلُ لَهُمْ شَيْئًا ثُمَّ كَفَّ سِيَّةً ۖ مَا فِي ذَلِكَ مِنْ حَضْرِ الْقَسْمَةِ مِنْ الْيَتَامَى وَالْمُسَاكِينَ إِشْعَاعَةً لِلْإِحْسَانِ وَرَحْمَةً بِهِ لِلَّهِمَّةِ. كَانَ عِزَّ وَجَلَّ: "وَإِذَا حَضْرُ الْقَسْمَةِ أُولُوا الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمُسَاكِينَ فَازَقُوهُمْ مِنْهُ وَقُولُوا لَهُمْ قُولاً مَعْرُوفًا". قَالَ أَبُو كَيْثَرُ رَحْمَةُ اللَّهِ: الْمَعْنَى أَنْهُ إِذَا حَضَرَ هُؤُلَاءِ الْقَرَاءَةُ الَّذِينَ لا يُرْثُونَ وَالْيَتَامَى وَالْمُسَاكِينُ قَسْمَةً مَثَلًا جَزِيلٌ فَإِنَّ أَنْفُسَهُمْ تَتَوَقُّوْنَ إِلَى شَيْءٍ مِنْهُ إِذَا رُوِىَ هَذَا يَأْخُذُهُ وَهُمْ يَأْخُذُونَ وَهُمْ يُؤْتُونَنَّهُمْ
يُعْطُونَهُ، فأمر الله تعالى وهو الرؤوف الرحيم أن يُرضِعُ لهم شيء من الوسط يكون برَّأَهم، وصدقُهم، وإحسانا إليهم، وحَتِّى لَكُنْهُم اهود وقد قال البخاري في صحيحه باب: "وإذا حضر القسمة أولوألقربي واليتامي والمساكين" الآية، حدثنا أحمد بن حبيب أخبرنا عُمَّيْبَيْد الله الأَشْنَجُعَيْن عن سفيان عن الشيباني عن عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما: "وإذا حضر القسمة أولوألقربي واليتامي والمساكين" قال: هي محكمة، وليس بمسوحة. تابعه سعيد بن جبير عن ابن عباس. وقول البخاري هنا: تابعه سعيد بن جبير عن ابن عباس قد وصله البخاري في كتاب الواصايا حيث قال: باب قول الله تعالى: "وإذا حضر القسمة أولوألقربي واليتامي والمساكين فارزقوهم منه،" حدثنا محمد بن الفضل أبو النعسان حدثنا أبو عوانة عن أبي بشر عن سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنها قال: إن ناسا يُزعمون أن هذه الآية نسخة، ولا والله ما نسخة ولكنها ما تهاون الناس، هما والبيان: والبرث وذاك الذي يرزق، ووال لا برث فذاك الذي يقول بالمعروف، يقول: لا أملك لك أن أعطيك اه وقول ابن عباس رضي الله عنها: ولكنها مما تهاون الناس. يُبِّدِلُ عل أن الأمر في قوله لعن وجل: "فارزقوهم منه" للإرشاد والاستجبار لا للإجبار لأنه لو كان للإجبار ما تهاون الناس وهم من السلف الصالح رضي الله عنهم الذين كنا أحرص الناس على أداء الواجب وعمل الخير، وقاله تبارك وتعالى: "وليخش الذين لمو تركوا من خلفهم ذريه ضعافا خافوا عليهم فليقولوا الله وليقولوا قولا سديدا. هذه تحذير وتحفيز لولاية اليتامي وأمر لهم بالحرص الشديد على مصالح اليتامي ورعايتهم في أمورهم وأبدائهم وأخلاقهم وسلوكيهم، وأن يكونوا لهم كا يكون الأب الرحيم لولده البكر، ويُبَيْنَهُم إلى أنه كأب ينحى الإنسان ليدان، فليصغوا نصب أعييتهم صورة يتخيلون فيها أنهم في سياقة

200
الموت وأنهم يُخلفون وراءهم ذرية صغيرة عاجزة، فهل يرضى أن يقوم الأوصياء على ذريتهم الصغار الضعفو بالإساءة إليهم والتقصير في رعايتهم وأكل أموالهم إسرافاً وبداردًا أن يكروا؟ وما دام لم يرضى أحد لنفسه بذلك فلا يجوز له أن يرضى لأيتام غيره الذين هم تحت ولايته بذلك بل عليه أن يعاملهم كما يجب أن يتعامل ذريته الضعفو من بعده، فليثبت الله عز وجل في أيتام غيره الذين جعلهم الله عز وجل تحت ولايته وليحسن إليهم في تربيتهم وتعليمهم ومراعاتهم حسن سيرتهم وسلوكهم، وليحافظ على سلامتهم أموالهم وأبداؤهم وأن يرعاهم كما يرعى أبناءه وذريته، وأن يعدل فيهم بالفعل والقول السديد الشديد وقوله عز وجل: «إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظالمًا فإنَّا يأكلون في بطونهم ناراً وسُيِّصِلُون سعيراً.» هذه هي الآية الأخيرة من الآيات التي ساقها الله عز وجل في صدر هذه السورة المباركة التي يوصي عز وجل فيها عباده بوجوب رعاية اليتامى والمحافظة على حقوقهم، وصيانة أموالهم وأبداؤهم وأخلاقياتهم، وقد توعد الله تبارك وتعالى في هذه الآية الكريمة الذين يأكلون أموال اليتامى ظالماً سواء كانوا أوصياء عليهم أو كانوا غير أوصياء بأنهم سُيِّصِلُون سعيراً وأن الذي يأكلون من أموال اليتامى ظالماً هو نار يدخلونها في بطونهم بأنفسهم، ومعنى قوله عز وجل: «ظلاً» أي بغبر حق وقوله عز وجل: «إني يأكلون في بطونهم ناراً» هو غاية قصوى في التقييم والتنفيذ، كما أن قوله عز وجل: «وسيصلون سعيراً» هو غاية قصوى في التهديد والوعيد، ومعنى: «وسيصلون سعيراً» أي وسيدخلون ناراً هائلة عجز مُنَقِّدة مشتعلة ذات شم، وقد أشار الله عز وجل إلى أن أكل مال اليتيم ظالماً من أكبر الكبائر حيث قال تبارك وتعالى: «إنه كان حوباً كبيراً.» وقال: «إني يأكلون في بطونهم ناراً» وقال: «وسيصلون سعيراً». وقد حذَّر الله عز وجل عن قربان مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حيث يقول
تبارك وتعالى: ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالي التي هو أحسن حتى يبلغ أشدته.

في سورة الأنعام والإسراء، وفد رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: اجتنبوا السبع المورقات، قالوا: يا رسول الله وما هم؟ قال: الشرك بالله والشُّهر وقتل النفس التي حرَّم الله إلا بالحق وأكل الربا وأكل مال اليتيم، والخُلُق يوم الزحف، وقُضِّف المُحصَّنات المؤمنات الغافلات. وقوله تبارك وتعالى: ﴿يوصيكم الله في أولادكم﴾ شروط في تفصيل أحكام المواريث المجمولة في قوله عز وجل: ﴿للرجال نصيب ما ترك الوالدان والأقربون وللساء نصيب ما ترك الوالدان والأقربون ما قَلَّ منه أو كثر، نصيبا مفرضاً﴾. وقد أحكم الله تبارك وتعالى أن يُصيب أو يُلفت العين على الزوجة في حال الاقتراب. مثلاً، إذا كان ميراث الأولاد والآباء والأزواج لا يسقط بحالة قدّم الله بيان أحكام ميراث الأطفال ذكورا وإناثاً والآباء، حيث قال عز وجل: ﴿يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأثنيّين﴾ أي يأمركم الله عز وجل ويubahد إليكم ويفرض عليكم في شأن ما يستحقه أولادكم من تركاتكم وأموالكم بعد موتكم، وقوله عز وجل: ﴿للذكر مثل حظ الأثنيّين﴾ جملة مسّوقة لبيان الوصية وتفسيرها، أي للذكر منهم مثل نصيب الأثنيّين فإذا خلفت الأيت ذكرا واحدا وأنثى واحدة فللذكر سهان وللأنثى سهم، وإذا كان الوارث جماعة من الذكور وجماعة من الإناث كان لكل ذكر سهان وكل أنثى سهم، وإذا حصل مع الأولاد وارتّ آخر كالأبوين وأحد الزوجين فهم يأخذون سهامهم ويكون الباقى بين الأولاد للذكر مثل حظ الأثنيّين، ومن حكمة جعل نصيب المرأة نصف نصيب الرجل أن الشرعية الإسلامية الغرره أوجبت على الرجل أن ينفق على المرأة، فهذا يكون نصيبها في الميراث مساويا لنصيب الرجل تارة وقد تكون أوفر.

٢٠٢
حُظْتَاً منهُ، فلنفِّذنا أن ميثاً مات عن ولدين: ذكر وأثني وترك ثلثيَّة ألف مثلاً كان للذكر مائتا ألف وثلاثيَّة مائة ألف. فإذا تزوَّج هو فإنَّ عليه أن يعتني امرأته مهراً، وأن يعد لها مسكناً، وأن ينفق عليها من ماله سواء كانت فقيرة أو غنية ففي هذه الحالة كانت ماليَّته بينه وبين زوجته فيكون نصيبه بالفعل مساوياً لنصيب أخته، وقد يكون أقل منه على أنه إذا ولد له أولاد يكون عليه نفقاتهم وليس على أمهم منهما شيء، وأما أخته فإن تزوجت أخذت مهراً من زوجها، و تكون نفقاتها على بعلها، ويمكن أن تستثمر ما ورثه من أبيها وتنفق لنفسها دون أن تطالب بنفقات على بيت الزوجية أو على أولادها، والله الحكمة البالغة، وقوله عز وجل: {إِنَّ كَنَّا نَسَاءً فِيْ قَرْبٍ شَكَّلْنَا ثُلُثَّةً ثُلُثَّيْنَ مَارِيَّةَ حُبَّانَانَ} أي وإن مات الميت حَلَفَت بنتان فما فوقها أو فهى ثُلُثَّيْنَ اثنتيَّاً، وإن كانت واحدة فهى النصف، وإن كان خلف بنتين واحدة فهى نصف السرا، ويُفْهَمُ من ذلك أنه لو خلفَ ولداً واحداً فقط كانت للفى النصف السرا، وفي التنصيب على النساء إبطال لما كان عليه أهل الجاهلية من حرومان النساء من المراث، وفي هذا التعبير لون من الإعجاز والإيجاز بلغ، وإذا كان الله عز وجل قد جعل للإخت الواحدة النصف وللاختين الثلاثة في قوله عز وجل: {إِنَّ آمَرْنَا الْحَسَنَ الْمُبْلِغَ لَسِيرَ لَكَ لِلنَّفْقَ لَكَ وَلَدَ وَلَدَةً أَخْتُكَ نَصْفَتَيْنَ} ما ترك وهو بيرتها إن لم يكن لها ولد، فإن كانتا اثنتيَّاً فهى الثلثان، والقرآن العظيم ينفر بعضه بعضاً، وقد نفظ البخاري رحمه الله لذلك فأورد حديث جابر رضي الله عنه في تورث الأخوات الثلاث تحت قوله تعالى: {وَرَضِيَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمَا الْيَدَ الْأَيَّةَ مِثْلَ الْيَدَ الْأَيَّةِ عِنْدَهُمَا هُدَى إِلَى بُشْرَى نُورَيْنَ} ؛ باب قوله {وَرَضِيَ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمَا الْيَدَ الْأَيَّةَ} حدثنا إبراهيم بن موسى حذفنا هشام أن ابن جريج أخبرهم قال أخباري ابن المتدرك عن جابر رضي الله عنه قال: 203
عادي النبي ﷺ وأبو بكر في بني سلمة ماشيين فوجدنا النبي ﷺ لا أعلق شيئًا فدعا بهاء فتوضأ منه ثم رشَّ عليلًا فأفلقت فقت: متأمّرني أن أصنع في مالي يا رسول الله فنزلت: ﴿يوصيكم الله في أولادكم〉 وقد رواه مسلم أيضًا: قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: وأما ميراث البنات فقد قال تعالى: ﴿يوصيكم الله في أولادكم للذكر مثل حظ الأشثين، فإن كان نساء فاقثين فلهنّ ثلثًا ما ترك، وإن كانت واحدة فلها النصف〉 فذَلَّ القرآن على أن البنت لها مع أخيها الذكر الثالث، وها وحدها النصف، وما فوق اثنتين الثالثان، بقيت البنت إذا كان لها مع الذكر الثالث لا البريع، فأن يكون لها مع الأثث الثالث لا الربيع أول وأحري، ولأنه قال: ﴿إمَّا ف حكم الواحدة، وإن كانت واحدة فلها النصف〉 فقيد النصف بكونها واحدة فذكر ضمير (كن) ونساء وذلك جمع، لم يمكن أن يقال: اثنتين، لأن ضمير الجمع لا يختص باثنتين، وإن الحكم لا يختص باثنتين فلزم أن يقال: فوق اثنتين لأنه قد عرف حكم اثنتين، وعُرف حكم الواحدة، وإذا كانت واحدة فلها النصف، وما فوق اثنتين الثالثان، امتنع أن يكون للبنات أكثر من الثلاثين فعلاً يكون لها جمع المال، لكل واحدة النصف فإن شئاث الثالث ليس لهن إلا الثلاث. ثم قال رحمه الله: وأيضاً فإن الله لما قال في الأدوارات: ﴿وإن كانتا اثنتين فلها الثلثان ما ترك〉 كان دليلاً على أن البنات أولى بالثلثان من الأخثرين ثم استشهد رحمه الله بسنة رسول الله ﷺ حيث أعطى ابنتي سعد بن الربيع الثلاثين ثم قال: وهذا إجاع لا يصح فيه خلاف عن ابن عباس، وقوله على وجل: ﴿ولأبوه لكل واحد منها السدس ما ترك إن كان له ولد〉 أي إذا كان للثتتين وأولاد فيفرض لكل واحد من الأبوين أربعي، فإن لم يكن للثتتين إلا بنت واحدة فرض لها النصف ولالأبوين لكل واحد منها السدس، وأخذ الأب السدس الباقي بالتعصيب، فَقَبِّجَهُ لَهُ فِي هَذِه

٢٠٤
الحالة بين الفرض والتعصيب، وقوله عز وجل: «فإن لم يكن له ولد ووزيه أبواه فلامة الثلاثة» أي فإن لم يكن لمطية ولد ذكر أو أبنة وانفرد الأبوان بالملاك ففرض للذام ثلاث التركبة و يكون الباقية للذاب بالتخصيص المحسوب. أما إذا لم ينفرد الأبوان بالملاك بأن كان معهما زوج أو زوجة أخذ الزوج النصف وإن كانت زوجة أخذت الربع ويكون الباقية بعد نصيب الزوج أو الزوجة للذام زلفه وللأب الثالثة، وهذا أثقل من تعبير وعثمان وأصبح الروايتيين عن علي عليه السلام غزول بن ثابت وابن مسعود وهو قول الفقهاء السبعة والأئمة الأربعة، وقوله عز وجل: «فإن كان له إخوة فلامة السّعدٍ» هذا هو الحال الثالث من أحوال الأبوين وهو اجتيازها مع الإخوة سواء كانوا من الأبوين أو من الأب أو من الأم فإنهم لا يرثون مع الأب شيئاً ولكنهم مع ذلك يحبون الأم من الثالث إلى السدس، ففرض لها مع وجودهم السدس فإن لم يكن للذام وارد سوى الأبوين أخذت الأم السدس وأخذ الأب الباقى من التركبة، ويكاد الإجاع ينعقد على أن الأخوة كالإخوة في حجب الأم عن الثالث إلى السدس، وقوله عز وجل: «من بعد وصية يوصي بها أو دين» أي إن تقسيم التركبة إنها يتم بعد قضاء الدين وتنيف الوصية الشرعية وقد حكي ابن جبرير إجاع الأمة على ذلك وقال ابن كثير: أجمع العلماء من السلف والخلف على أن الدين مقيد على الوصية اهـ وإنها قد مكنت الوصية في الذكر وإن كانت مؤخرة عن الدين في الفوائد للاهتمام بها وجريف الورثة على تنفيذها، وقوله عز وجل: «أباكم وأبناكم لا تدرون أيهم أقرب لكم وفعاً فريضة من الله، إن الله كان عليا حكيمًا» أي إنكم تفقي علىكم في حقيقة الأمر من هو الأنفع لكم في الدنيا ومن أخراكم أياً تعودون هذا الفرع من جهة أباكم أو من جهة أبنائكم فقد يكون الأب أنفع وقيد يكون الأبناء أنفع فأعتقد حكمة الحكيم العليم أن يفرض هذه الفرائض بحكمته البالغة على هذا المنهج العظيم والتقسيم البديع.
قال تعالى: ﴿ولكم نصف ما ترك أزواجكم إن لم يكن ولدهم، فإن كان ولد فلكم الربع ما تركوه، من بعد وصية بوصين بها أو دين، ولهن الربع ما تركوه. وإن كان ولد فلكم الثمن، ما تركوه. من بعد وصية توصوين بها أو دين، وإن كان رجل يورث كلاً من الأمرأة أو أمه أو أخت فلكل واحد منها السدس، فإن كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء في الثلث. من بعد وصية يوصي بها أو دين غير مقصور على وصية من الله، والله عليم حليم. تلك حدود الله، ومن يطع الله ورسوله يدخله جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها، وذلك الفوز العظيم. ومن يعص الله ورسوله، ويتحي ححدوده يدخله نارا خالدا فيها، وله عذاب مهين.﴾

بعد أن أوضح الله تبارك وتعال أن لحالي الأولاد ذكورا وإناثا من ميراثهم في تركته والدهم، وبين كذلك نصيب الأبناء من ميراثهم من ولدهما شيخًا، فقوله ﴿يُقضِّل ميراث الزوج من زوجته وميراث الزوجة من زوجها، ثم ميراث الأخوة لأم، ويبدأ عز وجل ببيان نصيب الزوج من ميراثه في زوجته حيث يقول: ﴿ولكم نصف ما ترك أزواجكم إِن لم يكن ولدهم، فإن كان ولد فلكم الربع ما تركوه، يعني عز وجل أن الزوج يستحق من تركه نصف التركه إذا كانت الزوجة ماتت ولم ترك ولداً أو ولدَ لوالدَ مهما تَسْلَسَلَ، فإن كانت الزوجة الميتة تركت ولداً أو ولدَ لوالدَ مهما بَسَطَلَ، ذكرا كان أو نسية، واحدة كان أو أكثر، وسواء كان الولد من هذا الزوج أو من زوج آخر فإنَّ الزوج يستحق ربع تركه الزوجة التي تركت ولداً، وقوله عز وجل: ﴿من بعد وصية بوصين بها أو دين» أي إنها يستحق الزوج هذا النصيب من الميراث بعد سداد الدين وتلبية وصيتها، وقد ذكرت في تفسير الآية السابقة أن الإجع منعقد على تقديم الدين على الوصية وأشرت إلى سبب تقديم الوصية.

206
في الذكر على الدين وأن ذلك للاهميام بها وتحريص الورثة على تنفيذها، ولا سيما أن الوصية مال يؤخذ بغير عوض فكان إخراجها شافا على الوئم كأ أن في تقديم الوصية على الدين في الذكر تذكيرا بنعمة الله عز وجل على الميت حيث أطمعه الله عز وجل من ماله نصيبيا يتقرب به إلى الله عز وجل في أبواب الخير التي يوصي فيها الميت ليستدرك ما قاله أيام مولاه، حتى لا ينقطع عنه ثواب العمل الصالح بعد موته، حيث إن الإنسان إذا مات انقطع عمله إلا من ثلاث، منها الصدقة الجارية، وقد جمع الله عز وجل بين الوصية والدين، ليعرف المسلمون أن سهام الورثة إنها تعتبر بعد الوصية كما تعتبر بعد الدين، ومن ميزان تقديم الدين على الوصية أن الدين لاستغراق التركية سقطت الوصية وسقط حق الورثة في الميراث. وقوله: عز وجل: فهل من الزيّب مما تركتم إن لم يكن لكم ولد، فإن كان لكم ولد فلهنما شرعتكم، من بعد وصية توصون بها أو دين» يعني عز وجل أن الزوجة تستحق من تركة زوجها ربع التركية إذا كان الزوج قد مات ولم يترك ولداً أو ولد ولد منهن تسلسل، فإن كان الزوج الميت ترك ولداً أو ولد ولد منهن تسلسل، ذكرًا كان أو أثنا، واحدًا كان أو أكثر، وسواء كان الولد من الزوجة الأولى أو من زوجة أخرى فإن الزوجة إنها تبرث الثمن فقط ماد زوجها الميت قد ترك ولدا، وقد أجمع العلماء على أن الزوج إن مات وترك زوجة واحدة فلها هذا الذي ذكره عز وجل من الربيع عند عدم الولد للزوج أو الثمن عند وجود الولد للزوج فإن كان الميت ترك زوجتين أو ثلاثاً أو أربعاً فإنهم يستركن جميعاً في هذا الذي فرض الله عز وجل من الربيع أو الثمن فهو فرض الزوجة الواحدة أو الزوجتين أو الثلاثة أو الأربع. ولا خلاف في ذلك عند أهل العلم، وقوله: جلوبوُّرَثْ كَأَيْلَادٍ أو أمرأة أو نَّاقَة أو أَخْرَبِيْلُ كَأَيْلَادٍ واحدٌ منها السدس، فإن كانوا أكثر من ذلك فهم شركاء في الثلث.» أصل
الكَلََالَالة في اللغة يطلق على معانٍ كثيرة مختلفة منها الإعياء ومنه قول الأعشى:
فَأَلْيَتَ لا أُدَاهِيَ لَهَا مَن كَلََالَالة ولا من خَفِي حتى تلاقَى محمدًا
وقيل هي من قولهم: تكَلََلَّه الشَيْء إذا أَحَاطَه به ومنه الإكليل وهو النَّاحٍ
والعصابة المحيطة بالرأس وكما قال امرؤ القيس:
أَصِاح تَرَى بِرْقَة أَرِيكٌ ومِيِّضَة كَلََلَلة يَبْتَذَنُ في حَيِّي مُكَلََلَة
وقد ذكر الله تبارك وتعالى ميراث الكَلََالَالة في موضعين من كتابه الكريم
حيث قال عز وجل هنا: "إِن كان رجل يورث كَلََالَالة أو امرأة وله أَخ أو أخت فكلكل واحد منها السُّدس" والموضع الثاني في آخر آية من سورة النساء
وهي الآية المعروفة بآية الصيف حيث يقول عز وجل: "يَسْتَوْنَاك فِي اللَّهِ يَفْتَيْكَم في الكَلََالَالة، إن امرؤ هلك ليس له ولد ولله أخت فلها نصف ما ترك،
وهو يزِيرُها إن لم يكن لها ولد، فإن كانتا اثنتين فليهما الثلثانما ترك، وإن كانوا
إِخْوَةٌ رجلًا ونساء فلْيَذْكَرُ مثل حُظ الأَثنيَّن". وقد أجمع العلماء على أن
الإخوَة في الموضع الأول هم الإخوَة للأم لِنقوله تبارك وتعالى: "فَهُم شُرْكاء في
الثَّلث" ولا خلاف بين أهل العلم على أن الإخوَة للأب والأم أو الإخوَة لأب
ليس ميراثهم كذلك وأن المراد بالإخوَة في آية الصيف هم الإخوَة الأشقاء أو
الإخوَة لأب حيث ترت الإخوَة المنفِدة النصف من أخيها الذي ليس له ولد
وإذا انفرد الأخ ورث جميع تركه أخته التي ماتت وليس لها ولد، ولا شك أن
الأخ لا يرث شيئا أبدا من ميراث أخته التي ليس لها ولد إذا كان لها والد،
فَفَاتَضَح من الآتيان الكريميتين أن الكَلََالَالة هو من مات وليس له والد ولا
ولد، ودلت الآيات على أن الإخوَة كَلََلَة كَلََلَة، قال ابن كثير رحمه الله في
تفسير قوله عز وجل: "فَكَلََلَل واحد منها السُّدس"، فإن كانوا أكثر من ذلك
فَهُم شُرْكاء في الثَّلث" وآخِرة الإخوَة أم يخفقون بعِنفية البَوَّرة من وجهه: أحدها
أنهم يرثون من أدلوا به وهي الأم، والثاني: أن ذكورهم وإناثهم في الميراث

٢٠٨
سواء، والثالث: لا يرثون إلا إن كان ميتهم يورث كثلاة فلا يرثون مع أب ولا جد ولا والد ولا ولد ابنه الرابع: أنهما لا يرثون على الثلث وإن كان رجل يورث كثلاة أو أمرأة وله أخ أو أخت فكل واحد منها السدس، فإن كانوا أكثرا من ذلك فهم شركاء في الثلث أي وإن كان الميت الموتِٰ وأرها أخاه لأمه أو أختا لأمه فإن نصيب الأخ من الأم أو الأخ الأيك هو السدس من الثلث لكل واحد منها، فإن كان الأخوة لأم أكثر من ذلك فهما كان عددهم. فليس لهم من الثلث إلا الثلث يشتكون فيه بالتساوي، الأخ والذكر في سواء، وقوله عز وجل: من بعد وصية يوصى بها أو دين غير موارث تأكيد من الله تبارك وتعالى على أن الوارث إذا يتحني نصيبه الذي جعله الله عز وجل له بعد سداد دين الميت وتنفيذ وصيته، حيث ذكر ذلك في آتي الموارث هنأ أربع مرات وقديم في المره الرابعة يقيد عدم المضاراة للورثة من الوصي، وهذا القيد مراذ في المرات الثلاث السابقة فلا يجوز للموسي أن يدخل الضرر على الوثبة كأن يوصي لوارث أو يوصى بها زاد على الثلث، أو أن تكون وصيته لقصد الإضرار بالورثة دون قصد القربة إلى الله عز وجل، أو أن يعير بدءا كاذباً أو أن يوصى في مرض الموت بهين ليس عليه ليضر بالورثة أو بعضهم، ولهذا التشريع المحكم المتقن تضمن حقوق الوثبة كما تضمن حقوق مورثهم، فأن أجمل وأدق وأعظم هذا التشريع الذي شرعه الحكمي العليم وبعث به النبي الأمي سيد المسلمين صلوات الله وسلم عليه وعليهم أجمعين. وقوله عز وجل: وصيته هو مصدر مؤكد لقوله تبارك وتعالى في صدر الآية السابقة: يوصيكم الله في أولادكم وقد أضافه إلى الله زيادة في تأكيده وتحريم التهاون فيه وضياعه، كما قال عز وجل في تذييل الآية السابقة: فرضت
من الله» وهذا كله تأكيد لحفظ حقوق المرأة من التلاعب بها وكذلك صيانة حقوق الموروثين، وقد تقدم أن معنى (بوصيكم) أي يفرض علينا، فذيل الآية الأولى بمصدر من معنى بوصيكم وذيل الآية الثانية بمصدر من لفظ بوصيكم حيث قال في الآية الأولى: «ففرضت من الله، إن الله كان عليها حكماً» و قال في الآية الثانية: (وصية من الله، والله عليه حليم). لتبنيه عباده إلى سمعه ونشره، وتحذيره من ضياع هذه الفرائض بأنه لولا جلَّstem; الله عز وجل لعائلته بالعقوبة، ثم زاد تأكيد ذلك بيان أن هذه الفرائض التي فرضها في شأن البيات والنساء والمواريث هي حدود الله التي حددها لعباده ليلزموا بها ويفقوا عنها ولا يجوز لهم مجاوزتها وأنه أعدّ من حفظ على حدود الله جنات تجري من تحتها الأنهار كما أعدّ من يتهيأ حرمات الله ويتعدّى حدوده نارًا يَجْلَّدُ فيها، وله عذاب مهين، حيث يقول عز وجل: «ذلك حُدُود الله، ومن يَجْلَّدُ الله ورسوله يَدْخِلُه جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تحتها الأنهار خالدين فيها، وذلك الفوز العظيم. ومن يعص الله ورسوله يتعدّ حُدُوده يَدْخِلُه نارًا خالدة فيها وله عذاب مهين» وحدود الله تبارك وتعالى هي الأشياء التي بين تحريمها أو تحليها وأمر بالوقوف عنها قال الأزهري: حُدُود الله عز وجل ضربين: ضرر من حُدُود حُدَّدها للناس في مطاعمهم ومشاربهم ومناكحهم وغيرها ما أحل وحَرِم، وأمر بالانتهاء عنها نهى عنه. وتبنى عن تَعْدِيَّها، والضرب الثاني عقوبات جعلت من زُرِّب ما نهى عنه، اهـ وقال ابن منظور في لسان العرب: قال: ابن الأثير: وفي الحديث ذكر الحد والحدود في غير موضع، وهي معارم الله وعقوله التي قرّبها بالذنبوب، وأصل الحد: المعن والفصل بين الشيئين فكان حُدُود الشرع فصلت بين الحلال والحرام، فمنها ما لا يُقْبَل كالفواحش المحرمة ومنه قوله تعالى: «تلك حدود الله فلا تقربوها» ومنه ما لا يُقْبَل كالمواريث المُعينة
وتزويد الأربع. ومنه قوله تعالى: "تلك حدود الله فلا تعتدوها" ومنها الحديث: إنَّى أصبَّتُ حَدًّا فَأَقِيمَةْ عَلَّى أي إنَّى أصبَت ذنبًا أوُجْبٌ علَّى حَدًّا أي عقوبة اه، وقد يطلق الحد على ما هو حق الله عز وجل بما فيه عقوبة مقدرة كجد الزنا واللزج والسرقة، أو لم تكن فيه عقوبة مقدرة كالتعزير ومنه الحديث الذي رواه البخاري ومسلم عن أبي بُردة الأنصاري رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: لا يجلد فوق عشرة أسوأ إلا في حد من حدود الله، أي إلا في حق من حقوق الله. وفي قوله عز وجل في وصف أهل الجنة خالدين فيها بالجمع، وفي وصف أهل النار خالدًا فيها لمراعاة معنى من في الجمع ومراعاة لفظها في الإفراد مع الإشارة إلى ما لأهل الجنة من الاجتماع على سرر متقلبين والإشارة إلى ما فيه أهل النار من الوحشة والانفراد في سجن الحريم، مع العذاب المهين، نسأل الله بمنه أن يعذرونا مع السعادة. إنه عفوٌ كريم بوُس رحيم.
قال تعالى: ﴿وَأَلَّذِي يُأتِينَ الفَاحِشَةَ مِن نَِّسَائِكُم فَأَشْهَدُوا عَلَيْهِنَّ أَرَبَّةً مِّنْكُمْ فَإِن شَهَدُوا فَأُمِسْكُونَ فِي الْبِيوتِ حَتَّى يَتَوفَاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجِلَّ اللَّهُ مِنْهُنَّ سِبِيلًا. وَالَّذِينَ يَأْتِينَهَا مِنْكُمْ فَآذَهُمْ ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى الْجِنَّ وَالْإِنسِ مُحِلٌّ ﴾، ﴿فَإِن تَابُوا وَأَلَصَحُوا فَأُخْلَصُوا عَنْهَا ﴿، ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾. ﴿إِنَّ الْتَّوْبَةَ عَلَى اللَّهِ لِلْذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ﴾، ﴿فَإِنَّ اللَّهَ عَلَى الْجِنَّ وَالْإِنسِ مُحِلٌّ ﴾، ﴿فَإِن تَابُوا وَأَلَصَحُوا فَأُخْلَصُوا عَنْهَا ﴿. ﴿لَعَلَّكُمْ تَتَابُوا إِلَى اللَّهِ ﴾، ﴿وَإِن تَابُوا إِلَى اللَّهِ ﴾، ﴿فَإِن تَابُوا إِلَى اللَّهِ ﴾، ﴿فَإِن تَابُوا إِلَى اللَّهِ ﴾، ﴿فَإِن تَابُوا إِلَى اللَّهِ ﴾، ﴿فَإِن تَابُوا إِلَى اللَّهِ ﴾.

بعد أن أمر الله تبارك وتعالى بصيانتة الأموال وأعاد بصفة خاصة على صيانة حقوق اليدوى، وحقوق النساء وعرَّب في أثناء ذلك في صيانته الأعراض حيث أمر الرجال بأن ينكحوا ما طاب لهم من النساء منهن وثلاث وربع مما يُرْتَب العَقَطة وحماية الأعراض شرع هنا في تشريع عقوبة الاعتداء على الأعراض، وتدرج في تحديد هذه العقوبة لائق الناس من أخلاق الجاهلية إلى أخلاق الإسلام، حيث أمر الله تبارك وتعالى هنا يُصْنَع المرأة التي تزني حتى تموت، وأشار عز وجل إلى أن هذا الحكم ليس هو الحكم النهائى في هذه الجريمة البشعة وإنما هو تمهد قبل تقرر الحكم النهائي الذي يستمر إلى قيام الساعة حيث يقول: ﴿وَالَّذِينَ يُأْتِينَ الفَاحِشَةَ مِن نَِّسَائِكُم فَأَشْهَدُوا عَلَيْهِنَّ أَرَبَّةً مِّنْكُمْ فَإِن شَهَدُوا فَأُمِسْكُونَ فِي الْبِيوتِ حَتَّى يَتَوفَاهُنَّ الْمَوْتُ أَوْ يَجِلَّ اللَّهُ مِنْهُنَّ سِبِيلًا. ﴿قال الفاخر الرأزي: اعلم أنه تعالى لما ذكر في الآيات المتقدمة الأمر بالإحسان إلى النساء ومعاصرتهم بالجمال وما يصل بهذا الباب ضم إلى ذلك التخلط عليهن فيها يأتينه من الفاحشة، فإن ذلك في الحقيقة إحسان إليهن، ونظر لهن في أمر آخر منهم، وأيضا فقيه فاتحة أخرى: وهو أن لا يجعل أمر الله للرجال بالإحسان إليهن بسما لترك إقامة الحدود عليهن.
فيصر ذلك سبباً لوقوعهن في أنوع المفساد والمهالك، وأيضاً فيه فائدة ثالثة، وهي بيان أن الله تعالى كا يستوفي خلقه فكل ذلك يستوفي عليهم، وأنه ليس في أحكامه محاباة ولا بينه وبين أحد قربة، وأن مصداق هذا الشرع الإنصاف والاحترام في كل باب عن طرق الإجرام والتشريرية، ومعنى: «واللائي يأتين الفاحشة من نساكم» أي واللائي يفعلن الجريمة البشعة المستقبحة المستهجة كبيرة والمقدار بالفاحشة هنا زنى النساء المسلمات، والخطاب في قوله عز وجل: «فاستشهدوا عليهن أربعة منكم» للولاة والحكم والقضاء ومعنی: «فاستشهدوا عليهن أربعة منكم» أي فاطبلاً من يدنى هذه الجريمة الفاحشة على المرأة إحصار أربعة رجال من المسلمين يشهدون بأن هذه المرأة المدنى عليها ارتكبت هذه الجريمة، وأنهم شاهدوا ما شهدهم عليهم بلا شك ولا ظن بل بالمعاينة، ولا بد في هذه الشهادة شهادة النساء، ولا بد أن يكون هؤلاء الشهود معروفين بالعدالة لأن الله اشترط عدالة الشهود في البيع والرجعة، وهذا أكبر وأعظم وأولى.

وقوله تعالي وتعلى: «فأمسكوهن في البيوت حتى يتوفاهن الموت أو يجعل الله عز وجل سبيلاً». هذا هو حكم الله عز وجل على من زنى من النساء وثبت لدى الحاكم الشرعي زناها بشهادة أربعة رجال عدول من المسلمين أن تُرجح إلى أقرب الأجلين وهم متوثباً أو أن يجيء تشريع يُنصح هذا الحكم حيث أشار الله عز وجل إلى ذلك بقوله: «أو يجعل الله لن سبيلاً». وقد كان هذا الحكم هو الطور الأول في هذا الشأن وكان يشمل كل زانية بكرأ كانت أو ثياباً، وقد استمر هذا الحكم حتى جاء الطور الثاني من أطوار هذا الحكم في سورة النور حيث قال عز وجل: «الزانية وزاني فاجدبا كل واحد منها مائة جلدٌ» وقد بين رسول الله ﷺ أن هذا الحد الذي بينه هذه الآية
وهي الآية الثانية من سورة النور هو حدٌّ زنا البكر رجلا كان أو امرأة، وأضافت إليه السنة تعرّيض عمام، وأن حدٌّ الثياب المخصّص هي جلده مائة ورجعه بالحجارة إلى الموت رجلا كان أو امرأة، وأن هذا هو السبيل الذي أشار الله عز وجل إليه بقوله تبارك وتعالى: «أو يجعل الله من سبيل». فقد روى مسلم في صحيحه من حديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: "خذوا عني، خذوا عني، فقد جعل الله لهم سبيلًا، البكر بالبكر جلّدً مائة ونفّي سنة، والثياب بالثياب جلّدٌ مائة والرجم، ومعنى قوله: خذوا عني، خذوا عني: أي تلقّوا هذا الحكم مني واحفظوه، ومعنى قوله: فقد جعل الله لهم سبيلًا، أي فقد بين الله تبارك وتعالى السبيل الذي أجمله في قوله عز وجل: «أو يجعل الله من سبيلًا» ونسخ به ما كان قد شرعه في حق اللائي تننين الفاحشة من النساء بقوله تعالى: "واللاتي يأتين الفاحشة من النساء بقوله تعالى: "وأولئك يأتيهن الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهن أربعة منكم فإن شهدوا فأمسكوهن في البيوت حتى يتوفّحن الموت أو يجعل الله لهم سبيلًا.» وقوله: البكر بالبكر جلّدً مائة ونفّي سنة أي حدٌّ زنا البكر بالبكر أن يضرب كل واحدٍ منها مائة جلدة وأن يُغرَّب عاماً، والمراد بباليك هنا هو من لم يجامع في نكاح صحيح وهو حر البالغ عاقل، وقوله: الثياب بالثياب جلّدٌ مائة والرجم أي حدٌّ زنا الثياب بالثياب أن يضرب مائة جلدة وأن يرجم بالحجارة حتى يموت، والمراّد بالثياب هنا هو الحر البالغ العاقل المجامع في نكاح صحيح، وقوله: البكر بالبكر وقوله الثياب بالثياب خرج غزير الغالب فلا مفهوم له فلو زنى بكر ببت أو ثياب بيكر فإن حدث الثياب غير حد البكر فكل واحد منها حدة وقد بين ذلك رسول الله ﷺ في حديث العيسيف في الحديث المتفق عليه عند البخاري ومسلم من رواية أبي هريرة وزيد بن خالد الجهني رضي الله عنها أن رجلاً من الأعراب أي رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله أنشدك

214
الله إلا فَضْلَت في كتاب الله، فقال الآخر وهو أفقه منه: نعم فاقض بيننا بكتاب الله وأذن لي، فقال: قل، قال: إن أبي كان عصيفًا على هذا، فذرني بمارأته، وإن أخبرت أن على أبي الرجم، فاتديت منه بيثاء شا ووليدة، فسألت أهل العلم فأخبروني أن ما على أبي جلد مائة وتغريب عام، وأن على امرأة هذا الرجم، فقال رسول الله ﷺ، والذي نفسي بيده لأفْضَيْنَ بيني وبين كتاب الله: السؤيلة والغمم رد عليك، وعلى ابنك جلد مائة وتغريب عام، وأعد يا أنيس إلى امرأة هذا فإن اعترفت فارجها. وقد أشار عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى أن الرجم ثبت بقرآن نُصْح لفظه وبي حكمه، فقد روى البخاري ومسلم من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه خطب فقال: إن الله بعث محمدًا بالحق، وأنزل عليه الكتاب، فكان فيها أنزل الله عليه أية الرجم، قرأناها، وعَقَّتَناها، وَعَقَّتَناها، فرَجَحَ رَسُول اللَّه ﷺ، وَرَجَحَنا بعده، فأخشى إن قال الناس زمان أن يقول قائل: ما نجد الرجم في كتاب الله، فึضدوا بترك فرضية أنزلها الله، وإن الرجم حُكُومُ في كتاب الله على من زنى إذا أُحِصِّنَ من الرجال والنساء إذا قامت البيدة، أو كان الحبل، أو الاعتراف. اه، وقد أجمع أهل السنة والجماعة على ثبوت واجب الرجم الزاني المحصن وأنه حكَم مَحْكَمَ إلى يوم القيامة. أما الطور الثالث من أطوار تشريع عقوبة الزناء فهو نُصْح جلد السبب قبل رجه حيث لم يأمر رسول الله ﷺ بجلد التي زنى بها العسيف أي الأجر وإنها أمر أنساً برجهما إذ اعترفت ولم يذكر الجلد كي تقدم قريباً في حداث الصحيحين من رواية أبي هريرة وزيد بن خالد رضي الله عنهم، كي أن الرَّجُم مَعْاَزَءًا، والغامدية، والجِنَّيْنَة واليهودية، واليهودية، ولم يثبت بخار صحح أنه جلدهم قبل الرجم. وقوله عز وجل: "والذان يأتيهما منكم فذوهما فإن تابا وأصلحا فأعرضوا عنهم، فإن الله كان تتوبا رحيماً. " أي ومن فَعَلَ هذه الفاحشة وهي الزنآ منكم أيها الرجال.
فَعَقَّوْتُهُ أن يؤذى بها يردع مثله من الضرب بالنعلا والجرود دون حد محدد، والثنينية في قوله عز وجل: "واللذان يأتيناه منكم"، لي산 صنف السرجال البكر والثبب، وقد علمنا أن هذا الحكم قد نسخ وصار إلى جلد البكر مائية وترغيب عام ورجم الثيب بالحجارة إلى الموت. هذا، وبينة إثبات الزنا لم تتغير في سائر هذه الأطوار فلا بد فيهما من أربعة شهود عدوان من الرجال، كما أشار الله عز وجل إلى ذلك في سورة النور حيث يقول: "والذين يزمن المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فأجعلوه ثمانين جلدة الآيتين. وفي جعل الشهود لإثبات الزنا أربعة ستة على العباد وتغلب على الدعوي، وإشعار بعض جرم الزنا وبشاعته، وكثرته إشاعة الفاحشة في الذين آمنوا. هذا وقد كانت شريعة النور تقضي برجم الزاني مطلقاً بكرا كان أو ثياب في الإصحاح الثاني والعشرين من سفر الثنية في الفقرة 20 و 21. فيمكن تزويج فتاة على أنها بكر، فلسم يجد لها عذارة يقول: ولكن فإن كان هذا الأمر صحيحا لم يجد عذارة للفتاة تُجْرِجْن الفتاة إلى باب بيت أبيها ويرجمها رجالها مدينتها بالحجارة حتى تموت، وفي الفقرتين 22 و 24 منه: إذا كانت فتاة عذراء شطوية لرجل فوجدته رجل في المدينة واضطجع معها، فأخرجها كليها إلى باب تلك المدينة وارجموها بالحجارة حتى يموتوا. ولا شك أن التشريع الإسلامي قد رفع الله عز وجل به الإصر والأغلال التي كانت على بني إسرائيل. وقوله عز وجل: "فإن تابا وأصبحوا فأعرضوا عنها، إن الله كان توابا رحيمًا. إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بِجَهَالَة مث يتوبون من قريب فأولئك يتوب الله عليهم، وكان الله عليها حكماً. ولست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضروا أحدهم الموت قال إلا تبُث الآن ولا الذين يموتون وتمنى كَفَّارَهُم أولئك أُعَدَنَا لهم عذابا ألياً. أي فإن عرفتم صحة التوبة من هؤلاء الذين فلا تعناهم ولا تزرون عليها فلا تعتنوا بها إن
الله ينوب على النائبين، وهو أرحم الراحمين. وهو يقبل توبة النائب غير المصير، فمن تاب تاب الله عليه، إلا من تاب عند الموت أو مات كافرا فإن الله عز وجل لا يقبل توبته، وقد هيا الله لمن مات كافرا عذابا أليا في جهنم، وبيس المصير، عياذا بالله منها.
قال تعالى: "فيا أبا الذين آمنوا لا يجل لكم أن ترثوا النساء كرها ولا تعضلونهن لتذهبوا ببعض ما آتيموهن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة، وعشيرهن بالمعروف، فإن كرهتموهن فعسَّى أن تكروها شيئًا ويجعل الله فيه خيرا كثيرًا."

بعد أن ذكر عن وجل جملة من التشريعات التي تحمي حقوق النساء، وتصون كرامة المرأة، وأكد عن وجل على مشاركة المرأة أخاه في الميراث، وأن لها نصيباً من الميراث كما أن للذكر نصيباً من الميراث وأعلن عز وجل أن هذه الفرائض والتشريعات هي حضود الله، وبشر من يحافظ على حدود الله بجنات تجري من تحتها الأنهار، وحَدِرُ من يَتَعَذَّبُ حَدَّادَ الله» بأنه يُعْرَضُ نفسه لعذاب الله في نار الجحيم، ثم يَبْنَ عقوقة الزانية والبزاني في الطور الأول من أطول تشير عقوبة هذه الجريمة ورغب في الفتوة وحَدُرُ من الإصرار على المعصية، أخذ في بيان المزيد من حقوق النساء ورفع ما كان يصيبُ المرأة من الظلم في الجاهلية حيث يقول عز وجل: "فيا أبا الذين آمنوا لا يجل لكم ان ترثوا النساء كرها ولا تعضلونهن لتذهبوا ببعض ما آتيموهن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة" وهو يشير عز وجل بذلك إلى أن أهل الجاهلية كانوا أحياناً يعتبرون المرأة نصيباً من الميراث وأنه يَجْرِمُ ذلك على المؤمنين، كما يُعْرَضُ المؤمنين عن عضل النساء ظلناً وعَدْوَانَا، قال البخاري في صحيحه: حدثنا محمد بن مقاتل، حدثنا أبنا سبأ بن محمد، حدثنا الشيباني عن عكرمة عن ابن عباس قال الشيباني: وذكره أبو الحسن السُّفاوي ولا أظنه ذكره إلا عن ابن عباس: "فيا أبا الذين آمنوا لا يجل لكم أن ترثوا النساء كرها ولا تعضلونهن لتذهبوا ببعض ما آتيموهن؟" قال: كانوا إذا مات الرجل كان أولياؤه أحقَّ بأمرته، إن شاء بعضهم نزوجها وإن شاءوا زوجوها، وإن شاءوا لم يزوجوها، فهم

218
أحيَّاهَا من أهلها، فنزلت هذه الآية في ذلك. ولهذا الخبر الصحيح الثابت في سبب نزول هذه الآية الكريمة يتبيَّن فضل الله عز وجل على النساء في ظل شريعة الإسلام حيث أوجب رعاية حقوقهن وحتم على الرجال دفع الضر عنهن وحرم جعلهن نصيباً من الميراث بعد أن قرر فن نصيباً من الميراث، ومعنى قوله عز وجل: {إِنَّا أَيَّاهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا يَبِلَّغُنَّكُمُ امْرَأَةَ مِنْكُمْ مِيرَاثًا لَّكُمْ وَيَعْلَمُوا أنفسكُمْ أَحْقَبَ بِهَا نِسَاءٌ وَأَيُّلَا وَأَيُّلَانِيُّها مَكْرُهُنَّ فَلَا يَجِرُّوا الْيَدَانِ رَضَاً} أي يا معشر من أُمَّةِ بِنَبِيِّ اللَّهِ وَرَسُولِهِ لَا يَجِرُّ لَكُمْ أَن تَعْتَبَّروا امْرَأَةً مِّنْكُم مِيرَاثًا لَّكُمْ وَيَعْلَمُوا أنفسكُمْ أَحْقَبَ بِهَا نِسَاءٌ وَأَيُّلَا وَأَيُّلَانِيُّها مَكْرُهُنَّ فَلَا يَجِرُّوا الْيَدَانِ رَضَاً، فإن هذا الفعل من أقبح أفعال الجاهلية التي أنْقذَكُم الله منها حيث أرسل لكم نبي الرحمة محمدًا ﷺ وأنزل عليه الكتاب المشتّل على حماية حقوق المرأة من عبث الجاهلين، وعنت الظالمين، ودعاهم إلى الصراط المستقيم، وقوله تبارك وتعالى: {وَلَا تَعْضَلُوا هُنَّ لِتَذْهِبَا بِمَا أَيَا مَهْمَوْنَهُ} هذه هي الوصية الثانية من وصايا هذه الآية الكريمة بتحرير الإض artikel بالنساء، أي ولا يحل لكم أزواج النساء أن يحبسوا المرأة وتمنعوها من التمتع بالحياة الزوجية الكريمة لأجل أن تحملوا على إعطائهم بعض ما يذنبوها لها من صداق أو غيره وتسترودها منها دون أن يكون منها تقصير في حقوقهم، قال ابن جرير رحمه الله: {نَهِيءُ اللهُ جَلَّ ثَانِؤُهُ زُوْجَةَ الْمَرَاةِ عَلَى التَّضَيِّقِ عَلَيْهَا وَالإِضْرَارَ بِهَا وَهُوَ لِصَاحِبَتِهَا كَارَهٌ} وَلِفِرَاقِهَا كَبَيْبٌ، لِتَفْتَنِيَ مِنْهَا بِبَعْضٍ مَا آتَاهَا مِنَ الصداق إِنْ هَذِهِ قَلْنَا: ذَلِكَ أَوْلَى بِالصِّدَاقِ لَا سُبق لَهُ أَحْدَهُ عَلَى عَضْلَةِ الْمَرَاةِ إِلَّا أَحْدَ رِجَالٍ إِلَّا أَحْدَ رِجَالٍ إِلَّا أَحْدَ رِجَالٍ إِلَّا أَحْدَ رِجَالٍ إِلَّا أَحْدَ رِجَالٍ إِلَّا أَحْدَ رِجَالٍ إِلَّا أَحْدَ رِجَالٍ إِلَّا أَحْدَ رِجَالٍ إِلَّا أَحْدَ رِجَالٍ إِلَّا أَحْدَ رِجَالٍ إِلَّا أَحْدَ رِجَالٍ إِلَّا أَحْدَ رِجَالٍ إِلَّا أَحْدَ رِجَالٍ إِلَّا أَحْدَ رِجَالٍ إِلَّا أَحْدَ رِجَالٍ إِلَّا أَحْدَ رِجَالٍ إِلَّا أَحْدَ رِجَالٍ إِلَّا أَحْدَ رِجَالٍ إِلَّا أَحْدَ رِجَالٍ إِلَّا أَحْدَ رِجَالٍ إِلَّا أَحْدَ رِجَالٍ إِلَّا أَحْدَ رِجَالٍ إِلَّا أَحْدَ رِجَالٍ إِلَّا أَحْدَ رِجَالٍ إِلَّا أَحْدَ رِجَالٍ إِلَّا أَحْدَ رِجَالٍ إِلَّا أَحْدَ رِجَالٍ إِلَّا أَحْدَ رِجَالٍ إِلَّا أَحْدَ رِجَالٍ إِلَّا أَحْدَ رِجَالٍ إِلَّا أَحْدَ رِجَالٍ إِلَّا أَحْدَ رِجَالٍ إِلَّا أَحْدَ رِجَالٍ إِلَّا أَحْدَ رِجَالٍ إِلَّا أَحْدَ رِجَالٍ إِلَّا أَحْدَ رِجَالٍ إِلَّا أَحْدَ رِجَالٍ إِلَّا أَحْدَ رِجَالٍ إِلَّا أَحْدَ رِجَالٍ إِلَّا أَحْدَ رِجَالٍ إِلَّا أَحْدَ رِجَالٍ إِلَّا أَحْدَ رِجَالٍ إِلَّا أَحْدَ رِجَالٍ إِلَّا أَحْدَ رِجَالٍ إِلَّا أَحْدَ رِجَالٍ إِلَّا أَحْدَ رِجَالٍ إِلَّا أَحْدَ رِجَالٍ إِلَّا أَحْدَ رِجَالٍ إِلَّا أَحْدَ رِجَالٍ إِلَّا أَحْدَ رِجَالٍ إِلَّا أَحْدَ رِجَالٍ إِلَّا أَحْدَ رِجَالٍ إِلَّا أَحْدَ رِجَالٍ إِلَّا أَحْدَ رِجَالٍ إِلَّا أَحْدَ رِجَالٍ إِلَّا أَحْدَ رِجَالٍ إِلَّا أَحْدَ رِجَالٍ إِلَّا أَحْدَ رِجَالٍ إِلَّا أَحْدَ رِجَالٍ إِلَّا أَحْدَ رِجَالٍ إِلَّا أَحْدَ رِجَالٍ إِلَّا أَحْدَ رِجَالٍ إِلَّا أَحْدَ رِجَالٍ إِلَّا أَحْدَ رِجَالٍ إِلَّا أَحْدَ رِجَالٍ إِلَّا أَحْدَ رِجَالٍ إِلَّا أَحْدَ رِجَالٍ إِلَّا أَحْدَ رِجَالٍ إِلَّا أَحْدَ رِجَالٍ إِلَّا أَحْدَ رِجَالٍ إِلَّا أَحْدَ رِجَالٍ إِلَّا أَحْدَ رِجَالٍ إِلَّا أَحْدَ رِجَالٍ إِلَّا أَحْدَ رِجَالٍ إِلَّا أَحْدَ رِجَالٍ إِلَّا أَحْدَ رِجَالٍ إِلَّا أَحْدَ رِجَالٍ إِلَّا أَحْدَ رِجَالٍ إِلَّا أَحْدَ رِجَالٍ إِلَّا أَحْدَ رِجَالٍ إِلَّا أَحْدَ رِجَالٍ إِلَّا أَحْدَ رِجَالٍ إِلَّا أَحْدَ رِجَالٍ إِلَّا أَحْدَ رِجَالٍ إِلَّا أَحْدَ رِجَالٍ إِلَّا أَحْدَ رِجَالٍ إِلَّا أَحْدَ رِجَالٍ إِلَّا أَحْدَ رِجَالٍ إِلَّا أَحْدَ رِجَالٍ إِلَّا أَحْدَ رِجَالٍ إِلَّا أَحْدَ رِجَالٍ إِلَّا أَحْدَ رِجَالٍ إِلَّا أَحْدَ رِجَالٍ إِلَّا أَحْدَ رِجَالٍ إِلَّا أَحْدَ رِجَالٍ إِلَّا أَحْدَ رِجَالٍ إِلَّا أَحْدَ رِجَالٍ إِلَّا أَحْدَ رِجَالٍ إِلَّا أَحْدَ رِجَالٍ إِلَّا أَحْدَ رِجَالٍ إِلَّا أَحْدَ رِجَال١٩
وتعال بنىه عن عضليها، هو رُؤُوجُهَا الذي له السيِّل إلى عضلها ضراراً لا تُفكِّيِّدُ منه اه.. وقد حرم الله عز وجل الإضرار بالمرأة في جميع سور الإضرار وبخاصة من يُنْحِي الإضرار بزوجته ليستدر منها بعض ما دفعه لها من صداق حيث قال عز وجل في سورة البقرة: "ولا يحل لكم أن تأخذوا ما آتيتهم شهبا إذا أن يخافوا ألا يقيها حدود الله فإن خفتم ألا يقيها حدود الله فلا يجح عليهما فيها افتدت به، تلك حدود الله فلا تعتدوها، ومن ينْتَجَّ حدود الله فأولئك هم الظالمون." وقال عز وجل في نفس السورة أيضاً: "ولا تمسكوين ضرارا لتعتدوا، ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه، ولا تتخذوا آيات الله هُزؤا. " وقال هؤلاء: "ولا تفضلون لتذهبوا بعض ما آتيتهم إن أن يتلتين بفاحشة مبينة" وقال في نفس هذا المقام أيضاً: "إن أردتم استبدال زوج مكان زوج وأتينتم إحداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئاً أتأخذونه بيتانا وثانياً مينا. وكيف تأخذونه وقد فقد أنفسهم بعضهم إلى بعض وأخذ منكم ميثاقاً غليظاً. " وقال عز وجل في سورة الطلاق: "ولا تضروهن لضيقوا عليهن" وحَرَمَ على ولي نكاح المرأة عضلها إذا رُبِّت في زوج كفه حيث يقول في سورة البقرة: "وإذا طلقت النساء فبلغن أجرهن فلا تعضلوهن أن ينكلهن أزواجهن إذا تراضوا بينهم بالمعروف" وقوله تبارك وتعالى: "إلا أن يتلين بفاحشة مبينة" أي لا يحل لكم إن حاكم الأدَّى بالقدر الذي أذن الله لكم فيه في كتابه أور في سنة رسوله محمد ﷺ. وبعد أن صدر الله عز وجل هذه الآية الكريمة بنيٍّ أحدهم قوته تبارك وتعالى: "ولا تعضلوهن لذهبوا بعض ما آتينهم إلا أن يتلين بفاحشة مبينة" أتبع ذلك في نفس الآية بوجوب الإحسان إلى النساء وعشرتهم بالمعرف مبيناً الحكمة العظيمة في هذه الوصية

220
الآثارة حيث يقول: ﴿وعاشروهن بالمعروف، فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويعمل الله في خيراً كثيراً. وعندن: ﴿وعاشروهن بالمعروف﴾ أي وأحسنوا صحبتهن وأدوا حقوقهن التي فرض الله عز وجل عليكم لن، وخففوا الله فيهن، ولا تسيئوا معاملتهن، وتبطلوا لهم في أقوالكم وأفعالكم وهيناثكم بحسب قدرتكم كما ترون أن يتجمل لكم في أقوالكم وأفعالكم وهيناثتن، وقد كان رسول الله ﷺ يوصي المسلمين بالنساء كما جاء في الصحيحين من حديث أي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ﴿استوصوا بالنساء خيراً، الحديث، كأ روى الترمذي وقال: حديث حسن صحيح عن عمرو بن الأحوص الجاشمي رضي الله عنه أنه سمع النبي ﷺ في حجة الوداع يقول بعد أن نحن الله تعالى وأثنى عليه، وذكر ووَعَظَ ثم قال: ﴿لا واستوصوا بالنساء خيراً فإنها هن عوانكم، ليس يلمكون منهن شيئاً غير ذلك، إلا أن يأتين بفاحشة مبينة فإن فعلن فاهجروهن في المضاجع واضروهن صغرها غير مبرح، فإن أطفعتنكم فلا تبغوا عليهن سبيلًا، إلا أن لكم على نسائكم حقاً ولنسائكم عليكم حقاً فحافظكم عليهن أن لا يوطئن فوشكم من تكرهون ولا يأخذن في بيوتكم مرن تكرهون، إلا وحفظهم عليكم أن تحسسن إهلهم في كسوتهن وطعامهن. ﴿وعنة عندهم: ﴿هن عوانكم، ﴿أي هن شبهات بالأسرات، فالعوانى جمع عائمة قال في القاموس: والعقالي: النساء لأهن يظلمن فلا يتصرن، والتعنيه الحبس اه - والعلياني الأسير، وقد شبه رسول الله ﷺ الزوجة في دخولها في طاعة الزوج تحت حكمه بالأسير وقوله: ﴿إذا فعلن فاضروهن ضرباً غير مبرح، يشعر بأن ذلك إنها يجوز للزوج إذا ارتكبت زوجته هذه الفاحشة المبينة، وأن المراد بها النشور وعدم الانقياد، وليس المراد الزنا لأن الزنا ليست عقوبه أنه تضرب المرأة ضرباً غير مبرح، والضرب المبرح هو الشديد الشاقٍ، وقد روى أبو داود بسند}
صحاب من حديث إباس بن عبد الله بن أبي ذبابة رضي الله عنه قال: قال
رسول الله ﷺ: لا تضربوا إماة الله فجاء عمر رضي الله عنه إلى رسول الله ﷺ،
فقال: ذر النساء على أزواجهن، فقرض في صرخين، فأطاف بآل رسول
الله نساء كثيرة، يشكون أزواجهن، فقال رسول الله ﷺ: وقد أطاف بآل
بيت محمد نساء كثير، يشكون أزواجهن، ليس أولئك بخياركم، وعنه:
دَرَّنَ أَي اجتران، وعنه أطاف أي أحاط، وعنه: بآل بيت محمد أي
بأزواج رسول الله ﷺ ورضي الله عنهن. وقال عز وجل: ﴿فَإِذَا كَرَهْتَمُوهُنَّ
فَعِسِّنِي أَن تَكَرَّحُوا شِيَانِكُمْ وَيُبِرِّجُوا للهِ فِيهِ خِيرًا كَثِيرًا﴾. هذا هو التوجيه الرشيد
والحكمة الغالبة البليغة التي تُرْيِي في نفس المسلم التسليم لأمر الله، والرسا
بقضاء الله في كل نازلة تنزل بالإنسان سواء كانت متعلقة بالحياة الزوجية أو
غيرها، كما قال عز وجل: ﴿كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعنى أن
تكرروا شيئا وهو خير لكم وعنى أن تجدوا شيئا وهو شيء لك لحكم الله يعلم
أنتم لا تعلمنو. ﴿ولا شك أن الاستماسك بهذه الوصية الإلهية هو الأساس
المكين لبناء البيت السعيد فإن المسلم قد يسوعه خلق من زوجته لكنه إذا فكر
وَجَدَّ بِهَا يَعْمَا جَلِيلًا وَخِيرًا كَثِيرًا، من سكون النفس والأولاد ما لا يستطيع
الإنسان حصره، ولذلك روى مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي
الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: لا يفرك مؤمن مؤمن، إن كره منها فقلهًا رضي
منها أخر، أو قال: غيرة، ومنعى: ينفرك عنها، والعاقل يرى أن كمال النعمة
إني يكون في الجنة، وكما قال الشاعر:

إذا أنت لم تشرب مارًا على السَّدَّى
ظَمَنَت وأي الناس تضف وصاربةً
فينبغي للمسلم أن يحرص على أن يكون خيرًا لأهله فقد روى الترمذي
وقال: حدث حسن صحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال:
أكمل المؤمنين أحسنهم خلقًا، وخيركم خياركم لنسائهم.
قال تعالى: "وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم إحداهن قنطارا، فلا تأخذوا منه شيئاً أنتان من بيتان وإثنا مبيناً* وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذ منكم ميثاقاً غليظاً. ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلا ما قد سلفك، فإن كان فاحشة ومفتاً وساء سبيلًا." 

بعد أن بين عز وجبل في الآية السابقة وجوب معاشرة الزوجة بالمعروف، ورغب الزوج في الصبر على ما قد يراه من بعض ما يكره من خلقي أو خلتفي في زوجته، شدد البكير هنا على الزوج الذي يرغب في طلاق زوجته ليتزوج بدلًا، زوجة أخرى وكان قد أكثر لأصحابه ويجعل أن يأخذ بعض ما ثبت في دمته من صداق، فحرم على الزوج أن يأخذ شيئاً من صداق زوجته التي يرغب في طلاقها ما دامت ليست ناشزًا ولم تأت بفاحشة، ولا يجوز له أن يستكثر صداقاً التزم به لها مهما بلغ حتى لو كان قنطاراً من الذهب، ما دام قد دخل بها وأفضى إليها وأفضت إليه، وسباق الآية الكريمة يشعر بأن هذا الزوج لا يريد الجمع بين زوجتين وإنما يريد تطليق زوجة ليتزوج بدلًا زوجة أخرى ولا يفعل ذلك عادة إلا من كان كارهاً للزوجة الأولى التي يريد طلاقها، ومعنى قوله عز وجبل: "وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم إحداهن قنطارا فلا تأخذوا منه شيئاً* أي وإن رغب أحدكم في طلاق زوجته ليتزوج بدلًا زوجة أخرى فلا يجل له أن يظلم الزوجة التي يريد طلاقها، بأن يفطرها ويأخذ شيئاً مما كان أصداقها حتى ولو كان أصداقها قنطاراً من الذهب لأنه صار حقا خالصاً لها لا يجوز لأحد أن يأخذ منه شيئاً إلا بطيب نفس منها، وقوله تبارك وتغلى: "أنتاخذونه بيننا وإثنا مبيناً." هو توبية للزوج الذي يحاول الاستيلاء على مهر زوجته وأكله بالباطل، وأن من فعل ذلك كان مرتكبا لعدة جرائم وهي أخذُه مال غيره ظليلاً، وأنه
بمحاولة استرداد المهر من زوجته يبتهجت أبوها إذ قد يظن من يحيس الظن به أنه ما أخذ ذلك إلا لوقوفه على خيانة من زوجته، وأن من أخذ شيئاً من المهر الذي كان دفعه لزوجته بغير طيب نفس منها يكون قد ارتكب إثنا واضحًا وجريمة فاضحة، قال في القاموس: "بِهْـٰعْـٰكَـَـَّـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَـَ~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~َ~~*
عندها أن رسول الله قال في خطبه بعرفة: فاتقوا الله في النساء، فإنكم أخذتموهن بأمان الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، ولكم عليهن أن لا يُوْطِنَّ فرَشُوكُم أحدا تكرونونه. فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضرباً غلى مبرَّم، ولهن عليكم رفَشُوكُم وكسوْنُوكُم بالمعروف الحديث. وقال البخاري في صحيحه: باب الشروط في النكاح، وقال عمر: مقالات الحقوق عند الشروط، وقال المسور بن مخرمة: سمعت النبي ذكر صيحاً له فأتى عليه في مصاحبه فأحسنا قال: حذنني قد نصِفْتُني، ووعدي فولتي، حذننا أبو الوليد هشام بن عبد الملك حدثنا الليث عن يزيد بن أبي حبيب عن أبي الخير عن عقبة عن النبي قال: أحق ما أوّفتم من الشروط أن توفّنوا به ما استحللتم به الفروج ورواه مسلم من حديث عقبة بن عامر رضي الله عنه بلفظ: قال: قال رسول الله ﷺ: إن أحق الشروط أن يوفّي به ما استحللتم به الفروج. وقاله تبارك وتعالى: ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلا ما قد سَلَفَتُ شروعاً في بني مَنْ يَجْرِمُ نكاحها من النساء، وقدّم تحريم ما نكح الآباء على غيره من المحرومات، وضعله في آية خاصة، ولم يتَسْرَدُّهُ مع سائر المحرومات في الآية الأخرى لأنّه على قبحة كان فاشياً في الجاهلية، ولذلك دَمَّهُ الله عز وجل بأكثر مما ذَمَّهُ به الزنا حيث قال في الزنا: ولا تقربوا الزنا كأنه كان فاحشة ومقتة وساء سبيلا، وقال في نكاح زوجة الأب: إنه كان فاحشة الابن المبكي ولا يحرمون نكاح زوجة الأب كما كانوا كذلك يستبيحون الجمع بين الأخوات، ولا شك أن الجمع بين الأخوات أفل في القبح وإهانة الرحم من نكاح زوجة الأب ولذلك بدأ الله تبارك وتعالى المحرومات من النساء بفسطاع نكاح زوجة الأب، وتبيّعه، وختم المحرومات من النساء في الآية التالية بتحريم الجمع بين الأخوات، وختم كلا منها بقوله عز وجل: إلا ما قد
سُفِّرَ قال ابن جرير رحمه الله في تفسيره هذه الآية: حديثي محمد بن عبد الله المُحَرَّمي قال: حدثنا قُرْدُةُ حدثنا ابن عَنَينَةَ وعمرو عن عكيره عن ابن عباس قال: كان أهل الجاهلية يُجِرُّون ما يُجِرُّون إلا امرأة الأب، وجمع بين الأحَنَّة، قال: فانزل الله: {ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلا ما قد سلَفَ}. {وأن تجمعوا بين الأحَنَّة إلا ما قد سلَفَ} أهـ. وهذا الحُكَّام الصحيح الذي ذكره ابن عباس رضي الله عنها إنها كان في جاهلية العرب أما أهل جاهلية العجم فقد كان بعضهم يستيحون الزواج من الأحَنَّة والبنات، وقد أجمع أهل العلم على أنه بمجرد فقد نكح الأب على المرأة يحرمها على الأب وإن لم يدخل بها الأب، قال ابن كثير رحمه الله في تفسيره: {ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء} الآية يُجِرُّون الله تعالى زوجات الآباء تكَرَّمةً لهم، وإعظاما واحتراما أن توطأ منه بعده، حتى إنها تَنْحَرِم على الأب بمجرد العقد عليها، وهذا أمر تجنُّب عليه أهـ. وقال ابن كثير رحمه الله: أن تُوطأ من بعده، أي أن يطامأ الأبناء من بعد أبيه. والتعبير بها في قوله تبارك وتعالى: {ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم} لأن المقصود تبيع هذا التكاح والتنفيز منه وذلك لأن العرب يَعْتَرَفون بمن عن ذات العاقل ويَعْتَرَفون بما عن غير العاقل أو عن صفة العاقل لا ذاته، ومن ذلك ما أثر أن أكثَّم بن صيفي حكيم العرب عندما علم ببعثة رسول الله ﷺ عَزَّه على التوجه إليه ولقاءه فقال له بنوه: أنت قد كَرِيت، ويشتَّع عليك السفر ونحن نكفيك فتوجه رجلاً من بنيه إلى النبي ﷺ، وسأله: مَنْ أنت وما أنت؟ فقال: أنا من أنا فنان محمد بن عَبَد الله وأنا أنا فنان محمد رسول الله، فسألاه أن يقرأ عليه شيئاً من القرآن، فأقرأ عليها: {إِنَّ اللَّهُ يَأْمُر بِالْعَدْلِ}. والإحسان وإيتاء ذات القربى وينهي عن الفحشاء والمكر والبغي، يعظكم لعلكم تذكرون. فرجعوا إلى أبيهم أكثُم بن صيفي وقال له: سألناه عن
نسبه فأبى أن يرفع نسبه وسألنا عن صفته فأخبرنا أنه رسول الله وسألنا عنا جاء به فقرأ علينا هذه الآية: إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرَ بِالْعَدْلِ وَالْإِحسَانِ الآية. فقال أكثم بن صيفي: يا قوم سارعوا إلى اتباع هذا الرجل فإنه يأمر بعفرين الأخلاق وينهي عن سُفُسُفَاهَا. وعلى هذا الأسلوب العربي الفصيح البليغ جاء التعبير بما في قوله تعالى: وَلَا تَنُكْحُوا مَا نَكُحُ آبائِكُمْ لِلتَنْدِيدِ بِمَن يُلِفْهُمْ أَجَدَّ ابْنَيَّهَا، ولا شك أن العاقل يشتمز من ذلك تمام الامتياز ولا يرضاه لنفسه أبدا، وقد قال أبو داود في سنته: حدثنا شعبة messenger من أبي نفيض عن أبي جعفر بن عبد الله ثنا مطرف عن أبي الجهم عن الباب بن عازب قال: بينا أنا أطور على إبل لي صلعت، إذ أقبل ركب أور فوارش معهم لوزاء، فجعل الأعراب يطوفون بي لمزلعي من النبي ﷺ، إذ أتوا قبيه فاستخرجوا منها رجلا فضربوا عَنْقَهُ، فقالوا به فذكروا أنه أعرس بامرأة أبيه اهوا، إلا في قوله: يَأْتُوهُ مَا قَدْ سَلَفَ، بمعنى بعد أي بعد ما مضى منه ما مضى ما كان لا ينبغي لعقل أن يقاطره. وليس قوله عز وجل: يَأْتُوهُ مَا قَدْ سَلَفَ تقريرا لما كانوا عليه في الجاهلية من نكاح ما نكح الآباء. وأنه معمور عليه، فإن سياق القرآن العظيم وما وصف به هذا النكاح بعد قوله: يَأْتُوهُ مَا قَدْ سَلَفَ من قوله: إِنَّهُ كَانَ فَاحْشَاءً وَمِقْتًا وَسَاءَ سِبِيلًا يأبى ذلك، بل إنما جاء قوله عز وجل: يَأْتُوهُ مَا قَدْ سَلَفَ لِإِفَادَةً أنه كانوا في جاهليةهم يقتلون ذلك، وقد أشرت إلى ذلك قليلاً، وأن العرب ما نكحوا من المحرومات سوى زوجة الأب والجمع بين الأخوين وأنه تبارك ومعالي عَقْبَ تحرم نكاح زوجة الأب بقوله: يَأْتُوهُ مَا قَدْ سَلَفَ كَيْ عَقَبَ بذلك تحريم الجمع بين الأخوين، ولم يعَقَبِ غيرهم من المحرمات بهذا التعقيب لأنه لم يكن سلف منهم شيء في جاهلية العرب، وقد وصف الله تبارك تعالى نكاح ما نكح الآباء بأنه فاحشة ومقت وإنما ساء سبيله، والفاحشة هي الجريمة.
الكبيرة المستبَشُّعةُ المستقبحةُ، والمقتُ هو أشدُ البُغض المقرن بالغضب والاستحقاق، ومعنى "وساء سبيلًا" أي بس طريقاً ومنهجاً ما كنتم تفعلونه من نكاح ما نكح آباءكم من النساء المستقبّيح عقلاً وشرعاً وعادةً وعُزْناً.
قال تعالى: «حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم وعئاتكم وخلااتكم وبنات الأخ وبنات الأخت وأمهاتكم آلتي أرضعنكم وأخواتكم من الرضاعة وأمهات نسائكم وربانكم آلتي في حجوركم من نسائكم آلتي دخلتم بهن فان لم تكنوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم وحللائل أبنائكم الذين من أصلابكم وأن تجمعوا بين الأختيهن إلا ما قد سلف، إن الله كان غفوراً رحيماً.»

بعد أن صدّر الله تبارك وتعالى المحرابات من النساء في النكاح بتحريم نكاح زوجة الأب وجعلها في آية خاصة بها تشدّدة في التحذير من نكاحها بسبب ما كان يقترفه أهل الجاهلية من ذلك، أتبع ذلك ببيان تحريم نكاح ثلاث عشرة امرأة جمعهن في آية واحدة وهي قوله تبارك وحنيف على أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم وعئاتكم وخلااتكم وبنات الأخ وبنات الأخت وأمهات نسائكم وربانكم اللاتي في حجوركم من نسائكم اللاتي دخلتم بهن فإن لم تكنوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم وحللائل أبنائكم الذين من أصلابكم وأن تجمعوا بين الأختيهن إلا ما قد سلف، إن الله كان غفوراً رحيماً.» وهذه النساء المحرابات منهن سُنيّ حرمت بسبب النسب وأئتنا بسبب الرضاعة، وأربع بسبب المصاهرة، وكلهم محرومٌ على التأبيد إلا الجمع بين الأختيهن فإنه تحريم مؤقت بجمع إذ يجوز إذا بنت منه زوجته أن يتزوج أختها عند خلافها من موانع النكاح، ولذلك جعل الله عز وجل الجمع بين الأختيهن آخر هذه المحرابات بالرغم من أن أهل الجاهلية كانوا يقترفون ذلك لكن لما كان تحريمها مؤقتاً أخره في الذكر، وقد أحلت السنة الصحيحة تحريم الجمع كذلك بين المرأة وعملها والمراة وخالتها فرد روى الجاعة من حديث أبي
هريرة رضي الله عنه قال: "نَذَّرَ النَّبِيُّ ﷺ أن تُكْنِخَ المرأة على عمتها أو خالتها. وبهذا تكون المحترمات بسبب المصاهرة سبعة، فلمحورمات بسبب النسب هُنَّ الأم والبنت والأخت والعمة والخالبة ونثى الآخر ونثى الأخ، والمحرماتان بسبب الرضاعة هي الأم من الرضاعة والأخت من الرضاعة، أما السبعة المحورمات بالمصاهرة فهي زوجة الأب كا تقدم في الآية السابقة وأم الزيجة والزوجة المدخل بها المعرفة بالربية، وزوجة الابن والجمع بين الأخوات والجمع بين المرأة وعمتها والجمع بين المرأة وخالتها، ولا نزاع عند أهل العلم في أن المراد بقوله تبارك وتعالى: "فرحنا عليكم أمهاتكم" الآية هو تحريم نكاح هؤلاء النسواة، والمراة بالدم في الآية هي كل أنثى لها على ولادة، فيدخل في ذلك أمَّك التي حملتك في بطنها وأمهاتها وجداتها وأمَّك الأب وجدانه وإن علقُنْ، والمراد بالبنين هي كلى أنثى لك عليها ولادة فيدخل في ذلك بنتك لصبه وبناتها فيما تُرَّن، وبيت ابنك وبناتها فيما تُرَّن كذلك، والمراد بالأخت كل أنيش شاركتك في أبوبك أو أحبها، والمراد بالعمل كلي أنثى شاركت أبيك أو جدتك في أبوبك أو أحدهما بها كاش، والمراد ببنت الأخ كل أنثى شاركت أمَّك في أبوبك أو أحدهما بها كان، والمراد ببنت الأخ كل أنثى كان لأنيش عليها ولادة فيدخل في ذلك بنت أختك لصبه وبناتها فيما تُرَّن، ويا المراد ببنت الأخ كل أنثى لاقتلك عليها ولادة فيدخل في ذلك بنت أختك التي حملتها في بطنها وبناتها فيما تُرَّن، وقوله تعالى: "وأمهماتكم اللائي أرضعتهن وأخواتكم من الرضاعة" الرضاعة هي اختصاص الطفل اللبن من شدي المرأة فإذا أرضعت المرأة طفلا حرمته عليه لأنها صارت أمًا الله، وحرمته عليه بنتها لأنها صارت أخته، وحرمته عليه أخت من أرضعته لأنها صارت خالته، وأمها لأنها صارت جدته، وبيت زوجها صاحب اللبن لأنها صارت عمتته، وأم صاحب
البنين لأنها صارت جدَّته، وبنيات بني المرأة التي أرضعته وبنات بنوها لأنهن بنات إخوته وبنات أخواته وقد روى البخاري ومسلم من حديث ابن عباس رضي الله عنها أن النبي ﷺ أريد على ابنته حزباء فقال: إنها لا تخلي لي، إنها ابنتُها أختي من الرضاعة ويجوز من الرضاعة ما يحرم من النسب، وفي لفظ للبخاري من طريق عمرو بنت عبد الرحمن أن عائشة زوج النبي ﷺ أخبرتها أن رسول الله ﷺ كان عندها وأنها سمعت صوت رجل يستأذن في بيت حفصة، قالت: فقلت: يا رسول الله هذا رجل يستأذن في بيتك، فقال النبي ﷺ: أرأيت فلانًا، لعم حفصة من الرضاعة، قالت عائشة: لم كان فلان حيًا - لعمها من الرضاعة - دخل علي؟ فقال: نعم، الرضاعة يحرم ما يحرم الولادة. وفي لفظ لمسلم من طريق عروة عن عائشة أنها أخبرته أن عُمُها من الرضاعة يسمى أفلح استأذن عليها فحجتته، فأخبرت رسول الله ﷺ فقال لها: لا تعجب بي منه فإنها يحرم من الرضاعة ما يحرم من النسب. وفي لفظ لمسلم من حديث ابن عباس رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: ويحرم من الرضاعة ما يحرم من الرحم. قال الحافظ ابن ربه الله في فتح الباري: قال العالمية: يُستثنى من عموم قوله: يحرم من الرضاع ما يحرم من النسب أربع نسوة: الأول: أم الاحز في النسب حرام لأنها إما أم أو إما زوج أب، وفي الرضاع قد تكون أجنبية فتترفع الأخ فلا يحرم على أخيه، الثانية: أم الحفيد حرام في النسب لأنها إما بنت أو زوج ابنت، وفي الرضاع قد تكون أجنبية فترفع الحفيد فلا يحرم على جدته، الثالثة: جدته الولد في النسب حرام لأنها إما أم أو أم زوجة، وفي الرضاع قد تكون أجنبية أرضعت الولد يجوز لوالده أن يتزوجها، الرابعة: أخت الولدحرام في النسب لأنها بنت أو قريبة، وفي الرضاع قد تكون أجنبية فترفع الولد فلا يحرم على الوالد اهـ، ولا شك أن محامية الرضاع إذا تختص بتحرير التناكح وجواز الخلوة والنظر والمسافرة أما
ما عدا ذلك من التورات ووجب الإنفاق والعطى بالملك فهذا خاص بالنسب ولا دخل للرضاع فيه، ولو رضعت عمر من عائشة مثلاً، ولعائشة بنت وناثا، ولعمر إخوة لم يرضعوا من عائشة فإن جميع أبناء وبنات عائشة يكونون إخوة اجتمعت أعراضهم ولا يكون إخوة عمر من النسب الذين لم يرضعوا من عائشة إخوة لأبناء وبنات عائشة لأن الحرماء إذا تنتشر بين كل اثنين رضعا من ثدي المرأة مهما اختفت أوقات رضاعهم. وقد ورد الرضاع في هذه الآية الكريمة مطلقًا لم يفيد بمقدار معيين وقد قبد رسول الله ﷺ هذا الإطلاق بأن المصة والمصين لا تعمر وأن الرضاع المحرم هو ما كان في رضعات مشبعات، وقد جعل الله تبارك وتعالى من وظائف رسول الله محمد ﷺ أن ينذّل للناس ما نزل إليهم حيث يقول عز وجل: ﴿ وإنزنا إليك الذكر ليتنادى للناس ما نزل إليهم وبيانه ﷺ للذكر يشمل تقيد المطلق وإطلاق المفيد وتخصيص العموم وبيان المجمل وقد أخرج مسلم من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ وسلم: لا تحرك المصة والمصين. كما أخرج مسلم من حديث أم الفضل رضي الله عنها قالت: دخل أعرابي على النبي ﷺ وهو في بيته فقال: يا نبي الله إنك لي أمرأة، فتمعن عليها أخرى، فزعمت امرأتي الأولى أنها أرضعت امرائي الحذّري رضعة أو رضعتين فقال نبي الله ﷺ: لا تحرك الإملاجة والإملاجتان. وفي لفظ مسلم من حديث أم الفضل أن نبي الله ﷺ قال: لا تحرك الرضعة أو الرضعتان أو المصة أو المصتان. وهم المصة المرادتة بمصرمة واحدة أو واحدة، والرضعة وهي نشاوة الثدي برفق وأمتلاج ليتني أي اختصاصية مزرة واحدة، يقال: امتلاج اللَّبن أي امتصه وأملجه أو رضعة. كما روى مسلم من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: كان فيها أنزل من القرآن: عُشرُ رضعتات معلومات يُجْرَمَن ثم نسخُنْ يَخْمِس معلومات، فتوقي رسل الله ﷺ وهُم فيها.
يُقرأ من القرآن اهـ ولا نزاع عند أهل العلم أن القرآن لا يثبت إلا بالتوافر وأن قراءة الآحاد تكون شاذة ولا تجوز القراءة بها في الصلاة، وقد أجمع المسلمون كذلك على أن قول عائشة رضي الله عنها: فَتَوَلَّى رسول الله ﷺ وُسْعًا فيها يقرأ من القرآن، أنه لا تجوز قراءة آحاد فهي منسوحة التلاوة قطعاً، ولا نسخ بعد رسول الله ﷺ قال النووي رحمه الله في قول عائشة رضي الله عنها: فَتَوَلَّى رسول الله ﷺ وُسْعًا فيها يقرأ من القرآن، معناه أن النسخ بخمس رضعات تأخر إنزاله جداً حتى أنه لا يُتُّقَّر وبعض الناس يقرأ: خمس رضعات ويجعلها قرأناً مثلاً لكونه لم يبلغه النسخ لقرب عهده، فلابغهم النسخ رجعوا عن ذلك وأجمعوا على أن هذا لا يُتَّبَع، وقال به بحرب و تعالى: { وأمهات نساءكم } أي وحُرَّمت عليكم والدات زوجاتكم ولم يشترط الله تبارك وتعالى في تحريم أم الزوجة الدخول بالزوجة، وقد ذهب عامة أهل العلم والفقهاء السبعة والأئمة الأربعة إلى أن مجرد العقد على البنت يُجرِّمُ أمها. وقال له تبارك وتعالى: ورابيكم اللَّهُي في حجوركم من نساءكم اللاتي دخلتم بهن فإن لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم { أي وحُرَّمت عليكم بنات زوجاتكم إذا كنتم دخلتم بهن }، قال القرطي رحمه الله: أجمع العلماء على أن الرجل إذا تزوج المرأة ثم طلقتها أو ماتت قبل أن يدخل بها حُلَّ له نكاح ابنتها اهـ وذلك لأن العقد على الأم لا يحرم البنت وإنما يحرم إذا كان دخل بأمها، والتقيد بقوله عز وجل: { الالاي في حجوركم } خرج خرج الغالب فلا فهم له إذ الغالب هو أن تكون الربيبة وهي بنت الزوجة من غير الزوج في حُجْر أمها ولذلك قال عز وجل: { فإن لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم } ولم يقيد بكونها في حُجْر الزوج فلم يقل: ولم تكن في حجوركم. وهذا ظاهر بحمد الله، وقوله عز وجل: { وحلائل أبناءكم الذين من أصلبكم } أي {
وحزمت عليكم بسبب المصادرة أيضاً زوجات أبنائكم الذين من أصلكم
بخلاف الأبناء بالنبي فإن زوجة الابن بالنبي حلال إذا طلقها الابن المتبني،
وقد أحققت السنة زوجة الابن من الرضاع بزوجة الابن من الصلب، وحلائل
أبناء الأبناء كحلائل الأبناء في التحرير، ويتكفي في تحريم زوجة الابن مجرد
عقد الابن عليها حيث لم يشرع الدخول في النص الكريم. وقوله تبارك
وتعلال: (وأن تجمعوا بين الأخوات إلا ما قد سلف) أي وحزم عليكم أن
يكون تحت الرجل منكم أختان سواء كان على طريق الزواج أو على طريق
ملك اليمين قال ابن كثير رحمه الله: وقد أجمع المسلمون على أن معنى قوله:
(حزمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم) إلى آخر الآية، أن النكاح
وملك اليمين في هؤلاء كلهم سواء، وكذلك يجب أن يكون نظراً وقياساً
الجمع بين الأخوات وأممات النساء والرباب، وكذلك هو عند جهورهم،
وهم الحجة المحقوج بها من حالفها وشيد عنها اه وقوله تبارك وتعالى: (إن
الله كان غفورا رحيم). (تعريف بجوده وكرمه حيث شرع لأمة محمد
أحسن الشرائع ورفع عليهم الإضر والاغلال ولم يحمِّلهم فوق طاقاتهم
وخفف عليهم.)

434
قال تعالى: «وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النَّسَاءِ إِلاَّ مَا مَلَكَتْ أَيْتَانَكُمُ كَتَابَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ، وَأَجْلَ لَكُمْ مَا وَرَأَهُ الذِّكْرُ أَنَّكُمْ أَنْتُفَضُّوا بِأَمْوَالِكُم مُّحْصَنَاءٌ غَيْرَ مُسَافَحٍ، فَإِنَّهُمْ أَجْوَرُهُمْ فِي رَيْسَةٍ، وَلَا جَناحٌ عَلَيْكُمۡ فِيهَا تَرَاضِيَتِكُمۡ بِهِ مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْهَا حَكِيَّةً.»

بعد أن ذكر الله تبارك وتعالى في الآية السابعة المحرمات من النساء في النكاح على التأديب وفتح أحد أنواع التحريم المؤقت وهو الجمع بين الأخرين شرع هنا بين بعض أنواع التحريم المؤقت الأخرى حيث يقول: «وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النَّسَاءِ إِلاَّ ما مَلَكَتْ أَيْتَانَكُمۡ» أي وخرست عليه النساء ذوات الأزواج إلا ما ملكت أيتانكم بالسي فإن السي يقطع عصمة زوجها الكافر، وهي حلال لمن وقعت في سمه بعد استبراء رحمها، وقد روى مسلم في صحيحه من حديث أبي سعيد الخدري نسي الله عنه أن رسول الله ﷺ يوم حضِر في جيشه إلى أوطان فلقوا عدوًا، فقاتلواهم، فظهروا عليهم، وأصابوا لهم سبايا، فكان ناسًا من أصحاب رسول الله ﷺ يخرجوا من غُشَيَّاهُم من أجل أزواجهم من المشركين، فأنزل الله ﷺ وجل في ذلك: «وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النَّسَاءِ إِلاَّ ما مَلَكَتْ أَيْتَانَكُمۡ» أي فهى للك من خلال إذا انقضت عدتهن. ومعنى قوله: إذا انقضت عدتهن أي تم استبراء أرهاهن وضع الحمل أو بحيداه أو بمضة شهر لئلا تخضر. وفي هذا المعنى يقول الفرزدق:

وذلك حييٌّ لا أنكتحتها وما حاَنِ، حيي من يبني، يشا لم يتطلَّبًا.

وقد قرأ جميع القراء قوله عز وجل هنا: «وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النَّسَاءِ» بفتح الصاد، وقد استعمل العرب ثلاث كلامات على صورة اسم الفعل وهم يعرفونها على معنى اسم الفاعل وهي أَحْصَنَ فهى مُحْصَنَ أَلْفَجَ بمعنى
اأفَلَسَ فَهُوَ مُلْفَجٌ وأَسَهَّبٌ أَيْ أَكْثَرُ الْكَلَّامِ فَهُوَ مُسَهَّبٌ وَقَدْ يَقُولُونَ فِيهَا: مَحْسُونٌ وَمُسَهَّبٌ وَمُلْفَجٌ، وأَصِلُّ الْإِحْصَانِ فِي الْلُغَةِ الْمَنَعٌ، وَقَدْ وَرَدَّ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ أَرْبَعَةَ مَعَانٍ، أُحْدَاهَا الْحَرَّةُ كَآَيْ فِي قُوَّةِ تَحْكَمُهَا: «وَالْذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ» فَلَا يَبْتَغُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَا يَبْتَغُونَهَا فَالْجَلَّدُ، فَأَيْ وَالَّذِينَ يَقْذِفُونَ الْحَرَّةَ، بِدِيْلٍ أَنَّهُ لاَ قَدْغَةٌ غَيْرَ حُرٍّ لَا يَبْتَغُونَ ثَانِيَانَ وَكَذَلِكَ قُوَّةُ عُزُجِّ، فَوَمَّنْ لَا يُسْتَطِعُ مَنْ كَمْ يَكْنِعُ مُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَلَا مَكْتُبُ أَيْ أَيْ وَالَّذِينَ مِنْ فِيْتَكِمْ الْمُؤْمِنَاتِ، وَالثَّانِيَ مِنْ مَعَانِيِ الْإِحْصَانِ هُوَ الْعَقَافُ وَمَنْهُ قُوَّةُ تَحْكَمُهَا: «مُحْصَنَاتٌ غَيْرُ مُسَافِحَاتٍ» وَقَوْلُهُ: مُحْصَنِينَ غَيْرِ مُسَافِحِينَ، فَوَقَوْلُهُ: «وَالَّذِينَ أَحْصَنُتْ فَرَجَحَهَا» فَأَيْ أَعْقَبُهَا. وَالْمَعْنَى التَّلُثُّ مِنْ مَعَانِيِ الْإِحْصَانِ الْوَارِدَةُ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ إِلَى الْإِحْلَامِ وَمَنْهُ قُوَّةُ تَحْكَمُهَا: «إِفَادَا أَحْصَنْ» فَإِنَّ آتِينَ بِفَاحَشَةٍ عَلَى قُرَأَةِ مِنْ قِرَأَتِ الْهُمْرَةِ وَالسَّادِ، فَأَيْ أَشْلَمَنَّ. وَالْمَعْنَى رَابِعُ مِنْ مَعَانِيِ الْإِحْصَانِ الْوَارِدَةُ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ الْتَحْرِيجُ وَمَنْهُ قُوَّةُ تَحْكَمُهَا: «وَالْمُحْصَنَاتُ مِنْ النَّسَاءِ إِلَّا ما مَلْكُتُ أَيْ آتِينَكُمْ» أَيْ وَالَّذِينَ مِنْ النَّسَاءِ إِلَّا مَلَكَمُ أَيْ وَالَّذِينَ مِنْ النَّسَاءِ إِلَّا مَلَكَمُ بَلْ بَسِي، وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: «كِتَابُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ» أَيْ كَتِبَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ تَحْرِيمَ مَا حُرَّمَ مِنْ النَّسَاءِ وَتَحْلِيلٌ مَا أَحْلَ مِنْهُ كَتِبَ عَلَيْكُمْ، فَقَوْلُهُ: «كِتَابُ اللَّهِ» بِالنَّصْبِ عَلَى أَنَّ مَصْرُدٍ مِنْ غَيرِ لَفْظِ الفَعْلِ، وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: «وَأَلْجَلُ لَكَمْ مَا وَزَأَهَا ذلِكَ أَنْ يَتِبْغُوا بِأَمْوَالِكُمْ مُحْصَنِينَ غَيْرِ مُسَافِحِينَ أَيْ وَأَبْيَحُ لَكُمْ مَا حُرَّمَ عَلَيْكُمْ مِنْ النَّسَاءِ الْمَذْكُورَاتِ فِي الْآيَاتِ السَّابِقَةِ وِيْ فِي صَدِيرٍ هَذِهِ الْآيَةِ إِرَادَةٌ أَنْ تُطِبْنِي النَّسَاءُ بِأَمْوَالِكُمْ مُتَزَوجُونَ غَيْرَ زَانِيَّ. وَمَعْنَى «بِأَمْوَالِكُمْ» أَيْ بِأَمْوَالِكُمْ مَزُوَّجُونَ يُؤْثُنَّ مِنْ الصَّدَاقِ فِي الْزِّواجَ أَوْ الْثَّمَنِ فِي الْتَسْهُرِ، وَأَصِلُّ الْسَفَحِ فِي الْلُّغَةِ مَأْخُوذُ مِنْ السَّفَحِ وَهُوَ الصَّبِبُ، وَإِنَّا سَمِّيْناً الْزَّنَا سَفَحًا لِاَّمَّا لَا غَرْبَةً لِهِ إِلَّا صُبُبُ مَاِهِ لَ هَدَفَ كَرِيمٍ، وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: «فَإِنَّ فِي أَسْمَاعِكَ أَنْفُوْحٌ"مَلَّأَهَا 236
أُجْرِهُمْ فِرِيضَةً، ولا جَنَاحٌ علَيكم فيها تَراضُينُمُّ به من بعد الفريضة، إن الله كَانَ علَيها حكِيَّةً، أي فيها تمكنُت مَن التلزُّد بأي نوع من التلزُّد والانتفاع من زوجاتكم اللاتي عقدتمنَّ نكاحهنَّ. فَأْفَوَّقَوا هُنَّ مُهْرُومْنَ فِرِيشَةٍ لازمَةٍ فرَضَها الله عَزَّ وَجَلَّ علَيكم شُهُم كَاملة غير مَنفوصَةٍ، مادام قد حصل لكم منهنَّ تلبُّزًدً وله بالخلوة، مادامت الخلوة صحيحةً، ولا حرج عليكم ولا إثم إذا تنازل أحدكم عن بعض حقه أو كامل حقه لدى الآخر بعد استقرار الفريضة. حيث يجوز للمرأة أن تعطي زوجها ما طابت نفسه من حقه عليه من الصداق، كما يجوز للرجل أن يعطي زوجته أكثر من الفريضة والصداق المسني بينهما عند العقد، والله تبارك وتعالى عليه حكيم، يجزي المحسن بإحسانه ولا يضيع عنده شيء من عمل خير يعمله الزوج أو الزوجة عز وجل، وفي تشريعه حكيم سامي لا يحصيها إلا الله تبارك وتعالى، وقد أذعى بعض الناس أن قوله عز وجل: "فَهَا اسْتَمْعِنْهُمْ بِمَنْهُنَّ فَأَنْتُوهُنَّ أَجْرُوهُنَّ" دليل على جواز نكاح المتعة لورود لفظ "استمعتم" ولفظ "أجروهن" مع أن لفظ الاستمعاع أتى في النزجة، وكذلك قد سمى الله تبارك وتعالى المهجر أجراً في غير موضع من كتابه الكريم حيث يقول عز وجل: "فانكحوهن بِذِنَّ أَهْلِهِنَّ وَأَنْتُوهُنَّ أَجْرُوهُنَّ" وهي المهجر قطعاً، وكذلك قال عز وجل: "لا جناح علَيكم أن تنكحوهن إذا أنتَموهنَّ أجرُوهُنَّ" وهي المهجر قطعاً، وقال تعالى: "بِأَيْبِهَا الْنَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَاهَا لَك أَزْوَاجَكَ الَّذِي أَنْتُهَا أَجْرُوهُنَّ" أي مهروهن. ولاشك أن المتعة قد أُبيحت بالسننة ثم حرمَت وكانت إباحتها ضرورة فكانت تصدقُ بقدراها إلى أن أعلن رسول الله ﷺ أنها حُرِّمَت إلى يوم القيامة والظاهرة أنها أُبيحت ثم حُرِّمَت ثم أُبيحت ثم حرمَت. قال النوري: والصواب المختار أن التحريم والإباحة كائتان مرتين، وكانت حلالاً قبل خيبر ثم حرمَت يوم خيبر، ثم أُبيحت يوم فتح مكة وهو يوم أوطاس لاتصالها ثم
حرَّمَت يومئذ بعد ثلاثة أيام تحريراً مؤيداً إلى يوم القيامة ثم قال النويوي: قال الفاضل: وافق العلماء على أن هذه المتعة كانت نكاحاً إلى أجل، لا ميزان فيها، وفرضها يحل بالانقضاض الأجل من غير طلاق، ووقع الإجماع بعد ذلك على تحريمها اه.. وقد روى البخاري ومسلم من حديث علي رضي الله عنه قال: تَمَّت رسول الله ﷺ على المتعة عام خير. وفي لفظ للبخاري ومسلم عن علي رضي الله عنه أنه رسول الله ﷺ نهى عن متعة النساء وعن أكل الخمر الأهلية يوم خير. كما روى مسلم من حديث سلمة بن الأكوؤض رضي الله عنه قال: رَحِص رسول الله ﷺ عام أوطاس في المتعة ثلاثة أيام ثم نهى عنها. وفي لفظ لسلم بن مسلم من طريق الربيع بن سبأ عن أبيه رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: إن كنت أذنت لكم في الاستمتاع من النساء وإن الله قد حرم ذلك إلى يوم القيامة فمن كان عندنا منهم شيء فَلْيْحْلُ سبيلها، ولا تأخذاً إذا آتتهمون شيئاً. وفي لفظ لسلم بن مسلم من حديث سبأة أنه كان مع رسول الله ﷺ فقال: يا أبا الناس إني قد كنت أذنت لكم في الاستمتاع من النساء، وإن الله قد حرِّم ذلك إلى يوم القيامة، فمن كان عندنا منهم شيء فَلْيْحْلُ سبيله، ولا تأخذاً إذا آتتهمون شيئاً. وفي لفظ لسلم بن مسلم عن سبأة قال: أمرنا رسول الله ﷺ بالمنعة عالم الفتاح حين دخلنا مكة ثم لم نخرج منها حتى نهان عنها اه.. وقد كان فتح مكة في أواخر شهر رمضان من السنة الثامنة للهجرة وأوطاس كانت في شوال من السنة الثامنة للهجرة كذلك، وأوطاس وإد في ديار هوازن من أودية الطائف قرب حنين، وقد خرج الطبري في الأوسط من طريق إسحاق بن راشد عن الزهري عن سالم: أتيناً ابن عمر فقيل له: إن ابن عباس يأمر بنكاح المتعة فقال: معاذ الله، ما أظن ابن عباس يفعل هذا، فقيل: بل، قال: وهل كان ابن عباس على عهد رسول الله ﷺ إلا غلاماً صغيراً. ثم قال ابن عمر: نهاننا عنها رسول الله ﷺ وما كنا مسافحين اه..

وقد أعلن عمر رضي الله عنه بمشهد من أصحاب رسول الله ﷺ النهي عن المنتهية وكان عثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب وغيرهما من أئمة أصحاب رسول الله ﷺ موجودين، ووافقوا عمر رضي الله عنه على إعلان تحريمها يوم وقع فيها عمرو بن حريث رضي الله عنه لعدم علمه بتحريمه، ولا شك أن علياً رضي الله عنه لا يوافق عمر رضي الله عنه إلا وهو ممتنع أن ذلك هو حكم رسول الله ﷺ، وقد تقدمت الروايات الصحيحة الثابتة عن علي رضي الله عنه بأن رسول الله ﷺ حرم المنتهية بعد الترخيص فيها، هذا ولا نزاع عند أهل العلم أن المنتهية لم تباح في الإسلام عندما أببعت إلا في الغزو، ولم تباح للمقيمين أبداً، وأنها عندما أببعت كانت للضرورة، كما أشار إلى ذلك ابن عباس رضي الله عندها في رواى البخاري في صحيحه عن من طريق أبي جمرة.
قال تعالى: "وَمَنْ لَا يَشْتَهِي مَنْكَمْ طَوَالاً أَن يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتُ الْمُؤْمِنَاتُ فَمَنْ مَلِكَ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فِتْيَانَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِأَيْمَانِكُمْ، بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ، فَانْكُحُوْنَ بِأَيْدِيِ أُهْلِهِنَّ وَأَوْهُنَّ أَجْوَزْنَاكُمْ بِالْعَرْوُفِ فَمُضَبَّطَتْ عَلَيْهِنَّ غَيْرُ مَسْأَلَاتِنَّ وَمَتَّعْنَاتِنَّ أَخْدَانَ"، فَإِذَا أَحْصَنَ فَإِنَّ أَنْتُمْ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نَصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ، ذَلِكَ لِنَحْسَ الْعَذَابِ مَنْ كُنْتُمْ، وَأَنَّهُ تَضْرَبُّوا خَيْرًا لَّكُمْ، وَاللَّهُ غُفْرَانَ رَحِيمٌ".

بعد أن يَبْنَ الله تَبَارَك وَتَعَالَ الْمَحْرَمَاتِ مِنَ النِّسَاء عَلَى التَّأْبِيب، وَأَنَّهُ حُرَّمَ الجمِيع بَيْنَ الْأَخْتِينِ، وَحُرَّمَ نُكَاحُ الْمَزْنِوجَاتِ إِلَّا ذُوَاتِ الْأَرْوَاجِ الْلَّانِي مَلِكَ بَالسُّبِي حِينَ يَقْطَعُ السَّبْرُ عَصْمَةَ زَوْجَهَا الْكَافِرِ، وَشَدَّدَ عَلَى الْأَرْوَاجِ فِي وُجُوبَ الْمَحْفَازةِ عَلَى حَقُوقِ الزَّوْجَاتِ، وَالْقُطُودِ حَدُودِ اللَّهِ فِيهِنَّ، وَالْحُرْصِ عَلَى الْعَفَافِ وَصِيَانَةِ الأَعْرَاضِ، بِيَنَّهَا أنْ يُزْوِجَ الْمَلَسَمُ أَمْتِهِ مُسْلِمَةٌ إِذَا كَانَ عَاجِزًا عَنِ أنْ يَزْوِجَ حَرَةً مُسْلِمَةً لَقَلْةً ذَاتِ يَدِه وَفَقْرَهُ، وَأَنَّهُ لَابِدُ مِنْ إِذْنِ سَيْدَ الْأَمَّةِ فِي زَوَّاجِهَا، وَأَنَّهُ يَجِبُ الرَّفَاءُ لِلْأَمَّة بَعْدُ هَا مَعَ الحُرْصِ عَلَى اخْتِيَارِ الأَمَةِ الْعَفِيْفَةِ الْمَعْرُوفَةَ بِحُشْشَنَ السَّيْرَةِ وَالسِّلْوَكِ فِي أَثْنَاءِ السَّيَاقِ نَدَّبَ الْبَلَاغَةَ الْعَفِيْفَةِ وَبِيَنَّهَا أنْ الْمَلَسَمُ أَخْوُ الْمُسْلِمَةِ يَغْضُبُ النَّظَرُ عَنْ نِسَبِهَا وَلَوْ نَكَّانَ بِالْبَلَاغَةِ الْعَفِيْفَةِ، حَيْثُ يَقُولُ عَزْ وَجَلِ: "وَمَنْ لَا يَشْتَهِي مَنْكَمْ طَوَالاً أَن يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتُ الْمُؤْمِنَاتُ فَمَنْ مَلِكَ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فِتْيَانَكُمْ الْمُؤْمِنَاتُ" أي وَمَنْ لَيْدَعُ مَنْكَمْ أَئِمَّةَ الْمُسْلِمِينَ عَلَى مَوْئَهَةِ نُكَاحِ حَرَةٍ مُؤْمِنَةٍ عَفِيفَةٍ بَيْنَ قِلَّةِ ذَاتِ يَدِهِ فِي تَزْوِيجٍ أَمَأَ مُلَكَوَةَ مُسْلِمَةٍ، وَالطَّوَالُ هُوَ الْقَضَّاءُ وَالْقَدِيرَةُ وَالسَّعَةُ وَالْخَيْرُ كَمَا فِي الْقَامُوسِ، وَإِنَّا اسْتَرْتَحَتْ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ فِي نَزْوَجَ أَمَأَ أَنْ يَكُونَ عَاجِزًا عَنِ النَّزْوَاجِ مِنَ الْحَرَةِ الْمُسْلِمَةِ لَحَرَةِ الشَّريَّةِ الإِسْلاَمِيَّةِ عَلَى تَحْيَيِّ اسْتِرْقَاقِ الحَرِّ المُسْلِمِ، وَذَلِكَ بَيْنَ الْحُرَّ المُسْلِمِ إِذَا تَزَوَّجَ الأَمَأ يُصْرِفُ أَبْنَاؤُهَ
منها عبيداً لسيدها، إذ الأولاد يتركون أمهم حرية ورقاً ويتبعون خير الأبوين
دينها، فالإسلام يحرص على سند كل طريق يؤدي إلى استرقاق الحُرُر الإسلامي
ويعمل على تحرير الأقراة، ولما كان قوله تبارك وتعالى: "ومن لم يستطع
منكم طولاً أن ينحى المخصوصات المؤمنات فِمَنْ ما ملسكَ أيتاكُم مِن
فقيهكم المؤمنات" قد يفهم منه من لا خِبرة له بأسرار وحكم التشريع
الإسلامي أن ذلك تيري عنصري دفع ذلك الوهم وأبعد ذلك الخاطر حيث
عَثِبَ بقوله: "وَاللَّهُ أَعْلِمُ إِبْيِانَكُمْ، بَعْضُكُم مِنْ بَعْضٍ" أي لا تشتكيوا في
إيان أحد بسبب لونه أو عنصره فعليكم أن تكفروا به مظهر لكم من انقياد
الشخص لتعليم الإسلام، وكُلوا السرايئ إلى الله وحده فإنه هو وحده علام
الغيبوب، وَرَبَّ أَمْمٍ مُؤمِّنة فْيَضِلُ الحَرَّةِ المؤمنة في إيانها، وبعضكم من جنس
بعض في النسب والدين، فلا يترفع الحَرُّ عن نكاح الأمة مادام يخشى على
نفسه الوقوع في العنت وارتكاب ما حرم الله عز وجل من الفاحشة وما أحسن
قول علي بن أبي طالب رضي الله عنه: "أَبْوَاهُمْ نِعَاموُا آدمَ وَاللُّهُ خَيْرُوهُو"اء
ولذلك قال عز وجل في خواتيم السلك من سورة آل عمران: فاستجاب
هم رحمه أي لا أضيع عملٌ عَمَّامٍ منكم من ذكر أو أثى بعضكم ممن
بعض" وقال عز وجل في مطلع سورة النساء: "يا أبا الناس اتقوا ربك
الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وثبت منها رجالا كثيرا
ونساء" ولم تعرف الإنسانية في تاريخها الطويل دينها أو نظاماً حارب التمييز
النصري كأ حاربه دين الإسلام الذي بعث الله به النبي الهاشمي القرشي
الأمَّي محمدًا ﷺ، واعتبرالتمييز باللون أو الجنس من عمل الجاهلية ولذلك
نبه رسول الله ﷺ أبا ذر لما عين عدلاً له بأمه حيث قال له: يشارك السوداء:
فقال له رسول الله ﷺ: إنك أمور فيك جاهلية، فقد روى البخاري ومسلم

241
عن المَعْرُور بن سَمْوَيد قال: رأيت أبا ذر رضي الله عنه وعلى غلامه
مثلها، فسألت عن ذلك، فذكر أنه ساب رجلا على عهد رسول الله ﷺ فعَّرَهُ
بأمه فقال النبي ﷺ: إنك امسك فيك جاهلية، هم إخوئكم وخُولكم،
جعلهم الله تحت أيديكم، فمن كان أخوه تحت يده فليفرمه بما يأكل،
و لِيَبِيهِما يَلِبْسَه، ولا يَكْفَفُوهُما ما يَغْفِيْهِمْ، فإن كَلَّفْتُمُوهُما فَعِينُوهُمْ.
بل جعل الإسلام لم كان له أمة فأدتها وأعتقتها وتزوجها أن له أجرٌ، فإن روى
البخاري ومسلم من حديث أبي موسى الأسدي رضي الله عنه أنه رأى رسول الله ﷺ
قال: ثلثاء لم أجز: رجل من أهل الكتاب أمان بن بنيه وأمان بن محمد
والعبد المملوك إذا أدى حق الله وحق مواليه، رجل كانت له أمة فأدتهما
فأحسن تأديته، وعلمها فأحسن تعليمها، ثم أعتقتها فتوجهها، فله
أجران. وقوله تبارك وتعالى: فاتَّكَحْوُمْ عِيْدًا عَلَى أَهْلِهِنَّ وَأَنْوَاهُ مُجْهُورٌ مِن
بالْغَرَوْفِ مَحْصَنَاتٌ غَيْرَ مَسْافِحَاتٍ ولا مَتْخِذَاتٌ أَحْدَانٍ، بعد أن ذكر الله
تبارك وتعالى الشرط الأول من شروط جواز نكاح الأمة المؤمنة وهو العجز عن
نكاح المرأة المسلمة، ذكر هنا بقية الشروط التي تبيّن نكاح الأمة المؤمنة وهي
أن يكون الزواج بإذن سيدها وأن يعطيها الزوج مهرًا بالمعروف، وأن تكون
الأمة معرفة بالعفاف وحسن السيرة والسلوك، ففي قوله تبارك وتعالى:
فأَتَّكَحَوْنَ عِيْدًا عَلَى أَهْلِهِنَّ بِيَاهْنَا عَلَى أن السيد هو ولي أمره، لا تزوج إلا
بإذنه، وكذلك هو ولي عبده فليس للعبد أن يتزوج بغير إذن سيدته، وقد
أجمع على ذلك علماء الإسلام، وقد روى أحمد وأبو داوود والترمذي وقال:
حديث حسن عن جابر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: أيًا عبد تزوج
بغير إذن سيدة فهو عاهر، وقد أخرجه أيضا ابن حبان والحاكم وصححه.
و إذا كان مالك الأمة امرأة فإن يزوج الأمة من يزوج سيدتها بإذنها وقد روى
ابن ماجه والدارقطني من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ
لا ترتجِّي المرأة المرأة، ولا ترتجِّي المرأة نفسها. قال الحافظ ابن حجر في بلوغ المرام: ورحالة ثقات، وقوله تبارك وتعالى: (وانهو أجورك في بالغ الصوموف) قال ابن كثير رحمه الله: أي وادفعوا مهرهن بالمعروف أي عن طيب نفس منكم، ولا تبخصموا شيئاً استهانته بين لكهن إنه إمام مملوكات ايه. وقوله عز وجل: (خصائصات غير متزوجات ولا متزوجات أخذات) تأكيد على وجب الحرص على أن تكون الأمة التي يرغب الحر في الزواج منها معروفة بالعفاف وحسن السيرة والسلوك وقد لوحظ أن الله تبارك وتعالى قال في شأن الزواج من الخريج المسلمين: (خصوصين غير متزوجين) وقال في شأن تزوج الحر المسلم من الأمة المسلمة: (خصوصات غير متزوجات ولا متزوجات أخذات) وهذا يشعر بأن وقع الزنا من الخروج المسلمة أمر يكاد يكون نادراً، ولذلك قالت هند رضي الله عنها لما بابت رسول الله ﷺ، وقال في البيعة: (وليزنين) قالت: أي تزوجي الحرة؟ أما الإمام فكان العفاف فيهن قليلاً لأنه لا يتجزأ، وخرج الأمة إلى كل موضوع يرسلها أهلها إليه وهي متبلطة وقد تتعجز عن الامتثال، وقد كان بعض أهل الجاهلية يقدُّمُ مأته لضيوفه على أنه نوع تكريم عندهم، حتى ولو كرهت الأمة ذلك كما قال عز وجل: (ولا تُكرهوا فتى لكم على اليتامى إن أردتم تخصيصاً لتبتغوا عرضاً الحياة الدنيا) وكان آخر من فعل ذلك عبد الله بن أبي سفيان رأس المناقين لعنه الله. وكانت بعض الإمام تعلن ذلك وتبذل روابي تنصيبها عند دارها ولا تمنع أحداً من نفسها، كما كان بعض الإمام يتخذذن الأخذان فلا يبيع نفسه إلا لصديق واحد سراً، ولا تجهز بذلك، ولذلك أفرد الله تبارك وتعالى كل واحد من هذين القسمين بالذكر، ونص على تعريهما معاً، وأن من كانت من الإمام على أحد هذين الوصفين لا يجوز للحر المسلم أن يتزوجها، حيث قال عز وجل هنا: (خصوصات غير متزوجات ولا متزوجات أخذات)
فالمراد بالمحصنات هنا العفانف وقد أكَّد ذلك بقوله عز وجل: "غير مسافحات" أي غير زانيات جهراً، ومنعى: "ولا مَتَّخَذَاتْ أَخَدَان" أي أخلاء يزنون بين سراً، والأحدان جميع خذين، وهو الصاحب والصديق على الفاحشة، ويقال له أيضاً: مدىن، وقد أشار الله تبارك وتعالى إلى هذين القسمين أيضاً عندما أباح للمسلم أن يتزوج كتابة حيث يقول في سورة المائدة: "والمحصنات من الذين أتوها الكتاب من قبلكم إذا أتينوها أجرهن محصنين غير مسافحين ولا متخذي أخدان". وقوله تبارك وتعالى: "إِفَّإِذَا أَحْصَنَ فَإِنْ أَتَّبَعَ بِفِاحِشَة فَعِلَّهِنَّ نَصِيفْ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِن العذاب". بعد أن بين الله تبارك وتعالى حقوق المحصنات المؤمنات، بين هنا ما يجب في حق الأمة إذا ارتكبت فاحشة الزنا بعد إحصائها، وقد قرأ حمة والكسائي وأبو بكر عن عاصم "أَحْصَنَ بِفِتاحَة الْهَمْزَة وَصَادَ وَقَرَأ الْبَاقُونَ أَحْصَنَ " بضم الهمزة وكسر الصاد، وفسرت "أَحْصَنَ" بمعنى: أسلم، وفسرت "أَحْصَنَ بِعَفْو" بمعنى: تزوجن. وقد ذهب غير واحد من أئمة أهل العلم إلى أن التنصيص على جعل حد الأمة إذا أُحْصِنت على النصف من حد الحراء، للدلالة على أن تنصيص الحد على غير المحصنة من باب أولى، وقد أورد البخاري من حديث أبي هريرة وزيد بن خالد رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ سأل عن الأمة إذا زنت ولم تحصى قال: إذا زنت فاغلدوها ثم إن زنت فاجلدوها ثم إن زنت فاجلدوها ثم يطبعها ولو بضفيرة. وأخرجه المسلم من حديث أبي هريرة، وهذه الآية صريحة في أن حد الأمة بعد الإحصان هو نصف عذاب الجزاء، والذي ينقص من عذاب الجزاء هو الجلد لا الرجم فتكون هذه الآية قد أثبتت حد الأمة الزانية بعد الإحصان، وأيكون حديث الشيخين قد أثبت حد الأمة الزانية قبل الإحصان، وهو عن حيد الأمة
المحصنة. وقوله تعالى: "ذَلِكَ ۛ مِنْ خَيْرِ أَعْنَاتِكُمْ، وَأَنْ تَصَبَّرُوا خَيْرًا لَكُمْ، وَلَهُدْنَا رَحْمَتَنَا لِلرَّحْمَانَ" أي إن نكاح الحمر المسلمين لألماهة كما يشترط فيه.  
ألا يكون الراغب في الزواج قادراً على التزويج من الخبرة المؤمنة كذلك يشترط فيه أن يخشى على نفسه العنت أي الوقوع في الزنا، وأصل العنت هو الضرر الشديد الشاق، والمقصود به هنا الشباق الشديد والظلمة العظيمة التي قد تؤدي بالبشر إذا لم يثنِّس لها إلى الأعراض الشديدة فربما خذل ذلك على الزنا فيعترض نفسه للعذاب الشديد، ومعنى: "آوَّنْ تَصَبَّرْوا خَيْرًا لَكُمْ" أي وصبركم على بقائكم عزراً مع صبركم أنفسكم عن الوقوع في الحرام. خير لكم من نكاح الأمة، لأنه يفضي إلى استرقاء أولادكم، والتدوين بقوله: "وَلَهُدْنَا رَحْمَتَنَا لِإِسْتِجْبارِهِمْ" لإشعار من فضل نكاح الأمة مع ما فيه من خشية استرقاء الولد بأنه أهل لمغفرة الله ورحمته مادام قصده إعفاف نفسه.
قال تعالى: "يريد الله لعبين لكم وينهيكم عن الدين من قبلكم ويُثوب عليكم، والله عليكم حكيم. ويريد أن يُثوب عليكم ويريد الذين يطيعون الشعوذة أن يعثروا ميتاً عظيماً. يريد الله أن يخفف عنكم، وخلق الإنسان صَيِّبًا. بالذين آمنوا لا تأكلوا آمناكتم صَيِّبكم بالباطل إلا أن تكون فجارة على ترضي منكم، وَلا تقتلاوا أنفسكم، إن الله كان يُكم رحيمًا وَمن يفعل ذلك عدوانًا وظليباً فَسُوؤف نصرله ناراً. وكان ذلك على الله مرسلاً." 

بعد أن ذكر الله تبارك تعلال في الآية السابقة في خاتمة تشريع جواز أن ينكح الحر المسلم الأمة المسلمة أنه شرع هذا إلى خسَّى العنت منكم ما يفيد أنه عز وجل يحب رفع العتبة والحرج والمشقة عن المسلمين حيث بعث رسوله محمدًا ﷺ بالحنونية السماحة وبالدين البالغ كما قال عز وجل: "هو اجتياك وما جعل عليكم في الدين من جرح؟" وكما قال عز وجل: "يريد الله بكم البالغ ولا يريد بكم العصر" شرع هنا يقرر هذه الحقيقة ومؤكدها بجملة تأكيدات لتكون مسألة دائرةً أمام عقول المسلمين ليشكروا نعمة الله عليهم وليجنبا التنطع في الدين الذي أُنذَك من كان قبلهم حيث شدّدوا فشدّد علىهم، وهذه الآيات السبعة التي سبقت بين ما سبقها من الآيات التي تقرر حقوق النساء وما يليها مما يتعلق بالنساء أيضاً للفت الانتباه إلى معرفة نعم الله على عباده، وشكوه على جميع ما يسره لنا وسلّمه علينا إحساناً منه وجوداً وكرماً وفضلاً، والتحذير من خلافة أمره وارتفاعه معاصيه، والأخير من دعاء الضلالاء الذين يريدون صرف المسلمين عن دينهم، واجتناب أكل أموال الناس بالباطل، وقتل النفس، والبُعد عن كبار السفيان، ولا شك أن تربية النفس الإنسانية على هذا السلوك السوي مما يمكتُبها من إدراك تيسير شرع الله، الساعي إلى تحريم الاعتداء على الأموال.

247
يتوب عليكم إذ رسم لكم المنهج الذي يولسلكم إلى مرضاة الله، ويستهيل عليكم الابتعاد عن المعاصي والمحارم، والله عز وجل ذو علم بما يفضل عباده في معاشهم ومعادهم، حكم في شره وقرده وأقواه وأفعاله، ومنعني قوله عز وجل: "وَلله يُرِيد أَن يَتَوبَ عَليْكُم وَيُرِيد الْأَلَّهُ الْمُهْيُونَ السَّهْوَات"، أن تقبلوا مبلاً عظيماً أي والله عز وجل يحب أن تستقيموا على شره، فيرضى عنكم ويتجاوز لكم عن هفواتكم، ويحب عبادة الهوى المنغمسة في الشهوات المحرمة، المنحرفون عن منهج الهدابة والرشد أن تنحرفوا انحرافاً كبيراً لتكونوا مثلهم كما قال عز وجل: "وَدُوَّاراً لَا يَكْفُرُونَ كَذَٰلِكَ فَكُونِونَ سَوَاءً دُوَّارًا"، كما قال عز وجل عن إبليس لعنه الله: "إِن الشيطان لَكُم عِدَّةٌ فاتِيْذَوُوهُ عَذَابًا، إِنَّا يَذَّعُّوهُ جَزَاءٍ ليكونوا من أصحاب السعارة"، وقوله تبارك وتعالى: "يُرِيدُ الله أَن يُفْتَحَ عَنْكُمْ أَيَّ يَبِعِ الله تبارك وتعالى التخفيف على أمة محمد ﷺ، ولذلك رفع عنهم الإصر والأغلال التي كانت على من قبلهم، وجعل عز وجل التخفيف على المسلمين من القواعد الشرعية الأساسية التي تبني عليها الأحكام الشرعية، ولذلك جعل الصلاة الرباعية للمسافر ركعتين، وأجاز من كان على جناح السفر أن يجمع بين الظهر والعصر، وبين المغرب والعشاء، وجعل التيم بالصعيد الظهار لم لا يقدر على استعمال الماء في الوضوء أو الغسل، وأجاز للمريض أن يصل قاعداً أو على جنب، وقال عز وجل: "حَافِظْوا عَلَى الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا الله قانتين". فإن خفتم فرجالاً أو ركاباً وقال عز وجل: "وإذا كنت فيهم فأقمتم لهم الصلاة فلتقتتم طائفة منهم معك ولتأخذوا أسلحتهم فإذا سجدوا فليكرونوا من وراكم ولثات طائفة أخرى لم يُصَلُّوا فليصلى معكم ولتأخذوا جنرهم وأسلحتهم"، وأباح الغنائم لأمة محمد ﷺ ولم يباحها لأحد قبلهم، وخفف فربضة الصلاة على المسلمين فجعلها خمساً بسَٰل خمسين
وقال رسول الله ﷺ في حديث الإسراء والمغارة: فلما جازوت نادئ متأذ: أفضلت فضيتي، وحققت عن عبادي كأ جاء في لفظ البخاري. ومن أقرب صور التخفيف لهذه الآية في كتاب الله عز وجل أنه أباح للمسلم العاجز عن الزواج من الحرة المسلمة أن يتزوج أمة عفيفة مسلمة حيث قال قبل هذا المقام مباشرة في كتاب الله عز وجل: ﴿وَمَنْ لَا يَسْتَطِيعُ مَنْ كَفَّارَةً أَنْ يَنْكُحَ الْمُحْصَنَاتُ الْمُؤْمِنَاتُ فَمَنْ كَفَّارَةُ أَيْنَ كَفَّارَةُ مِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتُ؟﴾ الآية. وقاله عز وجل: ﴿وَخَلَقَ الإنسانَ ضَعِيفًا﴾ أي أناشأ الله عز وجل الإنسان على جبلية يُستَمِيلَهُ الْحَوْرَى والشهوة، وَتَسْتَثْبِطُهُ الخُفْوُ والحزن، وتؤله الشوكة إذا شاكمه، ولا ينتقلك نفسة أمام المغريبات إلا من عصمه الله عز وجل فاعتصم بحبه الله، واستمك بالعروة الوثقى، وقد روى مسلم في صحيحه من طريق حاج بن سلمة عن ثابت عن أن رسول الله ﷺ قال: ﴿لَا صَوْرٌ للهَا الْمُجَفْرَةَ فِي الْجَنَّةِ ترَكَهَا مَا شاءَ اللهُ أَنْ يُرْكِزَ، فَجَعَلَ إِبْلِيسُ يُطِيفُ بِهَا، يَتَقَلَّبُ مَا هُوَ فَلَيْنا أَجْوَفُ عَرَفَ أَنَّهُ خَلَقَهَا لَا يُتَقَلَّبُّ.﴾ قال النووي في شرح مسلم: الأجوف صاحب الجثوف وقيل: هو الذي دخله خالد، ومعنى لا يتبجي: لا يملك نفسه ويقبسه عن الشهوات. وقيل: لا يملك دفع الوسواس عنه، وقال: لا يملك نفسه عند الغضب، والمراد: جنس بني آدم اه. وقال أحمد بن حنبل رحمه الله: حدثنا عبد الصمد ثنا حاذر عن ثابت عن أن رسول الله ﷺ قال: ﴿لَا صَوْرٌ للهَا الْمُجَفْرَةَ فِي الْجَنَّةِ ترَكَهَا مَا شاءَ اللهُ أَنْ يُرْكِزَ، فَجَعَلَ إِبْلِيسُ يُطِيفُ بِهَا يَتَقَلَّبُ مَا هُوَ فَلَيْنا أَجْوَفُ عَرَفَ أَنَّهُ خَلَقَهَا لَا يُتَقَلَّبُّ.﴾ وقاله تبادل وتعال: ﴿فَأَيَامُكُمْ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَكُونُوا أَمْوَالَكُمْ يَنْكُحُوهَا الْبَاطِلُ إِلَّا أَنْ تَكُونُ تِجَارَةً عَنْ تَرَايْضٍ مِنْ نَفْسِهِمْ﴾ أي ياعمَّرُ المستقبلين لله ورسوله ﷺ لا تستجلبوا أموال الناس بالباطل وتأكلوها غير حق، وتستولوا عليها بطرق غير مشروعة كالسيما والقصب والغصب والرشوة وسائر
المكاسب التي نعتها شريعة الإسلام، وقد وسع الله عز وجل عليكم حيث أباح لكم الحصول على الأموال بطريقة التجارة وِبِبَاذِل السَّلَعَة التي تحصل لكم وتتم بين المعاقدين عن تراض وطيب نفس منها في إطار ما رسمته الشريعة الإسلامية لكم، فلو حصل التراضي بين المعاقدين على صفقة مرحة كالرحا ونحوه فإن هذا العقد باطل، وإضافة الأموال للمخاطبين بقوله عز وجل: «لا تأكلوا أموالكم» أي عم التحريم أكل مال نفسه بالباطل كذله في الماضي، كما يعم التحريم أكل مال غيره بالباطل، وقد تقدم أكثر من مرة أن التنصيص على تحريم الأكل بغير حق لا يبيح أخذ أموال الناس بغير حق لغير الأكل، إذ أن تخصيص الأكل بالذكر لأنه هو المقصود الغالب من الاستياء على الأموال، وقوله عز وجل: «لا تقتلوا أنفسكم» أي ولا يقتل بعضكم بعضًا، وقوله تبارك وتعالى: «إن الله كان بكم رحيمًا» قال ابن جرير رحمه الله: وأما قوله جل ثناؤه: «إن الله كان بكم رحيمًا» فإنه يعني: إن الله تبارك وتعالى لم يزل رحيمًا بخلقه، ومن رحمته بكم كف ببعضكم عن قتل بعض أيها المؤمنون بتحريم دماء بعضكم على بعض إلا بحقها، وحظِّر أكل مال بعضكم على بعض بالباطل، إلا عن تجارة يملك بها عليه برضا وطيب نفسه، لولا ذلك هلكنهم وأهلَّك بعضكم بعضًا قتلاً وصلًا وغضبًا اه. وقوله تبارك وتعالى: «وَمَا يَفْلِحُ ذُلِّكَ عَدْوَاهُ وَظَلَّلَ أَفْسَدَ الْقُسُولِ نَارًا، وَكَانَ ذُلِّكَ عَلَى الْهَيَبَةِ» أي ومن يقع في جريمة من هاتين الجرائمتين العظيمتين وهي أكل الأموال بالباطل أو قتل النفس مُتنَبِّهَا حرمات الله، متاجسًا على حدوده فسوف نوردنه نارًا، يُضِلُ بها فَيَخْتَرِقُ فيها، وكان إضلاعه هذا المجرم النار وإحراقه سهلاً على الله يسيرا؛ لأنه لا يعجز عن شيء ولا يفوتة شيء، لأنه إذا أراد أمنا إذا يقول له كن فيكون، وجميع خلقه في قبضته يفعل بهم ما يشاء ويعكم فيهم بما يريد لا رادًا لقضاءه

٢٥٠
ولا معقب لحكمه. وقد تقدم أن نُصْوَصَ الوعيد إن وردت في حق من يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمد رسول الله فهي تحت مشيئة الله عز وجل، إن شاء عذَّب وإن شاء عفَّا لقوله تبارك وتعالى: "إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك من يشاء" في آيتين من كتاب الله عز وجل في هذه السورة المباركة.
قال تعالى: «إن تجتيبوا كبائر ما تنهون عنهم تكفر عنكم سيناستكم ويدخلكم مدخلا كريبا».

بعد أن حذر الله تبارك وتعالى من ارتكاب بعض الكبائر كأكل أموال اليتامى ظلا، وانتهاك حدود الله وفرضه التي حدّها وفرضها في المواريث للمرجع والنسلاء، وارتكاب الفاحشة، وتعدي الزوجة على الزوجة بأخذ مهراً أو بعضه ظلًا عند طلاقها، وتزوج الأبناء بزوجة الأب، ثم أكل الأموال بالباطل، وقتل النفس يعني بيغري حق، وقادّم في الآية السابقة الوعيد الشديد في إجراء ذلك عدواناً وظياً ترهباً، ووعيد تبارك وتعالى في هذه الآية الكريمة من أن يجتيب الكبائر بأن الله عز وجل يغفر له ما دونها من السيئات ويذلّه الجهنة ترغيباً، على طريقة الأسلوب القرآني العظيم في الترغيب والترهيب، الذي يسلك بالنفس الإنسانية الرشيدة صراط الله المستقيم، ومعنى قوله عز وجل: «إن تجتيبوا كبائر ما تنهون عنهم تكفر عنكم سيناستكم ويدخلكم مدخلا كريبا» أي إن تبتعدوا عن كبائر الإثم والفواحش، وتقصّوا أنفسكم عن الاقتراب منها، فلا تتركون شيئاً منها، ولا تصيبوا شيئاً من فرائض الله التي فرضها عليك، وهاكم عن تضييعها، فكلكم وعذب من الله عز وجل بتكمير ما دون الكبائر من المعاصي واللمم، وإدخالكم جهنم النعيم. وقد ورد في القرآن العظيم ما يفيد أن الذنب تنقسم إلى كبار وصغار كيا في هذه الآية الكريمة، ونما قال عز وجل في سورة النجم: «الذين يجتيبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللهم» وقد أشار رسول الله صلى الله عليه وسلم في صحابه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «الصلوات الخمس، والجامعة إلى الجمعه ورمضان إلى رمضان مكَّرَّات ما يتَّبَهّن إذا اجتيبت الكبائر، وبهذا يتضح أن...»
ترك الكبائر واجتنابها يُكَثِّر الصغراء كما أن المحافظة على الصلاوات الخمس والجمعة وصيام رمضان مكَّرات للصغائر كذلك، وقد روى البخاري ومسلم من حديث ابن مسعود رضي الله عنه أن رجلاً أصاب من امرأة قُبلةُ فأتى رسول الله ﷺ، فذكر ذلك له، فأشارت عليه: «وَأَقِمُ الصَّلَاةَ طَرْقَيْ النهار وَرُكْفَيْنَ من الليل، إن الحسنات يُذْهَبُنِ السُّنَّاتِ»، ذكرها للذكرى:

قال الرجل: أَلَّى هَذِهِ بَيْنَ يَدَيْ مَثَلُهَا مَن أَمْتِيَ. وَفِي لفظ لَمْسُم من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن رجلاً أتى النبي ﷺ فذكر أنه أصاب من امرأة إما قبلةً، أو مَّسَّ بَيْنَيْهَا، أو شيتاً، كانه يَسَالُ عن كفَّارَته قال: فأنزل الله عز وجل: «وَأَقِمُ الصَّلَاةَ طَرْقَيْ النهار وَرُكْفَيْنَ من الليل، إن الحسنات يُذْهَبُنِ السُّنَّاتِ» ذكرها للذكرى.

قال الرجل: أَلَّى هَذِهِ بَيْنَ يَدَيْ مَثَلُهَا مَن أَمْتِيَ. وَفِي لفظ لَمْسُم من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: بارسول الله ﷺ إن خلعت امرأة في أقصى المدينة، وإني أصيبت منها ما دُونَ أن أمسِّها، فأتيتُ هذا، فاقضِ في ما شئت، فقال له عمر: لقد سأْرَكَ الله لو سرت نفسي، قال: فلم يَرْدَ النبي ﷺ شيئاً، فقال الرجل: فقام الرجل فانطلق، فاتبعه النبي ﷺ رجلاً دعاً، وتلا عليه هذه الآية: «وَأَقِمُ الصَّلَاةَ طَرْقَيْ النهار وَرُكْفَيْنَ من الليل، إن الحسنات يُذْهَبُنِ السُّنَّاتِ»، ذكرها للذكرى.

قال الرجل: أَلَّى هَذِهِ بَيْنَ يَدَيْ مَثَلُهَا مَن أَمْتِيَ. وَفِي لفظ لَمْسُم من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: بارسول الله ﷺ إن خلعت امرأة في أقصى المدينة، وإني أصيبت منها ما دُونَ أن أمسِّها، فأتيتُ هذا، فاقضِ في ما شئت، فقال له عمر: لقد سأْرَكَ الله لو سرت نفسي، قال: فلم يَرْدَ النبي ﷺ شيئاً، فقال الرجل: فقام الرجل فانطلق، فاتبعه النبي ﷺ رجلاً دعاً، وتلا عليه هذه الآية: «وَأَقِمُ الصَّلَاةَ طَرْقَيْ النهار وَرُكْفَيْنَ من الليل، إن الحسنات يُذْهَبُنِ السُّنَّاتِ»، ذكرها للذكرى.


من أكبر الكبار أن يلعب الرجل والده، قالوا: وكيف يلعب الرجل والده؟ قال: يسب الرجل أبا الرجل فيسب أباه، ويسب أمه تسب أمه أه. ومن الكبار اليوم من روح الله، والقينووس من رحة الله، والأنام من مكر الله، وسوء الظن بالله، وإلى ذلك يشير قوله عز وجل: "إنه لا يثغث من روح الله إلا القوم الكفارون" وقوله عز وجل: "ومن يقتضى من رحمة ربه إلا الضالون" وقوله عز وجل: "أقسموا مكر الله فلا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون" وقوله تعالى: "ولكن ظنت أن الله لا يعلم كثيرا مما تعملون. وذالك ظنكم الذي ظنتم بركم أرذاك فاصبحكم من الخاسرين" ومن الكبار الزنا وعمل قوم لوث وشرب الحرمر ومخدرات وأكل لمخزى، والسورة والغيثية والنيمة والحسد والغش، والاعتداء على الأحياء البيت الحرام، وقتل المسلمين بغير حق، وأن يقول الإنسان لأخيه المسلم ياملعون أو ياكافر، أو ياعدو الله، وإيده المؤمنين والمؤمنت بغير ما اكتسبوا، وإلي ذلك يشير قوله عز وجل: "والذين يؤدون المؤمنين والمؤمنت بغير ما اكتسبوا فقد احتفلوا بهتانا وإيا مبينا" كما روى البخاري ومسلم من حديث ابن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: "سبب المسلم فسقوق"، وقنال كفر. كما روى البخاري من حديث أبي ذر رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: "لا يزومي رجل بالفسط أو الكفر إلا ارتدت عليه إن لم يكن صاحبه كذلك. كما روى البخاري ومسلم من حديث أبي زيد الأنصاري رضي الله عنه وهو من أهل بيعة الرضوان أن رسول الله ﷺ قال: "من حلف على بيعتهم بالله كاذباً متعمداً فهو كذا قال، ومن قتل نفسه بشيء غذب به يوم القيامة، وليس على رجل نذر فيها لا يملكه، ولعن المؤمن كفإله. كما روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: "من قاتل عمرو بالزنا يقام عليه الحد يوم القيامة إلا..."
أن يكون كنا قال. كما روى مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: أئثان في الناس هُمَا بِهِمُ كَفُرُّ: الْطَّعَنُ في النسب والنياحة على الميت. كما روى مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: مَنْ حَمَّلَ عَلَيْنا السَّلَاحَ فَلِيُسْنَا، وَمَنْ غَشَّنَا فَلِيُسْنَا. كما روى البخاري ومسلم من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: لكل غادر لواء يوم القيامة، يقال: هذه غُدِّرَةُ فلان. كما روى البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ثلاثّة أَيْنَما خُضُعُوهُمْ يوم القيامة: رجل أَعْطَى بي ثَمَّ غَدَرَ، ورجل باع حُرَّ فَأَكَلَهُ، ورجل استأجر أَجْرًا فَأَسَافِرَ منْهُ فَإِجْرُهُ. كما روى مسلم من حديث أبي ذر رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ثلاثّة لا يكلمه الله يوم القيامة، ولا ينظر إليهم ولا يزكيهم، وهم عذاب أليم. قال: فقَرَآهَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ ﻣَنْ مَزَادٍ، قال أبو ذر: خابوا، وَخَانُوا، مَنْ هُمْ يَأْسِرُونَ؟ ﷺ قال: المُسْتَلِّغُ، والمُتَنَّ، والمُتْنِقُ سِلَّمَتْهُ بِالْخَيْفِ الكاذِب. وقد ثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: لَعَنَ اللهَ الْواصة وَالْمَتَوَسَلَة، وأنه قال: لَعَنَ اللهَ مَنْ غَيَّرَ مَسَارِ الأرض، وأنه قال: لَعَنَ اللهَ مَنْ دَيْنُ لَعَفَّ يَعْقِلُ لَعْفَةً لَّهُ. وأنه ﷺ قال عن المدينة: مَنْ أَحْدَثَ فِيهَا حَدْثًا أَوْ أَوْيَ مَعْذَبًا فَعَلَّهَا لِعْنَةً اللهِ وَالملائِكَةِ وَالناسِ أَجَعِينَ. لِيُعِيرَ ذَاكَ ذُلِّيَاءَ وَالذُّلِّياءَ. ﷺ لَمْ أَقْلِمْهُمُ أَنْ يَقُولُ: إِذَا كَانَ اجْتَنَبُ الكبائر يكفر الصغائر أَلَا يَكُونُ في ذلك إِغرَاءً بِارتكاب الصغائر وأنها تصف كِلَّالبَاحَ؟! لَنَا نقول: إن استحلال الصغيرة أو الإصرار عليها يجعلها كبيرة من الكبائر، وقوله تبارك وتعالى: وَنَدخِلُكُمْ مِّدْخَالًا كَرِيَا، أي وندخلكم الجنة إدخالًا كِرِيَاً طِيَباً، حيث يُجَرِّب الله المتقين إلى الرحمن وفدا تستقبلهم الملائكة مهنيين مُسْلِمِين يقُولُونُ لَهُمْ: سَلامٌ عَلِيْكُمْ، إِنْ ادْخُلُوا الْجَنَّةَ بِهَا كَنْتُمْ تَحْمَلُونَ. وقَلُوهُنَّ ٢٠٦
هم: ادخلوا الجنة أنتم وأزواجكم تَخْيِّرُون، ويقولون لهم: ادخلوها بسلام آمنين. كَانَ يَا عِنْز وَجِلّ: «يَوْمَ نَحْشَرُ اللَّدِينِ إِلَى الْرَّحْمَنِ وَفِي مَآوِيَةٍ» وَكَانَ يَا عِنْز وَجِلّ فِي حَشْرِ أُعْدَائِهِ إِلَى النَّارِ: «وَنِحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِلْيَ وَجُهَّاهُمْ عَمَّا وَبَكَّاهُ وَصَبْرًا مَّأَوِيَّهُمْ جَهَنَّمْ كِلَّمَا خَبَثَ زِدْنَا هُمْ سَعِيًا» قَالَ ابْنُ جَرِيرِ رَحْمَةَ اللَّهِ: وأَمَّا الْمُدْخَلُ الْكَرِيمِ فَهُوَ الطَّيِبُ الْحَسَنُ الْمُكَرَّمُ بَنَفِي الْآفَاتِ وَالْعَاهَاتِ عَنْهُ، وَبَارِفُهُ الْهُمْوَةَ وَالأَحْزَانِ وَدَخَلَ الْكَذِرُ فَعَسَى أَنْ يَدَخُّلَ، فَذَلِكَ سُيَاءِ اللَّهِ مُدْخَلًا كَرِيًا إِهَـ
قال تعالى: ﴿ولا تتمَّنَا ما فَضَّلَ اللهُ يَبِهِ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ لِّلرَّجَالِ نَصِيبٌ مَا اكْتَسبَوْا وَلِلسَّمَاءِ نَصِيبٌ مَا اكْتَسبَنَّ، وَاسَأَلُوا اللهَ مِن فَضْلِهِ، إِنَّ اللهَ كَانَ يَكُلُّ شَيْءًا عَلَيْهِ﴾.

بعد أن تَنَى الله عز وجل المؤمنين عن أن يأكلوا أموالهم بينهم بالباطل، وحرصهم عليهم قتل أنفسهم، وتوعد من فعل ذلك عدوا وظلاً بأنه سوف يصلح لازورا، وبشر المؤمنين بأن اجتناب الكبائر يكفر الله به الصغائر، حذرت هنا من داء وليل كان سبباً لأول ذنب عظيم الله عز وجل به وهذا الدواء العظيم، والمرض النفاك هو الحسد الذي حمل إبراهيم لعنقه الله على التكبير والتمتع عن السجود لأدم، كما كان سبباً لأول قتل نفس وقع على الأرض حيث قتل أحد ابنه آدم أخاه، إذ قرَّبا قربانًا فتُبَيَّن أن أحدهما لم يتبَيَّن من الآخر، قتَّل الذي لم يُبَيَّن قربانه أخاه الذي تَبَيَّن قربانه حسنًا له، وفي هذا التحذير هنا يقول الله عز وجل: ﴿ولا تتمَّنَا ما فَضَّلَ اللهُ يَبِهِ بَعْضُكُمْ عَلَى بَعْضٍ﴾ أي لا تنشئوا ما فضل الله به بعضكم على بعض، وارضوا بما قسم الله عز وجل لكم من رزق، وأيقنوا أن الله هو الرزاق ذو القوة المثني، ولن تموت نفس حتى تستكمل رزقها الذي قضى الله عز وجل لها، ولا تنظروا إلى من هو فوقكم في الرزق، وانتظروا إلى من هو دونكم حتى تعرفوا نعمة الله عليهم، ولا تفَرُّدُوا فقتاعبوا بدء الحسد الذي يأكل الحسنات كي تأكل النار الحطب، ولعلم أن تَمَيِّز الإنسان ما منحه الله لغيره ينقسم إلى قسمين: قسم مذموم وقسم ممدوح، فالذموم هو أن يتميّز الإنسان زوال النعمة عن غيره وانتقاها إليه سواء كانت نعمة دينية أو دينية، وهذا هو الحسد الذي ذمته الله عز وجل في غير موضع من كتابه الكريم حيث يقول عز وجل: ﴿أَم يَحِسَّدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا أَتَاهُمُ اللهُ مِن فَضْلِهِ﴾ وأشار إلى شيء وضereço حيث

258
يقول: «قل أعوذ برب الفلك. من شر ما خلق. ومن شر غاسبٍ إذا وقب.»

ومن شر النفئات في العقد. ومن شر حاسد إذا حسد. كأ حذر منه رسول الله ﷺ. فقد روى البخاري ومسلم من حديث أنبى رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: لا تبغيوا، ولا تحاشدوا، ولا تضايقوا، ولا تطاعنوا، وكونوا عباد الله إخوانا، لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث. كما روى أبو داود من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: إياكم والحسد، فإن الحسد يأكل الحسنات كما تأكل النار الحطب. أو قال: العشب، وتمنى زوال النعمَة عن الغير هو المقصود بالنهي هُنا في قوله تعالى: «ولا تَنْصُرُوا مَنْ أَفْسَدَ عَلَىٰ نَفْسِهُ»، أما الاسم الثاني من تمنى الإنسان ما منحه الله لغيره فهو البغيطة وهو مدوّن وقد يطلق عليه اسم الحسد تجوزًا وتوسعاً، وهو أن يتمى مثل النعمة التي أنعم الله بها على الغير دون زواهها عن صاحبها، ويكون هذا من باع التنافس في أعمال الخير والبر، وقد أرشد رسول الله ﷺ إلى أنه لا ينبغي لأحد أن يغبط أحدًا على نعمة أنعم الله عز وجل عليه بها ويتمى مثلها لنفسه دون زواهها عن صاحبها إلا في خصائصئين، الأول: أن يرى إنسانًا قد منحه الله مالًا وسلطة على إنفاقه في الحق فهو ينتمى أن يكون مثله، والثانية أن يرى إنسانًا قد منحه الله علّاً فهو يقوم به آناء الليل والنهر عملاً وتعليماً. فهو ينتمي أن يكون مثله، فقد روى البخاري ومسلم من حديث ابن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: لا حسد إلا في اثنين: رجل أناه الله مالًا قسلطة على ملكته في الحق، ورجل أناه الله حكمة فهو يقضي بها وتعليمها. والمراد بقوله: لا حسد أي لا غبطة، كأ روى البخاري ومسلم من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنها عن النبي ﷺ قال: لا حسد إلا في اثنين: رجل أناه الله القرآن فهو يقوم به آناء الليل وآناء النهار، ورجل أناه مالًا فهو يفقه آناء الليل وآناء النهار، كأ روى الترمذي

٢٠٩
وقال: حديث حسن صحيح عن أبي كبيسة عمرو بن سعد الأنباري رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: "ثلاثةٌ أقومُ عليهم، وأخذتُهم حديثاً فاحفظوه: ما نقش مالكُ عبد من صدقة، ولا ظلَّ ﷺ ﺩُمَّةً ﺴَبَرُ عليها إلا زادة الله عزراً، ولا فتح بُنَيَّةٌ مَسَاءَةً إلا فتح الله عليه باب فقره، أو كلمة نحوى، وأخذتُهم حديثاً فاحفظوه، قال: إن الدنيا لأربعة نقر: ﷺ رزقه مالاً وعلياً فهو يتقى فيه ربه، ويصل فيه زوجته، ويعلمُ الله فيه حقاً، فإذا بأفضل المنازل، وعبد ﷺ رزقه الله علناً ولم يرزقه ﷺ مالاً، فهو صداق النيه يقول: لو أن لي مالاً لعملتهُ بعمل فلان فهو ينتمي، فأجراها سواءاً، وعبد ﷺ رزقه الله مالاً ولم يرزقه علناً فهو ينتمي في ماله بيغفر علم، لا يتقى فيه ربه، ولا يصل فيه ربه، ولا يعلم الله فيه حقاً، فإذا بأحب المنازل، وعبد ﷺ لم يرزقه الله مالاً ولا علناً فهو يقول: لو أن لي مالاً لعملتهُ فيعمل فلان، فهو ينتمي فوق زهم سواءً، وقد قال الفاخر الرازي رحمه الله في تفسير هذه الآية: أعلم أن مراتب السعادات إما نفسانية، أو بدنية، أو خارجية، أما السعادات النفسية فمثلاً: أجمعها ما يتعلق بالقوة النظرية، وهو الذكاء التام والحدس الكامل والمعارف الزائدة على معرف الغير بالكمية والكيفية، وثانيها: ما يتعلق بالقوة العملية، وهي اليفة التي هي وسط بين الحمود والفجور، والشجاعة التي هي وسط بين التهور والجبان، واستعمال الحكمة العملية الذي هو وسط بين البله والجزيرة، ومجموع هذه الأحوال هو العدالة، وأما السعادات البدينية فضلاً الصحة والجمال والعمر الطويل في ذلك مع اللهجة والبهجة، وأما السعادات الخارجية فهي كثرة الأولاد الصباحاء، وكثرة العشائر، وكثرة الأصدقاء والأعوان، والسياسة التامة، وتفاؤل القول، وكونه محبوبًا للخلق حسن الذكر فيهم، مطيع الأمر فيهم، فهذا هو الإشارة إلى مجامع السعادات، وبعضها فطرية لا سبيل للكسب فيه، وبعضها كشيئاً
وهذا الذي يكون كسباً متي تأمل العاقل فيه يجده أيضاً عضلاً عطاء الله، فإنه لا ترجيح للدواعي وإزالة العوائق وتحسين الموجبات، وإلا فتكون سبب السعي والجد مشتركاً فيه، ويكون الفوز بالسعادة والوصول إلى المطلوب غير مشترك فيه، فهذا هو أقسام السعادات التي يفضل الله بعضهم على بعض فيها، ثم قال الفاخر الرازي رحمه الله: إن الإنسان إذا شاهد أنواع الفضائل حاصلة للإنسان، ووجه نفسه خالياً عن جملتها أو عن أكثرها، فحينئذ يتأمل قلبه ويشعشخ شعره، ثم يعرض هكذا حالتنا: إحداهما: أن يتمى زوال تلك السعادات عن ذلك الإنسان، والأخرى: أن لا يتمى ذلك، بل يتمى حصول مثلها له، أما الأول فهو الحسد المذموم، لأن المقصود الأول لمَّتَّبِع العالم وَخَالِقه الإنسان إلى عَيْبَه، وَجَلِودِهِ، وإفادة أنواع الكرم عليهم، فهَّمَتُّ زوال ذلك فإنه اعتُرف على الله تعالى فيها هو المقصود بالقصص الأول من خلق العالم وإيجاد المكلفين، وأيضاً ربا اعتقده في نفسه أنه أحق بِنَتْعُم من ذلك الإنسان، ف يكون هذا اعتراضاً على الله وقَذْهَا في حكمته، وكل ذلك مما يلقيه في الكفر وظلال البذاعة، ويَرِيَل عن قلبه نُور الإيمان، وكما أن الحسد سبب للفساد في الدين، فكذلك هو السبب للفساد في الدنيا، فإنه يَقْطَع العبادة والمحبة والموالاة، ويَقْلِب كل ذلك إلى أضدادها، فلهذا السبب تبيِّن الله عبادته عنه فقال: ولا تنعموا ما فضل الله به بعضكم على بعض، وقوله تعالى: للرجلين يصيرما ما اكتسبوا وللمشاة يصيرما ما اكتسبوا أي للرجال حظ ونصيب وقسط من ثواب الله أو من عقابه على ما اكتسبوه وعملوه من أفعال الخير أو الشر، وللمشاة حظ ونصيب وقسط من ثواب الله أو من عقابه على ما اكتسبته وعمى، فنسبة من أفعال الخير أو الشر، كما قال عز وجل في خواتيم السورة، السورة السابقة: فاستجاب لهم ربهم أي لا أضيع عملاً عابياً منكم من ذكر أو

٢٦١
أثرب بغضكم من بعضك فعلي الرجال والنساء أن تسعوا إلى اكتساب الأعمال الصالحة، وليجنبا ارتكاب ما حرم الله، وليتحذروا الحسد فإنه يضرهم ولا ينفعهم، ولذلك قيل عن الحسد: ما أعدته بدأ يصاحبه فقتله، وكما قال الشاعر:

"اصبر على كيد الحسد،
فانتحر نأكل نفسها
فقد أرشد رسول الله ﷺ المسلمين إلى الطريق السوي الذي يجميح من أن يتحاسدوا، وهو أن ينظروا إلى من دونهم في الرزق فقد روى البخاري ومسلم واللفظ لمسلم من حدث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: انظروا إلى من هو أسفل منكم، ولا تنظروا إلى من هو فوقكم، فهو أسوأ أن لا تزدروا نعمة الله عليكم. وفي رواية للبخاري: إذا نظر أحدكم إلى من فضل عليه في المال والخلق فلا ينظر إلى من هو أسفل منه، كما أرشد الله عز وجل الرجال والنساء إذا رأوا فضل الله ونعمه على بعض عباده ألا يتمروا زواها عنه، وعليهم أن يسألوا الله من فضله حيث يقول عز وجل: "واسألوا الله من فضلته" إرشاد من الله تبارك وتعالى لعباده ألا يتعلق نفسهم بما في أبيدي الخلق، وأن يتوجهوا إلى الخالق العزيز الحكيم لبسطهم من فضلهم، ويمتحنهم من خواتمه التي لا تنفده، فلي الشيخو عز وجل وليضروحوا إليه وليطلبوا منه وليبحروا عليه في جميع ما يهب لهم الحياة الطيبة، ويقولوا: رنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقتنا عذاب النار، فهو سبحان يستجيب للذين آمنوا وعملوا الصالحات ويزيدهم من فضله، وقد روى الترمذي من حديث النهبان بن بشير رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: الدعاء هو العبادة، ثم قرأ: "وقال ربك ادعوني أستجيب لكم، إن الذين يستكبرون عن عبادي سيدخلون جهنم داخرين" ثم قال الترمذي: هذا

٢٦٣
قال تعالى: "وَلَكِنَّ جَعَلْنَا مَوَالِيْنِ مَمَأَّرًا تَرِكَ الْوَالِدَانِ وَالآَوْلِيَاءِ وَالَّذِينَ عَقِدَتْ أَيْنَاثُكُمُ فَأَتِوهُمْ نِصْبِيْهِمْ، إنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدًا. الرَّجَالُ قَوْمُونَ عَلَى النُّسَاءِ بِيَأْمَرَ اللهَ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِيَأْمَرَهُمْ فَأَنفُقُوا مِنْ أَمْوَاهُمْ فَأَلْصَالُّاتُ قَانُونَاتُ حَفَظَاتُ لِلْعَبْدِ بِيَأْمَرَ اللهَ وَالَّذِينَ تَعَافَوْنَ فَتَصَوَّرُوا فَمَعْطُوْنَ وَأَفْجُرُوْنَ فِي الْمَضَاحِجِ وَالأَمْرِ بِمَنْ أَطْعَنَـوْهُمْ فَلاَ بَعْقُوا عَلَيْهِنَّ سَيِّئًا، إنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْهِ كَبِيرًا".

بعد أن خُذِّلَ الله عزّ وجلّ المؤمنين والمؤمنات أن يَعْتَمَّوا ما فَضَّلَ الله به بعضهم على بعض، تُذَكِّرَ أَنْ لَهُم مِن دَاءِ الحَسَدِ السِّوْبِيَّ، وأُنُفِقُوا من عَلَمَ نَّسَاكَ، ثُمَّ هُمْ عَلَى النَّسَاءِ، وَأَنَفَقُوا عَلَى النَّسَاءِ فِي تَكْرُمِهِمْ وَبِسْبُوحٍ اِنْفِقُوا مِنْ أَمْوَاهُمْ. حَلَّ النَّسَاءِ بِقَاطِعٍ أَمَّا تَرِكَ الْوَالِدَانِ وَالآَوْلِيَاءِ وَالَّذِينَ عَقِدَتْ أَيْنَاثُكُمُ فَأَتِوهُمْ نِصْبِيْهِمْ، قالَ البَخَارِي رَحِمَهُ اللَّهُ فِي كَتَابِ التُّفْسِيرِ مِنْ صَحِيحِهِ، بَابُ قَولِهِ: "وَلَكِنَّ جَعَلْنَا مَوَالِيْنِ مَمَأَّرًا تَرِكَ الْوَالِدَانِ وَالآَوْلِيَاءِ،" وَالَّذِينَ عَقِدَتْ أَيْنَاثُكُمُ فَأَتِوهُمْ نِصْبِيْهِمْ، إنَّ اللَّهَ كانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مَّعْطُوْنَ وَأَفْجُرُوْنَ فِي الْمَضَاحِجِ وَأَمْرِ بِمَنْ أَطْعَنَـوْهُمْ فَلاَ بَعْقُوا عَلَيْهِنَّ سَيِّئًا. إنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْهِ كَبِيرًا".

264
على بعض وَبَايَا أنَّفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ إِشْعَارٌ بِسِبْبَةِ إِرَثِ الْرَجَالِ عَلَى النساءِ في غير الإخوة لأَمِ وَتَفْضِيلُ الْرَجَالِ عَلَى النَّسَاءِ حَيَةً كَانَتِ الْبَنَوَةُ مُخْتَصَةً بِالْرَجَالِ وَكَذَكُلُ الإِمَامَةِ الْعَظِيمَ ومناَصِبُ الْقَضَاءِ وإِلَهَةُ الصَّغَرِي في الصَّلاةِ، وَالْجَهَادُ وَالأَذَانِ وَالْخَطْبَةِ وَالْإِعْتِكَافُ وَالشَّهَادَةُ فِي الحَدُودِ وإِلَهَةُ الفَلَاقَةِ وَالْأَذَانِ وَالْمَرْجَعَةِ، وَتَعْدُّدُ الرُّجُوبُ، وَيَتَناَذِعُ الأَبْنَاءُ، وَهذَا هُوَ السِّبْبُ الأولُ مِنْ أَسْبَابِ قُوَّامَةِ الْرَجَالِ عَلَى النَّسَاءِ الَّذِي ذَكَرَهُ عَزْ وَجَلَّ بِقُولِهِ: "وَيَا قُرْطُبَ الَّذِينَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ"، أمَّا السِّبْبُ الثانيُ مِنْ أَسْبَابِ قُوَّامَةِ الْرَجَالِ عَلَى النَّسَاءِ فِي هَذَا ذَكَرُهُ عَزْ وَجَلَّ بِقُولِهِ: "وَيَا أَرْضُ الَّذِينَ أَنَفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ". أَيْ وَيَا سَافِرُوا إِلَى هَذِهِ صَدَاقَةٍ، وَأَنفَقُوا عَلَيْهِنَّ مِنْ نَفْقَةٍ، وَقُوَّامُونَ جُمَعٌ فَوَاعٌ، وُهُوَ الْقَائِمُ بِالْمَصَالِحَ، وَتَلْدِيبُ، وَالْكَنْزَةُ، وَالْحَفْظُ، وَالسَّيَائَةُ وَالحَيَاةُ وَالْرَّجَاِيةُ، فَدُفِّعَ اللَّهُ عَزْ وَجَلَّ الْمَرْجَعَةَ أمِرًا عَلَى بَيْتِ الْزَوْجِةِ، وَالْطِّيبُ وَالْشَّرَّ بَقِيَانُهُ، أَنْ يَكُونُ لِكُلِّ رَعْيَةٍ رَأَعٌ يَسُوَّى أَمْرَهَا وَيَمْدُدُ شَأْنَهَا، حَتَّى هُدُؤُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ الرَفَقَةَ الْمُسافِرِينَ أَن يَتَحَمَّلُوا عَلَيْهِمْ وَاحِدًا مِنْهُمْ، فَقَدْ رُوِى أَبُو دَاوُدُ بِإِسْنَادِ حَسَنٍ مِنْ حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ وَأَبِي هُرُوْبِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَاهُمَا، قَالَ: رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: إِذَا خَرَجَ تَلْدِيِّيْنَ في سَفَر فَلْيُؤْمَرُوا أَحَدَهُمَا. وَلِيَسَ قُوَّامُ الْرَجَالِ عَلَى الْمَرَأَةِ قُوَّامَةُ اسْتِبْدَادَ وَإِجْهَالَةٌ وَحُجْرٌ وَتَسْلُّطٍ، فَقَدْ حَضَرَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَنْ وَلَى مِنْ أَمْرِ الْمُسْلِمِينَ شَيْئَانَا أَن يَرْفَقُ برَيْمَا، أَلَّا يُشَقُّ عَلَيْهِمْ، فَقَدْ رُوِى الْبَخَارِي وَمُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ مِنْ حَدِيثِ عَلِيَّ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ رضي الله عنها، قَالَ: سَمَّعْتِ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ قَالَ: كُلُّكُمْ رَاعٍ، وَكُلُّكُمْ مُسْتَوِّلٌ عَنِ رَعْيَتِهِ، كُلُّكُمْ رَاعٍ وَمُسْتَوِّلٌ عَنِ رَعْيَتِهِ، وَالْمَرَأَةُ رَاعِيَةٌ فِي بَيْتِ زُوجِهَا وَمُسْتَوِّلَةٌ عَنِ رَعْيَتِهَا، وَالْخَادِمُ رَاعٍ فِي مَالِ سَبِيلِهِ وَمُسْتَوِّلٌ عَنِ رَعْيَتِهِ. كَمَا رُوِى مُسْلِمٌ
لا يمكنني قراءة النص العربي في الصورة.
خيراً من كل كنوز الدنيا، فقد روى مسلم من حديث عبد الله بن عمر بن العاص رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: الدنيا متناعٌ، وخير من متعها المرأة الصالحة. وقال أبو داود في سننته: حدثنا عثمان بن أبي شيبة ثنا يحيى بن يعلى المحاربي ثنا أبي ثنا غيلان عن جعفر بن إباس عن مjahد عن ابن عباس قال: لما نزلت هذه الآية: "واي مؤمنين من الذهب والفضة" قال: كَبُر ذلك على المسلمين فقال عمر رضي الله عنه: أنا أقرح عنكم، فانطلق، فقال: ياتيني الله، إن كبر على أصحابك هذه الآية، فقال رسول الله ﷺ: إن الله لم يفرض الزكاة إلا ليُطِيب ما تبقى من أموالكم، وإنها فرض الموالات لتكون من نَبْرَكُمْ، فكُبر عمر، ثم قال له: ألا أخبرك بخير ما يكيِّن المرء؟ المرأة الصالحة، إذا نظر إليها سريره، وإذا أمرها أطاعه، وإذا غاب عنها خفَّثَه، ومعنى قوله عز وجل: "والَيْسَ يُناَحَفُونَ نُؤْشِرُونَ قَضَّائِرَهُنَّ وَاهْجُرُونَ فِي الْمَسَاجِعِ وَاَضْرِيْبُوهُنَّ" أي ومن خشيتم من زوجاتكم أن تسبِّعبوا صحبتكم وتفكِّر صفاء حياتكم الزوجية بسبب ما يثير منها من بوادر الجنوح إلى الشذوذ حيث بدأت تمرَّض عليكم ولا تسأر إلى طاعكم، وتناولين معيشيكم فهذه أمارات نشوزها. يقال: نشرت المرأة إذا استعانت على زوجها وأبغضته، وحينئذ فاسلكوا أيسر الشَّبل لتقوم اعوجاجها، وابدأوا بوعظها وتخويفها من الله عز وجل، وتعريفها بحق الزوج على زوجته، وذكرها بما أعد الله عز وجل للصالحات، وما توعَّد به الناشئات فقد روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: إذا دعا الرجل أمرأته إلى فراش فلم تأتي، فبات غضبان عليها، لعنتها الملائكة حتى تصبح. وفي رواية لها: وإذا باتت المرأة هاجرة فراش زوجها لعنتها الملائكة حتى تصبح. وفي رواية: قال رسول الله ﷺ: والذي نفسي بيد مأمون رجل يدعو أمرأته إلى فراش فتأتي عليه إلا كان الذي في
السياح ساخطاً عليها حتى يرضى عنها. فإذا أصرت على النشور بعد الوعظ ولم تنتظ فبعد ذلك يهجروا في المضجع. فإن أصرت على النشور ولم يفهم فيها الهجر فقد أبيع له أن يضربها ضرباً خفيفاً لعله يفهمها فترجع عن نشورها، وقد أشار رسول الله ﷺ إلى أن ضرب الزوجة لا يكون إلا للضرورة وأن الأولى تركه فقد روى أبو داود بإسناد صحيح عن إيس بن عبد الله رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: لا تضربوا إماء الله، فجاء عمر رضي الله عنه إلى رسول الله ﷺ فقال: دُرْنُ النساء على أزواجهن، فَرَحَصُ في ضربهن فأطاف بالله ﷺ، فقال: نساء كثير يشكرون أزواجهن فقال: نساء الله ﷺ، ولقد أطاف بالله. بآل بيت محمد نساء كثير يشكرون أزواجهن، ليس أولئك بخياركم. ومعنى: دُرْنُ أي اعتذران، ولا شك أن من أعظم طرق التربية الحديثة أن تعلَّق عصاك حيث يرخ وجدك، وليس ذلك حُصاً على الضرح، وقوله تبارك وتعالى: «فإِنَّ أُطْعُنكُمْ فَلا تُبْغِوا عَلَيْهِنَّ سِيْبَالاً، إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيَّاً كَرِيراً» أي فإن أنفدكن لكم وتركن النشور فخافوا الله فيهن، وتناسوا ما يكون قد بدر منهن من إساءة لكم، وإعلموا أن الله فوقكم وهو رقيب عليكم، وهو منتمق من ظلم زوجته وغم عليها، وهو يحب الحافين عن الناس.
قال تعالى: 

"وإن خفتم شقاق بينها فابتعذوا حكماً من أهلها، وحكاً من أهلها إن يردن إصلاحاً يوتقن الله بينهما، إن الله كان عليها حنيراً. واعتقدوا الله ولا تشركوا به شياً وربالصدفين إحساناً ويدى الفرحي واليتمى والمساكين والجار ذي القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وأبن السبيل وما ملكت أبناكم، إن الله لا يحب من كان خذلاً فكثر".

بعد أن بين الله عز وجل ما ينبغي للزوج أن يتحمل ما يخففه من نشوز زوجته عندما تبدو بوادر جنوحها واستعصائها عليه، وأنه ينبغي له أن يبدأ بوعظها، فإن لم تستجب للمعوضة عالجها بالهجر، فإن لم يؤثر فيها الهجران ولم ترجع عن غيابها، عالجها بالضرب غير المبرح لعله يفدها، فإن استقامت وجب عليه خروف الله فيها، وعدم ذكيراً بها سلفت منها، وهذا كله إذا كان الزوج راغباً في الزوجة حریصاً على الإحسان إليها، أما إذا كان كل واحد من الزوجين يشتكي من سوء معاملة الزوج الآخر له وأنه في شقاق مفسد لذات الزوجين، ولم يتضح مصدر هذا الشقاق، فقد أرشد الله عز وجل هنا من يفهم أمرها من الحكام أو ذوي الحلال والعقد من المسلمين، أو أهل الخير العاملين على إصلاح ذات البين بين الناس أن يشعروا حكماً من أهلها وحكاً من أهلها لدراسة أحوالها، ومحاولة معرفة أسرة نزاعها وشقاقها، وبذل الجهد للإصلاح بينها، حيث يقول عز وجل: 

"وإفختم شماع بينها فابتعذوا حكماً من أهلها وحكاً من أهلها إن يردن إصلاحاً يوتقن الله بينهما، قال ابن جبير رحمه الله في تفسيره: قال أبو جعفر: يعني بقوله جبل شئاؤ: 

"وإفختم شماع بينها" وإن علمتم أبنا الناس شماع بينهما، وذلك مشاقة كل واحد منها صاحبها، وهو إتيان ما يشتهيه من الأمور، فأما من المرأة قانشوز وتركها أداء حتى الله عليها الذي أزمهها الله لزوجها، وأما من الزوج،
فتُرُكْتُ إمساكها بالمعرف أو تسرحها بإحسان، والشَّقَاق مصدر من قول القائل: شاق فلان، فلان، إذا أتي كل واحد منها إلى صاحبه ما يُعَر ك عليه من الأمور، فهو يُعَر شقاق وشِقاقاً، وذلك قد يكون عداوةً، وقوله عز وجل: {شاقيتينها} من إضافته المصدر إلى ظره كقوله عز وجل: {بل مكر الليل والنهار} وكقوله: يُعَرجي صوم يوم عرفة، وإضافته المصدر إلى الظروف جائزة لحصوتها فيها والأصل: وإن خفتم شقاقاً بينها، وقوله عز وجل: {فأعطوا حكماً من أهلها وحكماً من أهلها} أي فاختاروا رجاً صالحاً عدلاً ثقة لذا خبرة بالحكم، ودقائق الأمور يرضيهم الزوج، ورجاء صالحاً عدلاً ثقة لذا خبرة بالحكم ودقائق الأمور ترضي الزوجة وأرسلوها لمن يدرس مشاكل الزوجين الحاصل بينها الشقاق ومحاولة راب الصدع وإصلاح ذات بعثتها، بتخويفها من الله عز وجل وبيان حقوق الزوج على زوجته و الزوجة على زوجها، فإن تمكن من الإصلاح بينها وإزالة أسباب نزاعها فهذا هو المطلوب، وإن تبين لها أن الأمر بين الزوجين معيب، وأنه لا سبيل للإصلاح بينها وأن كل واحد من هذين الزوجين لا يستطع أن يقوم بها يحب عليه من حق للآخر وأنها لن تقضي حكماً حذوود الله الذين فرضها للزواج على زوجته وللزوجة على زوجها، وإن تبين لها أن الزوجين لا يستطيع أن يقوم بها يجب عليه من حق للآخر وأنها لن تلبئ حقود الله الذين فرضها للزواج على زوجته وللزوجة على زوجها، والتعبير بقوله عز وجل: {حكمها} لإفادة نفيذ رأيه وواجب العمل بقوله عند إتفاقه مع الحكم الآخر، قال أبو عمر بن عبد البر: وأجمع العلماء على أن الحكمين إذا اختلف قومهما فلا عبرة بقول الآخر، وأجمعوا على أن قولهم نافذ في الجمع وإن لم يوكلها الزوجان اه. وقد روى الدارقطني بسنده صحيح ثابت من طريق محمد بن سيرين عن عبيدة في هذه الآية: {وإن خفتم شقاق بينها فاعتبا حكماً من أهلها وحكماً من أهلها} قال: جاء رجل وأمره إلى على رضي الله عنه مع كل واحد منها قيام من الناس.
فأمرهم قبَّعُوا حِكَّمًا من أهله وحِكَّمًا من أهلها وقال للحكمين: هل تذريان ما عليكما؟ عليكم وإن رأيتاهما أن تفتنوها فشوقلتها، فقالت المرأة: رضيت بكتاب الله بها عليًا فيه ولي، وقال الزوج: أما الفرقة فلا، فقال علیٰ: كَذَّبْتُ، والله لا تبير حتى تفرَّك بمثل الذي أفرقت به. والتقييد يكون أحد الحكمين من أهل الزوج والحكم الثاني من أهل الزوجة لأن أقاربهما أعرف بما حالهما من الأجانب وأشذ طلباً لإصلاح ذات بنيها، فإن لم يوجد من أهلها من يصلح لذلك جاز بعث حكمين من غير أهلها، وفائدة بعث الحكمين أن يخلو كل واحد منها بالطرف الذي يمثله، ويستكشف حقيقة حاله، ليعرف منه سبب المشاقة، ويستبث منه ما ينال عليه حكمة من بقاء النكاح أو التفريق، وقوله عزر وجِل: إن بُرِيداً إصلاحاً بِيَوْفِقَ الله بُنيَّتَهُا** هذا إرشاد للحكمين بأن يجريّا على إصلاح ذات البين وتحذيرهما من أن يكون قصد الحكم الانتصار للطرف الذي يمثله، بل على كل واحد من الحكمين أن تكون نيته صحيحة، وأن يكون قلبها ناصحاً خالصاً لوجه الله ساعياً في الخير ما استطاع، دون أن يحسِّن إلا إلى الحق، وإذا علم الله عز وجل منها صدقت نيتهما، وأنها يريدان الإصلاح ما استطاعاً إليه من سبيل، فإنه تبارك وتعالى يؤدهما، وتستددماً، ويوقفهما إلى الرأى السديد، والحكم الرشيد، وقوله عزر وجِل: إن الله كَانَ عَلِيَّاً حَيِيراً هو وعد ووعيد، وترغيب وترهيب لكل من الحكمين والزوجين، بأن يجري الصوا على ما يُرضي الله، ويجببوا ما يغضب عز وجِل، لأنه لا تخفي عليه خافية، وقوله عزر وجِل: وَأَعْبَدُوا الله ولا تْشُكِروا به شَيْناً** إلى آخر الآية، استنذافٌ لبيان حق الله عز وجل على عباده وحقوق الوالدين والأقرباء واليتامى والمساكين والأعيان والأصحاب وأبناء السبيل وما جعله الله عز وجل تحت يد الإنسان من حيوانات أو حَدَم، بعد بيان الأحكام المتعلقة بحقوق الزوجين، وقد صَدَّر هذه الحقوق.

٢٧٢
بيان حق الله عز وجل على عباده; لأن حق الله تبارك وتعالى هو أعظم الحقوق وأكثدها، وأهمها، إذ جميع الأعمال الصالحة لا تتقبل إلا من أدى هذا الحق لله عز وجل، ومعنى قوله عز وجل: "واعبدوا الله ولا تشركوا به شياً"

أي ابذلوا أقصى الحب وغايته الذل والخشوع والقنوت والإخلاص والخوف والرهبة والرغبة والطاعة الله وحده، ولا تجعلوا الله أندادا، ولا تبذلوا شيئاً من العبادة لغيره فإنه لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصاً لوجهه الكريم على منهج رسوله العظيم ﷺ، أما الحق الثاني من هذه الحقوق فهو حق الوالدين بيرهوماً ولين الجانب لها والإحسان إليها وفي هذا الحق يقول عز وجل:

"والوالدين إحسانًا، أو أحسينًا بالوالدين إحسانًا يقال: أحسنت بفلان وأحسنت إلى فلان كنا قال كثيرًا عزة:

أحسس لبنا أو أحسسني لمومه لا مثلي إن تقلت.

وقد قرن الله عز وجل حق الوالدين بحقة تبارك ومعالي في مواضع من كتابه الكريم تبنيها على وجه برهما وتعظيم حقها حيث قال عز وجل هنا:

"واعبدو الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحسانًا" وكما قال عز وجل:

"إذ أخذنا ميثاقاً نبي إسرائيل لا تعبدون إلا الله وبالوالدين إحسانًا" وكما قال عز وجل:

"وقد قضى ربك ألا تشركوا إلا إياه وبالوالدين إحسانًا، إما يتبغعين يعيدك الكبير أخذهما أو يكراهما فلا تقل لها أت و لا تنهما وقل لها قولاً كريماً، وأخفض لها جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمها كما ربنت صغيرًا" وكما قال عز وجل:

"أن أشكر لي وعلي بالذي إنى المصير" وأما الحق الثالث فهو حق الأقارب والأرحام وجعله عز وجل بعد مربتعاً حق الوالدين حيث قال عز وجل:

"وأبي القربى" لأن القرابة إنها تكون في الغالب من جهة أحد الأبوين وبالتبعية لها، وأما الحق الرابع والخامس فهو حق الイトامي والمساكين حيث يقول عز وجل:

"واليطامى والمصابين" أي واستوصوا بـ
الذي يبرِّك به تَسبُب حيث يقول عز وجل: {والجار الجنب} أي والجار البعيد الذي لا قربة بينه وبينه، وقد أَكَّد رسول الله ﷺ على حق الجار تأكيداً شديدًا فقد روى البخاري ومسلم من حديث عائشة وأبî عُمر رضي الله عنهم قالا: قال رسول الله ﷺ: مازال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه سيُحْرِي فيه. كأ روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: والله لا يؤمنين، والله لا يؤمن، والله لا يؤمن، قيل: {من يارسول الله ﷺ؟} قال: الذي لا يأمن جاره بوانته. والمراد بالبوانت الغوال والشرور. وفي رواية لمسلم: لا يدخل الجنة من لا يأمن جاره بوانته. وفي رواية للبخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: من كان يؤمنن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره الحديث. كأ روى مسلم من حديث أبي شرِيح الكرّاعي رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحن إلى جاره. الحديث. وأَرْشَد رسول الله ﷺ أن الجار الأقرب باباً أحق بالإكرام فقد روى البخاري من حديث عائشة رضي الله عنها فقالت: قلت: يارسول الله ﷺ إن لي جارين، فلأبيها أهدي؟ قال: إلى أقربها منه باباً. أما الحق الثامن فهو حق الصاحب بالجار والمراد بالصاحب بالجار هو من السابقين بينه وبينه صحبة وبائبل أبي بكر في سفر أو حضر أو رافق في تجارة أو طلب علم أو أي عمل من الأعمال قال ابن جرير: حدثني المتنى قال حدثنا شُوبِيد بن نصر قال أخبرنا ابن المبارك عن حيوة قال حديثي شريح بن شريك عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنها عن النبي ﷺ قال: إن خير الأصحاب عند الله تبارك وتعالى خيرًا مّ
صاحبه، وَخَيْرُ الجُرْرَانِ حَيْرُهُمْ لِجَاهِرِهِ اهْدَ. وقد أُخْرِجَهُ الترمذي من طريق ابن المبارك وهذا الحديث صحيح الإسناد. أما الحقُ التاسع فهو حقُ ابن السبيل وهو المسافر المتقطع عن المال، ولو كان يَنْبَأ في بَلْدهُ والسبيل الطريق وسمي المسافر ابن سبيل ملازمته الطريق. أما الحقِ العاشر من هذه الحقوق التي تضمنها هذه الآية الكريمة فهو ما خُرِكَ اللَّهُ عز وجل وجعله تحت تصرفك وسلطتك من حيوان أو إنسان، وقد روى مسلم من حديث عبد الله ابن عمرو رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: كَفَى بِالنَّارِ إِلَّا أَن يُجْسَد عُمْنُ يُمْلَكُ فُؤَوْنُهُمْ. كَأَمَّا أَخْرَجَ النَّسَائِي وَابن ماجه من حديث أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ جُعِل يُوصَي أوحِي في مرض الموت يقول: الصلاء الصلاة وما ملكت أَيُّهَا النَّاسُ، فجعل يُرْعَدُوا حتَّى ما يَفْيضَ بِها لسانه. قال في الرواية: إسناده صحيح على شرط الشيخين. وقوله عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَنْبِئُ مِنَ الْخَيْرَاءِ فَخُورًا﴾ أي إن الله يَبِيعُ المَتَكَبِّرْ المُعْجِبَ بنفْسه المفتخر المتطاول على خلقه المباهي بمنصبه وحَسْبِه ونسبه على من دونه من عباده، وقد روى مسلم من حديث عياض بن خار رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: إن الله تعالى أَوْحَى إِلَّا أَنْ تَواضَعُوا حتَّى لا يَبِغي أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ ولَا يَفْخَرُ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ.
قال تعالى: "الذين يتحلون وياهمون الناس بالبخل ويكتعمون ما آتاهُم الله من قضائه واعتدنا للكافرين عذاباً مهيناً. والذين يفقون أمواهم رنة الناس ولا يؤمنون بالله ولااليوم الآخر، ومن يكن الشيطان له قريبًا فساء قريباً. ومماذ علىهم لو آمنوا بالله واليوم الآخر وإنفقوا بما زارهم الله. وكان الله مبهم عليه.

بعد أن أرشد الله تبارك وتعالى في الآية السابقة إلى قواعد البر، وأصول مكارم الأخلاق، وحاسن الصفات، وأسس التكافل الاجتماعي، وتدّ يده الكبر والموجب والخيلاء المتعالين على خلق الله، الذين لا يقومون بحق الله عز وجل أو بحقوق خلقه عليهم، الذي يأثرون من أقاربهم إذا كانوا فقراء، ومن جيرانهم إذا كانوا ضعفاء، أتبع ذلك هنا بالتنديد بالبخلاء المتناعين للخيلاء المحتاجين على الشح حتى بالكلمة النافعة، كما ندب بالمرائيين الكافرين بالله واليوم الآخر حيث يقول عز وجل: "الذين يتحلون وياهمون الناس بالبخل ويكتعمون ما آتاهُم الله من قضائه. قال ابن كثير رحمه الله: يقول تعالى ذلما الذين يدخلون بأموالهم أن ينفقوها فيها أمرهم الله به من بر الوالدين والإحسان إلى الأقارب والبياتي والمساكين والجار ذي القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أياؤهم من الأرواح، ولا يدعون حق الله فيها، وياهمون الناس بالبخل أيضاً، وقد قال رسول الله ﷺ: "أي داء أداً من البخل؟ قال: إياكم والشعث فإنه أهلك من كان قبلكم، أمرهم بالقتاعة فقتعوا، وأمرهم بالفجور ففجروا. اه، البخلاء يصيب الإنسان يمنعه من البذال والجود والكرم والعطاء، ويحمله على الشح وشدة الخرس على عدم الإفاضة مما يملك، وأسوا البخل الشح بالكلمة الطيبة وعدم نفع الناس ولو بإرشادهم إلى الطريق السويًّ. ولذلك
أشار الله عز وجل إلى أنه لا يفتح إلا مَن سلم من الشَّجّ، حيث يقول عز وجل في وصف الأنصار رضي الله عنهم البادلون ما في أذنهم: المنصرين من الشَّجّ: «ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة، ومن يُوقَ شَجٍّ نفسه فأولئك هم الملائِمون» وقال عز وجل في نصيحة عبادة: «فَاتَقُوا الله ما استطعتم وأسمعوا وأطيعوا وأنفقوا خيرا لأنفسكم، ومن يُوقَ شَجٍّ نفسه فأولئك هم الملائِمون» كما أشار رسول الله ﷺ إلى أن الشَّجّ يحمل صاحبه على ارتكاب كل شر واجتناب كل خير فقد روى مسلم في صحيحه من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه: أن رسول الله ﷺ قال: إن النظام ظلِّهات يوم القيامة، واتقوا الشَّجّ فإن الشَّجّ أهلك من كان فَبَلَكُمَ، حمَّلهِم على أن يفكروا دماؤهم، واستحلوا محارِمهم. كما روى البخاري في صحيحه من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنه: قال: قال لي رسول الله ﷺ: لو قد جاء مال البحرين لقد أعطيتك هكذا وهكذا ثلثاً، فلم يقدِّمُ مال البحرين حتى قَبَضَ رسول الله ﷺ، فلما قادِمَ على أبي بكر أمر مناديًا، فنادى: مَن كان له عند النبي ﷺ دين، أو عدَّة فَلَيَأْتِني، قال جابر: فجئتُ أنا بكر، فأخبرته أن النبي ﷺ قال: لو جاء مال البحرين أعطيتَك هكذا وهكذا ثلثاً، قال: فأعطاني، قال جابر: فلقيتُ أنا بكر بعد ذلك فَسَألتُهُم، فلم يعطيني، ثم أتيتُهُما فلم يعطيني، ثم أتيتُهُما ثالثاً فلم يعطيني، فقالت له: قد أتيتكم فلم تعطيني، ثم أتيتُك فلم تعطني، ثم أتبت فلم تعطني، فأما أن تُعطيوني وإما أن تُبْخَلَ عنني، فقال: أقتُلَت: تَبْخَلُ عنى؟ وأي داء أدواؤه من البُخْل؟ قالها ثلاثا، ما متعتُّك من مَرَّة إلا، وأنا أريد أن أعطيكَ أه. ومع أن البُخْل هو أدوًأ الأدواء وعة الغل، فإن الله عز وجل أشار هنا إلى أن بعض الناس لا يكتفي من الشر بكونه بخيلة بل يدعو غيره إلى البَخْل ويحس عليه، وأن بعضهم يُزْدَاد شرته وبخله فلا يقتصر على
البخل بالمال بل يبخُل بالكلمة الطيبة، ويكتم ما يعرفه من الخير أو العلم النافع عن عباد الله حتى لا يستفيدوا منه، وقد جعَل الله هذه الأوصاف الثلاثة المذمومة بالغة أقصى درجات الحقد على الإنسانية وبعض الخير لها، المناضقة لما اقتضته الآية السابقة من وجوب الإحسان والبذل والجود والكرم والوفاء لكل ذي حق بحقه حيث يقول عز وجل هنا: {والذين يبخُلون ويأمرون الناس بالبخِل ويكتُمون ما آتىهم الله من فضلهم} وهذه الخصال الكريمة الموقعة هي أخص صفات اليهود قبحهم الله، وإن كانت قد توجد في غيرهم، وهذا المقام في هذه السورة شبيه بما ذكره الله عز وجل في سورة الحديد حيث يقول عز وجل: {وَاللَّهُ لا يُحبُّ كُلّ مَخَالِف فَخُورِ الرَّزْقِ} {والذين يبخِلون ويأمرون الناس بالبخيل، ومن يُوحِّل فإن الله هو الغني الحليم} {وقوله عز وجل: {واعتنانا للكافرين عذابا مهينا} قال ابن جرير رحمه الله: قال أبو جعفر: يعني بذلك جل ثناؤه: {واعتنانا} وجعلنا للجاجدين نعمة الله التي أتعم بها عليهم من المعرفة ببنوة محمد ﷺ، المكذبين به بعد علمهم به الكافرين نعمة وأصطفائه من أمرهم الله ببيانه له من الناس {عذابا مهينا} يعني العقاب المزدوج من عذاب يبخِلون فيه، عكوادًا له في آخرته، إذا قدِّم على ربه وجدًا، بما سلف منه من جحوده فرض الله الذي فرضه عليه اهداه، وقوله عز وجل: {والذين يبخِلون} ينفِّقون أمواتهم رئاه الناس ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر} هذا هو القسم الثالث من المنحرفين عن منهج الرشد وهو الذين ينفَّقون أمواتهم رئاه الناس ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، إذ أنه تبارك وتعال لما ذكر أهل الإحسان والإحسان السالكين منهج الرشد ذكر ثلاثة أصناف من أضدادهم، فالصنف الأول هو كل مختال فخور، والصنف الثاني هم البخلاء الذين يأمرؤ الناس بالبخيل ويكتُمون ما آتىهم الله من فضله، والصنف الثالث هم من ينفَّقون أمواتهم لا لوجه الله عز وجل ولكن ينفَّقونها

278
رأى الناس ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر. وقد أخرى رسول الله ﷺ أن الذين ينفكون أموالهم رغبتاً الناس طلبًا للسمعة والجاه لا رغبة فيا عند الله عز وجل ولا ابتعاد وجهه يكونون في أول من تسجَّر بهم نار جهنم يوم القيامة.
فقد روى مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: 
سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن أول الناس يقضِّى يوم القيامة عليه رجل استشهد، فأتي به، فعرف رحمته فعرفها، قال: فما عملت فيها، قال: قاتلته فيك حتى استشهدت، قال: كذبت، ولكنك قاتلت لأن يقال جريه فقلت، ثم أَمَرَ به فسجَّب على وجهه حتى ألقَى في النار، ورجل تعلم العلم، وعلمه، وقرأ القرآن، فأتي به، فعرف رحمته فعرفها، فعرفها، قال: فما عملت فيها، قال: تعلمت العلم، وعلمه، وقرأ فيك القرآن، قال: كذبت، ولكنك تعلمت العلم ليقال عالم وقرأ القرآن ليفال هو قاريء، فقد قيل، ثم أمر به فسجِّب على وجهه حتى ألقى في النار، ورجل وسع الله عليه، وأعطاه من أصناف المال كلله، فأتي به، فعرف رحمته فعرفها، قال: فما عملت فيها، قال: ما تركت من سبيل تعب أن ينقذ فيها إلا أنفق فيها كلك، قال: كذبت، ولكنك فعلت ليفال: هو جواداً، فقد قيل، ثم أمر به فسجِّب على وجهه ثم ألقى في النار. وقوله عز وجل: (وَمَنْ يَكُونُ الشَّيْطَانُ لَهُ قَرْنٌ فَسَاءَ قَرْنَأَ) بيان للسبب الذي نشأت عنه هذه الخسائش المذمومة التي ذكرها الله عز وجل بقوله: (إن الله لا يحب من كان يختالا فخوراً). الذين يدخلون ويأمرون الناس بالبخيل ويكتمون ما آتاههم الله من فضله، وأعدنا للكافرين عذاباً مهيناً. والذين ينفكون أموالهم رغبات الناس ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر، وأنهم صاروا إلى هذه الأوصاف الخبيطة بسبب مصاحبتهم للشيطان والانتقاد له والارتقاء به ومخالطته وملامسته، وقد قضى الله عز وجل وكتب أن من صار ولياً للشيطان وقريناً له فإنه لا ينتدي إلى الخير، ولا يسلك سبيل
السّراد، وأن الشيطان يضلّه ويهدّه إلى عذاب السّعير كمال عز وجل:

ومن يغْضُب عَن ذِكر الرحْمٍ فَيُقَضِّي لِهِ شَيْطَانُهُ فَهُوَ لِهِ قَرِينٌ. وإِنَّهُ لَيَصْدِقُونَهُ عَن السَّبِيلِ وَيَحْسِبُونَ أَنَّهُم مَهْتَدُونَ. حَتَّى إِذَا جَاءَ النَّاسُ عَلَيْهِ بِنَبِيٍّ وَبِبِنْكَ بَعْدَ الْمَشْرِقِينَ فَبِنَسَ القَرِينَ» وكما قال عز وجل: «وَكَانَ النَّاسُ مِن يَجَادِلٍ فِي اللَّهِ بَعْضُهُم بَعْضٍ وَبَعْضُهُمُّ كَلِّ شَيْطَانٍ سَرِيرٌ. كَيْبَٰتٌ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَنْ تُؤُلَّهُ فَإِنَّهُ يُضِلُّهُ وَيُهْدِيهِ إِلَى عذاب السعير» مَعْنَىٰ: «وَمَنْ يَكُونُ الشَّيْطَانُ لِهِ قَرِينًا فَسَاءَ قَرِينًا» أي وَمَن يَكُونُ الشَّيْطَانُ صَاحِبُهُ وَخَلِيلُهُ فَبِنَسَ الصَّاحِبُ وَبِنَسَ الخَلِيلُ الشَّيْطَانُ، وَلَا شَكَّ أَنَّ مَصَاحِبَةَ الشَّرّ لا تَأْتُ بَخَيرٍ، وَأَنَّ الإِنْسَانَ عَلَى دِينَ خَلِيْلِهِ وَقَدْ حَذَّرُ رَسُولٌ اللَّهِ ﷺ مِن جَلَّسَاءَ السَّوِيَّةِ فَقُدْ رَوَى البَخَارِيُّ وَمَسْلِمُ مِن حَدِيثِ أَبِي مُوسَى الأَشْعَري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنَّ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ: إِنَّهُمْ مِثْلُ الجَلِّسِ الصَّالِحِ وَجَلِّسِ السَّوِيَّةِ كَحَاملِ السَّعِيرِ وَنافِعِ الكِبرِ، فَحَامِلُ السَّعِيرِ إِمَّا أَنْ يُخْذِبَّ، وَإِمَّا أَنْ يَتَبَاغَ منهُ، وَإِمَّا أَنْ يُجِرِّدَ مِنْهُ رِجَاحًا طَيِّبَةً، وَنافِعُ الكِبَرِ إِمَّا أَنْ يُخْذِبَّ ثُمَّ يُعَلِّمُ وَإِمَّا أَنْ يَتَبَاغَ مِنْهُ رِجَاحًا مُّنْتَيْبَةً. وَمَا أَحْسَنَ قَوْلُ عَدْيٍ بْنُ زِيدُ:

عَنْ النَّارِ لا تَسَلِّن وَأَبْصِرْ قَرِينَةُ، فَإِنَّهُمْ بِالمَقَارِنِ مُقَدَّنٌ، وَقَوْلُهُ تَبَارِك وَتَعَالَى: «وَمَا ذَا عَلَيْهِمْ أَنْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ، وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَمَا مُتَّدَّى.» أي كَأَيْ ضَرْرٍ يُصِيبُهُمْ لَوْ تَرَكَوا طَاعَةَ الشَّيْطَانِ وَأَسْتَجَابَوا لِلرَّحْمَةِ وَصَدَّقُوا بِاللَّهِ الْوَاحِدَ الْأَقْلَدَ الْفَرْدَ الصَّمِّدَ الَّذِي نَصْبَ لِعَبَادَهُ أَدْلَةً أَلْوَاهِهِ وَرَوْبِيَّةٍ فِي كُلَّ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ كَالْشَّاعِرُ:

فَعَظَجَا كَيْفَ يُعْصَى الْإِلَهُ، وَفِي كُلِّ شَيْءٍ لَهُ آيَةٌ، تَسْتَدِلُّ عَلَى أَنَّ الْوَاحِدَ، وَمَا ذَا يُضِرْهُمْ لَوْ آمَنَوُا بِأَنَّهُمْ مُبِعْثُونَ بَعْدَ الْمَوتِ وَمَجْرَبُونَ بِأَعْمَالِهِمْ وَقَدٌ
قامت البراهين على أن الذي خلقهم أول مرة من العدم المحض لن يعجز عن إعادةهم بعد الموت ليجزي الذين أساءوا بها عملوا ويجزي الذين أحسنوا بالحسنى، وماذا يضرهم لو بذلوا شيئاً سيئاً مما خولهم الله عز وجل من المال في الإحسان إلى الوالدين وذي القربى واليتامى والمساكين والجار ذي القربى والجار الجنب والصاحب بالجانب وأبن السبيل وما ملكت أيهام عليهم بأن كل ما يبذلون في أبواب الخير يخلله الله عز وجل العليم بنوايا خلقه، كما قال تبارك وتعالى: "وَمَا أَنفقتُ مِن شَيْءٍ فَهُوَ مَنْفَعٌ لَّنِي وَهُوَ خَيرُ الْبِرازِقِينَ" ولا خلاف عند عقلاء البشر أن الإحسان إلى الخلق خير من الإساءة إليهم، وأن نفع الناس ليس إلحاق الأذى بهم، ولا ينزع في ذلك إلا الشيطان وقرناؤه، والله الهادي إلى سواء السبيل.
قال تعالى: «إن الله لا يظليم مثقال ذرئة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرًا عظيمًا. فكيف إذًا جنات من كل آمة يشهدون وجناتا بك على هؤلاءشهداء. يؤمن الذين كفروا وعصوا الرسول أو تسوؤ يفهم الأرض ولا يكتمون الله حديثًا.»

بعد أن أمر الله تبارك وتعالى بعبادته وحده لا شريك له وبالإحسان للموالدين وذوي القربى واليساقي والمساكين وإجبار ذي القربى وإجبار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما تحت يد الإنسان من حيوان أو إنسان ثم أعقب ذلك بدم المختال الفخور والبخلاء ومن يأمر الناس بالبخل، ومن يكتم ما أتاه الله من فضله، والذين ينفون أموالهم رثاء الناس ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر. ويبين أن هؤلاء المذمومين هم قرائن الشياطين ثم حض على الإيام بالله واليوم الآخر والإنفاق وما رزق الله عز وجل ووبخ من لم يؤمن ولم يتفق في طاعة الله أعلم عز وجل هنا أنه تبارك وتعالى هو الحكيم العدل ذو الإحسان والجود والفضل حيث يقول تبارك وتعالى: «إن الله لا يظلم مثقال ذرئة» وهذا بيان لكتال عده، قوله عز وجل: «وإن تلك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرًا عظيمًا.» وهذا بيان للاعجاب عنده وفضله. فمن جاء بالسيئة فلا يجزي إلا مثلها، ومن جاء بالحسنة فله عشر أمثالها إلى سبعينات ضعف إلى أضعاف كثيرة، فهو عز وجل لا يبخس مثقال ذرة من أعمال المؤمنين، ولا يحمل مسناً أكثر من إساءته كما قال عز وجل: «إن الله لا يظلم الناس شيئا» وكما قال عز وجل: «ووضعوا الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفسًا SHOULD.sheet إن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها، وكنى بناء حاسبين» وكما قال عز وجل عن العبد الصالح لقبر أن قال: «بلى إنها إن تلك مثقال حبة من خردل فتتك في صخرة أو في السماوات أو في الأرض

٢٨٢
يأتي بها الله، إن الله لطيف خبير» وقذا قال عز وجل: «يومئذ يُضَّرُّ الناس أشناناً يُزَّوُّرُ أعىهم. فمن يُعْمَل مثقالًا ذرةً خيراً يرهز. ومن يعمل مثقالًا ذرةً شراً يرهز.» والمقصود من نفي الظلم عن ذاته المقدسة هو إثبات كمال علده، ومعنى «مثقال ذرة» أي وزن ذرة وتتعلق على أصغر النمل كما تتعلق على الجزء الذي لا ينال الانقسام، كما تتعلق على الواحدة من الهباء الظاهر في ضوء الشمس النافذ من ثقب في حجرة مظلمة. وقال في القاموس المحيط: الذرة صغر النمل وثائت منها زينة حبة شعير الواحدة ذرة إه.. وقد ضرب الله عز وجل مثلاً بالذرة وبئجة الخردل لأنها أصغر وأدق مما يورز فلا شيء أصغر من الذرة أو حبة الخردل، وأصل: (تُكَ) تَحْكُمْ قال الزجاج: الأصل في ذلك تكون سمكت الظلمة للجزم، والواو لسكونها وسكون النون، وأما سقط النون فكل فترة الاستعمال تشبيهاً بحروف اللين لأناها ساكنة فحذفتها استخفافاً أه. وقال: استخفافاً أي طلباً للتخفيف. وقد تَصَمَّم قوته عز وجل: (وإِن تُكَ حِسَنَةٌ يَضْعَافِهَا) أي ما يفعله الإنسان من شر لـو كان وزن ذرة فإنه لا يجازيه إلا به، وأن ما يفعله الإنسان من خير لـو كان وزن ذرة فإن الله عز وجل يضعافه له من فضل وجوده وإحسانه وأنه لا يضعع عند الله شيء منها كان. وقال عز وجل: (وَيَوْتُ يَوْتًا مِّن لَّهَ أَجْرًا عَظِيمًا) أي ويبط من عنده الأجر العظيم وهو الجنة، وقد روى البخاري في صحيحه من طريق زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه في حديث الشفاعة الطويل، أن الله تعالى يقول للشافعين: اذهبوا فمن وجدتم في قلبه مثقال ذرة من إبان فأخرجوه، فَيُخْرِجُونَ مِن غَرَّافْوَا. قال أبو سعيد: فإن لم تَصَدَّفُوْنَ فأخرجوا: (فَإِنّهُ لا يَظْلِمُ مِثْقَالًا ذِرَةً وَإِنْ تُكَ حِسَنَةٌ يَضْعَافِهَا) وقد أخرج مسلم هذا الحديث أيضاً من طريق زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد الخدري: وفيه: ثم يقول: ارجعوا

٢٨٣
شهدوا عليهم من أنفسهم وجئنا بك شهيداً على هؤلاء»، وكما قال عز وجل:

وأشرقت الأرض بنورها ووضع الكتاب وجيء بالنبيين والشهداء»، وقد روى البخاري في صحيحه من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال لي النبي ﷺ: أقرأ عليّ، قلت: أقرأ عليك وعليك أنزل؟ قال: فإني أحب أن أسمعَة من غيري، فقرأت عليه سورة النساء حتى بلغت: فكِيفَ إِذَا جِنَّتَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وِجَتَنَا بِكَ عَلَى هُؤلاءَ شَهِيدًا.» قال:


280
الناس بالبخل ويكتيم ما آتاه الله من فضله، والذين ينفقون أمواتهم رثاءً
الناس ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر قرناء الشياطين: أي فكيف حاَلُ
هؤلاء يوم القيامة الذي يجعل الوالدان شبيهاً، ولا ينفع مال ولا بنون إلا من أتي
الله بقلب سليم. وقوله عز وجل: "يَوْمَ يُؤْتَى الْأَرْضُ كَفُّرُوا وَعَصُّوا الرَّسُولَ
لَوْ تَسَوَّى بِهِمْ الأَرْضُ وَلَا يَكْتَمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا." يبيان لما يصيب الكافرين
المكذبين لله ورسوله من الهول والفزع الأكبر، وتفسير للحال المسنود عنها
بقوله: "فكيف إذا جئتنا من كل أمة بشهد وجالنا بك على هؤلاء شهيداً"
كأنه قيل: فكيف حال هؤلاء يوم القيامة؟ فكان الحوار: يكونون بحال
مُحِزْنٍ مُفُجِحٍ يُؤْتُون ويتمنون لو تسوى لهم الأرض ولا يكتمون الله حديثاً
وليس العطف في قوله عز وجل: "الذين كفروا وعَصُوا الرسول" للمغايرة
بل هو من عطف الخاص على العام لمزية في الخاص إذ أن المقصود من
معاصيهم الرسول هذا هو تكذيبهم له، وجحودهم رسالته، وكتابهم ما
عرفوه من صفات النبي ووصفته لأمم الأديان السابقين حتى صاروا يعرفون كما
عرفون أبناءهم، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعننة الله على الكافرين
وفائدة ذكر معاصية الرسول بعد قوله: كفروا لشدة تفجيجهم بأنّ هذا الرسول
العظيم يشهد عليهم يوم الحسأة والنفاذة والفزع الأكبر بأنهم عَصُوهَا
وكتّبُوه، فأفاد عطفاً الخاص على العام هذا التهديد والتحذير لعلهم يتوبون
ويعذرون ويرجعون عن غيرهم وضلالهم قبل فوات الفرصة عليهم، ومنع
قوله عز وجل: "لَوْ تَسَوَّى بِهِمْ الأَرْضُ" أي يصيرون تراباً كأ تصير الهائم
على حد قوله عز وجل: "يَوْمُ يَنْظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيُقُولُ الْكَافِرُ بَلْ يَتَبَيَّنَ كَبْعَةً
كَبْعَةَ ثَمَّانٍ فَهُمْ لَشَدَّةِ ما يُصِيبُهُم من الخوف والخزي والهلع يتمتنون أن تنشق
الأرض بهم وتبتطلعهم، وقوله عز وجل: "وَلَا يَكْتَمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا" أي إنهم
يوم القيامة يتعرفون بجرائمهم ولا يكتمون من الله شيئاً ويقرَون بأن الله عز

282
وجل لم يظلمهم مثلًا ذرة، وبخاصة بعد أن يخلفوا بالله أنهم ما كانوا مشركين، فيختم الله على أفواههم وتكلم أيديهم وأرجلهم وجلودهم بما كانوا يعملون وأنهم كانوا مشركين، كـما قال عز وجل: "يوم شهد عليهم ألسنتهم وأيديهم وأرجلهم بما كانوا يعملون" وكمـا قال عز وجل: "اليوم نختم على أفواههم وتكلمنا أيديهم وشهد أرجلهم بما كانوا يكسبون" وكمـا قال عز وجل: "وما يوم يُشرِّع أعداء الله إلى النار فهم يُوزَعُون. حتى إذا ما جاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصرهم وجلودهم بما كانوا يعملون. وقالوا: "لقد شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذي أنطق كل شيء وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون. وما كنتم تستترون أن شهد عليكم سمعكم ولا أبصاركم ولا جلودكم. ولكن ظنتم أن الله لا يعلم كثيرًا بما تعملون. وذلك ظنكم الذي ظنتم بريكم أرداكم فأصبحتم من الخاسرين". 287
قال تعالى: 

"فَأَيُّهَا الْأَلَّهُمَّ أَمَّنَّا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمُ شَكَّارُ حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ وَلاَ جَنْبَا إِلَّا غَابَّةٌ سَبِيلٌ حَتَّى تَغْسِيلُوا، وَإِنَّ كُلْمَ يَمَرَّ بِأَوْلَى سَبِيلٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ بِالْعُنْفَاءِ أَوْ أَلَمْ يَتُمَّ الْجِنْسُ أَلَمْ تُحْدَدُوا مَا قَبْيَمْتُمْ صَغِيرًا طَيِّبًا قَامَ سَحْرُوا بَوْجُهُهُمْ وَأَيْدِيَهُمْ، وَإِنَّ اللَّهَ كَانَ عَفِيًّا عَفْوًا."

بعد أن وصى الله عز وجل بجميع الخير وأصول البر والإحسان في قوله: "وَاعْبَدُوا اللَّهَ وَلَا تَشَارَكُوا بِهِ شَيْئًا إلى قوله: "وَمَا مَلِكَتْ إِيَّاهُ شَيْئًا،" ثم حدّر من قبائل الصفات وجماع السوء في قوله: "إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مِن كَانَ غَنَّاتًا فِخْوَرًا إلى قوله: "وَمَا نَسْكَبُ الشَّيَاتُنَّ لَهُ قَرِينًا،" ثم حض على الإيام بالله واليوم الآخر وبين أنه عز وجل سيجري كل عام بعملهم يوم القيامة وأنه لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضايقها ويوت من لدن أجرها عظيمة، وحدّر المكذبين لرسول الله ﷺ من موقف الحسرة والندامة حين ينصب الله محمدًا ﷺ شاهدا عليهم يوم القيامة، وأنهم يتمسكون يؤمنون أن يُسوَّؤَو بهم الأرض، شرع هنا يوصي بالصلاة وصيانتها، لأنها رأس العبادات بعد توحيد الله عز وجل وأموم الإسلام، وأول ما يحاسب به العباد يوم القيامة. وقوله عز وجل: "فَأَيُّهَا الْأَلَّهُمَّ أَمَّنَّا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمُ شَكَّارُ حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ" هذا هو الطور الثالث من أطوار تحريم الحمر حيث كان الطور الأول هو التنديد بشبها حيث يقول عز وجل في سورة النحل وهي مكية: "وَمَنْ ثَمَرَتِ الْمَنَخِيلَ وَالْأَعْنَابَ تَتَخَذُونَ مِنْهُ شَكَّرًا وَرَزِقًا حَسِينًا" وكان الطور الثاني من أطوار تحريم الخمر هو قوله عز وجل: "يُسَلِّمُونَكَ عَنَ الخَمْرِ وَالْمِيْسَرِ وَلَنْ يُؤْمِنَ إِثْمَ كَبِيرٍ وَمَنْ يَسْتَفْعَفُ لِلنَّاسِ وَإِنَّمَا هُمْ أَكَثَرُ مِنْ نَفْعُهَا،" أما الطور الرابع والأخير فهو قوله عز وجل: "يَا
أيها الذين آمنوا إنها الحمَّر والميسر والأنصاب والأزالم رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون. إنّا يريد الشيطان أن يُوقِع بينكم العداوة والبغضاء في الحمَّر والميسر ويسدّكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهَل أنتُم متهون؟ ومنعني قوله عز وجل: "أَيَا أَيُّهَا الْدُّنِيَا أَلَمْ تَنْسَبُوا الصَّلَاةَ وَأَصْلَحُوا صُلْبَكُمْ وَلا تَكُونُوا مَنْ يُقْتُلُوا مَا تَقْتُلُونَ" أي يامعشر من استجاب الله ورسوله محمد ﷺ لا تشربوا الحمَّر في أوقات الصلاة ومواضعها أي المساجد لتتمكنوا من أداء الصلاة وأنتُم في حال صحوت وتمييز لكل ما يتلفظون به وعلّم بها تقولونه وما يتلونه من كتاب الله، ولا شك أن هذا خطوة ذات أثر بَالغ في المنع من شرب الحمَّر وتدرِب للمدمنين على تركها، لأن من مَّكِّن من السيطرة على هواء فترك الحمَّر في أوقات الصلاة استطاع بهذا التدرُّج أن يصون نفسه منها في جميع الأوقات، ولذلك عندما نزل قوله ﷺ ثارك وتعالى في سورة الائتِهَم: "إِنَّا الحَمَّر والميسر والأنصاب والأزالم رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون. إنّا يريد الشيطان أن يُوقِع بينكم العداوة والبغضاء في الحمَّر والميسر ويسدّكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهَل أنتُم متهون؟" قالوا: اتهمنا اتهينا بارب. وهذا الطريق الذي سلكه القرآن العظيم في حياة الناس من شرور الحمَّر هو الأسلوب الأمثل في تربية النفس الإنسانية على سلوك السبيل السويّ وحمايتها من سائر الأوضاع، ومنعني قوله عز وجل: "وَلَأَجُنُّبُهُمْ إِلاْ غَابِراً سَيِّئِيْٰ حَتَّى تُغْصَبُوا" أي ولا تقتربوا الصلاة ومواضعها. وهى المساجد حالة كونكم جَنُبًا إلاّ جَنُبْيًّا سَيِّئَي بَعْدَ تَغْصَبُوا حَتَّى تَغْصَبُوا من الجَنَّة، والجَنُب المحتلم أو المقارب أَهْلَه، ويطلق على الواحد والثاني والجامعة وعلى الذكر والأنثى، وقد روى أبو داوود بنسند صاحبه ابن خزيمة من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: جاء رسول الله ﷺ ووجَّهَ بيتَ أصحابه شارعة في المسجد فقال: وَجَهُوا هذَهَ الْبِيْوتِ عن المسجد. ثم دخل رسول
لا يوجد نص يمكن قراءته بشكل طبيعي من الصورة المقدمة.
فأجب يوم عليه الخروج منه، أو يكون الماء في المسجد فيدخل إليه أو يكون طريقه عليه فيم في الضرورة من غير إقامة فهذا كله جائز وقد روى سعيد بن منصور في سنة من حديث جابر رضي الله عنه قال: كان أحدهم يمر في المسجد جنبًا جنبًا، وتأول قوله عز وجل: «إذا عابري سبيل» بالمجازين في المسجد للمخرج منه أو للدخول لأخذ الماء منه أو لكون طريقه عليه ضرورة أولى من تأويل ذلك بالمسافرين لوجهين: الأول: أن المسافر في الجنب لا تصح صلاته بدون التيمم ولم يذكر التيمم مع قوله «إذا عابري سبيل» فيحتاج إلى إيضاح شيءين: عدم الماء، وذكر التيمم، وأما على تأويله بالمجاز فلَا يُجَابَ عَلَى إِيضَار شَيْءٍ، والوجه الثاني: أن الله تعالى ذكر حكم السفر وعدم الماء وجواز التيمم بعد ذلك فلا يعمل هذا على حكم مِعَارَضٍ في نفس الآية، ويدل على ذلك أيضا أن جميع القراء استحسنوا الوقوف على قوله عز وجل: «حتى تغتسلوا» وهو يُدُلُّ على أن حكم الجنازة باقٍ على الجانب إلى غاية الاغتسال. وقوله عز وجل: «إن كنت مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لأستم النساءَ فَلَم تجدوا ماء فتيمموا صعيدا، طيبا فامسحوا بوجوهكم وأيديكم» هذا بيان الأسباب الداعية للتيمم وهي المرض أو السفر أو المجيء من الغائط أو ملامسة النساء. وأصل التيمم في اللغة القصد في الشعرا هو القصد إلى الصعيد ليسح الوجه واليدين بنية استباحة الصلاة ونحوها، وهو من خصائص هذه الأمة، فقد روى البخاري ومسلم من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنها أن النبي ﷺ قال: "أغطيت خسأ لم يغطى أحد قبل نصبته بالرعب من سهرة شهر وجعلت في الأرض مسجداً وظهروا فأذن رجل أدركه الصلاة فليصل. الحديث، وفي لفظ لمسلم من حديث حذيفة: وجعلت تُرِبُّهُمَا لَنَا طُهُورًا إِذ لم نجد الماء. وقد أذن الله عز وجل بالتيمم في آياتين من كتابه الكريم وهما هذه الآية وآية.

291
المائدة: «أيما الذين أنتموا إذا قتمتم إلى الصلاة فاغسلوا وجوهكم وأيديكم إلى المرافق وأمسحوا برضوعكم وأرجلكم إلى الكعبين، وإن كتمتم جنبًا فاطهروا، وإن كتمتم مرضى أو على سفر أو جاء أحد منكم من الغائط أو لامستهم النساء فلم تجدوا ماء فقهموا صعيدا طبيا فافسحوا بوجوهكم وأيديكم منه» وظاهر أن آية النساء هذه متقدمة في النزول على آية المائدة إذ أن آية النساء قرنت بقوله عز وجل: «لا تقربوا الصلاة وأتمنى سكاري حتى تعلموا ما تقولون» وهو الطور الثالث من أطوار تحريم الخمر، أما آية المائدة فقد نزلت بعد تحريم الخمر، لأن صدر سورة المائدة من آخر ما نزل من القرآن، ومن المعلوم أن الطور الرابع والأربع من أطوار تحريم الخمر جاء في سوء المائدة فآية النساء حَرِيْثَة بأن تَسْمَى آية التيمم، وقد روى البخاري ومسلم في صحيحهما من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض أسفاره حتى إذا كانا بالبيضاء أو بذات الجبين اقطع عقدًا، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم على التباسه، وأقام الناس معه، وليستوا على ماء، فأتقى الناس إلى أبي بكر الصديق فقالوا: ألا ترى ما صنعت عائشة، أقامت برسل الله صلى الله عليه وسلم الناس، وليستوا على ماء وليس معهم ماء، فجاء أبو بكر ورسول الله صلى الله عليه وسلم رأسته على فخذي قد نام، فقال: حسبت رسول الله صلى الله عليه وسلم الناس، وليسوا على ماء وليس معهم ماء، فقالت عائشة: فعن أبي بكر أبو بكر وقال ما شاء الله أن يقل، وجعل يطعن بيد في حابرته، فلا يمنعني من التحرك إلا مكان رسول الله صلى الله عليه وسلم على فخذي، فقام رسول الله صلى الله عليه وسلم حين أصبح على غير ماء، فأنزل الله آية التيمم، فقال: يسجد بن الحضير: ما هي إلا بركتكم يا بكر، قال: فأتتني البهاء الذي كنت عليه فأصابتني العيد تجده آخراً. وقد أباحت هذه الآية الكريمة للمرضى والمسافرين ومن جاء من الغائط ومن لأسّ النساء إذا لم يجدوا ماء أن يتيمموا، وعدم وجدان. 292
الماء قد يكون يُعَدّه جلالة أو عدم بعضه أو أن يُخَاف بطلبه فوات رفته أو ضياع راحله أو يُخَاف لضصل أو سابع أو عطشا على نفسه أو غبره إذا توضاً بها معه من الماء أو احتجاجه لطبخ يُطْبخُه أو لا يُقدر على استعمال الماء أو لا يجد من يتناوله أو أن يكون الماء في بئر لكنه لا يُقدر على الوصول إليه لعدم وجود آلهة لنزعة أو كان مريضًا يضره الماء أو يؤجرُ براً أو المركب جمع مريض، والمريض خروج البدن عن حد اعتدال بسبب علة أو جراحة أو غيرها. وقال: «أو على سفر» يعني مسافرين وقوله: «أو جاء أحد منكم من الغائط» أي أو قضى أحدكم حاجته التي تقضى الوضعون من سائر الأحداث التي توجب الطهارة الصغرى وأصل الغائط المكان المنخفض ثم صار يستعمل بمعنى الكبير وبيت الخلاء والقصور الحديث الأصغر، وإن كان العرف خص الغائط بالخارج من الدورة وصار يستعمل في مقابلة البول، وقوله عز وجل: «أو لاستم النساء» هو كنية عن الجماع، وليس هذا تكريرا لقوله عز وجل في نفس الآية: «ولا جنببا إلا عابري سبيل حتى تغتسلوا» إذ أن أحد البيانين لوجوب اغتسل الجبن عند وجود الماء والثاني بيانا لحراز تيهمه عند فقد الماء أو عدم القدرة على استعماله فلا تكرار في الآية. قال البخاري في صحيحه: «باب إذا خاف الجنب على نفسه المرض أو الموت أو خاف العطش تَمَّم، وَيُدْرَك أن عمرو بن العاص أُجْنَب في ليلة باردة تَمَّم وتلا: «ولا تتقُلوا أنفسكم إن الله كان بكم رحيمة» فَدِرَكَ لِلنَّبِي فَلم يُعْطَهَ أه. وقوله عز وجل: «فَتَيَمَّوا صيحة طيبه فامسحوا بوجوههم وأيديكم» أي فأقدسوا ترابا طهارا فاضربوا عليه وامسحوا بوجوهكم وأيديكم منه وقد أوضحت السنة كيفية التَّمَّم وَيُبَيَّنَت مجمله، فقد روى البخاري ومسلم واللفظ لمسلم من حديث عمر بن ياسر رضي الله عنها وقال: «بعثي النبي ﷺ في حاجة فأجنبت فلم أجد الماء فتمّعتُ في الصعيد

293
تمَّ غَرِيصَةَ الدابة، ثم أُتيتُ النبي ﷺ فذكرت له ذلك فقال: إنّا كان يكفيك أن تقول بيديك هكذا، ثم ضرب بيديه الأرض ضربةً واحدة، ثم مَسَح الشمَال على اليمين وظهر كَفَّته وجهه. وفي رواية للبخاري: ضرب بكفيه الأرض ونفخ فيها ثم مسح بها وجهه وكفيه. وقال عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا غَفُورٌ﴾ هو بيان لحبه عز وجل للنسير على عباده فيها يشرعه لهم من الأحكام وما يتفضل به عليهم من الرُّحَمٍ، وما يعامل به المؤمنين من العفو المغفرة.
قال تعالى: «أمّل تر إلى الّذين أوتوا نصيّبًا من الكتاب يشتررون الضَّلالَةَ وَيُرِيدون أنّ يضلّوا السبيل. قال: إِن اللَّهُ أَعْلَمَ بأَعْمَالكُمْ وَكَفِيّ بِتَرابِ الْأُمَّةِ لَهَيْنَ بِهِ نَصِيرًا». من الّذين هادأوا يجرون الكَلِم عن معاصيهم ويقومون شَيْعُنَّا وَعَصْيُنا وَاسْمَعْنَيْنَيْنَ غَيرَ مُسْتَمِعٍ وَأَطْعَنَا وَانْظُرْنَا لَكَانَ حَيْرَانًا هُمْ وَأَقْرَمُ وَلَكِنْ لَغْنُهُمُ اللَّهُ بِكَفْرِهِمْ فَلا يُؤْمِنُونَ إلاّ قَليلاً. يا أَيُّهَا الّذين أوتوا الكتاب آمَنوا بِي نُذُرُنا مَّسْتَفْقِئًا لَا مَعْمَكُمْ مِنْ قَلِلٍ أنْ تَطْمِيسَ وَجُوعًا فِي نَفْسِكُمْ عَلَى أَدْبَارِهِمْ أوْ نَلْعُنَّهُمْ كَيْ لَعَنَّا أَصْحَابُ السَّبِّئَة، وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَقْفُولًا».

بعد أن بنى الله عز وجل فضلله على عباده المؤمنين، ما يُنزل لهم من التشريع المبكي على النسيم، وأباح لهم التيم بالطيب الطاهر للعاجز عن استعمال الماء، تحقيقاً لما بشر الله به الأنبياء حيث وصف لهم رسوله محمد بأنه النبي الأمي الذي يجل لأمه الطبيعة، ويهرم عليهم الخبرات ويضع عليهم إضره والأغلال التي كانت عليهم، وبعد أن أشار قريبا إلى بعض أخلاق اليهود المذمومة بأنهم يبندلون ويأمرون الناس بالبخيل ويكتمون ما آتاه الله من فضله شرع هنا يعدد بعض قبائص اليهود وينذد بسلوكهم المشين ليزداد المسلمون استمساكاً بدينهم الذي من الله به علىهم وفضله به على سائر الأمم، ويجّذروا من «خططات» اليهود ومكرهم السبيء حيث يبذلون كل جهد لإطهاف نور الإسلام، والله يمثّل نوره ولو كره الكافرون، وقوله تعالى: «أمّل تر إلى الّذين أوتوا نصيّبًا من الكتاب يشتررون الضَّلالَةَ وَيُرِيدون أنّ يضلّوا السبيل. قال: إِن اللَّهُ أَعْلَمَ بأَعْمَالكُمْ وَكَفِيّ بِتَرابِ الْأُمَّةِ لَهَيْنَ بِهِ نَصِيرًا». قال ابن كثير رحمه الله في تفسير هاتين الآتيين: يجيئُ تعالى عن اليهود — عليهم لعناؤُ الله المتتابع إلى يوم القيامة — أنهم يشتررون الضلالَةَ بِالْحَذَّاءِ وَيُعْرِضُونَ
عليه من الهدى والعلم النافع. فوالله أعلم بأعداكم، أي هو أعلم بهم، ويجتذبُ منهم، وَكَفِى بِاللَّهِ وَلِيًا وَكَفِى بِاللَّهِ نَصِيرًا، أي وَكَفِى بِاللَّهِ وَلِيًا لِِلْجَٰلِبِ إِلَيْهِ، وَنَصِيرًا لِمَنَ أَسْتَنَصَرَهُ اهـ. وَالخطاب في قوله عز وجل: "أم ترى لكل من تأتي منه الرؤية من المؤمنين، توجيهه إليه ومن توجيهه في قوله تعالى: "وَاللَّهُ أَعْلَمْ بِأُعْدَأِكُمْ" إلى جماعة المؤمنين لإيذان بكل شهرة شناعة حاليهم، وأنها بلغت من الظهور إلى حيث ينتجب منها كل من براها، ومعنى: "أُوتِوا نصيبياً من الكتاب" أي أعطوا حظاً من المعرفة بكتب الأنبياء التي وَضْعَت رسول الله ﷺ عفرِها من نعمة الله ﷺ، وحِقَّةً في الدين الإسلام، فبَشَّرُوا نعمة الله كفراً، وقوله عز وجل: "بَشَّرُون الضلال، ويريدون أن تَضْلِلُوا السَّبِيلَ" هذا تحذير للمؤمنين أن يسنتصحوا أبداً من اليهود وأعداء الإسلام في شيء من أمر دينهم أو يسمعوا شيئاً من طعنهم في الدين لأنهم جمعوا في نفوسهم أخس الصفات المُنْجارة عن قربانهم إذ هم ضالون في أَنفَسِهِم راغبون في إصلاح غيرهم، والتعبير بقوله: "بَشَّرُون الضلال" للدلالة على شدة حرصهم على سلوكي الطريق المُعِرِّجَة، وأنهم يختارون الضلال بدلاً للهدى، والكفر بدلاً للإيمان، والتذكيب بالحق بدلاً التصديق به، وفي قوله عز وجل: "وَاللَّهُ أَعْلَمْ بِأُعْدَأِكُمْ" تأكيده لِتحذير المسلمين من الوقائع في شباك اليهود وفُحُجُّاخِهِم التي ينصبونها لإيقاع المسلمين في الخُطْرَة والضلال، ولِللتاجره إلى ما انطوت عليه نفوس هؤلاء اليهود من الغش والعداء والحسد، قال ابن جرير رحمه الله: "وأما قوله: "وَكَفِى بِاللَّهِ وَلِيًا وَكَفِى بِاللَّهِ نَصِيرًا" فإنه يقول: فَبِاللَّهِ أَيْبَاءِهِمْ فَتَقَوْا وَعَلَيْهِ فَتُوْكَّلُوا، وإليه فارغبوا". 296
دون غيره يُوَثِّقُكُم مَّهَّمَّكُم، وَيُنَصَّرُكُم على أعدائكم، {وكفى بالله وليًا}
يقول: {وَكَفَآكُم وَخَسَبْكُم بِالله رَبِّكُم وَلَيَّكُم وَلِيُّ أَمُورُكُم، بِالحِيَاطَةِ لِكُم}
والحِرارَة مِن أن يُسْتَفْرَكَ أَعْداؤُكُم عن دينكم أو يَصِدُّوكُم عن أَبْيَاعِ نبِيَّكُم،
{وكفى بالله نصيًا} يَقُول: {وَخَسَبْكُم بِالله نَاصِراً لِكُم عَلَى أَعْدَايِكُم وَأَعْدَاءِ}
دينكُم، وعلى مَن بَعْداً دِينَكَ العَوَّاظَ، وَبَعْداً دِينَكَ الْعَوِّجَ أَهْ. وقَوْلُه عَز وَجَل:
{مِن الَّذين هُمْ مَنْ صَادِقُونَ الْكَلَمَ عَن مَّا وَظَفَّهُمْ وَيَقْلُونَ سَمْعَنا وَعَصِينَا}
وَاسْمَعَ غَير مَسْمَع وَزَادَنا لَيْنا بِالْسَّيِّدَتِهِم وَطَعَناهَا فِي الْخَيْرَةِ}{بَعْدَ أَن وَصَفَ الله}
عَز وَجَل الْيَهُودِ فِي الْآيَاتِ السَّابِقَاتِ بِأنَّهُ يُحَرِّكُونَ عَلَى الْضَّلَالَةِ وَيَشْرَونَهَا،
وأَنَّهُ يُجَبِّرُ إِضَلاَغَ الْمَسْلِمِينَ ذَكَر عَز وَجَل هُنَا صُوْراً أُخْرَى مِن قَبَائِح
أَفْعَالِهِمْ وَأَقْوَاهُم بِأَنَّهُمْ يُحَرِّفُونَ الْكُتُبَ الَّتِي بَيْدِهِمْ المَنْسُوبَةَ لِلْأَلْبَاءِ المَشْتَمَلَة
عَلَى صِفَةِ مُحْمَّد رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَبِعَضَ الْأَحَكَامِ الَّتِي لَا يُجَبِّرُونَ كَرْجَمُ الْزَّانِ
وَقَطَعُ بِهِ السَّارِقَ فَأَسْتَبَدَلَهُ بِتَحْمِيمِ الْمَوْجَةَ وَالْتَجْبِيَّةَ وَوَرَكَ إِقَامَةَ الْحَدِ مَطْلُقاً
عَلَى الشَّرِيفِ وَإِقَامَةِهِ عَلَى الْضَعِيفِ، كَأَنَّهُمْ كَانُوا يَفْسَرُونَ مَا فِي الْوَرَائَةِ الَّتِي
بَأْيِدِهِمْ وَكُتِبَ العَهْدُ الْقَدِيمُ بِإِبْرَاحِ شَهَوَاتِهِمْ وَأَهْوَاهُمْ وَإِنْ خَالِفَ الْمَرَادِ
مِنْهَا افْتَرَأَ عَلَى الله وَرَسُولِهِ ﷺ، كَأَنَّهُمْ كَانُوا إِذَا خَاطَبُوا رَسُولَ الله ﷺ أَسْتَعْمَلُوا
الْكَلَامِ الْمَحْتَلِلَ لِلْخِيرِ وَالشَّرِّ وَهُمْ يَرَيْدُونَ الشَّرِّ وَيَرْهَبُونَ أَنْهُمْ يَرِيدُونَ الْخِير
وَيَلْوَنَ الْأَسْتَهِيمَ بِالْكَلَامِ، فَكَانُوا إِذَا سَلَّمُوا عَلَى رَسُولِ اللَّه ﷺ قَالُوا: السَّامُ
عَلَى رُؤْيَاهُمْ أَنْهُمْ يَرِيدُونَ الْسَلامُ عَلَى يَمِينِهِمْ وَالْمَوَاقِعِ أَنْهُمْ يُقَصُّدُونَ: الْمَوْت
عَلَى رُؤْيَاهُمْ أَنْهُمْ يَرِيدُونَ الْسَلامُ عَلَى يَمِينِهِمِ اللَّهُ ﷺ: رَأْيَةً وَهَيْ كَلَِمَةُ
سَبْبُ بَلَغَتِهِمْ وَهُمْ يَوْهُمُونَ أَنْهُمْ يَرِيدُونَ بِهَا: اَتْكَأُوا وَرَأْيَا سَمَعَهُ، وَأَسْتَعَمُّ
لَنا. كَأَنْهَا يَقُولُونَ لِلنَّبِيِّ ﷺ: اَسْمَعَ غَير مَسْمَعَ، يَرِيدُونَ: اَسْمَعَ لا
سَمَعَهُ، وَهُمْ يَوْهُمُونَ وَيُؤْهُمُونَ أَنْهُمْ يَرِيدُونَ: اَسْمَعَ لا سَمَعَتْ مَكِرَهُا.
وَفِي ذَلِكَ يَقُولُ الله عَزَّ وَجَلَ: {فَمِن الَّذين هَادَوا يَرْهَبُونَ الْكَلَََالَّمَ عن

297
موادٍ ماليةٍ، أي من الذين صاروا يهوداً قومٍ أو فريقٍ أو من يحرفون الكلام الذي يقرأنه في كتبهم أو يخاطبون به رسول الله ﷺ عن مواضعه ومقاصده التي وَضُعُّ لها، والعرب تقول: مَنَا يقولُ هذا ومَنَا لا يقولُه أي منا من يقول كذا ومنا من لا يقوله، أو منا فريق يقول كذا ومنا فريق لا يقوله. كما قال عز وجل: {وَمَا مَنَا إِلَّا لِمَقَامٍ مَعْلُومٍ} أي وما منا إلا من له مقام معلوم، وكما قال ذو الرُّمة:

بِكَبْنَتِ عَلَى مَيْتِي بَيْنَ اِعْتَرَفُتهَا وَهِجْتُ الْهُوَى حَتَّى بَكيَ الْقُوُمْ مِنْ أَجْلِهِ وَأَخْرَهُ يَنْبِي مَعْطَةَ الْعُيُونِ بِعَهْلِ مَنْ الْوَجْدِ أَوْ مَذْنِيْكَ بَاءَ مَنْ أَهْلِ}

فقول ذي الرَّمة: ومنهم دُمِعُه أي ومنهم من دُمِعَه. وكما قال الابن السهلي:

كَانَكْ مِنْ جَالِلٍ بني أَقْيَشٍ يُفَقَعُ خَلَفُهُ رَجَلٌ بِسْبُنْ

يعني كأنك جمل من جالل بني أقيش. وكما قال الابن السهلي:

وَمَا الذِّهْبُ إِلَّا تَأْرِيْنُ قَبْلَهَا أَمْوَتُ وأَخْرَى أَتَبَيِّنَ العَيْشَ أَكْثَرَ يَعْنِي بقوله: فمنها أموت أي فمنها تارة أموت فيها. وقد جرت العرب في أساليبها البلاغية على حذف بعض الكلام إذا كان المحذوف معلوماً حتى لو كان ركناً من أركان الجملة كما قال ابن مالك رحمه الله في ألفية:

وَحَذَف مَا يَعْلَم جَانِزَا كَأَا التَّحَرِيفُ وَالْتَتْبِيِلِ وَالْكَلِمٍ جَعَلَ كُلَّ مَا وَمَوْضِعَهُ أَيَّ أَمَاكِه او مَفَاصِدَهُ وَقَدَ جَعَلَ أَحَبَّ السَّوَاءَ مِنَ الْيَهُودِ بِتَتْبِيِلٍ نَفْسِ الحَرَفِ أَحِيَّا وَتَتْبِيِلَهُ بِمَا يَشْهَوْنَ وَبَيْنَ تَأْوِيلِهَا بِالْتَأْوِيلاتِ الفَاسِدةِ وَصَرُفَ مِثْانِيَهَا إِلَى ما يَوْفِقُ أَهْوَآهُمْ وَقَوْلُهُ عِرْضَ وَجَلَّ: {إِنَّا بِّلَيْسِنَتِهِمْ وُطْنُنا فِي الْدِّينِ} أي إن هؤلاء اليهود لعنهم الله كانوا يحرفون الكلام من بعد مواضعه ويلونون أستهم
بالكلام المحتمل للخير والسّر على طريقتهم، تُوهم المسلمين بأنهم يريدون الخير ويهجرون أتباعهم من اليهود بأنهم سبب للمسلمين في تنوع رقائع اليهود عن الدخول في الإسلام إذ يقولون: هؤلاء أَخَبَرُوا بِسَبُورَنَا نُبيهم ولا يعرف أنهم يتبوعون، ولو كان نيا لعرف ذلك، مع أنهم قالوا لرسول الله ﷺ: السّامُ عليكم قال: وعليكم فقد روى البخاري ومسلم واللَّيْل للبخاري عن حديث عائشة رضي الله عنها قالت: دخل رهط من اليهود على رسول الله ﷺ فقالوا: السّامُ عليكم. قالت عائشة: فقتلمها فقالت: وعليكم السّامُ واللَّيْل، قالت: فقال رسول الله ﷺ: مَهَّلَيْنا عائشة إن الله يَجْعَلُ الْرَّفَقَ في الأمرِ كله، فقالت: يا رسول الله: أو لم تسمعُ أن قالوا؟ قال رسول الله ﷺ: قد قلتُ وعليكم. وقد نبى الله عزّ وجل المسلمين إلى التّفطين لدسائس اليهود هذه فحذّر من استعمال هذه الكلمات حتى يُغلق الباب على اليهود قبحهم الله فقال للمسلمين: يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعيا وقولوا انظرُوا واسمعوا، وللكافرين عذابٌ أليم. وقال هنا منددًا باليهود ومؤَثّحًا لهم على سوء أفعالهم وخطّرهما لهم من كُلِّ أساطينهم وغُمْرَهم في الذين: ولو أنهم قالوا سمعننا وأطعنا وسمع وانظروا لكان خيرا لهم وأقوم، ولكن لنحنُ الله بكشفهم فلا يؤمنون إلا قليلاً بيأتى الذين أتى الكتاب آمنوا بها نزيلًا مُصداقًا لما مَعَكُّمُ من قبل أن تطييسَ وَجَهُوهَا فَتَرَدْهَا على أديبها وأعلَنُهُم كَيْ لَعْنَ أَضْحَاب السَّبْتِ، وكان آمر الله مفعولاً. ومعنى قوله عز وجل: ولكن لنحن الله بكشفهم فلا يؤمنون إلا قليلاً؟ أي ولكن الله بتياره تعالى كأحزى هؤلاء اليهود الذين يُنَوِّؤُونُ أساطينهم في خاطبة الرسول ﷺ وتحملون في الدين فأقصاهم وأبعدهم عن الطريق والمؤدب لجحودهم نبوة محمد ﷺ التي كانوا ينشرون بها قبل مجيئه ﷺ فلا يؤمن منهم إلا عدد قليل، وقد أمن عبد الله بن سلام رضي الله عنه في جمعة قليلة منهم، ومنع قوله عز وجل: يا أيها الذين آمنوا
الكتاب آمنوا يا نزلنا مصدقًا لما معكم من قبل أن نطلي وجهنا فتردها على أدبائها ونلعنهم كما لعننا أصحاب السبعة، وكان أمر الله مفعولاً.» أي يامعشر من انتسب إلى الكتاب السماوية المُنزلة على الأنبياء سارعوا إلى الابيان بالكتاب المنزلي على محمد ﷺ المقرر لم أنزل الله عز وجل على الأنبياء من قبل أن نطلي وجهنا فتردها من حسنا وحسرة وترزيل منها معالم الاهتداء وتردها الفقه والإنسور، ونصير كي وصف الله عز وجل المدبرين عن الدُّلُى حيث يقول: «أفهم يسمي مُكبًا على وجهه أهديأ من يمشي سويًا على ضراط مستقيم.» وأصل الطمس هو ذهاب معالم الاهتداء يقال: طريق طامس الأعلام إذا كانت معالم الاهتداء فيه متداولة ضائعة كَا قال كعب بن زهير في قصيدته بانت سعاد: من كل نصاحي الدُّلُى إذا عرفت عرضتها طامس الأعلام مجهول قال في الفاموس: الطمس الدروس والإطاعة بطمس ويطمس وطمس وطمسها طمسها محوته والشيء استنسلت أتسته ومنه وأنا إذا التجوز طمسه الطمس على أموالهم أهلكها اه ومعنى: أو تلعنهم كيا لعنًا أصحاب السبب وكان أمر الله مفعولاً أي أو نطردهم من رحمتنا كيا طردنا الذين اعتدوا في السبب والله يفعل ما يريد لا راد لقضيئه ولا معجب لحكمه وكيا قال عز وجل: قل هل أَتَبَكَّمِ بِمَشَرْفٍ من ذلِك موثية عند الله، من لعنه الله غلب على وجه منهم القردة والخنازير وعبد الطاغوت، أوَلَكَ شر مكانتا وأضل عن سوء السبيل.»
قال تعالى: ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويخافر ما دون ذاك من نشاء، وَمَن يشرك بالله فقد افترى إني عظيماً. ألم تر إلى الذين يركون أنفسهم، بل الله يركى من يشاء ولا يظهرون فينما. انظر كيف يفترون على الله الكذب وتكفي به إني مبيناً.﴾

الإسلامية من الشرك ووسائله أشد التحذير سواء كان شركاً أصغر أو شركاً أكبر، والفرق بين الشرك الأصغر والشرك الأكبر: أن الشرك الأصغر لا يجرؤ من الملحة، ولا يُتيح له الزوجة، ولا يُقيد صاحبته في النار لو مات من غير توية منه، ومن الشرك الأصغر الحلف بغير الله كحلف بالنبي أو الوالي أو البلد أو الوالد أو غير ذلك مما سوى الله تعالى فقد روى الترمذي من حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: من حلف بغير الله فقد أشرك. قال الترمذي: هذا حديث حسن أه. ولذلك كان الحلف بغير الله أكبر من قتل النفس ومن الزنا وشرب الخمر والسيرة؛ لأن الشرك بنوعيه لا يعفه الله عز وجل إلا بتوبة منه بخلاف سائر المعاصي التي دون الشرك كي قال عز وجل هنا: إن الله لا يعفو أن يشرك به ويعف ما دون ذلك من يشاء أمام قسم الله عز وجل بصنعائه وخلوقاته للدلالات والتبني على عظيم قدرته وجليل نعثه وعظمته فليس من هذا القبيل؛ لأن الله تعالى له أن يقسم بما شاء، ولا يدخل في شيء من القياس مع خلقه تبارك وتعالى، وقد روى البخاري ومسلم من حديث ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ أدرك عمر بن الخطاب في زكّب وأمر يُحلف بأبيه فناداهم رسول الله ﷺ: إن الله ينهاكم أن تتعفوا بباباكم فمن كان حالفًا فليحلف الله أو ليصمم. وفي لفظ مسلم من حديث عبد الرحمن بن سمرة قال: قال رسول الله ﷺ: لا تتعفوا بالطواغين ولا بباباكم. ومن الشرك الأصغر قول الإنسان: ما شاء الله وثبت يافلان. أو لولا الله وأنتم كذا، وقد ذيل الله تبارك وتعالى هذه الآية الكريمة بقوله: ومن يشرك بالله فقد افترى إلا عزهُم وأمر في الآية السادسة عشرة بعد المائة من هذه السورة الكريمة: إن الله لا يغفر أن يشرك به ويعف بما دون ذلك من يشاء، ومن يشرك بالله فقد صلِّ ضلالاً بعيداً لأنه الآية الأولى في شأن أهل الكتاب وهم عندهم علمٌ بصحة نبوته، وأن
شريعته ناسخةً جميع الشرائع، ومع ذلك فقد كابدوا في ذلك واقترأوا على
الله، أما الآية الثانية فهي في شأن قوم مشركين ليسهم كتاب ولا عندهم
علم فناسب وصفهم بالضلال، وقالُهُ عز وجل: "فِمَا تَرَى الَّذِين يُزَكَّون
أنفسهم، بل الله يُرِيكُم مَّن يشاءَ". بعد أن أشار الله عز وجل إلى بعض جرائم
أهل الكتاب وأثنمهم جرائمهم يطبعون في المغفرة ويُبْنِي عز وجل استحالة
المغفرة مع الشرك أشار هنا إلى غورهم بتركهم أنفسهم حيث يزعمون أنهم
لن يسيموا الغلَّاء إلا أياً معدودات لأنهم أبناء الله وأحباؤه، وقالوا: لن
يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى، وتعلقوه بالأمان الكاذبة وفي هذا
تنديداً بسماحته ويزكيها وأن من زكاً الله واستعمله في طاعته
فاستجاب الله ورسله ويدعا: "وإذا عمل عملا صالحا لا يغتر به فهذا هو الزاكي
المركزي، كَأَلَى عز وجل: "إِنَّ الَّذِين هُم مِن خَشْيَة رَبِّهِم مُّشفقون. وَالذَّين
هُم بِآيَات رَبِّهِم يُؤمِنون. وَالذَّين هُم بِرَبِّهِم لَا يَشُرَكُون. وَالذِّين يُؤْثَنَّون مَا آتَوُوا
وَقُولُوهُم وَجِلْهُهُم أَنْ هُم إِلَى رَبِّهِم رَاجِعُون. وَلَكِ يُسَارِعُون فِي الخِيرَات وَهُمْ لَا
سِبْقُون. " وَلَذَلِكْ حَرَّمَ الله عز وجل على المسلمين أن يرَكَّوا أنفسهم حيث
قال عز وجل: "وَلَوْ مَا فِي السَّمَوَات وَمَا فِي الْأَرْض لِبَجَرَّ الَّذِين أَسَاءَا وَبَا
عُمِّلوا وَيُبْزِجَ الَّذِين أَحَسَنوا بِ الأخْسَان. الَّذِين يَنِبِئُون كِبَارَ الإِيمَان وَالْفَوَاحِش
إِلَّا الْلَّهَمَّ، إِنَّ رَبِّك وَاسع الْمَغْفَرَة، هُوَ أَعْلَم بِمَكَّ إِنْ أَنْشَأَكُم مِن الأرْض إِذ
أنتَ أَجْنِثَةٌ فِي نَفْسِكُم فَلا تزكوا أنفسكمُ هو أَعْلَم بِمَن أَنْتَى. " وكما
نتهى الإسلام الإنسان عن تركية نفسه فقد بدأ الله أراه أحدًا، وذلك
كله لمنع الغرور والاغترار، فقد روى البخاري ومسلم من حديث أبي موسى
الأشعري رضي الله عنه قال: "سَمِعَ النَّبِي رَجْلاً يُنْبِي علَى رجل وَيُطْرِبه
في المدح فقال: "أُهْلِكِتْمُ أوْ قَطَعْنَمُ ظَهْرَ الرَّجُل. كَي رَوَى البَخَارِي وَمُسْلِم
من حديث أبي بكر رضي الله عنه أن رجلا ذكر عند النبي صلى الله عليه

304
رجل خيراً، فقال النبي ﷺ: "وَجَّهْتَ قَطَعَتْ عِنْقَ صَاحِبِكَ"، يقوله مراراً "إِن كَانَ أحَدُكُم مُذَاحِحاً لا حَالَةً فَلِيَلِقُ: أَخُبِطُ كَذَا وَكَذَا إِنْ كَانَ يَرَى أنَّهُ كَذَا وَقَحِبَهُ اللَّهُ وَلَا يَرْكَزِ على الله أُحْدَهُ"، كأن روي مسلم من حديث المقداد رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: إذا رأيت المداحين فاحترموا في وجههم التراب. كأن روي مسلم من طريق محمد بن عمرو بن عطاء قال سمعت ابني بُرَّة فقالت لي زينب بنت أبي سلامة: إن رسول الله ﷺ، نَهى عن هذا الاسم، وسُمِّيت بُرَّة، فقال رسول الله ﷺ: لا تركوا أَنْفسَكم، الله أيُّهم بأهل الْبُرُّ منكم، فقالوا: بم نُسِمُهَا؟ قال: سَمُوحَا زينب. وقوله تعالى: "وَلا يَتَلَّمُّونَ فِيْلَا" أي ولا يَتَلَّمَنَّ لله تبارك وتعالى من عمل الصالحين مقدار فيتيل كَانَ لا يُجْهِل العاصين إلا ما عملوه ولا يظلمهم مثقال فتيل أو مقدار فيتيل كَانَ قال عز وجل: "إِن اللَّه لا يَظْلَم مَثَاقِلَ ذِرَةٍ". وتك حسَنة يضاعفها ويزومن لدنه أَجْرًا عظيمًا. والفتيل: هو الخيط الدقيق الرقيق الذي يَكُون في شَنَّ النواة، ولا يَكاد يُزَنُ شِيئًا لحَقَارته وتَفاهته، وقد جعل الله تبارك وتعالى في نواة السِّمرة ثلاثين أَشْيَاء يُصِرِّبُ العرب بكل واحد منها المِثَل للشيء التباسه الحكيم، وهي الفتيل والنقير والقطم، وقد ضربها القرآن كذلك مثلاً لشيء التباسه الحكيم فقال عز وجل هنا: "وَلا يَتَلَّمُونَ فِيْلَا" وهو شبيه بقوله عز وجل: "إِن اللَّه لا يَظْلَم مَثَاقِلَ ذِرَةٍ" فهو عز وجل منزه عن ظلم عباده ولو بمقدار فتيل أو ذرة، والقطم هو القشرة الرقيقة التي في ظهر النواة وقد ضرب الله عز وجل بها مثلاً على أن ما عَبَد من دون الله لا يملكون شَيئاً منْها كَانَ تافهًا ولو كان قطَمِيرًا حيث يقول عز وجل: "وَالذين تدعون من دونَ ما يملكون من قطمير" وهو شبيه بقوله عز وجل: "قَلْ ادْعُوا الَّذين زَعِمَت مِن دون اللَّه لا يملكون مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض" وقال عز وجل في بيان شجاعة اليهود: وأذَّن لهم نصيبٌ من
الملك ما أعطوا أحدا نفراً: "أم لهم نصيب من الملك فإذا لا يُؤَنُّون الناس نفراً؟" النقيب هو النكبة التي في ظهر النواة كالنكرة والنقطة، وهي لا تساوي شيئاً، وقوله عز وجل: "انظر كيف يفترون على الله الكذب وكفى به إنها مبيناً." هذا تعجب للنبي ﷺ من قبح سلوك اليهود وجراهم في الاقتراء على الله عز وجل حيث يتزكرون أنفسهم وهم أشد خلق الله نجاسة وأبعد بني آدم عن الطهارة، ويزعمون أنهم أبناء الله وأحباؤه وأنهم لن تمسهم النار إلا أياماً معدودات، ولو لم يكن لهم جريمة سوى الاقتراء واختلافي الكذب على الله عز وجل لكفاه بذلك إنها وجزؤها في بالك وهم غارقوان في بحار الجرائم والآثام التي لا تخف عند حد، ولا يُصيبها العذب. ولا شك أن الكذب على الله تبارك وتعالى ليس كالكذب على غيره فهو أقيح الكذب وأعظمه إنها وجِرْمًا كما قال عز وجل: "ومَن أُنَذِمَ مَن افترى على الله كذباً أو كذب بآياته، إنه لا يفصح الظالمون." وكما قال عز وجل: "فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذب بآياته"، وكما قال عز وجل: "فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذب بآياته، إنه لا يفصح المجرمون"، وكما قال عز وجل: "ومَن أظلم ممن افترى على الله كذباً، أولئك يَعْتَضِّون على ربه ويقول الآيةудاء الذين كَذَّبُوا على ربهم، ألا لعنة الله على الظالمين." كما أن الكذب على رسول الله ﷺ ليس كالكذب على غيره من البشر فقد روى البخاري ومسلم من حديث أنس رضي الله عنه أنه قال: "إنه ليمنعوني أن أحدثكم حديثاً كثيراً أن النبي ﷺ قال: من تعبد على كذباً فليتبوا مقعدة من النار. وفي لفظ لمسلم من حديث المغيرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن كذبًا على ليس كذبًا على أحد، فمن كذب على متعمداً فليتبوا مقعدة من النار."
قال تعالى: 

"قلل تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجنيب والطاغوت ويقولون لذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين أمنوا سبيلاً. أولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن يجد له نصير. أم هم نصيب من الملک؟ فإذا لا يؤمن الناس نقيباً. أم يصدقون الناس على ما آتاهه الله من فضله فقُدّ أثينا آلي إبراهيم الكتب والحكمات وأتيناه ملكاً عظيماً. فمِنهم ممن آمن به وهم من صدقة عنة وقسم بجهنم سعبراء."

هذا بيان لنوع آخر من جرائم اليهود وفضائحهم المناقضة لكل كتاب سياوي، حيث أمنوا بالجنيب والطاغوت وفضلوا عبدة الأوثان على عباد الرحمن، وقاله تبارك وتعالى: "قلل تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب تأكيداً لتعجب النبي وكل من يتأتي له أن يتعجب من قبائح أفعال هؤلاء اليهود الذين لا تنتهي فضائحهم وعذابهم حيث كرر الله عز وجبل ذلك في هذه المقالات المتلاحقة التي ساقها هنا في سورة النساء، إذ بدأ الحديث عنهم بقوله عز وجل: "قلل تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يشترون الضلالة ويريدون أن يضلوا السبيل" ثم قال هنا: "قلل تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجنيب والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين أمنوا سبيلاً. مع أن الله عز وجل قد وصى جميع الأنباء أن يوصوا أصحابهم بالكفر بالطاغوت حيث يقول تبارك وتعالى: "ولقد بعثنا في كل أمة رسولًا أن اعتدوا الله واجتنبوا الطاغوت" ويئن أن دعوى الإيام دون الكفر بالطاغوت لا تفيد مذاعيها حيث يقول عز وجل: "فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الرؤفية لا انفصالاً لهام" والجنب يطلق على الصنم والسحر والكهانة والطرك والثوان والطغرق قال الجوهري في الصحاح: الجنب كلمة تقع على الصنم والكاهن والساحر ونحو ذلك، وفي
الحديث: الطَّيْرُ والعيافة والطَّرِيقُ من الجَبَّةِ اهـ. وقال الفيروز آبادي في القاموس المحيط: الجبَّة بالكسر الصَّنَمُ والكاهنُ والساحرُ، والسحرُ والذي لا خير فيه وكلما مُنِعَ من دون الله تعالى اهـ والحديث الذي أشار إليه الجوهيزي قد أخرجه الإمام أحمد رحمه الله بإسناد جيد حيث قال: حدثنا محمد بن جعفر ثنا عوف ثنا حيَان بن العلاء ثنا قطْنُ بن قبيصة عن أبيه أنَّه سمع النبي ﷺ قال: إن العيافة والطَّرِيقُ والطَّيْرُ من الجَبَّةِ. قال في القاموس: وَعَفَّتُ الطَّيْرُ أوْهِفُها عِيافةً زجَّرتها وهو أن تُعْتَبَر بِاسْبِئِهَا ومَعْالِفُها وأنواعُها فَتَسَبَّعَتْ أو تَشَاءُتْ، والعافيةُ المتكَهَّنُ بالطَّيْرُ أو غيرها اهـ. والطَّرِيقُ هو ضَرْبُ الكاهن بالحَصَصِ، والطَّيْرُ هي التَّشَاءُم وكان أهل الجاهلية إذا أراد الواحد منهم سَفَرًا أو عقد نكاح أو غيره أرسل طائرا أو نظير في جوِّ السياة إلى طائر فإن وجهه توجه إلى جهة يمينه استبشر وتسبَّل وتَيَمَّن به، ومضى في طريقه واعتقد نجاح خطَّته. وإن توجه الطائر إلى جهة الشمال تَشَاءُم وتطَّرِ ورجع عن قدَّسه، واعتقد أنه لن تنجح خطَّته إذا مضى فيها، وكانوا يسمون الطيَر إذا تأمَّن بالساحر، ويسَمُّون الطَّيْر إذا توجه إلى جهة شمَاله بالبارج، فهو يَتَيَمَّنون بالساحر ويتشاءمون بالبارج، وقد أنكر بعض عقلاة أهل الجاهلية هذه العقيدة المتكررة، وأعلن أنها لا تضر ولا تنفع. وفي ذلك يقول:

ولقد عُقِدَتُ وكنَّاللهُمْ لا
فَيَاذَا الآية

و قال آخر:

الرَّجَعُ والطَّيْرُ والكَهَّانُ كُلُّهُمْ مَوْلُودُون ودون العَيَاة افتقاتُ

و قال آخر:

لَعِمَّرَكُمْ مَا تَذَرُّ الطَّوَائِفُ بالحَصَصِ وَلا رَاجِعَاتُ الطَّيْرِ مَا لَهُمْ صَنَاعَٰٓ
وقال آخر:

"وَمَا عَجَابَاتُ الطَّيِّر تُذْنِي مِن الفتي نجاحاً ولا عن رَيْهِمْ قَصُورٍ"

وقال آخر:

"تَحَةَبْ طَبْعُهَا فِي هَا زِيَادًا لِتَحَـبْيِبُهَا وَمَا فيهـَا خَيْرٌ

تَعَلَّمُ أَنْ لا طَيْبَـسَ إِلَّا أَحْـبَيْنَا وَبَاطِلَتُهَا كَثِيرٌ"

وقد أبطل الإسلام هذه العقيدة القبيحة فقد روى البخاري ومسلم في

صحيحهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه رسول الله ﷺ قال:

"لا طَيْبَـسَ وَلَا هَامَةٌ وَلَا ضَفَرٌ. كَأَدَّى الإسْلَام النَّطِيْح شِرْكًا فَقَدْ رَوَى أَبُو داود

والترمذي وسَحَّرَهُ وَصَحِحَهُ عِنْدَ أَبِنِ حِبانٍ مِن حَدِيثِ أَبِنِ مُسْعُودِ رضِي الله عنه

رَفَعَهُ الْطِيْرَةُ شُرْكٍ. وَالطَّاَغِوَتْ مُشْتقَتُ من الطَّيْفَةَ، وَهُوَ مَجَازِرَةُ الْحَدَّ، قَالَ

أَبِنُ الْقَدْرِ رَحَمَهُ اللهُ: الطَّاَغِوَتْ مَا تَجَاوَزَ بِهِ العَبْد حَدًّا مِن مُعْبُودٍ أَو مَبْتَعٍ أَو

مَطَاعٍ، فَطَّاَغِوَتْ كُلُّ قَوْمٍ مِن يَتَحَاكَمُونَ إِلَى غَيْرِ الله وَسُوْلُهُ، أَو يَعْبُدُونَ مِن

دُونَ الله، أَو يَبْعُونَهُ عَلَى غَيْرِ بَصِيرَةَ مِن الله، أَو يَطِيعُونَهُمْ فَيَتَأْمُرُونَ أَنْه

طَاعَةِ الله، فِهذِهِ الطَّاَغِيَتْ العَالَمِ إذا تَأْمُرُتْهَا وَتَأْمَلُتْ أَحْوَالُ النَّاسِ مِعَهَا رَأَيْت

أَكْثَرُهُمْ مِن أَعْرَضٍ عَن عِبَادَةِ الله إِلَى عِبَادَةِ الطَّاَغِيَةِ، وَعَن طَاعَتِهَا وِمَتَابَعَةِ

رَسُولِهَا إِلَى طَاعَةِ الطَّاَغِيَةِ وَمَتَابَعَتِهَا إِلَه. وَلَا أَشْكُ أَنِ الطَّاَغِيَتْ كَثِيرَةٌ

لَا تَكَادْ تَحْصَى، وَعَلَى رَأْسِهَا الشِّيَطَانَ، وَمِن دُعَا النَّاسِ إِلَى عِبَادَةِ غَيْرِ الله،

وَمِن رَبِّي أَنْ يُعْبَدَ مِنْ دُونَ الله، وَمِن رَبِّي أَنْ يَحْكُمَ إِلَى غَيْرِ مَا أَنْزَلَ اللَّه،

وَمِنْ نُصْبِ لَيْحَكِمَ بِغَيْرِ شَرِيعَةِ الله. وَمُعَ أَنَّ اللَّه عَزَّ وَجَلَّ حَرَّمَ الجَبِّيَةَ

وَالطَّاَغِيَةِ فِي سَائِرِ الشِّرَائِعِ السِّياْحَةِ فَإِنَّ الْيَهُودِ قَضَحُهُمْ إِنَّهُ كَانُوا أَشْدُدُ النَّاسِ

إِنْقَيَاذًا لِلْحَجِّيَةِ وَالطَّاَغِيَةِ كَأَنَّهُ عَزَّ وَجَلَّ قَالَ: «وُقِفْتَ إِنْ نَفَعْتُ شَيْئَيْنَ عَلَى

مُلُكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَّرُ سُلَيْمَانُ وَلَكَنَّ الشَّيَاطِينَ كَفَّرُوا يَعْلَمُونَ النَّاسِ السَّحْرَ»
وكما قال: "قل هل أنتمُكم شرٌ من ذلك مُشرِّعَة عند الله، منْ لَعْنَه الله وَعَقِبَتُهُ عَلَيْهِ وَحَجَّلَتْ مِنْهُمْ السَّبِيلَةَ وَالحَنَازِرَ وَعَبَدَ الطَّاغُوتَ، أَوْلَئكَ شُرُّ مَكَانَةَ وأَضْلُلُ عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلَ" وَقَوْلهُ عِزٌ وَجَلَّ: "وَيَقُولُونَ لِلذينَ كَفَرُوا هُؤُلاء أُهْدِى منَ الذينَ آمَنُوا سَيَبَلًا أَيْ وَيَقُولُ هؤلاء اليهود الذين أُتوُّ نصيِّبًا من الكِتابِ للمشركين من قريش وغيرهم عبادة الأصنام والأوثان: إن دينكم خير من دين محمد وصحبه وسِيلِكم أُهدي من سبيلهم مع أن الكِتابِ الذي بأيديهم المنسوب للأنبياء تحرم الشرك وتبين أنه أكبر الكبار وذذا من أوضح الأدلة على انغاش هؤلاء اليهود في الضلال، وأنهم أُعدان أعداء الأنبياء والرسلين. ولذلك أنتَ الله عز وجل فضيحته هذه بقوله: "أَوْلَئكَ الذين لَعْنُهم الله وَمَنْ يَلْعَنَّهُ فَلَنْ يَجِدَ لَهُ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا حَيَاةً" أي أولئك المركون أنفسهم غورروا وفتروا، المؤمنون بالله وبالطاغوت المفضلون دين عبادة الأوثان على دين عبادة الرحمن قد لعنهم الله وطردهم من رحمةه وأحزرهم وأبعدهم عن رضوانه وجنته، وخذلهم فلم يستعملهم في طاعته وأعد لهم عذاباً ألياً، لن يمنعهم منه مكان وللن يدفع عنههم دافع، قال الفخري الرازي رحمه الله: "واعلم أن القوم إنما استحقوا هذا اللعن الشديد؛ لأن الذي ذكره من تفضيل عبادة الأوثان على الذين آمنوا بمحمد ﷺ يجري حُفري المكابرة، فمن يعبده غير الله كيف يكون أفضل حالاً من لا يرضى بمعبود غير الله؟ ومن كان دينه الإقبال بالكلية على خدمة الخالق والإعراض عن الدنيا والإقبال على الآخرة كيف يكون أفضل حالاً من كان بالضد في كل هذه الأحوال؟ والله أعلم له. وقوله تبارك وتعالى: "أَمْ هُمُّ تَصِيِّبُونَ مِنَ الملَّاكِ فَإِذًا لا يُؤْتُونَ النَّاسَ ثَمِيرًا" هو بيان لتأكيد اتصاف اليهود بالبخل بعد بيان اتصافهم بالجهل والمعاندة والمكابرة، وأي بمعنى بل التي للإضراب الانتقالي وهمزة الاستفهام الإنكارية أي بل أنتم حزن وقسط من الملك والتصرف في
خزائن الله، فلو كان لهم تصرف في خزائن الله لبخلوا على الناس بأنفه شيء وأحقره ولم يعطوا أحدا مقدار النزلة أو وزن النزلة التي في ظهر النذوة بخلاً وشقاً. وقوله عز وجل: «أم يَجْعَلُونَ الناس علما ما أتاهم الله من فضله» هو بيان لتأكيد اتصافهم بالحسد وتلقي زوال النعمه عن الناس، وأم بمعنى بل التي للإضراب الانتقائي وهمزة الاستفهام التوكبي وهي تفيد الانتقال من وصفهم بالبخل إلى وصفهم بالحسد، والاستفهام لتوكبيهم على هذا الخلق الذمني الدال على خسارة نفوسهم ولوم طباعهم، فهم لا يذلون لأحد خيراً مهما كان تافها حقيا حتى ولو كان نقياً. ويتمون زوال النعمه عن الغير ويريدون ألا يُعْطَى الله عز وجل أحداً خيراً، فالبخل والحسد يشتركان في الحرص على منع الخير عن الناس وكارهة إنزال رحمة من الله على عباده، وقد قَدَم الله عز وجل وصفهم بالجهله على وصفهم بالبخل والحسد لأن الجهل هو سبب البخل والحسد، والسّبب مقدّم على المسبب، وتتقدم البخل على الحسد يكون الانتقال من وصفهم بقيقحة إلى وصفهم بأقبح منها لأن البخل منعم ما في أيديهم والحسد رغبهم في منع ما عند الله وهو شر الزّنازيل وأقبح الخصاص، وإذا كان المراد بالناس في هذه الآية هو محمد ﷺ، فيكون من قبل العام الذي أريد به الخصوم ويعون شبيها بقوله تعالى في سورة آل عمران «الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاختوهم فزادهم إياهم» وكذلك إذا أريد به محمد ﷺ والمؤمنون. قال ابن جرير رحمه الله: قال أبو جعفر: وأول الأقوال في ذلك بالصورث أن يقال: إن الله عاتب اليهود الذين وصف صفتهم في هذه الآيات، فقال لهم في قِيلٍهم للمشركين من عدَّة الأورثان: إنهم أهدى من محمد وأصحابه بسيلة، على علم منهم بأنهم في قِيلهم ما قالوا من ذلك كذبة. أنعكسون محمد وأصحابه على ما آتاهم الله من فضله، وإنها قلنا: ذلك أول بالصورث لأن ما قبل قوله: «أم يجسدون»
الناس على ما آتاههم الله من فضله مَضَى بِذم الفائتلين من اليهود للذين كفروا: «هواء أهدى من الذين آمنوا سبيلا». فإلاحق قوله: «أم يسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله» بذمهم على ذلك، وتجريف الذين آمنوا الذين يترف فيهم ما قبل أشبه وأولى أه. وقوله عز وجل: «فقلت آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وأتيناه ملكا عظيما. فمنهم من آمن به ومنهم من صد عنه. وكفى بجهنم سعيا.» أي فقد جعلنا في آل إبراهيم وأسباط بني إسرائيل الذين هم من ذريته إبراهيم عليهم السلام البنوة وأنزلنا عليهم كتاب الله عز وجل كصحف إبراهيم وتوراة موسى وزبور داو وإنجيل عيسى وسائر ما أنزل على أنبيائه التذين بعضهم من ذريته إبراهيم من كتاب، ومنهم الحكمة والفقه في الدين والسنن والشريعة التي أوحى الله عز وجل بها إلى هؤلاء الأنبياء عليهم السلام مما لم ينزله في الكتب، ومنهم كذلك ملوكا عظيما كما تفضل على عبده داو وعبدو سليمان عليهم السلام بها ذكره في كتابه الكريم حيث يقول: «وداو وسليمان إذ يهلكان في الحرم إذ نفشت فيه غنم القرم وكنى الحكمهم شاهدين. ففهمناها سليمان، وكلا آتينا حكما وعليها، وسخرنا مع داو الجبال يسبحن والطير، وكنا فاعلين. وعلمناه صناعة لبوس لكم لِتَحْصِيَّنَكم من بأحكم فهل أتم شاكرون. ولسليمان الريح عاصفة تجري بأمره إلى الأرض التي باركتها فيها، وكنا يكره شيء عالمين. ومن الشياطين من يغوصون له ويعملون عملا دون ذلك وكلنا لهم حافظين.»

وكما قال عز وجل: «ولقد آتينا داو منا فضلاً ياجبال أوثى معه والطير وأتى له الجديد. إذ أعمل سابغات وقدُر في السرب. وأعملوا صالحا إنا بنا تعملون بصير. ولسليمان الريح عذَّب الله النار وراوه شهير وسَلَّم أرسلنا له عين القطر ومن الجن ومن يعمر بين يديه إذن ربه ومن يرَّغَ منهم عن أمرنا نذقه من عذاب السعير. يعملون له ما يشاء من معارض وتкалيل وقَفَّان كالمُحَوَّب وقتور.
راستات، اعملوا آل داود شكرًا، وقليل من عبادي الشكور. ومع ذلك فإن بني إسرائيل منهم من آمن بما منحه الله عز وجل هؤلاء الأنبياء وهم من كفر به وعدة نوعا من السحر، وأسندوه إلى الشياطين، وكفى بناء جهنم التي تحرقهم حيث يكونون حطبًا لها ووقودًا. وفي هذا مواساة لرسول الله ﷺ، كأنه قيل: إذا كان هذا موقفهم من أنبياء بني إسرائيل فكيف بك ولست من بني إسرائيل!!
قال تعالى: "إِنَّ الْذُّنُودَ كَفَرُوا بِآبَائِنَاهُ بِعَضُوبَتِهِمْ نَارًا كُلًا نَّضِجْتُ، جُلُودُهُمَّ بَلدُنُهُمَّ جُلُودًا غَيْرًا لِيَذْوَقُوا الْعَذَابَ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَزيِّي حَكِيماً.
وَالْذُّنُودُ آمَنَوا وَعَمِلُوا الصَّلَاةَ وَعَمِلُوا الْبُدْنَاحَاتِ سَئَلُوا جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ مَعْيَنِهَا الأَنْهَارُ.
خَالِدَانِ فِي هَٰذَا أَيْداً هُمْ فِيهَا أَرْوَاحٌ مُطَهَّرَةٌ وَمِنْ نَزْلَهُمْ نَظَارٌ طَيِّبٌ. إِنَّ اللَّهَ يَامَّرُكُمْ
أَنْ تُؤْمِنُوا الأَمَانَاتِ إِلَى أُهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَعْكُسُوا الْعَذَابَ، إِنَّ
اللَّهَ نَعِيَّةً يَعْطِيكُمْ رَيْهٍ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا.

بعد أن أشار الله تبارك وتعالى إلى أن بني إسرائيل منهم من آمن بما أتاه الله عز وجل آل إبراهيم من الكتاب والحكم والملك العظيم، ومنهم من كفر به، وعد kurulu من السحر، وتوعى الكافرين منهم بجهنم التي تسمر بهم، ذكر هنا ما توعى به كل كافر من بني إسرائيل ومن غيرهم، على طريقهأسلوب البلاغي المعروف في علم البديع بأسلوبلفتات والنشر المشوع، حيث قال في الآية السابقة: "فمنهم من آمن به ومنهم من صد عنده"، فقد ذكر من آمن على ذكر من كفر ثم ذكر هنا أمرين يعود الأول منها على الثاني من المذكورين سابقاً، ويعد الثاني على الأول، وقدم الوعيد هنا على الوعيد لإرباك الوعيد لعموم الكافرين بالوعيد بكلما كافر بني إسرائيل الذي ذيلت به الآية السابقة، وتقديم الترهيب على الترغيب، لأن النفس إذا تأثرت بالتهريب فاستجابة الله رب العالمين صارت أهلاً ما أعد الله عباده الصالحين مما لا عين رأت ولا أذن سمعت من النعيم المقيم في جنت النعيم. وقال عز وجل: "إِنَّ الْذُّنُودَ كَفَرُوا بِآبَائِنَاهُ بِعَضُوبَتِهِمْ نَارًا كُلًا
نَّضِجْتُ، جُلُودُهُمَّ بَلدُنُهُمَّ جُلُودًا غَيْرًا لِيَذْوَقُوا الْعَذَابَ"، قال ابن جرير رحمه الله في تفسير هذه الآية: قال أبو جعفر: هذا وعدي من الله جعل نثاؤه للذين أقاموا على تكذيبهم بما أنزل الله على محمد من يهود بني إسرائيل.
ولا يقول قال: إن الجلود العاصمية إذا احتقرت، وجعل الله جلوداً غيراً وعددها كان هذا تعذيباً للجدل لم يعص الله؟ لأننا نقول: إن المصود من تبديل الجلود هو تبديل الصفة لا تبديل الذات بأن يعود إلى عردها الأول غير محرقة، فإذا جدد الله الجلد، وصار ذلك الجلد الجديد سبيلاً لوصول العذاب إليه لم يكن ذلك تعذيباً إلا للعاصمي، وذلك نظر قسول العرب للصياغة إذا استصغأها خاتماً من خاتم مصور بتحويله عن صياغته التي هو عليها إلى صياغة أخرى: صغ لي من هذا خاتم خاتماً غيره فيكسره ويصوغ له من خاتماً غيره، والخاتم المصور بالصياغة الثانية هو الأول، ولكنها لا أعيد بعد كسره خاتماً قبل: هو غيره، وقد أخير رسول الله ﷺ أن الله تعالى يُغَلَّبُ جَلَِدُ الكافر يوم القيامة حتى يصير غلَّبَ جَلَِدَه مسيرة ثلاثة أيام، ويجعل ما بين منكب الكافر في النار بمقدار مسيرة ثلاثة أيام، ويجعل ضرْسَ الكافر أو نابه مثل جبل أحد، ليكون أبلغ في إبلهم، فقد روى مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: ضرْسُ الكافر أو نابه الكافر مثل جبل أحد، وغلظ جَلَِدَه مسيرة ثلاث، وفي لفظه لمسلم من حديث أبي هريرة يرفعه: قال: ما بين منكب الكافر في النار مسيرة ثلاثة أيام للراكون المُسْتَع. كا أخبر الله عز وجل أن جلود الكفار تشهد عليهم يوم
القيامة حيث يقول تبارك وتعالى: \( \text{ويوم ينصر أعداء الله إلى النار فهم يرزعون} \)

* حتى إذا ما جاءوها شهد عليهم سمعهم وأبصارهم وجلوهم بها كانوا يعملون * وظاهر الدلائل لم شهدتم علينا قالوا أنطقنا الله الذي أطلق كل شيء وهو خلقكم أول مرة وإليه ترجعون * ومعنى: لذوقوا العذاب أي ليقاسوا شدته وليحسوا بتجدد الله وكرمه، والتعبير عن إدراك العذاب بالذوق للإشعار بمراة العذاب مع إيلامه وإيجاعه وشدة تأثيره وذلك لأن القوة الدائمة هي أشد الحواس تأثراً، ولا سيما أنهم كانوا يكذبون بعذاب الآخرة ويحكونه كما قال عز وجل: 

* وأما الذين فسقوا فما أواهم النار كلا أرادوا أن يخرجوا منها * أعيدوا فيها وقبل لهم ذوقوا عذاب النار الذي كنت به تكذبون * وكما قال عز وجل: 

* ونقول للذين ظلموا ذوقوا عذاب النار التي كنت بها تكذبون * قوله عز وجل: 

* إن الله كان عزيزا حكيا * أي إن الله عز وجل لم يزال ولا يزال قادراً على الانتقال من الظالمين الكافرين الجاهدين، لا يقدر على الامتناع منه أحد، ولا يعجز عنه شيء في السموات ولا في الأرض، وهو جلت قدرته حكيم في تدبيره وقضائه، وهذه الجملة التذليلية تعليل لما قبلها من الإصلاح والتبديل، وكان مقتضى السياق أن يقال: إنه كان عزيزا حكيا. لكن مقتضى الحال يقتضي وضع لفظ الجلالة موضع الضمير بطريقة الالتفيت لتزيز المهابة منه جل وعلا. قوله عز وجل: 

* والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنت تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً لهم فيها أزوايا مطمورة وندخلمهم ظلا ظليلة * أي والذين أقرروا بالله ورسله وصدقوا بما أنزل الله عز وجل على محمد * وأدوا ما أمرهم الله عز وجل به من فرائضه، واجتبنوا ما حرم الله عز وجل عليهم من معاصيه، ونذروا على التوحيد سوء يدخلهم الله عز وجل يوم القيامة حدائق الجلَّال التي وعد المتقين الصالحين من عباده، تجري من...
تحت تلك الجيوش، أنهار من ماء غير آسٍ، وأنهار من لب من له لذة للشاميين، وأنهار من عسل مصفي، حالة كونهم باقين فيها أبداً بغير نهاية ولا انقطاع، لا يرمين عنها ولا يتحولون منها، وهم في تلك الجيوش أزواج بريشاتٍ من الأدناس والأرجاس والسراب والخض ونفاس والغائط والبول والحل والبصاق وسائر الأذار، نقيات خالصات ، مخلصات قاصرات الطرف لم يطمئن إنُ قبِلهم ولا جانٍ، وسوف يسكن الله عز وجَلَّ أهل الجنة في ظلٍّ نظيرٍ لا يرون فيها شمسا ولا زمهرراً، بل هم في ظلٍّ ممدوح دائمٍ بارد كريم لا سموم معه ولا يحصوم، ولا يبلقهم حز ولا قر، كما قال عز وجَلَّ: «مَثْلُ الجَنَّةِ الَّتِي وُسِعَتْ المَقْطُونُ تَجْرِي مِن تِحْتَها الأَنْهَارُ أَكْثَرُهَا دَائِمٌ وَظِلَّةٌ ». وكما قال تعالى: «وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَن أَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ ». في سَرْدٍ مخدودٍ وَأَطْلَعُ مِنْضْوَدَ. وَأَطْلَعُ مُمْذَدَدُ. وقد روى البخاري ومسلم في صحيحهما من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: إن في الجنة شجرةٌ يسير الراكون الجوايد المصممة السريع مائة عام ما يقطعها. وفي لفظ البخاري ومسلم من حديث أي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: إن في الجنة نَشْجُرُ الراكون في ظلها مائة سنين لا يقطعها. وفي لفظ البخاري ومسلم من حديث سهل ابن سعد عن رسول الله ﷺ قال: إن في الجنة نَشْجُرُ الراكون في ظلها مائة عام لا يقطعها. وقوله تبارك وتعالى: «إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمُ أَنْ تُؤْدِوا الأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بِنَاسٍ أَنْ تَحْكُمْوا بِالْعَدُلِّ، إِنَّ اللَّهَ يَنْعِي الَّيْئُكَمْ بِغُصَّ مَهْزَمٍ »، إن الله كان سميعاً بصيراً. فمناسبته ما قبله أنه عز وجل بعد أن كشف بعض جرائم اليهود وبخاصّة ما تركوه من صفات رسول الله ﷺ التي كانوا يعرفون بها كما يعرفون أبناءهم وضحى أمة الله وعهدّه ومشاهده الذي أخذه عليهم بتأييد النبي الكريم ﷺ، ولم يقفوا عند هذا الحد بل ذهباً في الضلال.
إلى أبعد من ذلك حيث جعلوا دين المشركين الذين يعبدون الأصنام أهدي من دين النبي ﷺ الحامي لجناب التسويد من كل شوائب الشرك وتوعدهم هم وسائر الكفار بالإذاب الأبدية السربدي في نار جهنم، ووعد المؤمنين بالسعيد الأبدية السربدي في جنات ذات ظل ظليل، وهم فيها أزواجهن مطهرة، ووجبة الخطاب هنا إلى جميع المكلفين حيث أمرهم بأداء الأمانات إلى أهلها، ولاشك أنه لم حافظ كل مكلف على الأمانة التي في عنقه سواء كانت دينية أو دينوية وسواء أكانت للأبرار أو للفج้า وأداها كما تحميلها ولم يخن فيها ما تورط اليهود فيما تورطوا فيه، وسلمة المجتمعات من كثير من الشرور والآثار، وفي تصدير هذه الآية الكريمة المعدودة من أميات آيات الأحكام المتضمنة لجميع الشعوب والديين بكلمة التحقيق والتوكيد وإظهار الاسم الجليل بدل الضمير، والتعبير بقوله عز وجل: «يا أمرك» في كل ذلك تفخيم وتوكيد على وجب رعاية الأمانة والتحذير الشديد من خيانتها، وتفنن الأمانات إلى ثلاثة أقسام، الأول: رعاية الأمانة في عبادة الله بإخلاص توفيد والمحافظة على شريعته، وصيانتها من التضيع، وأدائها على الوجه المشروع، الثاني: رعاية الأمانة مع نفسه بصيانة ما نعم الله عليه به من الأعضاء فيحفظ لسانه من الكذب والغيبة والنميمة والبهتان وسائر آفات اللسان، ويحفظ عينه عن النظر إلى ماحره الله، ويحفظ يده ورجله وسائر أعضائه عن أن يركب بها معصية من معاصي الله، الثالث: رعاية الأمانة مع سائر عباد الله من المؤمنين والكفارين وما تحت يده من الحيوانات والبهائم وسائر ما وله الله عز وجل عليه وقد عظم الله تبارك وتعالى شأن الأمانة في مواضع من كتابه الكريم حيث يقول هنا: «إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها» وقال: «إنا عرضنا الأمانة على السمنوات والأرض والجبال فأبين أن تحملها وأشفعهن منها وحملها الإنسان» وقال عز وجل:
والذين هم لأماناتهم وعهدهم رأعون، في سورة المؤمنون وفي سورة المعارج وقال عز وجل: "إياها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم وأتسمل تعلمون."

كما أشار رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى عظم شأن الأمانة وقد روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "لأية المنافقين، إذا حدثت كذب وإذا وعى أموت خان وجاء في الصحيحين من حديث حديث حديث حديث حديث في حديث الشفاعة فيأتيون محمدًا ﷺ ويقومون فيذن له، ويُرسَل الأمانة والرحم فيقومان جنبًا إلى جنب يبتسم إليهما وشئانهما.

وقوله تعالى: "وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل أي وان الله يأمر بإخلاص الحق إلى مستحقه ماها كان، كما قال عز وجل: "إن الله يأمر بالعدل والإحسان" وكما قال: "وإذا قلت فأعدلوا ولو كان ذا قربي" وكما قال عز وجل: "فاحكم بين الناس بالحق ولا تتبع الهوى ولا شك أن العدل هو أساس عز الأمم والدول والشعوب وسبب بقائها وازدهارها. وقوله تعالى: "إن الله نعمه يعطكم به، إن الله كان صميما بصيرا" هو ثناء من الله عز وجل على ما يشرعه لعباده من أصول السلوك والمعاملات والقضاء وأن نعم الموعظة ما يعظ الله عز وجل بها خلقه وهو السميم البصير.

319
قال تعالى: "يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وئلي الأمر منكم فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر، دُلُوكَ خير وأحسِن تأويلًا".

بعد أن أمر الله عز وجل جميع المكلفين سواء كانوا راعية أو رعيًا بأداء الأثمان إلى أهلها، والحكم بين الناس بالعدل، أمر عز وجل هذا الرعاية ببطاعة الله وطاعة رسوله، وطاعة من ولاه عز وجل أمرهم منهم، وهذه الآية الكرامة مع الآية السابقة تنظم هذه السياسة الشرعية المرشدة، التي تستعد البلاد والعبد، ويتمتع الناس في ظلها بالأمن والاستقرار، وقد ألف شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله رسالته المعروفة باسم "السياسة الشرعية" وجعل مبناها على هاتين الآيتين الكربيتين حيث قال في صدرها: هذه رسالة محترقة، فيها جوامع من السياسة الإلهية والآيات النبوية، لا يستغني عنها الراعي والرعية، اقتصاها من أوجب الله تحصية من وراء الأمور، كما قال النبي ﷺ في ثبت عنه من غير وجه في صحيح مسلم: "إن الله يرضى لكم ثلاثًا: أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئا، وأن تعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرطوا، وأن تناصحوا من ولاء الله أمركم، و هذه الرسالة مبينة على آيتين في كتاب الله، وهي قوله تعالى: "إن الله يأمرك أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل، فإن الله ي-layoutُكم به، إن الله كان سميعا بصيراً، يا أيها الذين آمنو أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر، ذلك خير وأحسن تأويلًا". وقد نزلت هذه الآية الكرامة في عبد الله بن خدَافُ بن قيس بن عبيدة السهمي إذ بعثه رسول الله ﷺ في سرية، فقد روى البخاري ومسلم في صحيحهم من حديث عبد الله بن
عباس رضي الله عنه قال: أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم
نزلت في عبد الله بن حذافة بن قيس بن عدي إذ بعثه النبي ﷺ في سرية
كما روى البخاري ومسلم واللفظ لمسلم من حديث علي رضي الله عنه قال:
بعث رسول الله ﷺ سريًا واستعمال عليهم رجلاً من الأنصار، وأمرهم أن
يعملوا له ويطيعوا، فأغضبوه في شيء، فقال: اجمعوا لي حطبا، فجمعوا
له، ثم قال: أوقذوا نازاراً، فأوقذوا ثم قال: ألم يأمركم رسول الله ﷺ أن
تسمعوا لي وتطيعوا، قالوا: بل، قال: فادخلوا، قال: فنظر بعضهم إلى
بعض، فقالوا: إننا قررنا إلى رسول الله ﷺ من النار، فكانوا كذلك، وسكن
عضبهم، وطفقت النار، فلما رجعوا ذكروا ذلك للنبي ﷺ، فقال: لو دخلوها
ما خرجوا منها، إنها الطاعة في المعرفة. ومعنى: أطيعوا الله ﷺ أي انقادوا
لتعاليم كتابه، ومعني: وأطيعوا الرسول ﷺ أي واتبعوا سنته ﷺ، ومعني:
وأولي الأمر منكم ﷺ أي وأطيعوا أمراءكم وعلماءكم الذين يستبطن
الأحكام الشرعية من كتاب الله ﷺ وسنة رسوله ﷺ ومن أصول الدين وقواعده،
وقد حضّ رسول الله ﷺ على طاعة ولي الأمر وحذر أشد التحذير من
معصيته، مادام لم يأمر بمعصية الله ﷺ وجعل، واعتبر رسول الله ﷺ طاعة
الامير من طاعة رسول الله ﷺ، وتعصيته من معصية رسول الله ﷺ فقد روى
البخاري ومسلم في صحيحهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول
الله ﷺ قال: من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصانى فقد عصى الله، ومن
أطاع أميري فقد أطاعني، ومن عصى أميري فقد عصاني. وفي فظ
للبخاري في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع رسول الله
ّ يقول: من أطاعني فقد أطاع الله، ومن عصانى فقد عصى الله، ومن
يُبِعَ الاميرَ فقد أطاعني، ومن يُعْصى الأميرَ فقد عصاني. وفي فظ لمسلم من
حديث أبي هريرة رضي الله عنه ﷺ قال: من أطاعني فقد أطاع
الله، ومن يعصني فقد عصى الله، ومن يطيع الأمير فقد أطاعني، ومن يعِّصِّم الأمير فقد عصانى. وبهذا يتاكد وجوُب طاعة الأمير مادام لم يأمرك بمعصية الله فإن أمرك بمعصية فلا طاعة لمَّحلَّك في مصيَّة الخلق تبارك وتعالى. ولذلك روى البخاري ومسلم من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنها عن النبي ﷺ قال: على المرء المسلم السمع والطاعة فيها أحب وكره إلا أن يُؤمَر بمعصية، فإن أمرك بمعصية فلا سمع ولا طاعة. كما روى البخاري ومسلم من طريق جنادة بن أبي أمية قال: دخلنا على عَبَّادة بن الصامت وهو مريض، قلنا: أصلحك الله، حذَّرت بطريق الله إلى سمعه عن النبي ﷺ، قال: دعانا النبي ﷺ فَقَبَعَنا، فقال فيها: أَخَذْ عَليّا أن بِابْنَيْنا على السمع والطاعة في مِشْتَطِنَا ومَكْرُهَا، وعِشْرَنا وَيُسَرِّنا، وأثارة عليّنا وألا تنازع الأمر أهله، إلا أنْ تَرَى كَمْ شَرَّاحا عندكم من الله فيه بِرُكَّان، كما روى البخاري من حديث أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: اسْمَعُوا وأطيعوا وإن استَغْفِرَ عليك عَبْدَ رَبِّي كَانَ رَأيَهُ زَيْبِيَة. كما روى مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: عليك السُّمْعُ والطاعة في عَشْرِك ومِشْتَطِنك ومَكْرُهَا، وأثْرة عليك، كما روى مسلم من حديث أبي ذر رضي الله عنه قال: إن خليفة أوسَانى أنْ أَسْمَعُ وأطيعُ وإن كان عَبْدًا مُجْدِعُ الأطراف. وفي لفظ: وإن كان عَبْدًا حبشي مُجْدِعُ الأطراف كما روى مسلم في صحيحه من حديث أم الحَصْيَن رضي الله عنها أنها سمعت رسول الله ﷺ يَنْتَبُبُ في حجة الوداع وهو يقول: ولو استغفَر عليّك عَبْدُ رَبِّي كَانَ مُحْتَفَظُ بكتاب الله فاسمعوا له وأطيعوا. وقد أوجب الإسلام طاعة ولي الأمر حتى لو ضرب ظهره وأخذ مالك بغير حق، وأن من خرج على ولي الأمر فات على ذلك فيمتته ميتة جاهلية، فقد روى البخاري ومسلم من حديث ابن عباس رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: من رأى
من أميره شيئا يكرهه قُلْتُهُ عليه، فإنه من فارق الجمعها شبارا فيات إلا مات
ميثة جاهلية، وفي رواية للبخاري ومسلم واللفظ للبخاري من حديث ابن
عباس رضي الله عنها عن النبي ﷺ قال: «من كره من أميره شيئا قُلْتُهُ»،
فإنه من خرج من السلطان شبارا مات ميثة جاهلية، كما روى البخاري
ومسلم عن طريق أبي إدريس الخولاني قال: سمعت حديث بن اليران يقول:
كان الناس يسألون رسول الله ﷺ عن الخير وكتبت أسأله عن الشر خافأ أن
يُبَذَّرْ كنف، فقلت: يا رسول الله فإن كنتا في جاهلية وشر، فاجعنا الله
بهذا الخير، فهل بعد هذا الخير من شر قال: نعم، قلت: وهل بعد ذلك الشر من
خير قال: نعم، وفيه دخان قلت: وما دخانه قال: قوم يهدون بغير
هندسي تعرف منهم وتشكر قلت: فهل بعد ذلك الخير من شر قال:
نعم دعاء على أبواب جهنم من أجلهم إليها قد فروت فيها قلت: يا رسول
الله صلّه ﷺ لنا قال: هم من جلد ذنبا ويتكلمون بالسنتنا قلت: فيا
تأميدي إن أدركني ذلك قال: تَنُّرَ جماعة المسلمين وإمامهم، قلت: فإن لم
يكن لهم جماعة ولا إمام قال: فاعترف تلك الفرق كلها، ولو أن تغصب
بأصل شجرة حتى يُذْرَ ك من ذلك المرت وأنت على ذلك وفي لفظ لسلم من
 طريق أبي سلام قال: قال حديث بن اليران قال: يا رسول الله إننا كما يشر
فجاء الله به فنظر فيه فهل من وراء هذا الخير شر قال: نعم، قلت:
هل وراء ذلك الشر خير قال: نعم، قلت: فهل وراء ذلك الخير شر قال:
نعم قال: كيف قال: يكون بعمري أيمة لا يهددون بهداي ولا يستنون
بستني، وسيقوم فيهم رجال قلوب الشباب في جُيُوش إنس قال:
قلت: كيف أصغك يا رسول الله إن أدرك ذلك قال: تسمع وتتبع للأمير
وإني ضربت ظهرك ونهدت مالك فاسمح وأطع وقوله تبارك وتعالى: «فإن
تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول» بعد أن بين الله تبارك وتعالو الأسّاس

٣٢٣
الأول للنظام في الإسلام، وأنه مبني على طاعة الله عز وجل وطاعة رسوله ﷺ وطاعة أولي الأمر من المسلمين المنقذين لأمر الله وأمر رسوله ﷺ الدائرين في ذلك الإسلام، ذكر هنا قاعدة كلية تضبط نظام المسلمين وتحميهم من التنافر والتشتت والتفرق وتندرج تحتها جميع الجزيئات من الحوادث التي تحدث للمسلمين والتي قد تثير بينهم نزاعاً، ويتناوبونها، ويتناوبونها، حيث بين عز وجل أنه يتحتم على المسلمين إذا اختلفوا في مسألة من المسائل ألا يقولوا فيها قولاً أو يحكموا فيها بحكم من تلقؤ أنفسهم أو اتباعاً لشهواتهم بل عليهم أن يرجعوا في كل مسألة أو فتوى أو حكم إلى كتاب الله عز وجل إن كان حكم المسألة منوصوصاً فيه، فإن لم يكن حكم المسألة منوصوصاً فيه وجب عليهم أن يرجعوا إلى سنة رسول الله ﷺ إن كان الحكم منوصوصاً فيه فإن لم يجدوا الحكم منوصوصاً في كتاب الله أو في سنة رسول الله ﷺ ردوه إلى القواعد التي دل عليها كتاب الله أو سنة رسول الله ﷺ أو إلى ما أجمع عليه أصحاب رسول الله ﷺ أو إلى أهل الحكمة والعقد من المسلمين القادرين على استنباط الأحكام من أصول الإسلام وقواعده العامة، كما قال عز وجل: ﴿ولو ردوه إلى الرسول ولى أولي الأمور منهم لعلهم الذين يستبطنون منهم ﴿وعليهم أن يضرعوا إلى الله عند الاختلاف ويسألوا أن يهدؤهم إلى الحق، وقد أشار إلى ذلك رسول الله ﷺ فقد روى مسلم من طريق أبي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف قال: سألت عائشة أم المؤمنين بأي شيء كان النبي ﷺ يفتح صلاته إذا قام من الليل؟ قالت: كان إذا قام من الليل افتح صلاته: اللهم رب جماعيَّ وموكيلك، وإسرائيل فاطر السموات والأرض أعلم الغيب والشهادة أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا فيه يختلفون، اهدني لما اختلف فيه من الحق بإذنك إنك تهدي من تشاع إلى صراط مستقيم. وقد وصف الله عز وجل الذين يرجعون
عند الاختلاف إلى كتاب الله وإلى سنة رسول الله ﷺ بأنهم هم المؤمنون بأي
واليوم الآخر وأنهم يحملون العاقبة حيث يقول: "إن كنتم تؤمنون بسنت
واليوم الآخر، ذلك خير وأحسن تأويل" أي إن التحاكم إلى كتاب الله وسنة
رسوله ﷺ هو أفضل منهج توجه الإنسان وهو أحسن عاقبة ومآلًا.
قال تعالى: 

أَلَمْ تَرَ الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِيَدَّ رَحْمَتِهِ وَمَا أَنزَلَ مِنْهُ وَكَذَّبُوا الْمَلَائِكَةَ وَقَالُوا يَا أُولُو الْكَفَايَةِ إِنَّهُمْ أُقَزُّوا بِهِ وَيُرِيدُ 

السُّيُورُ أن يُضْلِلُهُمْ صَالِحًا بِعَدْيًا. وَإِذَا قَالُوا لِلَّهِ يَوْمَ الْجَمِيعِ وَلَا يَأْتِيُهُمْ سُوءًا ذُكْرُهُمْ. فَكَيْفَ إِنَّ أَصَابَتْهُمْ مَوْعِظَةٌ يَا 

قَدُمْتُ أُبْدِيَهِمْ ثُمَّ جَاعَلْتُهُمْ يَتَلَقَّفُونَ بِاللَّهِ إِنَّا إِنَّا إِلَى إِخْتِلَافٍ وَنَظِيفٍ. أُولُو الْكَفَايَةِ 

الذين يَعْلَمُ اللَّهُ مَا فِيهِمْ مَأْمُوْضٌ عَنْهُمْ وَعَظِمُّهُمْ وَقُلِّهِمْ فِي أُنْفِسِهِمْ. فَوَلَا 

بُلْيَأٍ.

بعد أن أَرَضَ اللَّهُ تَبَارَك وَتَعَالَ الْعَبَّاد إِلَى قُوَّادِ السَّيَاسةِ الْشَّرِيعَةِ الْرَّشِيدَةِ 

التي تُسَعِّد السُّلَّامُ وَالْعَبَّاد وَيَتَمِنُّ النَّاسَ فِي ظَلَّةٍ بَيْنَ الْأَمَنِ وَالْإِسْتِقْرَارِ، حَيْثَ 

يُكُون مَرْجِعُهُمْ فِي جَمْعِ قَضَائِهِمُ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ وَإِلَى سَنَةِ رِسُولِهِ يَسْلُكُهُمْ هَدًى النَّبيِّ، وَأَنْهُمْ إن 

تَنَازَعُوا فِي شَيْءٍ رَدُّوهُ إِلَى كِتَابِ اللَّهِ وَإِلَى سَنَةِ رِسُولِهِ يَسْلُكُهُمْ، وَقَدْ ذَكَرَ عَزَّ وَجَلَّ 

أَن هَذَا الْمِنْهِجُ هُوَ خَيْرُ الْمَنَاخِجِ عَلَى الْإِلْطَلاَقِ وَأَنَّهُ أَحْسَنُ الْآَنَظِمَةِ فِي الَّحَالِ 

وَالْمَلَائِل، شَرِّعْنَاهَا فِي التَّنَدِيْدِ وَالْتَشْوِيْخِ وَالْتَعِجِيبِ مِنْ يَرْغِبُ عَنْ هَذَا الْمِنْهِجِ 

الذِّي أَنْ زَوْجُهُ وَالصَّرَاطُ السَّمِيْقِ، يَتَمَضِرُّ وَيَمْعَلُ عَنْ شَرِعِ اللهِ الحَكِيمِ العَلِيمِ 

الخَيْرِ، وَيَرْغَبُ فِي التَّحَاكُمِ إِلَى غَيْرِ الْكِتَابِ وَالسَّنَةِ، وَيَرْضِيُ بِالْإِسْتِقْرَارِ 

لِلطَّاعُوتِ وَالشَّيْطَانِ، وَلَوْ كَانَ هَذَا الْمُنْحَرِفُ إِلَى الْطَّاعُوتِ مِبَارَزًا بِالْعَداوَةِ 

لَوْ سَوَى مُظَهَّرًا لِلْكَفْرِ وَالتَّكِذِيبِ لَهُ أَمْرٌ، لَّكِنَّ العَجِبِ العِجَابِ أَنْ يُصَدِّرَ هَذَا مِنْ بَدْعِ 

الإِيَّاهِ بَلْ وَمَا نُزِلَ عَلَى مُخْرِجٍ مِنِّيِّ الْقُرْآنِ وَمَا نُزِلَ عَلَى الأَنْبِياءِ السَّابِقِينَ 

وَهَذَا مِنْ أَبْرَزِ أَذَلَّةِ جَهَلِهِمْ وَتَناَقِضَاهُمْ، وَأَظَهَّرَ أَمَارَاتَ نَفَاقِهِمْ وَتَذِبِّبَهُمْ. 

وَظَاهَرَ قَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ: أَلَمْ تَرَ الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِيَدَّ رَحْمَتِهِ وَمَا 

326
أنزل من قبلك يزيدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفرُوا بها 
يعلم جميع من عدل عن الحكم أو التحاكم بالكتاب والسنة إلى ما سواء، سواء كان عرفاً أو أعجباً، سواء كان ما يحكم به أو يتحاكم إليه قانوناً وضعياً، أو شخصاً معيناً أو غير معين، فإن الحكم والتحاكم بالكتاب أو السنة هو الحق وماذا بعد الحق إلا الباطل والضلال، وهو المراد بالطاغوت، فمن حكم أو احتمك إلى غير شرع الله فهو كافر بالله مؤمن بالطاغوت، وقد أمر الله عز وجل جميع المكلفين أن يؤمنوا بالله ويكفروا بالطاغوت وبعث بذلك جميع رسوله وسائر أبنائه، كما قال تبارك وتعالى: «ولقد بثنا في كل أمة رسولًا أن عبدوا الله واجتنيوا الطاغوت» ولاشك أن من لم يرض بهم الله يكون منقاداً للشيطان، ولذلك ديل الله عز وجل هذه الآية بقوله تبارك وتعالى: «ويريد الشيطان أن يضُهِّلهمُّ صلى الله عليه وسلم» أي يحير الشيطان عدّو الناس على إلقائهم في المهاك، وإبعادهم عن صراط الله المستقيم، وحرمانهم من أسباب هداهم، وصدْحهم عما يسبهم في الجحالة، ومعنى: يزعمون أي يذعنُون زوراً وكذباً، وأكثر ما يستعمل في القول الذي لا تتحقق صحته، والتعبير بقوله: «يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت» إشعار بأن مجرد الرغبة في التحاكم إلى الطاغوت كفر فلا يك بمن حكم به أو تحاكم إليه فعلاً; فذك لا شك اقترب وأتبع وأعظم مُجرماً وأشد كفراً 
وقوله عز وجل: «فإذا قيل لهم تعالى إلى ما أنزل الله والرسول رأيت المنافقين يُصدْعون عنك صدوداً» زيادة في بشاعتهم ببيان إعراضهم صرحاً عن التحاكم إلى شرع الله بعد بيان إعراضهم عن ذلك برغبتهم في التحاكم إلى الطاغوت وكان مقتضى السياق أن قال: رأيتهم يصدرون عنك صدوداً، لكن مقتضى الحال اقتضى وضع الاسم الظاهرة حيث قال: رأيت المنافقين» بدل الضمير لتسجيل صفة التفاق عليهم، وأنهم كاذبة في دعوى
لا يحرف عن التحاقم إلى شرع الله إلا الطالبون الذين في قلوبهم مرض، أو المرتابون، أو الذين يسيرون الظنَّ بالله ورسوله، ويخفقون أن يجيب الله عليهم ورسوله حيث يقول عز وجل في سورة النور: "ويقولون آمنا بالله وبالرسول وأطعنا ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك، وما أوَّلُكَ بالمؤمنين. وإذا دعوّا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم إذا فريق منهم مُعَرَّضون* وإن يكن لهم الحقُّ يأتوا إليه مذعنين. أفي قلوبهم مرض أم ارتذوا أم يخفقون أن يجيب الله عليهم ورسوله، بل أوَّلُكَ هم الطالبون. إنها كان قول المؤمنين إذا دعوّا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا سمعنا وأطعنا، وأوَّلُكَ هم الملحون. ومن يطع الله ورسوله ويعمل الصالحات ويُنصّف الله ويعمل الصالحات ويُنصّفه فأوَّلُكَ هم الفائزينُ". وهذا يترى أشد التقرير أن من يُعرَض عن الاحتكام إلى كتاب الله ورسوله لا يُعرَض بسبب عيب في هذا النظام المحكم المتقن الدقيق اللوائى الشافى الكافي الصالح لكل زمان ومكان وجيل وقَيْل، وإنما يُعرَض بسبب علة في نفسه ومرض في قلبه، وسوء ظن بالله ورسوله، ولذلك وصفهم الله عز وجل بأنهم الكافرون الطالبون الفاسقون حيث يقول عز وجل: "فمن لم يحكم بها أنزل الله فأوَّلُكَ هم الكافرونَ"، "فمن لم يحكم بما أنزل الله فأوَّلُكَ هم الطالبونَ"، "فمن لم يحكم بما أنزل الله فأوَّلُكَ هم الفاسقونَ"، كما وصفهم بأنهم يجّيئون حكم الجاهلية العمياء وأهواءها، ويفضلونها على شرعة ومنهاج أحكام الحاكمين وأرحام الراحين حيث يقول عز وجل: "افحكمُ الجاهلية يُبْغِينُون. ومن أحسن من الله حَكِيْاً لقُومٍ يَوقِنُونَ". وقد أشار الله تبارك وتعالى في غير موضع من كتبه الكريم إلى أن الإعراض عن منهاج الله وشرعته يُجْبِب للمعرضين مصائب وبلايا ونكبات في الحالة كما يؤدي بهم إلى عذاب الجحيم في الآجلة حيث يقول هنا: "فكيف إذا أصابتهم مصيبة بيا قدمنت".

٣٢٨
أيدهم ثم جاءوك يجلفون بالله إن أردنا إلا إحساناً وتوفيقاً، وقال تبارك وتعالى في سورة المائدة: "وأيما حكم بينهم يا نزل الله ولا تتبع أهواؤهم وأذرهم أن يُفنَنوك عن بعض ما أنزل الله إليك فإن تُولوا فاعلم أنكُمْ يعُرِيدُ الله أن يصيّبهُم ببعض ذنوبهم وإن كثيرة من الناس لفاسقون" ومنعه قوله عز وجل: "فكيف إذا أصابتهم مصيبة بها قدمت أيديهم ثم جاءوك يجلفون بالله إن أردنا إلا إحساناً وتوفيقاً" أي فكيف يكون حال هؤلاء الذين يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت ويعرضون عن شرف الله ومنهجه كيف يكون حال هؤلاء المجرمين إذا أنزل الله جهم بعض العقوبات العاجلة، بسبب إعراضهم عن شصرف الله ومنهجه، وأهلهم الدّابة والهواوين جعل للمسلمين العزة والسلطان ثم جاءوك بعد أن أبقنوا أنهم لا طاقة لهم بمعارضة شريعتكم، وإظهار العداوة لك، واضطرارهم لصامتكم، وأخذوا يجلفون بالله كذباً وزوراً أنهم ما يرغبون عن شريعتكم تكذيباً لك وأنهم إنها تحاكموا إلى ما تحاكموا إليه إحساناً منهم ومداراة ومصناعة وجميعاً للقلوب، وهذه المنافعون الذين يجلفون بهذه الآيات الكاذبة يحكمون على أنفسهم بأنهم لم تتركهم النقم الذي حلت بهم، وأنهم مستمرون على نفاقهم وبخت طويتهم، قال ابن جرير رحمه الله في تفسير هذه الآية: وهذا خبر من الله تعالى ذكره عن هؤلاء المنافعين أنهم لا يرضىهم عن النفاق العيب والنقم، وأنهم إن تاتهم عقوبة من الله على تحاكمهم إلى الطاغوت لم يبتغوا ولم يتوبوا، ولكنهم يجلفون بالله كذباً وجراً على الله: ما أردنا باحتمالنا إليه إلا الإحسان من بعضنا إلى بعض، والصواب فيها احتمالنا فيه إليه اهتم، ولاشك أن عموم المعاصي تجلب على مرتكيها المصائب والنكبات كأ قال عز وجل: "وما أصابكم من مصيبة فيها كسبت أيديكم وغفوا عن كثير" وقد تكون المعصية خاصية ونصيب أوضارها العامة كما قال عز وجل: "واتقوا فتنه لا تصيبن".
الذين ظلموا منكم خاصة واعلموا أن الله شديد العقاب لكن تهديد الله عز وجل للذين يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت بما تهدّد هم به من إصابتهم بالصائب والنكبات إشعار للناس بخطورة التحاكم أو الحكم بغير ما أنزل الله وبيان لغائفة هذه الجريمة وخصوصة عاقبتها. وقوله تبارك وتعالى:

من ذنوبهم الراجعين عن غيرهم وضلالهم، أما الجملة الثالثة من الجمل الفعلية التي اشتملت عليها هذه الآية الكريمة فهي قوله عز وجل: ُوقَل هم في أنفسهم قولًا بليغًا أي وليكن حديثك معهم ووعظك لهم بالكلام المؤثر الذي يخالط نفوسهم ويستوحي على مشاعرهم، ويأخذ بأصابتهم، والخطاب وإن كان موجهًا لإمام البلاء وسيد الفصحاء، من أورى جوامع الكلم محمد عليه الصلاة والسلام أبرز أولاد الشهداء، أدركوا أبلغ الكلام وأقفصوه وأن يبتعدوا عن المستهجين الركيك؛ والبلاغة هي إيصال المعنى إلى القلب في أحسن صورة من اللفظ، أو هي جُسّن العبارة مع صحة المعنى، من غير إطالة عمل ولا إيجاز نقل ولذلك قول: خير الكلام ما قل ودلَّ.
قال تعالى: "وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيَبْلُغَ بِهِ إِبَادَتَهُ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا، وَلَوْ كَانُوا إِذْ ظَلَمُوا أَنفسَهُمْ فَجَاءَ بِهِمُ الْمَلَأُ فَأَسْتَغْفَرُوا اللَّهُ وَأَسْتَغْفَرُوا هُمُ الرَّسُولَ لَوْ جَاءَهُمْ اللَّهُ نُودِيًا رَجُلًا. فَلاَ تَزَادُوا نَسِيَةً حَتَّى يَحْمِلْهُ الْمَلَأُ جَنُوتَهُمْ فَيَأْتِيِّهِمْ نُودِيًا رَجُلًا حَيَاةً رَجُلًا. فَلاَ تَزَادُوا نَسِيَةً حَتَّى يَحْمِلْهُ الْمَلَأُ جَنُوتَهُمْ فَيَأْتِيِّهِمْ نُودِيًا رَجُلًا حَيَاةً رَجُلًا." 

بعد أن نَّسَدَالله عز وجل بِمِن يَدَّعِي الإيّان بِكُتِبِهِ النَّزِيلة عَلَى الأنيِّباء، تَمْ يُرْغَب في التَّحَاكِم إلى الطاغوِت، وَأَنْذَر هؤلاء بِمَصائِب يَضِيقُهُمْ وَبِبَلاِيَا تَلْحُق بهم، وَبِكَلِمَة يَتَحَاكِم إلى الطاغوِت إلى يوم القيامة، وَتَعَوَّدهم مِنْ عَز وَجِلْ لا تَخْفَى عَلَيْهِ ما انْطَوَّت عَلَيْهِ قَلْوُهُمْ مِنْ شَرِ وَفَسَادٍ، وَأَرْشَد حَبِيبٍ وَرَسُولٍ وَسَيِّد خَلِيفَهُ مُحَمَّدًا ﷺ إِلَى أَفْضِلَ المَنَاهج الَّتِي يَسْلِكُها فِي التَّعَالَم مَعْ هؤلاء المُنَاهجينٍ، أَعْلَن هَذَا أَنَّهَا مَا أَرْسَل أَحَدًا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمُ عَلَيْهِمْ إِلَى لَتْحِكَم أَعْمَلُهُمْ إِلَى مَناهجَهُمْ، وأَنَّهُ يَتَحَمَّل عَلَى كَلِمَهُمْ مِنْ يَدْعِي الإيّان أَن يَلْتَزَم بِطَاعَةِ الرَّسُولِ الَّذِي يَكُون حَظَّةً مِنْ الأنيِّباء، ثُمْ أَشْار تَباَرَك وَتَعَالَى إِلَى أَنّهَا يَفْتَحَ بَابَ التَّوْبَة أَمَامٍ مِنْ ظَلَمْ نَفْسَهُ بَيْنَ نَفْسِهِ مِنْ ظَلَمٍ وَبِخَاَصَائِصِ مِنْ أَرَادَ التَّحَاكِم إِلَى الطَّاغوِت، بَعْد أَنّ اللَّهَ عَلَى المُؤْمِنِينَ إِذ بَعْث فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ وَأَنْزَل عَلَيْهِ أَعْمَلَ نَظَامَ عَرْفَتِهِ الإِنسَانِيَة بِتَأْكُلَّمُهَا الطَّوِيل ذِقَة وَعِدَّة وَشَمَالُ وَوَقَأً بِجَمِيع كَمَا يَجْتَنِبهُ النَّاس فِي كُل عَسْر وَمَصِيرٍ وَجِلْ وَقِبْلٍ. وَحَضَّ عَلَى عَز وَجِلْ هؤلاء الذين ظَلَمْنَهُمْ أَنْفُسَهُمْ بِأَن يَجِئُوا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَيُعْلَن نَوَابِهِمْ مِنْ الرَّغْبَة فِي التَّحَاكِم إِلَى الطَّاغوِت، وَيَتَلَبِّبوا عَلَى اللَّه عَز وَجِلْ أَن يَفْغِرُ لَهُم جَرَمِهِمْ أَن يَتَوَبَّ عَلَيْهِمْ، وَلَو فَعَلُوا ذُلْ لَلَّهَ عَز وَجِلْ أَن يَفْغِرُ لَهُم رَسُولٌ اللَّهِ ﷺ وَلَوَجَدُوا اللَّهُ تَوَايَّا رَحِيماً يَقْبِل تَوْبَةَ النَّائِئين وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِين. فِي ذَلِك يَقُول عَز وَجِلْ: "وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيَطَّعَ بِذِكْرِ اللَّهِ الآيَة. وَإِذَا نَزَّلَ اللَّه تَبَارَك وَتَعَالَى يَقُولُ إِلَى خِيْلٍ كَونِي إِذْنِ"
دinin شرعي فالاذن الكوني بمعنى قضائِه وقدره ومشيئته وقدره، ومنه قوله عز وجل: (وَمَا هُم بِبَيِّنَاتِ ٍ مِّن أَحَدٍ إِلَّا بِذِنَّ اللَّهِ) أي بمشيئته وقدره وقضائِه وقدره. وأما الاذن الدينى الشرعي فهو بمعنى ما أذن الله عز وجل به وأباحه وشرعه وأمر به وذلك كقوله عز وجل: (أَمْ لَهُ شِركَاءٍ شَرَعَهُم مِّنِّ الْدِينِ مَالِمَهُ إِلَّا بِذِنَّ اللَّهِ) أي مال يشرعه عز وجل، وكقوله عز وجل: (يَا أُيُوبَا النبي إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمَبَشِّراً وَنذِيرًا. وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِذِنَّهُ إِنَّكَ أَيِّامَهُ عَزَّ وَجَلَّ) كله، وكذلك قوله تبارك وتعالى هنا: (وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَسُولٍ إِلَّا لِيَطَاعُ إِذْنَ اللَّهِ) أي وما بعثنا في آمة من نذير إلا وجبه طاعته على أمته بأمر الله تبارك وتعالى. وقوله تبارك وتعالى: (وَلَوْ أَنْهُمْ إِذْ ظَلَّمُوا أَنْفَسَهُمْ جَاءَوكَ فَاستَغْفَروْنَ اللَّهَ وَاستَغْفَرْنَا هُمُ الرَّسُولُ لَوْ جَاءَدُوا اللهُ نَوَابًا رَّحِيَّاً) ترغبُب وَإِرْشَادٌ وَحُذُّ من ظلم نفسه حيث رَغِبَ في التحراكم إلى الطاغوت أن ينوب من هذه الجريمة وأن يجيء معتذراً عنها تنجى منه ويستغفر الله عز وجل من هذه المعصية الموبقة. وقوله تبارك وتعالى: (وَاتَّقُنُوا هُمَّ الرَّسُولُ إِذْنَ مِن اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لِإِسْتِغْفَارٍ) بالاستغفار لمن جاءه معتذراً من خطيئته، ولاشك أن من حصل منه هذا المحسن والاعتذار صادقاً واستغفر له رسول الله ﷺ كان حريباً بتوبة الله عز وجل عليه وعفوه تبارك وتعالى عنه، وفي قوله تبارك وتعالى: (وَلَوْ أَنْهُمْ إِذْ ظَلَّمُوا أَنْفَسَهُمْ جَاءَوكَ) الآية، إشعار هؤلاء الذين ظلموا أنفسهم بتقصيرهم في حق رسول الله ﷺ حيث لم يرضوا بالتحراكم إليه، وصدوا عنه صدوداً، بأن من جملة توبتهم أن يجيء إلى رسول الله ﷺ معتذر في عما بدر منهم في حقه، وفي ذلك كسر لشهوات جموحهم، وإعجاز لرسول الله ﷺ، وقد فهم جميع أصحاب رسول الله ﷺ أن هذا المجيء إلى رسول الله ﷺ خاص بحال حياته صلوات الله عليه، وأنه بعد انتقاله إلى الرقيق الأعلى لا يجيء أحد إلى قبره ليطلب منه الاستغفار له، ولذلك لم يؤثر بسند
صحيح عن واحد من أصحاب رسول الله ﷺ أنه فعل ذلك، وأما الحكاية المكذوبة المنسوية إلى العتيبي الأحسائي المتوفي ٢٤٨ هـ فهي رواية عن أعرابي مجهول، بنيت على منام، ومثلها لو كان حديثا أو أثرا عن صحابي لم يجز الاحتجاج به وبينة الأحكام عليه ولاسيما في الأبواب المؤدية إلى الشرك بالله عز وجل، على أن الله يبارك وتعالى قد أخبر بالمنافقين الذين كانوا يجتمعون إلى رسول الله ﷺ معذرين عن تخلفهم عن الغزو معه ويطلبون من رسول الله ﷺ أن يستغفر لهم بأنه لم يفعهم استغفار رسول الله ﷺ، لهم حيث يقول: ﴿وَلَعَلَّمُونَذِكْرَيْنَىٰ مَثْلَ ذَكْرِيٓ الْعَدْيَانِ إِذْ لَمْ يُبْغِيَ الْعَدْيَانُ الْأَلَّى﴾، ﴿وَلَسْتُمْ أَوَّلَ دُهْشَةٍ إِلَّا مَنْ يَغْفِرُ للَّهُ انْتَفَعَلْهُ﴾. وعلى أن العتيبي وهو محمد بن عبد الله بن عمرو الأموي من ذريت عتبة بن أبي سفيان بن حرب كان أحد شعراء البصرة ولم يكن معدوداً في أهل الحديث وإنما كان من رجال الأدب. وقد وصف ابن عبد الملك في كتابه الصارم المنككي هذه الحكاية بأنها مكذوبة حيث قال: ليس لهذه الحكاية مما تقوم به حجة، وإسنادها مظلم مختلف، وللذين مختلف أيضاً، وقال أيضاً: هذه الحكاية خبر منكر موضوع وأثر مختلف مصنوع، لا يصح الاختيار عليه، ولا يحسن المصير إليه، وإسنادها ظليلات بعضها فوق بعض، ويست بصحة ولا ثابتة إلى العتيبي، وقد رويت عن غيره بإسناد مظلم أه. وقوله تبارك وتعالى: ﴿فَلا وَرِيَّكَ لَا يَؤْمِنُونَ حَتَّى يُجَذَّبُوا فِيهَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَبْدِوا إِلَّا مَنْ حَرَّجَ مَا قَضَبَتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾. هذا قسم من الله عز وجل بأجل ممّم به وهو نفسه المقدسة بوصف وعنوان ربوبته لأفضل خلقه محمد ﷺ، على أنه لا يثبت لأحد مهما كان إيان بالله ورسوله إلا إذا كان احتكاكه في جميع ما يحتوك فيه من نزاع مهما كان إلى شريعة رسول الله ﷺ، ولابد كذلك أن ينشر صدره لأحكام شريعة الإسلام بحيث لا يجد في نفسه حرجاً من أي حكم من أحكامها، بل يكون تلقية له بالقبول والرضى.
وأنشراح الصدر، وأن يسلم بذلك تسليماً وينقاد انقياداً، وأن يعلم أن في تطبيق شريعة الإسلام في كل ما يحدث بين الناس من نزاع وشجاع فلحاً وسعادة وعدلًا وإنصافًا وحقًا، قال ابن جرير رحمه الله في تفسير هذه الآية:
قال أبو جعفر: يعني جل ثناؤه بقوله: فلاسليس الأمر كيا يزعمون: أنهم يؤمنون بما أنزل إليك، ويتمحكمون إلى الطاغوت ويصدون عنك إذا دعوا إليك ياعمده - واستأنف القسم جل ذكره فقال: وَزَّرَبًِكَ يَا عَمَّدَ لا يؤمنون أي لا يصدقون بي وبا أنزل إليك - حتى يحكموك فيها ش거 بينهم يقول: حتى يجعلوك حكماً بينهم فيما اختل بنيهم من أموهم، فالبتبس عليهم حكمه يقول: شجر يشجر شجوراً وشجراً، وتشاجر القوم إذا اختلفوا في الكلام والأمر مُساجرةً وشجارةً، ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت يقول: لا يجدوا في أنفسهم ضيقات مما قضيت، وإنما يعنوا: ثم لا تخرج أنفسهم مما قضيت - أي لا تأتيهم بإثارة ما قضيت، وشككها في طاعتك، وأن الذي قضيت به بينهم حق لا يجوز لهم خلافه اهم. وقد ثبت في الصحاح أن هذه الآية نزلت في خصومة كانت بين الزبير بن العوام ورجلي من الأنصار في شرَّم من شرَّم الحرة، والشَّرْمُ مِسْئِل الماء من الحرة إلى السهل، وإن كانت العَبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب فالآية تشمل قصة الزبير مع الأنصاري كى تشمل كل ما شجر بين المسلمين من خصومة في أي شيء إلى يوم القيامة، وقد ساقها الله عز وجل على سبيل التعميم حيث قال: فِي أَ ما شَجَر بِيْنِهِمْ وَمَا مَتَاعُ الْعَمَّمْ، وقد روى البخاري في الشَّرَب وصلمن في الفضائل من طريق البث عن ابن شهاب عن عروة عن عبد الله بن الزبير رضي الله عنها أنه حدثه أن رجلاً من الأنصار خاصم الزبير عند النبي صلى الله عليه وسلم في شراح الحرة التي يسكنون بها النخل فقال الأنصاري: شرح الماء يمر، فأثبَّت عليه، فاختصا عن النبي صلى الله عليه وسلم.
فقال رسول الله ﷺ للزبير: اسقِ بازبِر ثم أرسل الماء إلى جارك، فغضب الأنصاري فقال: أَن كَان ابن عمتك؟ فقلون وجه رسول الله ﷺ؟ ثم قال: اسق بازبِر ثم احبس الماء حتى يرْجع إلى الجذر، فقال الزبير: والله إن أَخْبَس هذا الآية نزلت في ذلك: فَلا وَرِبْك لَأ يعْمَنونُ ٌهِي يِحْكَمُونَ فِيهَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ! وقد أخرجه البخاري في باب شرب الأعلى إلى الكعيبين من طريق ابن جريج قال: حدثني ابن شهاب عن عروة بن الزبير أنه حدثه أن رجلاً من الأنصار خاصم الزبير في شرائج من الحرة يسقي بها النخل. فقال رسول الله ﷺ: اسق بازبِر، فأمره بالمعروف، ثم أرسل إلى جارك، فقال الأنصاري: أَن كَان ابن عمتك؟ فقلون وجه رسول الله ﷺ؟ ثم قال: اسقُ ثم احبس حتى يرجع الماء إلى الجذر، واستوعلي له حقيقه، فقال الزبير: والله إن هذه الآية نزلت في ذلك: فَلا وَرِبْك لَأ يعْمَنونُ ٌهِي يِحْكَمُونَ فِيهَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ، قال لي ابن شهاب: فقدرت الأنصار والناس قول النبي ﷺ: اسق ثم احبس حتى يرجع إلى الجذر، وكِنا ذلك إلى الكعيبين. الجذر هو الأصل. كَما أخرجه البخاري في الصلح في باب إذا أشار الإمام بالصلح فأبى حكَم عليه بالحكم الذي من طريق شعبٍ عرب هَوَى قال: أخبرني عروة بن الزبير أن الزبير كان يحدث أنه خاصم رجلاً من الأنصار قد شهد بدراً إلى رسول الله ﷺ في شرائج من الحرة كانا يَسُقيان به كلهم، فقال رسول الله ﷺ: اسق بازبِر ثم أرسل إلى جارك، فغضب الأنصاري، فقال: يارسول الله ﷺ! أَن كَان ابن عمتك؟ فقلون وجه رسول الله ﷺ؟ ثم قال: اسق ثم احبس حتى يبلغ الجذر، فاستوعلي رسول الله ﷺ حينذ حقه للزبير، وكان رسول الله ﷺ قبل ذلك أشار على الزبير بأي سعة له والأنصاري، فإن أحفظ الأنصاري ﷺ استوعلي للزبير حقه في صريح الحكم، قال عروة: قال الزبير: والله ما أحسب هذه الآية نزلت إلا في ذلك: فَلا وَرِبْك.
لا يؤمنون حتى يجعلوك فيها شجر بينهم" الآية. وأخرج البخاري في التفسير من طريق مأمور عن الزهري عن عروة قال: خاصم الزبير رجلا من الأنصار في شرير من الخرة فقال النبي ﷺ: است يا زبير ثم أرسل الماء إلى جارك، فقال الأنصاري يارسول الله أن كان ابن عتمك فتلون وجهه ثم قال: است يا زبير ثم احبس الماء حتى يرجع إلى الجذور ثم أرسل الماء إلى جارك، واستوعى النبي ﷺ للزبير حقه في صريح الحكم حين أحفظه الأنصاري، كان أشار عليها بأمر لها فيه سعةٌ الحديث وقد صرح البخاري في التاريخ الكبير ومسلم في كتاب التميم بسياح عروة من أبيه. وقد أشرت آنفا إلى أن نزول هذه الآية في خصومة الزبير والأنصاري رضي الله عنها لا يمنع من أن حكمها عام، إذ العبرة بعموم اللظاف لا بخصوص السبب.
قال تعالى: [وَوَلَوْ أَنَا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ أَفْتَلُوا الْفَسَّامَ أو اخْرَجُوا مِن دِيْارٍ كُنْمَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَليًّلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يَوْعَظُونَهُ بِلَكَانَ حُسْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَنْيِبًا وَإِذَا لَ أَتَبَنَّاهُمْ مِن لَنْدًا أَجْرًا غَلِيظًا وَمَدْنَاهُمْ صِرَاطًا مَّسْتَقِيمًا وَمِن يُطِعُ الله وَالرَّسُولَ فَأُولَاهُ مِن الْذِّينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِن النَّبِينَ والصَّدِيدِينَ والشَّهِيدِينَ والصَّالِحِينَ وَحَسْنُ أَوْلَاهُ زَرْقِيًا ذِلِكَ الْفَضْلُ مِن اللَّهِ وَكَفَى بِاللَّهِ عَلِيًّا}

بعد أن أقسم عز وجل بذاته المقدسة مُعنونًا بربوبيته لسيد خلقه وأفضل رسله محمد ﷺ أنه لن يؤمن أحدًا من المكلفين الذين بعث إليهم رسول الله ﷺ حتى يكون حكمة أو احتكاكه محصورة في شريعة محمد ﷺ وأن يشرح صدره جميع التعاليم والأحكام التي جاء بها رسول الله ﷺ لينقاد لذلك انقياداً وتسليم تسليماً، أشار هنا إلى فضله على أمة محمد ﷺ حيث لم يجعل فيها شرعه لهم إصرارًا ولا أغلالاً، بل أراد به النصر ولم يرد به العصر، مع أن شأن العبد أن يكون في طاعة ربه وأن يسارع إلى امتثال أمره، حتى لو أمره بقتل نفسه أو الخروج من داره، لأن في طاعة العبد لربه فاطر السموم والأرض سعادة لا يحظو بها وصف الواصفين من عز الدنيا ونعيم الآخرة، حيث يقول عز وجل: [وَوَلَوْ أَنَا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ أَفْتَلُوا الْفَسَّامَ أو اخْرَجُوا مِن دِيْارٍ كُنْمَا فَعَلُوهُ إِلَّا قَليًّلٌ مِنْهُمْ وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يَوْعَظُونَهُ بِلَكَانَ حُسْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَنْيِبًا وَأَيَّلَوْا أَنَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ وأَمْرَنَاهُمْ بِقَتْلِ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْرَنَاهُمْ بِقَتْلِ أَنْفُسَهُمْ أوَ خُروجِهِم مِن دِيْارِهِمْ وَأَرْضِهِمْ مَا اسْتَجَابَ لَهُمْ وَسَارَعَ إِلَى امْتِثالِ أمَرِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ إِلا القليل من الناس من قد شرح الله صدورهم للإسلام وانقادوا لأمر الله فخوفست عليهم أنفسهم وأوطانهم في سبيل مرضاة ربيهم، أما من استهوا الشيطان من الناس وهم كثير فإن يصعب عليهم الامتثال لأمر الله ولاسيما إذا
كان الأمر شاقاً كفّلت النفس أو الهجرة من الوطن، مع أن هؤلاء لو سارعوا إلى
امثال أمر الله مهما كان، وفعلوا ما يوعظون به من متابعة محمد رسول الله
وطاعته والانقياد لما يحكم به ظاهراً وباطناً لكان ذلك خيراً لهم في عاجلتهم
وأجلتهم ودنياهما وأخراهم حيث يكتسبون الأجر العظيم والثواب الجزيل
من الله عز وجل بطاعته وطاعة رسوله ﷺ، وحيث يؤدي رضاهم بشريعة
محمد ﷺ إلى أمهم واستقرارهم في ديارهم وأرضهم وما يسب ذلك لهم من
رغد العيش والحياة الطيبة كـ قال عز وجل: ﴿وَلَوْ أَنَّ الْكِتَابَ آتِمْنَا
وَأَنْتَقَوْا لَكُنْتُمْ سَيِّئَاتَكُمْ وَلَدَخَلْنَا جَنَّاتَ النَّعْيَمَ.﴾
ولو أنهم أقاموا النورة والإجليل وما أنزل إليهم من رحمهم لأكلوا من فووقهم ومن تحت
أرجلهم ﴿وَكَيْلَانَا عَلَى وَجْلٍ﴾ ﴿وَلَوْ أَنَّ الْقَرْيَةَ آتِمْنَا وَانتَقَوْا لِفَتْحَنا عَلَيْهِمْ
بركات من السماء والأرض ﴿وَكَيْلَانَا عَلَى وَجْلٍ﴾ ﴿وَمِن أَمِّي لَنَصْلَحَنَا مَن ذَكُرَ أَوْ أَشْتَيْدَّهُ ﷺ، حيّةً طيبةً وِلَنَجْزِينَهُمْ أُجْرَيْهِمْ بِحَسْنِ ما كَانُوا
يَعْمَلُونَ﴾ ﴿وَكَيْلَانَا عَلَى وَجْلٍ﴾ ﴿وَعِنْدَ اللهِ الَّذِينَ آتِمْنَاهُم وَعَمِلُوا
الصالحات لِيُشْتَخِلَّفُوهُمْ في الأرض كـ استخلف الذين من قبلهم وليُمكِنْ
هُم دَيْنُهُم الذي ارتدى لهم ولِيُمْكِنُوهُم من بعد خوفهم أمّا ﴿وَحَلَّوْا﴾ ﴿وَلَوْ أَنَّ الْقَرْيَةَ آتِمْنَا وَانتَقَوْا لِفَتْحَنا عَلَيْهِمْ
وَلَوْ أَنَّ الْقَرْيَةَ آتِمْنَا وَانتَقَوْا لِفَتْحَنا عَلَيْهِمْ
وَلَوْ أَنَّ الْقَرْيَةَ آتِمْنَا وَانتَقَوْا لِفَتْحَنا عَلَيْهِمْ
وَلَوْ أَنَّ الْقَرْيَةَ آتِمْنَا وَانتَقَوْا لِفَتْحَنا عَلَيْهِمْ
وَلَوْ أَنَّ الْقَرْيَةَ آتِمْنَا وَانتَقَوْا لِفَتْحَنا عَلَيْهِمْ
وَلَوْ أَنَّ الْقَرْيَةَ آتِمْنَا وَانتَقَوْا لِفَتْحَنا عَلَيْهِمْ
هذا بيان لمزيد فضل من الله عز وجل مئن فعل ما يوعظ به، فإنقاد واستجاب لأمر الله ونهيه، وأقر بوعده ووعيده والتزمه بأحكام الشريعة الإسلامية وکَفْرَ بالطاغوت، وأيقن أن منهج الله هو خير المناهج، وأن تشريعه الذي بعث به خاتم أنبئائه وأفضل رسوله هو أفضل تشريع وأكمله وأمه وأصدقه، فبعد أن أخبرهم بأن الانقياد لأمر الله وأمر رسوله بسبب خيرهم في دينهم ودنياهم وأشد ثبتيًا لهم على الحق وتحقيًا لإيهم، وقوة لعزاهم وإراداتهم، وثباتًا لقلوبهم عند مقارعة جيوش الباطل، وورود الشبهات والشهوام المضادة، ودسائس الشيطان المردية، مما يضيء للسالكين إلى الله عز وجل سبيل سلوكهم، ويضع لهم منارات على طريق مسيرتهم، وقد أشار الله تبارك وتعالى إلى ذلك حيث يقول: ﴿الله نور السماوات والأرض، مَثُلُ نوره كمشكاة فيها مصابيح المصباح في زجاجة الزجاجة كأنها كوكبٌ دُرِّيُّ يوقَد من شجرة مبكرة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زينتها يضاءُ ولونها مَمْسَحة نار، نور على نور، يُبدى الله لنوره من يشاء، ويضرب الله الأمثال للناس، والله بكل شيء عليم.﴾  فطاعة الله وطاعة رسوله هي سبب ثبات القلب وقوة إرادته ونفاذ بصيرته. بعد ذلك كله أخبرهم تبارك وتعالى بقوله عز وجل: ﴿وإذًا لآتيناه من لدنا أجزاؤه. ولهديناهم صرائط مستقيمة.﴾  فإن عز وجل بذلك أنه زادهم من فضله شوائب آخرين على الانقياد لأمر الله وأمر رسوله وهم حصول الأجر العظيم لهم في الآخرة، وهماديهم الصراط المستقيم حيث يجعل الله لهم على الصراط يوم القيامة نورًا ويمرهم بورود والعبور من فوق الجسر الممدد على ظهر جهنم بعد انتهائهم من المنقف العظيم، ويمرون عليه بقدر نورهم، فمنهم من يعطي نوره مثل الجبل بين يديه ومنهم من يعطي نوره فوق ذلك ومنهم من يعطي نوره مثل النخلة بيمينه، ومنهم من يعطي دون ذلك.
حتى يكون آخر من يعطي نوره على إيهام قدمه يضيء مرة ويطفاً مرة حيث يعطي كل إنسان نوره على قدر عمله، والصراط كحد السيف، دحض مرَّةً وقد روى البخاري ومسلم واللفظ للبخاري من طريق عطاء بن يسار عن أبي سعيد الخدري في سؤالهم رسول الله ﷺ: هل نرى ربيما يوم القيامة الحديث، وفيه: ثم يؤتي بالجسر، ثم يعجل بين ظهرى جهة، قالنا يارسول الله، وما الجسر؟ قال: مَدَّحَصَةَ مَرَّةً، عليه خطأ طيف وقلاليب وحِسَكَةٌ مَفْتَلَحَةً، لا شوكة عقيقية تكون بنجد يقال لها: السعدان، المؤمن عليها كالطرف، وكالبرق، والريح، وأكاوية الخيل والركاب، فتلوح مسلم، ونواج خدوش، ومكدوس في نار جهنم، حتى يُمَرُّ آخَرِهِمْ يَسْتَحْبُّ سِحْبِيًا الحديث. وفي لفظ مسلم: قال أبو سعيد: بلغني أن الجسر أدرك من الشعرة وأخذ من السيف. وقوله تبارك وتعالى: ﴿فَوَأْلَنَّكَ مَعَ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرِيَ الْأَوَّلِينَ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبيِّينَ وَالصَّادِقِينَ وَالشَّهِيدَاءِ وَالصَّالِحِينَ ﴿ وَحْسُنَ أَوْلَئِكَ رَفِيقًا. ذلِكَ الفضل من الله وكيى بالله عليها. ﴿هَذَا بِيَانٌ مَّزِيدٌ فَضْلُ الله تَبَارَكَ وَتَعَالَى عِنْدَ الْمَلَائِكَةِ ﴿ مِن أَطَاعَ الْلَّهَ وَأَطَاعَ رَسُولَهُ مُحَمَّدًا ٍ حيث يَشْتَرَهُم عَزَّ وَجَلَّ هَنا بِشَارَةٌ عَظِيمَةٌ وَفَرْحَةٌ كَبِيرَةٍ وَهُوَ الَّذِي يَجْعَلُهُمُ في جِنَاتِ النَّعيم مع النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وقد روى البخاري ومسلم من حديث عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: ﴿أَمَامُ نَبِيٍّ يَمْضِرُسُ إِلَّا حُيُّ بَيْنِ الدُّنْيَا وَالآخرةِ ﴿ وكان في شكوك الذي قَضَى فيه أخذت بهجة شديدة فسرعتُه يَقُولُ: مَعَ الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرِيَ الْأَوَّلِينَ عَلَيْهِمْ من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، ففعلت أن يُحَرِّر. وهذه الأصناف الأربعة هم أهل السعادة الكاملة التي يجب على كل من يحب الخير لنفسه أن يضني إلى الله أن يحسره في زمرتهم، ولذلك كان بعض أصحاب محمد ﷺ يُلْحِقُ عِلْيَ رَسُولِ الله ﷺ في أن يسأل الله له أن يجعله رفيقاً.
قال تعالى: «وَإِنَّا أَيْمَّنَ اِلْحَمِيمَ أَمَّنَوا أَخَذُوا جَذْرَكُمْ فَانْفِرًا تُبَابِ أوَ انْفِرُوا جَمِيًّا».

وتلت هذه الآية ماهما كان الأمر الشرعي الموجه إليه حتى ولو كان هذا الأمر يطلب منه أن يقتله نفسه أو يخرج من داره وأرضه، وذكر الأجر الجزيل والثواب الجميل الذي يشبه الله تبارك وتعالى به من أطاع الله وأطيع رسوله في المنتشرين والمكره والعسر واليسر، أمر المؤمنين هنا بأن يأخذوا حذرهم ويتأهبوا لعدوهم المجاهر المبارز بالعداوة، ولعدوهم المنافق الذي يدعي الإيمان، ويطلب الكفر والعداوة الله ورسوله وللمؤمنين حيث يقول عز وجل: «وَإِيآ أَيْمَنَ اِلْحَمِيمَ أَمَّنَوا أَخَذُوا جَذْرَكُمْ فَانْفِرًا تُبَابِ أوَ انْفِرُوا جَمِيًّا».

أي يألهام المستجيبين الله ورسوله أَخْرِجوا مِن عدوهم وتأهبتوا له وكونوا على استعداد للفتكات، متغطيين لتحركاتهم، وإنضموا لقتال عدوهم واجترحوا لحربه إما ثبات أي جماعات متفرقة سريًا بعد سرية وفرقة بعد فرقة إما جمعأ أي مجتمعين كوكبة واحدة ويشتيا كثيف على الوجه الذي يستنفرهم إمام المسلمين به كما قال عز وجل: «انفروا خفافاً وثقيلاً».

وقد روى البخاري وسلم من حديث حبر الأمة وترجمان القرآن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله قَالَ: لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونَبَيةٌ، وإذا استنفرت فانفروا.

وقال البخاري في صحيحه: باب وجوب النفير، وما يجب من الجهاد والنية.
وقوله: "أنفرعوا خافاً وثقلاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله، فذلك خير لكم إن كنتم تعلمون. لو كان عرضاً قريباً وساعة قادراً لتبولك وتخافث فيهم الشقة، وسيخالفون الله الآية، وقوله: "يا أيها الذين آمنوا مالكم إذا قيل لكم انصرفوا في سبيل الله انقتلتم إلى الأرض، أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة.  

وقوله: "على كل شيء قدير. "ويذكر عن ابن عباس: "أنفرعوا ثواباً" سرايا متفرقين، يقال أحد الثواب يثوب اه والمقصود هو حض المسلمين على المبادرة إلى طاعة الإمام والحروج لقتال العدو على الوجه الذي يرى فيه الإمام مصلحة للمسلمين حتى ولو أمر الواحد منهم بالخروج وحده وجب عليه المبادرة إلى طاعته كما قال قريط بن أنيف العنصري.

فأوم إذا الشر أبدى ناجذته لهم طاروا إليه زرافات ووضحاً في النائبات على ما قال برهانا وقاله عز وجل: "وإن منكم لمن يبتغين فائضًا فإنه أصابكم مصيبية قال قد أنعم الله علئ إد لا أكن معهم شهيداً. ولي تأسف لكم لفسل من الله ليتخون كأن لا تكن بينكم وليشوه مودة بالنيجي كمت معهم فأقوام فوأر عظبياً.  "بعد أن أمر الله عز وجل المؤمنين في الآية السابقة بأن يأخذوا حذرهم حذرهم هنا ونهم إلى وجود أشخاص بينهم يترصبون الدوائر بالمسلمين ويندسون في جماعة المسلمين وهم منافقون يظهرون الإسلام ويبربون الكفر وسوء الظن بإله ورسله بالنياسا للحصول على بعض المغام العاجلة فقال عز وجل: "وإذا منكم من يبتغين أي وإن من الموجودين في جماعة أيا المسلمون لم ليتأخرون عن الجهاد وليشاققوا عن الخروج للقتال، وليحسن غيره من ينقد له ويستجيب لرأيه على التباطؤ والتأمل والتأخر والتخلف عن الخروج معكم لملاقاة عدوكم كأ فعلا عدو الله عبد الله بن أبي بكر سلسل رأس

340
 المنافقين يوم أحد، ثم بين الله عز وجل أن هؤلاء المنافقين يتذبذبون بين الشياثة بحكم إن أصابكم مصيبة وكانت الدولة في المعركة لعدوكم، وتباوها بأن الله قد أنعم عليهم حيث لم يشهدوا المعركة، وجهلوا أن من شهد المعركة من المؤمنين إن عاش عاش حضرةً وإن مات مات شهيداً أما هؤلاء المنافقون فمن عاش منهم عاش خائفاً مذعوراً يحسبون كل صيحة عليهم، ومن مات منهم على نفاقه فإنه يكون في الدرب الأسوفل من النار ولن تجد له نصيراً، أما في حالة انتصاركم في المعركة وصيورة الدولة لكم على أعدائكم فإن هؤلاء المنافقين يعضدون عليكم الأسفل من الغيظ، ويلعكون الموت من الندم، ويتحسرون على فوائض فرضية مشاركتهم لكم في الغنائم، ويعتبرون أن الحصول على الغنية هو الفوز الأكبر والحظ العظيم، وفي ذلك يقول عز وجل: {فإن أصابكم مصيبة قل قد أنعم الله علَّيُ إذ لم أكن معهم شهيداً}. ولئن أصابكم فضل من الله ليقولون: لأن لم تكن بينكم وبينه مودةٌ باحتيال. كنت معهم فأوزن فوزاً عظيماً}. ومعنى: {إذا لم أكن معهم شهيداً}. أي إذا لم أحضر المعركة وأشهدها مع المؤمنين، وقوله تبارك وتعالى: {كأن لم تكن بينكم وبينه مودة} جملة اعتراضية بين القول ومقوله لسنا يفهم من مطلع كلامه أن تمنيه معاً المؤمنين لتصبرهم ومظاهرهم على عدوهم، وإنما تمنى معاً المؤمنين لشدة حرصه على حظام الدنيا والحصول على المال الذي هو أكبر همه وغاية قصده وتمتى أمنيته. والرائد بالملودة هنا ما يتزلف به المنافقون للمؤمنين في وقت السلم، وما يقولون لهم من معسعول الكلام ويفلون هم بابن إنهم منهم، وقوله تبارك وتعالى: {فَلَيْقَاتِ اللَّهِ}. {فَلَيْقَاتَ بِسِبْبِ اللَّهِ}. {فَلَيْقَاتِ اللَّهِ} في سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة}. {فَلَيْقَاتِ اللَّهِ}. {فَلَيْقَاتَ بِسِبْبِ اللَّهِ}. {فَلَيْقَاتِ اللَّهِ} بعد أن تدَّع عز وجل بالمنافقين الذين ليس لهم إلا حظام الحياة الدنيا، وأن هذا هو السبب الذي يجعلهم على التخلف عن رسول الله ﷺ، حسب المؤمنين المستجيين الله ورسوله على الجهاد في سبيل الله
وقتال أعداء الله لإعلاء كلمة الله، وبين أن الذين يشورون الحياة الدنيا أي بيعونها الله عز وجل ويشترون الجنة من ملك الدنيا والأخرى هم الذين يحرصون على القتال في سبيل الله كما قال عز وجل: "إنه الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة، يقاتلون في سبيل الله فِي يَقِيمُونَ ويُقِيمُونَ وعدًا عليه حقاً في النور والإنجيل والقرآن، ومن أُوقَى بِعِهْدِهِمَّ من الله، فَأَسْتَبِيضَوا بِيَدَيْهِمَّ الَّذِي بَيَانُهُمْ يَهِ، وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ العظيم". وفي التعبير بقوله: "يشرون الحياة الدنيا بالآخرة" إشعار بأن المؤمن الحق قد تعلقت همّته بنصرة دين الله سواء كانت الدولة في المعركة له أو كانت عليه، ولذلك كان أصحاب رسول الله ﷺ ورضى الله عنههم لا يباهوون بالنصر ولا يذلون عند الهزيمة، كما قال كعب بن زهير في قضيته "بانت سعاد":

إنه الرسول ﷺ لا يُستضاء به مهتف من سيوس الله مسلمون ببطين مكة لما أسلموا وولوا في عصبة من قريش قال قائلهم زالوا فإنا أكاد غير كشف سُمُّ العرائنين أبطال أبوهُمَّمو بضى سوابغ قد شُكْتُ لها حلق ليسوا مفاريح إن نالت رماهم ووكا قال حسان بن ثابت رضي الله عنه:

"تسنَّمُ إذا الحرب نثبتنا حليها لا يفْجَّرْونَ إذا نالوا عدوُّ همُّمو"

وقبله ببارك وتعالى: "ومَن يَقْتَلُ في سبيل الله فَيَقْتَلُ أو يُعْلَب فَسَوْفَ نؤتاه أجرًا أعظمًا" أي ومن يجازهم أعداء الله لإعلاء كلمة الله فإن له عند الله أجرًا عظيما سواء انتصر على أعدائه، وفاز بالغزيمة مع هذا الأجر العظيم أو
جرح أو قتل في سبيل الله فقد روى البخاري ومسلم من طريق الأعرج عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: تكفَّل الله ﻟن جاهد في سبيله، لا يُخرجُه إلا الجهاد في سبيله، وتصديق كلامه، بأن يدخله الجنة، أو يرجعه إلى مسكته الذي خرج منه مع مانال من أجر أو غنيمة. وفي لفظ مسلم من طريق أبي زرعة عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: قَضَّمَ النَّاسُ ﺍﻟْﻬَرِئِيَّةَ ﻟِلهَـ. في سبيله، لا يُخرجُه إلا جهادًا في سبيله، وإيّاها بي، وتصديقاً برسلي، فهو عليّ ضامنًا أن أُدخِلُهُ الجَنَّةَ أو أُرْجَحَهُ إلى مسكته الذي خرج منه نائلاً ما نال من أجر أو غنيمة، والمذكور محمد بيده ما من كلّم يُكَلُّمُ في سبيل الله إلا جاء يوم القيامة كهيئته حين كُلِّمَ، لَوْنَهُ لَوْنُ دَمٍ، ورِيحُهُ مِالِكٌ، والذي نفس محمد بيده لولا أن يَسْتَبِقُ على المسلمين ما قُعدت خُلَافَ سَرِيَّةٍ تغزو في سبيل الله أبداً، ولكن لا أَجْدُ سَعَةً فَأَحْلَمُهُمُ ولا يجدون سَعَةً، ويَتَّهِمُ عليهم أن يَتَخَلَّفوا عنى، والذِي نفس محمد بيده لَوْدَدَت أَنَّ أَغْزَوَ في سبيل الله فَأَقْتَلُ، ثم أَغْزَوَ فَأَقْتَلُ، ثم أَغْزِوَ فَأَقْتَلُ. كما روى البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: إن في الجنة مائة درجة أَعْدَهَا الله للمجاهدين في سبيل الله ما بين الدرجبين كَا بِئِن السَّهَاءِ والْأَرْضِ. كما روى البخاري من حديث عبد الرحمن بن جبير رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: ما أُعْجِبَتُ قَدْماً عَيْدًا في سبيل الله فَقَنَسْهَا النَّارُ.
قال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا لِكُلِّ نَفْسٍ يَقِيلُواْ رَبِّنَا أَخْرَجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّلَمَآ أَهْلَهَا وَأَجْعَلْنَا لَنَا مِنْ لَدَنَّكَ وَلْيَ آمِنَ لَنَا مِنَ لَدَنَّكَ نَصْرًاۚ ذَلِكَ الَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَاتَلُونَ فِي سَبِيلِ الْطَّاغِوُتِ فَقَاتَلُواْ أَولَاهُمُ الْشَّيْطَانُ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًاۚ﴾

بعد أن أمر الله عز وجل بالقتال في سبيله وأشار إلى أن طلَّب الجنة الزاهدين في الدنيا هم الذين من أبهم وديدنهم الخروج على المسارعة لقتال أعداء الله، وذكر ما أعده من خرج مجاهداً في سبيل الله من جزيل الأجر وعظيم الثواب، وجَّه الخطاب بطرق التعجيب والتاثيب والإنكار والتوبيخ لمن لم يسارع إلى الانخراط في سلك جند الله، بأسلوب يتضمن الحَدَّ الشديد والتذكير البالغ على وجوب الجهاد في سبيل الله لإعلان كلمة الله واستنذاق المؤمنين المستضعفين من الرجال والنساء والصبيان الذين حُسبوا بمكة ولم يتمكنوا من الهجرة والخروج منها إما لصد المشركين لهم وتصييدهم عليهم وإما لضعفهم عن الهجرة، وكأنه عز وجل يقول: ؟أي عذر لكم في ترك القتال؟ وكيف لا تسارعون إلى تخطيط ضعفة المسلمين من أذى المشركين؟ وهل يرضي مسلم صادق الإيام أن ينام قرب الأعين وإخوانه من رجال ونساء وأطفال يتعرضون للأنذار والقهور من أعداء الله بمكنكة شرفها الله؟ وفي ذلك يقول عز وجل: ﴿وَمَا كُنَّا لِكُلِّ نَفْسٍ يَقِيلُواْ رَبِّنَا أَخْرَجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّلَمَآ أَهْلَهَا وَأَجْعَلْنَا لَنَا مِنْ لَدَنَّكَ وَلْيَ آمِنَ لَنَا مِنَ لَدَنَّكَ نَصْرًاۚ ذَلِكَ الَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَاتَلُونَ فِي سَبِيلِ الْطَّاغِوُتِ فَقَاتَلُواْ أَولَاهُمُ الْشَّيْطَانُ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًاۚ﴾

349
سوء العذاب، ويفتمنهم عن الدين، قال ابن جرير رحمه الله في تفسير هذه الآية: قال أبو جعفر: يعني بذلك جل ثناؤه: «ومالكم» أي المؤمنون «لا تقاتلون في سبيل الله» وفي «المستضعفين» يقول: عن المستضعفين منكم من الرجال والنساء والولدان، فأما من الرجال فإنهم كانوا قد أسلموا بمكنة، فغلبهم عشائرهم على أنفسهم بالقهر لمَ، وآذواهم، ونالوهَم بالعذاب والكوار، فلذدهم ليفتنيهم على دينهم، فغصب الله المؤمنين على استنفاذهم من أيدي من قد غلبهم على أنفسهم من الكفار، فقال لهم: وما شأنكم لا تقاتلون في سبيل الله، وعن مستضعفي أهل دينكم وملتكم الذين قد استضعفوه الكفار فاستذلواهم اتباع أفتيتهم وصدتهم عن دينهم؟ «من الرجال والنساء والولدان» جمع ولد، وهم الصبيان، الذين يقولون ربا أخراجنا من هذه القرية الظالم أهلها، يعني بذلك أن هؤلاء المستضعفين من الرجال والنساء والولدان يقولون في دعائهم ربه: بأن ينجيه من فتنة من قد استضعفوه من المشركين: ياربا أخراجنا من هذه القرية الظالم أهلها، والعرب تسمى كل مدينة «قرية» آه. وقد أجمع المفسرون على أن المراد بهذه القرية هنا مكة شرفها الله، والموصوف بالظلم في الحقيقة هنا هم أهل مكة المشركون لا مكة قد اسها الله، لأنهم ارتكبوا أفعال الظلم وأعظمه وهو الشرك بالله الذي وصفه الله عز وجل بأنه ظلم عظيم حيث قال: «إن الشرك لأظلمظم عمهم»)، كأنهم ارتكبوا ظلالاً بشعاً كنذاك حيث يذون ويظلمون الرجال والنساء والصبيان الضعفاء الذين لا يستطيعون الدفاع عن أنفسهم وذكر الأولدان بعد الرجال والنساء لتهييؤ المؤمنين وثمن الشديد على المساحة لتخلصهم من أيدي الكفرة الفجرة، ولتقيق وتشتيع على المشركين الذين بلغ أذاهم وظلمهم الأطفال غير المكلفين إرغاماً لآبائهم وأمهاتهم، وجر لفظ «الظلم» تبعاً لقرية على القاعدة المعروفة عند علائم

٣٠٠
قواعد اللغة العربية باللغة السَّبِّيبي وقد أخبر ابن عباس رضي الله عنها أنه هو وأمه كان من المستضعفين المقصودين في هذه الآية الكريمة فقد قال البخاري في صحيحه: باب قوله: {وَما لَكَ مَيْلًا يَتَقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ} والمستضعفين من الرجال والنساء؟ الآية حدثني عبد الله بن محمد حديثنا سفيان عن عُبيد الله قال: سمعت ابن عباس قال: كنت أنا وأمي من المستضعفين. حديثنا سفيان بن حرب حدثنا حاد بن زيد عن أبي بكر عن ابن أبي مُليكة أن ابن عباس تلا: {إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان} قال: كنت أنا وأمي ممن عَذَّرُ الله اهـ. وقد سمَّى رسول الله ﷺ جملة من المستضعفين بمكة حيث كان يدعو على قريش ويستنصر لتخليص المستضعفين من أيدي المشركين فقد روى البخاري ومسلم في صحيحهما من طريق أبي سلمة عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: بينا النبي ﷺ يصلي العشاء إذ قال: سمع الله من حَدِيثه، ثم قال قبل أن يُسْجَدَ: اللهم نَجِّ عيَاشَ بن أبي ربيعة، اللهم نَجِّ سلامة بن هشام، اللهم نَجِّ الوليد بن الوليد، اللهم نَجِّ المستضعفين من المؤمنين، اللهم اشْدُدْ وَطَأَّتُكَ عَلِى مَصْرَرٍ، اللهم اجعلها سنينَ كِسْيِنَ يُوسَفَ. وفي رواية لسلمان من طريق سعيد بن المسيب وأبي سلمة ابن عبد الرحمن بن عوف أنَّه سمع أبا هريرة يقول: كان رسول الله ﷺ يقول حين يُفْسِعُ من صلاة الفجر من القراءة ويُكَيْبُرَ ويرفع رأسه: سمع الله من حَدِيثه، ربنا وَلِكَ الحَمْدُ ثم يقول هو قائم: اللهم أَنجِ الوليد بن الوليد وسلمه ابن هشام وعيَّاش بن أبي ربيعة والمستضعفين من المؤمنين، اللهم اشْدُدْ وَطَأَّتُكَ عَلِى مَصْرَرٍ. وفي لفظ لسلمان من طريق أَبِي سَلْمَة أن أَبا هريرة حدثهم أن النبي ﷺ قَطَت بعد الركعة في صلاة شهراً إذا قال: سمع الله من حَدِيثه يقول في قنوتها: اللهم أَنجِ الوليد ابن الوليد، اللهم نَجِّ سلامة بن هشام، اللهم نَجِّ عيَاش بن أبي ربيعة،
اللهُمَّ نَجِّ المستضعفين من المؤمنين، اللهم اشْدَد وطَأَتك على مضر، اللهم اجعلها عليهم سنين كَسِيني يوسف. الحديث. وفي رواية للبخاري من طريق أبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام وأبي سلمة بن عبد الرحمن قال: وقال أبو هريرة رضي الله عنه: وكان رسول الله ﷺ حين يرفع رأسه يقول: سمع الله لمن حده، ربه ولد الحمد، يدعو لِرِجَالٍ قَيِّمِيْهِمُ بأساَئْهُم فقوله: اللهم أنج الوليد بن الوليد وسلمه بن هشام وعياش بن أبي ربيعة، والمستضعفين من المؤمنين، اللهم اشْدَد وطَأَتك على مضر وجعلها عليهم سنين كُسِيني يوسف، وأهل المشرق يمتد من مضر مخالفون له، وفي لفظ للبخاري من طريق الأعرج عن أبي هريرة أن النبي ﷺ كان إذا رفع رأسه من الركعة الأولى يقول: اللهم أنج عياش بن أبي ربيعة، اللهم أنج سلمة ابن هشام، اللهم أنج الوليد بن الوليد، اللهم أنج المستضعفين من المؤمنين، اللهم اشْدَد وطَأَتك على مضر، اللهم أجعلها عليهم سنين كَسِيني يوسف. وفي لفظ للبخاري من طريق سعيد بن أبي هريرة قال: لما رفع النبي ﷺ رأسه من الركعة قال: اللهم أنج الوليد بن الوليد وسلمه بن هشام وعياش بن أبي ربيعة، والمستضعفين بمكة، اللهم اشْدَد وطَأَتك على مضر، اللهم أجعلها عليهم سنين كُسِيني يوسف، وفي لفظ للبخاري من طريق أبي سلمة عن أبي هريرة أن النبي ﷺ كان إذا قال: سمع الله لمن حده في الركعة الآخرة من صلاة العشاء قنت: اللهم أنج عياش بن أبي ربيعة، اللهم أنج الوليد بن الوليد، اللهم أنج سلمة بن هشام، اللهم أجعل المستضعفين من المؤمنين، اللهم اشْدَد وطَأَتك على مضر، اللهم أجعلها عليهم سنين كَسِيني يوسف. وفي قوله عز وجل: "الذين يقولون ربا أخرجننا من هذه القرية الظلم أهلها وأجعل لنا من لدنك ولايعلنا من لدنك نصراً. " إشعار ببيان تبرم المستضعفين من المقام بين ظهراني المشركين، وحرصهم على الخروج.
من مكة مادام أهلها ظالمين، وتضرعهم إلى الله عز وجل أن يسيّر لهم ولاة صالحين يصونون لهم حرمتهم وكرامتهم، ويتمكنون في ظلهم من إقامة شعائر دينهم، ولا شك أن هذه الصفات التي وصف الله عز وجل بها هؤلاء المستضعفين تفيد أنهم معذورون في ترك الهجرة وأنهم ليسوا ظالمين في مقامهم بمكة تحت ولاية المشركون، لأنهم لا يجدون حيلة ولا يهتدون سبيلهم، فكما قال عز وجل: "إِنَّ الَّذينَ تَوَافَهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِيْنَ فَأَنْفُسَهُمْ قَالُواُ قَمْتُمْ فَكَمْ قَالَ كَلَا، المستضعفين في الأرض، قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتُهاجروا فيها، فأولئك ما أواهم جهنم وساءت مصيرها. إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيّة ولا يهتدون سبيلًا، فأولئك عسي الله أن يغفرو عنهم، وكان الله عفوا غفورًا" رَبُّكَ تَبَارَكُ وَتَعَالَى. فذئب الينانى يقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت، فقاتلوا أولاء الشيطان ما كيد الشيطان كان ضعيفاً، هذا تبين آخر للمؤمنين وخصوصهم على القتال في سبيل الله بيان أنهم يقاتلون في طاعة الله ورضوانه، وأن أعداءهم يقاتلون في طاعة الشيطان وإن الله مؤيد حزبهم وناصرهم وإن الشيطان ليعجز أن يقاوم كيد الله وتدبره، فهو يهرب لمجرد سباهه ذكر الله يخنس، ومن أمثلة هربه من أوليائه ما حدث يوم بدر إذ أخذ يبني أولياءه ويعدهم فيما تراء الجمعان خذل أولياءه وفرّ عنهم، كما قال عز وجل: "وَإِذْ زَيَّنَ لَهُم الشيطان أعدائهم وقال لا غالب لكم اليوم من الناس وإن جابر لحكم فلما تراءت الفتى نكض على عقبي وقال إنّي بريء منكم إن أرى ما لا يُؤُذّن من أخف الله، والله شديد العقاب" وقيل تعالى: "الذي أمنوا يقاتلون في سبيل الله والذين كفروا يقاتلون في سبيل الطاغوت فقاتلوا أولاء الشيطان" دليل على أن كل من قاتل في غير سبيل الله فهو مقاتل في سبيل الطاغوت وأن كل من قاتل في سبيل الطاغوت فهو مقاتل تحت لواء الشيطان المهور.
المدحور عيادًا بالله منه.
قال تعالى: {فَلَمْ تَرُوَّ الَّذِينَ يَقِيُّونَ مَآءً فَعِمَّهُمْ كَثِيرًا يَأْبَيْكُمُ الْصَّلَاةَ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ فَلَن يُؤَذَّنَ لَهُمْ فِي النَّارِ}.

بعد أن حرض الله تبارك وتعالى المؤمنين على القتال في سبيل الله وهم على لقاء أولياء الشيطان أشار هنا إلى ما كان يُتمِّنئه المؤمنون من فرض القتال قبل أن يُفرض عليهم، ويطلبون من رسول الله ﷺ، وهم بِمِكَاَنَةَ أَنْ يَأْذَنَهُم بِالْمِلْلِ يَأْخُذُوهُمْ عَلَى أَعْدَائِهِمْ بالسِّيْوَفِ، وأن رسول الله ﷺ كان ينهاهم عن ذلك ويفتول: لم نمؤمر بقتال، وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة، وكان ذلك لحكمة سديدة رشيدة حيث لم يكن القتال إذا ذاك مناسباً لأسابق كثيرة منها قلبه عدهم بالنسبة إلى كثرة عدوهم. ومنها أنهم كانوا في البلد الحرام الذي حرم الله القتال فيه منذ خلق السماوات والأرض، فلمه بِهَا جُهَّر رسول الله ﷺ إلى المدينة وصار للمسلمين دولة وأنصار ومنعة أذن الله عز وجل لهم بالقتال، فلذا فرضه الله تبارك وتعالى إتباعه لذلك المنافقين الذين في قلوبهم مرضاً، وكيهوا ذلك كراهية شديدة، كا قال عز وجل: {وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْ تَؤْتَيْتُمُ السَّورَةَ مُحْكَمَةً فِي النَّارِ}. فذاذا القتال رأيت الذين في قلوبهم مرضاً، ينظر المغيث عليه من الموت فأولى لهم. طاعة وقول
معروفٌ وقد قال ابن إسحاق حدثني معيبد بن كعب أن أخاه عبد الله بن كعب حدثه أن أبا كعب بن مالك حدثه في قصة بيعة العقبة الثانية قال:
فلا بائعاً رسول الله صرح الشيطانُ من رأس العقبة بأن يذف صوته سمعته قط: يأهله الجاجابٍ - والجاجاب: المنازل هم لك في مَدَمٍّ والضبأ معه؟ قد اجتمعوا على حربكم، قال: فقال رسول الله ﷺ: هذا أزب العقبة، هذا ابن أزيب، أتسمع يا عدو الله، أما والله لأفغِنِّ لك، قال: ثم قال رسول الله ﷺ: افرضوا إلى رحالكم، فقال له العباس بن عباد بن نضلة: والذي بعثك بالحق إن شئت لتبتَّلِنَّ على أهل مني غداً بأسيافتنا. فقال رسول الله ﷺ: لم تَّبَّلِنُ بذل ذلك ولكن أرجعوا إلى رحالكم، ولا شك أن قوله تبارك وتعالى في هذه الآية الكريمة: فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يُعْشُونَ الناسَ كخشيئة الله أو أشد خشيئة ظاهر في أن هذا الفريق كان من المنافقين لأن المؤمنين الذين صحبوا رسول الله ﷺ لا ينطبق عليهم هذا الوصف بحال أبداً، وقد جاء النص في آية سورة محمد على أن الذين في قلوبهم مرض هم الذين خافوا عندما فرض القتال خوفاً شديداً، وخير ما يُمَسَّ القرآن هو القرآن ثم سنة رسول الله ﷺ وقوله تبارك وتعالى: ألم تر إلى الذين كتبوا أَيُّهِيكم وأقسموا الصلاة وأئموا الزكاة فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يُعْشُونَ الناسَ كخشيئة الله أو أشد خشيئة الآية، قد جاء هذا النص الكريم على طريقة الأسلوب البلاغي المعروف في علم البديع بالاستخدام وهو ذكر لفظ مشترك بين معنيين يراد به أحدهما ثم يذكر ضميره أو إشارة له أو لفظه بمعناه الآخر فقد ذكر عز وجل هنا أولاً الراغبين في الجهاد وقد متعوا منه حينا من الدهر ثم ذكر الذين كادت قلوبهم تنخل جزعاً لما فرض القتال، وهو شبيه بقوله تبارك وتعالى: هؤلاء الذي خلقكم من نفس واحدة وضع منها زوجها ليسكن إليها فلما تغشاه جلب حلاً.
خفيفا فمرت به فلأ أنقلت دَعَوْتُوا الله رَبِّيَّا لَن نَّتَيِّنَا صَالِحَا لَن كُونَنَّ مِنَ الشاكرين. فلَأ أنثى صَالِحَا جِعلًا لَه شَرِكاءًا فِي أَتَاهَا فِي فَتَعِيدِ اللّه عَلَى يُشَرَّكون. أَيْ شَرِكُونْ مَا لَا يَخْلُقُ شِيْئًا وَهُمْ يُخْلَقُونَ. إِذّ الْمَرَّادُ بِقُولِهِ: «خَلَقْكُم مِّن نِّسْبَةٍ واحْدَةٍ» هُوَ أَدَمَ، وَأَنَّ الْمَرَّادُ بِزُوْجَهَا فِي قُولِهِ: «وَجِلْ مِنْهَا زُوْجَهَا لِيَسْكِنَ إِلَيْهَا» هُوَ حَوْاءُ، أُمَا قُولُهُ عَزْ وَجَلْ: «فَلَأ تَخَشَّاهَا حَلَتْ حَمَا خَفِيفًا فَمَرَّتْ بِهِ» إِلَى أَخَرِ الْآيَاتِ فَهُوَ اِنتِقَالٌ وَاسْتَطَرَادٌ بَعْد ذِكْرِ أَدَمَ وَزُوْجَتِه إِلَى ذِكْرِ الْجِنْسِ وَالْذَّرِيَّةِ، وَهُوَ شَبَهُ كَذَا بِقُولِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: «وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِنْ سَلَالَةٍ مِّنْ طَينٍ، ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نَفْثَةً فِي قَرَارٍ مَّكْنِينَ.» فَالْمَلَّخْو فِي الْطَّيْنِ أَدَمَ وَالْمَلَّخْوِ مِنَ النَّفْثَةِ بِنَوُّهٍ وَذِرْيَتِهِ. وَهُوَ كَذَا شَبَهَ بِقُولِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: «وَلَقَدْ رَزَّنَا السَّيَّاءَ الْدُّنْيَا بِمُصَابِيَّةٍ وَجَعَلْنَاهَا رَجُومًا لِلنَّشَاطِئِ.» فَالْمَعْلُومُ أَنَّ رَجُومَ الْشَّياطِينِ لَيِسْتَ حَيَّانٌ مُصَابِيَّ السَّيَّاء، وَلَكِنْهُ اِسْتَطَرَادُ مِنْ شَخَصِهَا إِلَى جَنْسِهَا. وَهُذِهِ الْأَسْلُوبُ مِنَ الْمُحَسَّنَاتِ الْبَلَاغِيَّةِ الْبَدْيَعَةِ المَعْنِيَّةُ. وَقُولُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: «يَخْشَى النَّاسُ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشْدَدَ خَشْيَةً.» إِشْعَارٌ بِأَنَّ هَذَا الْخَلْقُ لَا يُصَدَّرُ مِنْ مُؤْمِنٍ بِاللَّهِ عَزْ وَجَلَّ إِنَّ خَشْيَةَ النَّاسِ كَخَشْيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشْدَدَ نَظْرٍ مِّنْ أَخْذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أُنْدَادًا يَجْوَبُهُم كَحْبَ اللَّهِ، إِلَّا كَانَ مِنْ أَحْبَأَ غَيْرِ اللَّهِ كَحْبَهُ صَارَ وَظِنَّاهُ فَلَا شَكَّ أَنَّ مَنْ يَخْشَى غَيْرِ اللَّهِ كَخَشْيَةَ اللَّهِ أَوْ أَشْدَدَ عَتْبَةً فِي الْوَهْيَةِ مِنْ أَحْبَأَ غَيْرِ اللَّهِ كَحْبَهُ اللَّهِ وَلَسْنَ قُولُهُ عَزْ وَجَلْ: «وَقَالُوا رَبُّنَا لَمْ كَتِبْ عَلَيْنَا الْقَتَالُ.» دِلْيَا عَلَى أَنْهُم مُّؤْمِنُونَ لَقَوْهُمْ: «رَبُّنَا» لَأَنَّ الْكَفَّارَ وَالْمَنَافِقُونِ يَقُولُونَ بَاللَّهِ وَلَكِنْهُم بَيْشَكُونَ بِهِ كَالِ قَالُ عَزْ وَجَلْ: «قَلُوا إِنَّمَنْ أَرْضٌ مِنْ فِيهَا إِنَّ كَتَمْ تَعْلِمُونَ.» سَيْقُولُونَ اللَّهُ، قَلُّ أَفْلَأ تَذَكَّرُونَ. قَلُّ مِنْ رَبِّ السَّمُوَّاتِ السَّبعِ وَرَبِّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ. سَيْقُولُونَ اللَّهُ، قَلُّ أَفْلَأ تَنَقُّون. قَلُّ مِنْ بَيْدَ مَلْكُوتٍ كُلٍّ شَيْءٍ وَهُوَ يَجْعَلُ عَلَيْهِ إِنَّ كَتَمْ تَعْلِمُونَ. سَيْقُولُونَ اللَّهُ، قَلُّ فَأَنَّ
لها نظائر كثيرة في كتاب الله الكريم. ومعنى قوله عز وجل:

«وقالوا أبنا ربي لا منعت علينا القتال لولا أخركنا إلى أجل قريب، قل من أوئل الدنيا قليل والآخرة خير من اتقى ولا تظنمون فيتلا.»

أي وقال هؤلاء المنزرون المدعوون بسبب فرض الجهاد: بارننا لم فرضت علينا القتال هلا أخبر إتباعه علينا لتمتع بالحياة ونموت على فرشتنا؟ فأمر الله رسوله ﷺ أن يقول لهم:

«متاع الدنيا قليل، فلن تجدوا فيها، فلو انقطعت لأمر الله، واستجبتم لما يشروعهم لكم، ورضيتهم به صرتم من جملة المتقين الذين أعد الله لهم المتاع الدائم الأبدي السرمدي الجزيل مما لا يموت رآته ولا أدنى سمعت ولا خطر على قلب بشري لا يقضس نعيم الدنيا الزلال القليل بمتاع الآخرة الدائم الكبيرة، والآخرة خير من اتقى ولا يظلم أحد من عمله الصالح مثقال أو مقدار فتيل.»

كما لا يُمْلَأ أحد غير ما عمل من السيئات مقدار أو مثقال فتيل، وقوله ﷺ تبارك وتعالى: «أي إن الموت الذي ترون منه، وتكرون فرضية القتال خوف نزوله بكم».

وأصبحت من أجله تخشى الناس كخشيته الله أو أشد خشية هو مذركم لا محلالة على الصفة التي تفضها في الأزل أحكم الحاكمين ورب العالمين سواء كنت في بيتك أو في المعارك والحروب، أو فيجو السهاء، أو على متن الماء فلا تظنوا أن خوفكم من الموت يبعد عنهكم فلو كنت في قصور منيعة وحصون حصنية وقلاع متينة وبروج عالية شاهقة محكمة لا تنالها الرماح، ولا تقدر على تدميرها آيات الحرب فإن الله عز وجل يتوفىكم على الصفة التي قضاه يعليكم من الموت أو قتل، كما قال ﷺ:

«قل لو كنتم في بيوتكم لبرز الذين كتب عليهم القتال إلى مضاجعهم».

ومن كانت منيته بالأرض سواها

فليس يموت في أرض سواها

358
ومكم من الأبطال خاضوا غزارة المعارك الطاحنة كسعد بن أبي وقاص وخالد
ابن الوليد الذي يؤثر عنه أنه قال عند موته: لقد شهدت كذا وكذا موقعًا وما
من عضو من أعضائي إلا وفيه جرح من طعناء أو رمية، وهوا آنا ذا آموت على
فراشي فلا نامت أعين الجبناء. وقد جاء في البخاري عن قيس بن أبي حازم
عن خالد بن الوليد قال: لقد اندق في يدي يوم موتة تسعة أسفاً فرق صبرت
معى إلا صحيفة بانية اهدا. فقال على الجهاد لا يقرب أجلا بعيدا،
والخوف والتهرب من القتال لا يُعد أجلا قريبا كأ قال عز وجل: «قل لن
يُتمَّعَكم الفيروز إن فرَّتم من الموت أو القتيل وإذا لم تُمْتَعُنَّ إلا قليلاً.»
وعن أبي سفيان قال: «أو عينهم حسنة يقولوا هذه من عند الله وإن يُصَبُّهم
سيئة يقولوا هذه من عندك» أي وإن يُصَبُّ هؤلاء الرعادي رخاء وسلامة
وصحة في أبدانهم قالوا: هذه من عند الله وإن يُصَبُّهم جدب وقحط ونقض
في الشار والزروع أو غير ذلك مما لا يفرحون به قالوا: هذه المصيبة جاءتنا
بسبب انقيادنا لك وتباع دينك، ولا شك أن هذا لا يصدق من مؤمن يؤمن
بالله ورسله، وليس قولهم: هذه من عند الله دليلاً على إياهم به الله إذ لو
آمنوا بالله ما طعنوا على رسوله وسيد خلقه محمد ﷺ وما أساءوا الظن به وما
تشاءوا من بعثته التي كانت أينم بعثة عرفتها الإنسانية في تاريخها
الطويل المديد، ولكنهم نهجوا منهج من سبقهم من الكفار الذين تشاهدوا
من رسولهم السلام كما قال عز وجل: «وإن تصبهم سبيئة يطروا بموسى ومن معه» وكذا ذكر عز وجل عن قوم صالح: «قالوا أطيرنا بك
وبمن معك» وقوله عز وجل: «قل كُل من عند الله فيا هؤلاء القوم لا
يكدون يفقهون حديثنا» أي قل يا محمد هؤلاء الجاهلين: كُل ما أصاب
الإنسان من خير أو غيره فهو بقضاء الله وقدره، فإنا شاء الله كان وآلم بشا لم
يكن، لكن هؤلاء الجاهلين لا يعرفون أدب الحديث والتأدب في نسبة الأشياء
إلى الله عز وجل، ثم عرفتهم فقه الحديث وأدب الخطاب فقال: "ما أصابك من حسنة فِمَنّ الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك" أي ينبغي لم نعرف الأدب مع الله عز وجل أن يقول عندما يصيبه خير: هذا من عند الله وجوده وفضله، وأن يقول عندما يصيبه شر: هذا بسبب تقصير في حق الله عز وجل وبسبب سيئتي وذنوب، كما قال عز وجل: "وما أصابكم من مصيبة فيها كسبت أيديكم و البعض عن كثير" وقوله عز وجل: "وأرسلناك للناس رسولا و كفى بالله شهيدا" هو مواساة لرسول الله ﷺ فيها بلقاء من أذى الكافرين والمنافقين وإعلام للناس أن محمدًا رسول الله ﷺ ليس عليه إلا البلاغ وقد أدى الرسالة على أكمل وجه، وكفى بالله شهيدا".
قال تعالى: «من يطبع الرسول فقد أطاع الله وصَمَّل في أرسنالهم خفيفًا. وَيَقُولُونَ طَائِعًا إِذًا بَرَزَّكَ بَيْنِكُم بُطْرِةٌ طَائِضِيَّةُ مِنْهُمْ غَيْرُ الَّذِي تُقُولُ وَلَدَاءُ رَبِّي بِكُتُبِي مَا يُسِيبُونَ فَأَعْرَضَ عَنْهُمْ وَبَسَوَّلَ عَلَى الْخَيْرَ». وَلَوَ كَانَ مِنْ عَدِيدِ غَيْرِ الله لَجُنُّ وَكَافِرًا أَخْتِلَاكَا كَبِيرًا. وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمَّرُ مِنْ الأَمْرِ وَأَحْيَى فَأَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رُضِيَ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أَوَّلِ الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلَّمَهُ الَّذِينَ يَسْتَبِطَّنَفْهُ مِنْهُمْ، وَلَوَلَّا فَضِلُّ الله عَلَيْكُم وَرَحْمَتُهُ لْأَبْعَثَهُمْ السَّبِيطًا إِلَّا قَلِيلًا».

بعد أن أشار الله تبارك وتعالى إلى بعض دسائس المنافقين وغضبهم في سلوكهم المعوج وأخلاقهم القبيحة التي يعاملون بها أكرم خلق الله محمدًا ﷺ حيث كانوا إذا أصابتهم سيئة قالوا: هذه من عندك أي بسبك مع أن سفرته كانت أبىهم سفارة للإنسانية كلها بل كانت خيراً حتى للحيوانات العجول التي كَرَزَ الوضاءة بها والإحسان إليها في سكرات الموت حيث كان يقول: الصلاة الصلاة وما ملكت أياهكم. وقد كان هؤلاء المنافقون قد وقعوا تحت التأثير اليهودي الحبيث في التفريق بين الله ورسوله حيث قالوا نؤمن بالله ونكفر بمحمد وعيسى عليه السلام وأراد المنافقون تقليد اليهود في ذلك حيث أظهروا أن الحسنة التي تصبهم تكون من الله وأن السبحة التي تصبهم تكون من الرسول ﷺ، بين عز وجل هنا أن طاعة الرسول ﷺ طاعة الله عز وجل، فمن أدَّى الإيان بالله ولم يؤمن بالرسول ﷺ فهو كاذب في دعوى الإيان بالله حيث قال عز وجل هنا: «فمن يطع الرسول فقد أطاع الله» وقد أشار الله تبارك وتعالى إلى أن من أدَّى الإيان بالله وكرر بالرسول ﷺ فهو كافر حقاً وأن الله عز وجل قد أعد له عذاباً مهيناً حيث يقول تبارك وتعالى: «إن الذين يكفرون بالله ورسله يريدون أن يَفْرَقُوا...»
والفعل على الطعن في دين الإسلام، ولا يعليمون أن الله عز وجل لهم بالرصاد يُحصى عليهم ما يُبشو لرسول الله ﷺ والإسلام والمسلمين، وأنه عز وجل محيطٌ كيديهم، وجاعل تدبيرهم في تدبيرهم، وفي قوله عز وجل:

وينقولون طاعةً بفرع طاعة إشعاراً بمحاولتهم إفهام المسلمين أنهم ثابتون على الطاعة مستقرون عليها، لأن العرب إذا أرادت الدلالة على مجرد الفعل نصبت، وإذا أرادت الثبات والاستقرار والدوام رفعت وقد أشار الله تبارك وتعالى إلى هذا المعنى في قصة تسليم الملائكة على خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام حيث يقول: "اذ دخلوا عليه فقالوا سلاما قال سلام" حيث كان ردة عليه السلام لتحتيمهم بأحسن منها لأنهم لما نصبو سلاما أثبتوا مجرد التحية والسلام، فرد عليه السلام دائم ثابت مستقر فقال: سلام ومعنى برزوا من عندك أي خرجوا من عندك ومعنى يبن طائفة منهم غير الذي تقول العرب يقولون للأمر الذي يُطلون فيه التفكير، ويستغرقون ليلهم في تأمله: هذا أمر ميّت، وقد جرت العادة أنهم لا يثبتون من أمرهم إلا ما كانوا يكرهون أن يطلع غيرهم عليه، كما قال عز وجل: "يُسَحَّفون من الناس ولا يُسَحَّفون من الله وهو معهم إذ يثبتون ما لا يرضى من قول وكان الله سبحانه يعملون محيطاً قال ابن جرير في تفسير هذه الآية: وكل عمل عمل ليلًا فقد يثبت، ومن ذلك: يثبت العدو وهو الواقع به ليلة، ومنه قول عبيدة بن همام:

وكانوا أتونا ستنا نكر وهم ينتحل العبد حري لحر

يعني يقوله: (فلم أرض ما يثبتا) ليلة، أي ما أدركه ليلة وعزموا عليه، ومنه قول النمر بن تولب العكال: هُبت لِتَغذَّيْنِي من الليل اشمع

سُفْها تثبت الملامة فاهمجعي اهـ

٣٦٣
ومعنى قوله عز وجل: "فأعرض عنهم وتوكل على الله، وكنى بالله وكنياً.
وعليهما. أي فلا يحزنك مكرهم وسوء فعلهم، ولا ما يدبرون ضدهم.
وإبطال مكرهم فلله عز وجل بالحرص لهم، وهو عز وجل يكشف شرهم.
ويرد كيدهم إلى نحوهم وقوله عز وجل: "أكل يتدبرون القرآن، ولو كان من عند غير الله توجدوا فيه اختلافاً كثيراً".
هذا توجيه من الله عز وجل إلى جميع المكلفين وبخاصة المنافقين واليهود والشركاء إلى أن يتدبروا هذا القرآن العظيم.
وأن يعملوا فيه فكرهم وأن ينظروا فيها استمالة على ما يراه من الأخبار عن النزاعات الماضية والحاضر والمستقبل، وما احتواء من الأحكام والحكم والعلوم الكونية والنسائية والدينية والدنيوية، وفي أساليблها ولفظها وبلاغتها التي فاقت كل ما وصفه البلاغاء وتحدث به الفصحاء، مع سلامته عن أي تناقض أو اضطراب أو اختلاف، مع أنه كتاب كبير، فلو كان من عند غير الله مهما كان هذا الغير لوجد فيه تناقض واختلاف واضطراب كثير.
وقال عز وجل: "أكل يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفافها*، وقد تحدث الله به الإنس والجن أن يأتوا بسورة من مثله، ومع ذلك لم يتجل عن أحد من أساطين الفصاحة والبلاغة والبيان من كفار قريش أو غيرهم أنه وجد في هذا القرآن العظيم اختلافاً قليلاً أو كثيراً بل قال بعض روساء المشركين: إلّا لحلاوة وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه نصر وإن أسفله لمغدق.
ولم يدع أحد من أعداء الإسلام أنه أخرب عنه بخلاف غير صحيح، فهؤلاء الفريق من المنافقين الذين قالوا: "طبعاً، فإنما بروا من عند رسول الله * بيتهم غير الذي يقول رسول الله *، فأخبر الله عز وجل رسول الله * بخبرهم، فما أدعاه واحد منهم أن ما أخبر القرآن به في شأنه يختلف عنهم وقع منهم مع أنه إخبار بالغيب.
والتعبير بالكثير في قوله: "لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً" للفت الانتباه إلى أنه لطوله.
وعلومنه لو كان من عند غير الله لم يكن فيه اختلافاً كثيراً فكيف وهو مع ذلك لم يوجد فيه أدنى اختلاف، فنفي الكثرة ليس لإثبات القلة، بل هو على حد قوله عز وجل: ﴿ما للظلمين من حجم ولا شفع يطاع﴾ إذا المقصود: لا طاعة ولا شفاء للكفارين يوم القيامة، وكما قال امرؤ القيس: على لا حب لا يُنحدّد بمناره، إذا ﴿سَافَقَ الْعُوْدُ النَّبَاطِيُّ جُرْجَر﴾ إذا المقصود: لا منار ولا اهتماء، فكذلك قوله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِنَ الْأَمْنِ أوَّلًا أَفَأَنْكُمْ لَا تُطِلِّبُونَ أَنفُسَهُمْ﴾، هذا مثال لرعونة المكافين وأشباههم من المرجفين الذين يبادرون إلى نشر الإشاعات وإذاعة الأخبار دون تحقيق وثبت أو دون رويٍّ مما قد يُلحق الأذى بالأبرياء، ويسبب بلببة الأفكار واضطراب الأمة، وأن الإنسان الشوّي هو الذي إذا جاءه خير مثير لا يتحدث به حتى يرجع إلى ذوي العلم الذين يستطيعون استباط الأمور من مصادرها الصحيحة قال ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية: ولنذكر هذين حديثين عن الخطاب المتفق على صحته حين بلغه أن رسول الله ﷺ طلق نساءه، فجاء من منزله حتى دخل المسجد فوجد الناس يقولون ذلك فلم يصب حتى استأذن على النبي ﷺ فاستفهمه: أطلقتك نساءك؟ فقال: لا، أطلقت. وذكر الحديث بطوله. وعند مسلم: فقلت أطلقته؟ قال: لا، فقمت على باب المسجد فناديت بأعلى صوتى لم يطلق رسول الله ﷺ نساءه. ونزلت هذه الآية: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمَّرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوْ الخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدَّهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ﴾، فكانت أنت تستبطنينهم، فكانت، ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمَّرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوْ الخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ﴾ أسلوب بلاغي.
بديعي يعرف عند علماء البديع باسم الجناس اللاحق وهو ما خالف فيه اللفظان في حرفين متباعدين مخرجًا كأمر وأمن. وفيه كذلك من المحسنات البديعية الأسلوب المعروف عند البلاغيين باسم الطباق وهو الجمع بين لفظين متسائدين في المعنى حيث قال من الأمن أو الخوف، وقوله تبارك وتعالى: ولولا فضل الله عليكم ورحمة لاتبعتم الشيطان إلا قليلا. أي ولولا جود الله عليكم وفضلله بأحر كم من عدوكم وعرفكم به من أصول سعادتكم وأمنكم لانقذتم للشيطان إلا من عصمه الله منكم وهم قليل.
قال تعالى: "فقاتوا في سبيل الله لا تُكْلِفُ إلا نفسك، وحرَّض المؤمنين
عَسَى الله أن يَكُفَّ بأس الذين كفروا، والله أشاد بأساً وأشاد تَعْيِيلاً. مِن يَشْفَعُ شَفَاعَةً حَسنَةً يَكُن لَّهُ نَصْبٌ يَمَّا وَمِن يَشْفَعُ شَفَاعَةً سَيِّيَةً يَكُن لَّهُ كَفَّلُ مِنْهَا، وكان الله على كل شيء مفتاكاً.
"

بعد أن أمر الله عز وجل بالقتال في سبيل الله وأثّى على الذين يسارعون إليه، وندد بالذين لا يحرصون عليه، ووبخهم أشد النبیخ، وفضح ما يسيرون من سوء المعتقدم، وما يبيبون من قبيح التشديب، وأوضح أن طاعة رسول الله ﷺ طاعة الله عز وجل الذي أرسله، وارشد رسوله ﷺ إلى الإعراض عليهم والاعتداد على الله وحده، وحض على تدبر القرآن العظيم، والثبت عند مجيء أمر من الأمن أو الخوف أمر رسوله ﷺ هنا بقتال أعداء الله وألا يعبأ بتخلف المتخلفين، وأن يحرص المؤمنين على القتال حيث يقتول: "فقاتوا في سبيل الله لا تُكْلِفُ إلا نفسك", والفاء في قوله: عز وجل: "فقاتل", لتريث ما بعدها على ما قبلها أي إذا كان هؤلاء المنافقون يفعلون ما يفعلون من التنبيط والتبني والإجاف فتقدمت نت للقتال، فإنك غير مسؤول عن تخاذلهم، والله ناصرك ومؤيدك، وقوله تبارك وتعالى: "وحرَّض المؤمنين" أي وحرص المؤمنين وحثهم على مقارعة أعداء الله وقتنائهم، ورغبهم في ذلك، ويبت لهم ما أعد الله عز وجل للمجاهدين في سبيله من جليل الأجر وعظيم الشموبة، وقد سارع رسول الله ﷺ إلى امتطال أمر ربه، وكان يحرص المؤمنين على القتال ويخضهم عليه، ويرحمهم فيه، ويشجعهم بما كان يحمل الواحد منهم على رمي ما بده من تمرات حرصاً على منزلة أعداء الله، والمسارعة إلى جهاد المشركين رغبة في الفوز بالشهادة في سبيل الله، وكان يقول لهم: قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض، ويقول: إذا لقيتموه
للمؤمنين ووعدٌ منه عز وجل بنصرهم وتأييدهم وإلقاء الرعب والفزع في قلوب أعدائهم، كما قال عز وجل: "وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدوُّ الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعقلُونهم الله يعقمهم" وقوله تعالى: "وَاللهُ أَشْدَ أَشْدًا وأَشْدَتْ تَنْكِيِّلًا" أي والله وحده قادر على الانتصار من الكافرين وتدميرهم وإيقاع أشد العقوبات بهم. كما قال عز وجل: "ذَلِكَ لَوْ يَشَاءَ اللَّهُ لَانتصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِنْ لَيَبْلُوِ بِهِمْ بضَعْم" لأنه عز وجل إذا أراد أن يأخذ أعدائه أخذهم أخذ عزيز مقتدر. فهو تبارك وتعالى ذو البطن الشديد، الفعال ما يريد، قال ابن جبرير رحمه الله في تفسير قوله تعالى: "وَاللهُ أَشْدَ أَشْدًا أَشْدَتْ تَنْكِيِّلًا" تقول: والله أشد نكائية في عدوى من أهل الكفر به منهم فيك يأحمد وفي أصحابك، فلا تتكلم عن قتالهم، فإنك راصدهم بالبأس والنكاء والتنكيل والعقوبة لأوهم كيدهم وأضعف بأسهم، وأعلق الحق عليهم، والتنكيل مصدر من قول القائل: "نكلت بقان أنا أنكِlean به تنكيلًا إذا أوجعته عقوبة أه". يقول عز وجل: "مَنْ يَشْفَعْ شُفَاعَةَ حَسَنَةٍ يَكْنِ لهُ نِصْبٌ منها وَمَنْ يَشْفَعْ شُفَاعَةَ سِيِّئَةٌ يُنْكِلُ لَهُ مِنْهَا" بعد أن أمر الله عز وجل رسوله وحبسه محمدًا بالقتال في سبيل الله وتخريض المؤمنين على القتال ذكر هنا أن من يسارع إلى الانضمام لجند الله وتكثير حزب الله ويخوض المؤمنين على قتال أعداء الله يجعل الله تبارك وتعالى له أجراً عظياً وحظاً كريباً من ثواب الله تعالى الذي أعده للمجاهدين في سبيله، دون أن ينقص من أجرهم شيئاً، لأن من دل على خير فله مثل أجر فاعله، ومن ناصر أعداء الله على أولياء الله فله من الأوزار والآثام مثل أثامهم وأوزارهم دون أن ينقص من أوزارهم شيء، ومادة شفع تدور في اللغة على معنى الازدواج، والزيادة، والإعانة، فالمشفع: الزوج وهو ضد الوتر وتقول: "شفع ناظري إذا صار يرى الحظ خطين والشخص" 

٣٦٩
شخصين، قال في القاموس المحيط: وعين شافعة تنظر نظرين، وشيَّعت في الأشباح بالضم أي أرى الشخصين لضعف بصري وانشارة، ثم قال: وإن له شفاعة. و تعالى بالعدوة أي يعين على ويتذكر. وقال تعالى: {مَن يَشْفَعُ شِفَاعَةَ حَسَنَةٍ} أي مَن يَنْزِد عَمَلاً إلى عمل، ثم قال: و كامير صاحب الشفاعة وصاحب الشفاعة بالضم وهي أن شفعة فيها تطلب فتضمهن إلى ما عندك فتشفعه أي تنزده، وعند الفقهاء حتى تملك الشيخ عشري بن مسعود ملكه قهراً بوعظه الاه. وإذا كان قوله عز وجل: {مَن يَشْفَعُ شِفَاعَةَ حَسَنَةٍ} ينطيح منها ومن يشفع شفاعة سنة يكون له كفيلة منها. فسيق للحض على المسارعة لتأييد دين الإسلام والانضمام لجند الله والتحذير من الانضمام إلى جند الشيطان وتأييد أعداء الله فإن عموم لفظهم يشمل هذا الذي سيق من أجله ويشمل كذلك من يشفع لإنسان في باب من أبواب الخير ويدخل عمله هذا في باب الشفاعة الحسنة كما يشمل من يعين ظالماً على ظلمه ويعتاقون على الإثم والعدوان أو يشفع لشخص ليتولى عملًا لا يكون كفؤاً له، ويدخل هذا في باب الشفاعة السبعة؛ وقد حضر رسول الله ﷺ على الشفاعة للناس في أبواب الخير وحذر تحذيراً شديداً من الشفاعة السبعة فقد روى البخاري من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه قال: كان رسول الله ﷺ إذا جاءه السائل أو طلب إلى حاجة قال: اشفعوا تُؤْجِرُوا و يقضي الله على لسان نبيه ما شاء وقد أخرجه مسلم في صحيحه من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه يلفظ: كان رسول الله ﷺ إذا أتى طالب حاجة أقبل على جلسائه فقال: اشفعوا فَلَتْؤْجِرُوا، وليُقْضَى الله علِى لسان نبيه ما أحب. وقال البخاري: باب الشفاعة في وضع الذين حدثنا موسى حدثنا أبو عوانة عن مغيرة عن عامر عن جابر رضي الله عنه قال: أصبر عبد الله وترك عياً وديثاً فطلبضى إلى أصحاب الدين أن يضعوا بعضًا من دينه

٣٧٠
فأبووا، فأثيرت النبي ﷺ فاستفسعت به عليهم، فأبووا فقال: صنف تمرُك كل شيء منه على حدثه، عقد ابن زيد على حدة، واللين على حدة، والعجوة على حدة، ثم أحضرهم حتى آتيك، ففعلت، ثم جاء قائد، فقعد عليه، وكال لكل رجل حتى استوفى، وبقي التمر كا هو كأنه لم يمس الحديث. كأ روى البخاري من حديث ابن عباس أن زوج بريرة كان عبدا يقال له مُغْيِث كأ أنظر إليه يطوف خلفها يبكي، ودموه تسيل على حبيته، فقال النبي ﷺ: يا عباس ألا تُعجب من حب مغِيث بريرة، ومن يُغض بريرة مَغِيث؟ فقال النبي ﷺ: لو راجعتهم؟ وقال: يارسول الله تأمرني؟ قال: إننا أنا أشفع. رأيت: لا حاجة لي فيه. ومن أمثلة الشفاعة السيئة الشفاعة في الحدود إذا رفعت إلى السلطان وقد روى البخاري ومسلم واللفظ للبخاري من حديث عائشة رضي الله عنها أن قريشا أهَمِثهم المرأة المخزومية التي سرقت، فقالوا: من يُكَلَّم رسول الله ﷺ؟ ومن يجري عليه إلا أسامة بِّبُن رسول الله ﷺ، فكلم رسول الله ﷺ، فقال: أشفع في حيد من حدود الله. الحديث وقال أبو داود في سنة: حدثنا أحمد بن عمرو بن السرح ثنا ابن وهب، عن عمر بن مالك عن عبيد الله بن أبي جعفر عن خالد بن أبي عمران عن القاسم عن أبي أمامة عن النبي ﷺ قال: من شفع لأخي بشفاعة فأهداه له هدية عليها فقد أتى بابا عظيماً من أبواب الربا، والكلف والنصب بمعنى واحد، ومعنى قوله عند وجل: «وكان الله عن وجل ولا يزال مقدرا حفظاً شهيداً حسباً لا يفوته شيء من أعمال عباده خيراً كانت أو شرآً، فاجتبوا الشر وفعلوا الخير لعلكم تفلحون».

٣٧١
قال تعالى: «وإذا حُبَّتم بِثَيَابِ الْحَكِيمَةِ فَحِيْثُوْا بِأَحْسَنِ مِنْهَا أوْ رَكُوبُهَا، إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ حَسَبًا وَلَا يُؤْمِنُنَا إِلَّا هُوُ، لَيَجْمَعْنَكُمْ إِلَى بُيُومِ الْقِيَامَةِ لاَ رَبِّٰبُهَا فِيهِ وَمَنْ أَصْدَقْ مِنْنَ مُنْهِجَ الْحَدِيثَ.»

بعد أن رغب الله عز وجل في الجهاد وقتل أعداء الله وأمر رسوله بتحريض المؤمنين على القتال، وأشار إلى أن الناس ليسوا سواءاً فمنهم من يسارع إلى داعي الخير وينضم إليه، ومنهم من يسارع إلى داعي الشر وينضم إليه، نبه هنا إلى أن دين الإسلام هو دين السلام، وأنه لا يجوز لأحد أن يفهم من الحض على الجهاد أن الإسلام دين دمومي، فهو عندما يأمر بالقتال فإنه يأمر به لمصلحة الإنسانية، ولذلك نبه المسلم إلى أنه حتى لو كان في أرض المعركة وليقه رجل من الجانب الذي فيه الكفار وسلم عليه وجب على المسلم أن يرد عليه السلام والتحية بأحسن منها أو بمثلها وألا يلحق به أي أذى مادام قد سلم عليه، وحذّر المسلم من سوء الظن بمن سلم عليه ويجيبه حيث يقول عز وجل: «ولا تقولوا من ألقى إليكم السلام لست مؤمناً تبغون عرض الحياة الدنيا فعند الله مغامات كثيرة، كذلك كنتم من قبل فمن الله عليهم فتبتُّوا، إن الله كان بما تعملون خيراً.» قال البخاري في صحيحه: حديثنا علي بن عبد الله حدثنا سفيان عن عمرو عن عطاء عن ابن عباس رضي الله عنها: «لا تقولوا من ألقى إليكم السلام لست مؤمناً» قال: قال ابن عباس: كان رجل في غنية له فلقيقه المسلمون، فقال: السلام عليك، فقلتوا وأخذوا غنيمته، فأنزل الله في ذلك إلى قوله: "عرَّض السَّلام عليك، فقلتوا وأخذوا غنيمته، فأنزل الله في ذلك إلى قوله: "وإذا حُبَّتم بِثَيَابِ الْحَكِيمَةِ فَحِيْثُوْا بِأَحْسَنِ مِنْهَا أوْ رَكُوبُهَا" أي وإذا حيّاك أحد بتحية الإسلام فأجبوه على تحيته بأحسن منها أو بمثلها. وأصل التحية الدعاء بالحياة وطُولُها ثم 372
استعملت في كل دعاء، وكانت العرب إذا لقي بعضهم بعضاً في الجاهلية
يقول: حَبِيَّكَ اللَّهُ ثم استعملها الشرع في السلام وهي تجربة الإسلام قال عز
وجل: "تَمَّتْ لَهُمُ الْمَلَائِكَةُ صَدَاقيَّتَهُمْ وَقَالَ عِنْدَ اللَّهِ لَمْ يَنْتَفِقَنَّ" وأما لأنه الإسلام
خير التحيات التي يجيب الله عز وجل كما أشار إلى ذلك تبارك وتعالى حيث
يفعل: "وَإِذَا جَاءَكَ حَبِيَّكَ لَا تَجْحَدُ عَلَيْهِ بَيْنَكَ وَلَا تَجْمَعُ عَلَيْهِ بَيْنَكَ" وهي تجربة الإسلام
محبوبة في الله عز وجل فهي كذلك لها مزية على غيرها إذ السلام دعاء
بالسلامة من الأفاس الدينية والدنيوية، وهي مستلزم لطول الحياة، وليس
في الدعاء بطول الحياة تلك السلامة، ولأن السلام من أساليب الله الحسن في
أعظم خير وأرك من جميع تحيات أهل الجاهلية التي كانوا يجيب بعضهم
بعضاً بها كقولهم حياً الله، أو أنعم صبحاً أو أنعم مساء، أو أنعم الله بِك
عيناً، أو أبت اللعنة فإن تجربة الإسلام أجمع وأعم وأفضل من ذلك كله،
وقد أشار رسول الله ﷺ إلى أن هذه التحية كانت من أول ما دار من حوار بين
آدم عليه السلام والملائكة وأنها تجربة الملائكة والنبيين والرسلين وسائر المؤمنين
إلى يوم القيامة فقد روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه
قال: قال رسول الله ﷺ: خلق الله آدم على صورته، طوله ستون ذراعاً، فلما
خلقته قال: اذهب فَسَلَّمُ عَلَى أَوْلِيَاءِ النَّفْرِ وَهُمْ نَفْرُ من الملائكة جلُوس،
فاستمع ما يجيئوك، فإنها تحيتك وتحية ذريتك، فذهب، فقال: السلام
عليكم، فقالوا: السلام عليك ورحمة الله، قال: فَزَادَوهُ وَرحمة الله. قال:
فكل من يدخل الجنة على صورة آدم وطوله ستون ذراعاً، فلم ينزل الخلق
ينقص بعده حتى الآن، وقد ذكر الله تعالى و تعالى سلامه على عباده المؤمنين
في مواضع كثيرة من كتابه الكريم حيث قال: ﴿قيلٌ يأْوَحْ اهْبِط بِسَلَامٍ مَنَا

٣٧٣

374
الترمذي وقال حديث صحيح عن عبد الله بن سلام رضي الله عنه قال:
سمعت رسول الله ﷺ يقول: يأتي الناس أفشلوا السلام وأطمروا الطعام
و صلى الأرحام وصلى الناس نيام تدخلوا الجنة بسلام. كا روى أبو داود
والترمذي وقال: حديث حسن عن عمران بن الخطيب رضي الله عنه قال:
جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال: السلام عليكم، فرد عليه، ثم جلس، فقال:
عشر، ثم جاء آخر فقال: السلام عليكم ورحمة الله، فرد عليه، فجلس،
قال: عشرو، ثم جاء آخر فقال: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته، فرد،
فجلس، فقال: ثلاثون. وقد أرشد رسول الله ﷺ المسلمين إلى أداب السلام
وكيفيته بقوله وفعله ﷺ: فقد روى البخاري في صحيحه من حديث أس
رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان إذا تكلم بكلمة أعادها ثلاثة حتى تفهم عنه
و إذا أتي على قوم فسلم عليهم سلم عليهم ثلاثاً. كما روى أبو داود
والترمذي وقال: حديث حسن صحيح عن أبي جريج الهجيمي رضي الله عنهُ
قال: أتبت رسول الله ﷺ فقت. عليك السلام يارسول الله، فقال: لا
تقل عليك السلام فإن عليك السلام تجيبة الموتى. كما روى أبو داود بإسناد
صحيح من حديث أبي أمامة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: إن أولى
الناس بآيتنا من بدأهم بالسلام، كا روى البخاري ومسلم من حدث أبي
أبو الأنصاري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: لا يجل للرجل أن يهجر
أخاه فوق ثلاث ليل، ينتظيان فيعرض هذا، وخيرهما الذي
يبدأ بالسلام. وقد كان رسول الله ﷺ يسلم على الصبيان فرد روى البخاري
ومسلم من حدث أنس رضي الله عنه أنه مر على صبيان فسلم عليهم وقال:
كان رسول الله ﷺ يفعله، كما أنه لو سلم الإنسان على إنسان ثم فارقه ولو
قليلًا ثم رجع إليه فإنه يستحب له أن يسلم عليه مهما تكبر ذلك فقد روى
البخاري ومسلم من حدث أبي هريرة رضي الله عنه في قصة المسيء صلاته

٣٧٥
أنه جاء فصل ركعتين ثم جاء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم عليه، فرد عليه السلام، فقال: ارجع فصل فأنك لم تصل فرجع فصل ثم جاء فسلم على النبي صلى الله عليه وسلم حتى فعل ذلك ثلاث مرات. كما ينبغي الحرص على أن يسلم الرجل على زوجته وأهله إذا دخل عليهم فقد روى الترمذي وقال: حدث حسن صحيح عن أنس رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم: يابني إذا دخلت على أهلك فسلموا تكن بركة عليك وعلى أهل بيتك. كما روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم: يُسلم الراكون الماشي والمشي على القاعد، والقيل على الكثير. وفي رواية للمبخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: يُسلم الصغير على الكبير، والعزر على القاعد، والقيل على الكثير، وتبَّه الإسلام إلى الرَّد على اليهود والنصارى إذا سلموا على المسلم فقد روى البخاري ومسلم من حديث ابن عمر رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم: إذا سلم عليك أهل الكتاب فقالوا: وعليكم. كما يجوز للمسلم إذا مر على مجلس فيه أهل الكتاب فقولوا: وعليكم. ومعنى قوله عز وجل: "فاحياً بأحسن منها أو زدها" أي فليكن رذك على من سلم عليك بأحسن من سلامة أو بمثله على الأقل. فإذا قال المسلم مثلًا: السلام عليك وسلم على المصموم، ورفع السلام ورحمة الله، فإذا قال المسلم: السلام عليك وسلم على المصموم، ورفع السلام ورحمة الله، وبركته، فإذا قال المسلم: السلام عليك وسلم على المصموم، ورفع السلام ورحمة الله، وبركته، فإن المسلم يرى الجواب، ورفع السلام ورحمة الله، وبركته، فأنا أراه وسُلماً، ورحمة الله، فأنا أراه وسُلماً، ورحمة الله، فأنا أراه وسُلماً، ورحمة الله، فأنا أراه وسُلماً، ورحمة الله، فأنا أراه وسُلماً، ورحمة الله، فأنا أراه وسُلماً، ورحمة الله، فأنا أراه وسُلماً، ورحمة الله.
رحمه الله: عن الحسن البصري: السلام تطوع والردة فريضة وهذا الذي قاله هو قول العلماء قاطبة أهـ. وقوله عز وجل: ﴿إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَى كُل شئٍ حسبيًا. اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْقَدِّيسُ الْقَهَّارُ إِلَى يَوْمِ القيَامةِ لَا رِيبُ فِيهِ، وَمِن أَصْدَقِقٍ مِّن اَللهِ حَدِيثًا. ﴾ أي إن الله عز وجل حسبكم على أعمالكم ومجازكم بها فلا تتهاونوا في تطبيق شريعة الإسلام التي شرعها الله عز وجل لسعادتكم في الدارين، وسيجمعكم الملك الحق المبين الذي لا يستحق العبادة أحد سواء، في عروسات القيامة، ولا أحد أصدق من الله قولاً.
قال تعالى: "فَقَلْيَا لَكُمْ إِنْ فَوَقْتُ بَعْضَكُم بَعْضَهُمْ في الْأَنَامِ، فَأَتِمُّوا أَمَرَاهُ رَبِّكُمْ إِنَّهُ رَبُّ الْأَمْوَاتِ وَالْأَيْنُوْلِ، وَأَتِمُّوا لِكُلِّ نَاسٍ رَجْعًا مِّنْ خَرِجَ مَعَهُ".

بعد أن أمر الله عز وجل المسلمين بأن يحيوا من حياءهم بأحسن من يحيه أو يئلهوا، ويقتضي هذا الأمر أن من ألقى إليهم السلام لا يحرصون على قتله حتى ولو كان في الجانب الذي به الكفار المحاربون، وذكرون بأن مصير جميع الخلق إله وحده حيث يجمعهم في عرسات القيامة ويجزي كل عامل بما عمل، أشار هنا إلى ما كان من المؤمنين في شأن المنافقين الذين رجعوا من الطريق يوم أحد وانخروا عن رسول الله  وعلى رأسهم عبد الله بن أبي ابن سأول. حيث انقسم المسلمون في شأنهم بعد غزوة أحد إلى فرقتين: فرقة تقول: نقتلهم وفرقة تقول: لا نقتلهم. ماداموا يظهرون أمام المسلمين ولم يعلنوا الكفر صراحة، فذكر عز وجل هذا للمسلمين صوراً تبين ل المسلمين بعض أحكام الدماء، وتخذيرهم من قتل المنافقين الذين لم يعلنوا الكفر صراحة، وتباههم إلى الحذر من التقدم بين يدي الله ورسوله  وبدأ ذلك بقوله عز وجل: "فَإِنَّكُم فِي الْأَنَامِ فَتّئين وَاللَّهُ أَرْكَسْهُم بِيْا كَسَبُوا " فقد روى البخاري في صحيحه في باب غزوة أحد من حديث زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: لما خرج النبي صلى الله عليه وسلم إلى غزوة أحد رجع ناس من خرج معه.
وكان أصحاب النبي ﷺ منافقين: فرقة تقول: نقاتلهم، وفرقة تقول: لا نقاتلهم، فنزلت: {فَإِبًّا لَّكُمْ فِي الْمُناقِفِينَ فَتَنِنِّيَ اللَّهُ أَرْكُسُهُمْ بِأَذْبَاهِ}. وقال: إنها طيبة، تنفي النار حِبَّ الفضة، وأخرجته في التفسير من صحيحه من حديث زيد بن ثابت رضي الله عنه {فَإِبًّا لَّكُمْ فِي الْمُناقِفِينَ}. رجع ناس من أصحاب النبي ﷺ من أحد، وكان الناس فيهم فرقتين: فريق يقول: اقتلهم، وفريق يقول: لا فنزلت: {فَإِبًّا لَّكُمْ فِي الْمُناقِفِينَ}. وقال: إنها طيبة، تنفي الحبش كا تنفي النار خبث الفضة. وقد فرض مسلم هذا الحديث وجعله حدثين فروى في كتاب نظر فرقتي في فأخر صحيحه من حديث زيد بن ثابت أن النبي ﷺ خرج إلى أحد، فرَجَعَ ناس من كان معه، فكان أصحاب النبي ﷺ فيهم فرقتين قال بعضهم: نقتلهم، وقال بعضهم: لا، فنزلت: {فَإِبًّا لَّكُمْ فِي الْمُناقِفِينَ} وروى في كتاب البخاري في نظر رواية البخاري التي أخرجها في غزوة أحد: قوله: {رَجَعَ نَاسٌ مِّنْ خِرْجَ مَعِهِ} يعني عبد الله بن أبي وأصحابه، وقد ورد ذلك صريحاً في رواية موسى بن عقبة في المغازي، وأن عبد الله بن أبي كان وافق رأيه رأي النبي ﷺ على الإقامة بالمدينة، فلما أشار غيره بالخروج، وأجابهم النبي ﷺ خرج، قال عبد الله بن أبي لأصحابه: أطاعهم وعصاني، علماً نقل أنفسنا، فرجع بُعْث الناس، قال ابن إسحاق في روايته: فاتبعهم عبد الله بن عمر بن حرام وهو والد جابر، وكان خزرجياً كعبد الله بن أبي، فناشدوه أن يرجعوا، فأجابوا، فقالوا: أبّعدهُم الله اهـ. ومعنى قوله تعالى: {فَإِبًّا لَّكُمْ فِي الْمُناقِفِينَ} أي أي شيء لكم في الاختلاف في أمرهم? ولماذا تختلفون فيهم ورسول الله ﷺ بينكم؟ وفي هذا 379
رسم للسياسة الإسلامية نحو المنافقين وغيرهم، وأنه لا يجوز للمسلمين أن يتقدموا بين يدي الله ورسوله، وأن يجدوا النزاع والاختلاف، فإن له يؤدي إلى خير، وقد علم أن رسول الله ﷺ كان لا يجب قتل المنافقين إذا بدرت منهم بوادر سوء، حتى لا يحدث الناس الذين لا يعلمون حقيقة نفاقهم ويقولوا: "والله أركسهم بما كسبوا أي والله عز وجل نُكشـهم وردّهم في كفرهم ومنهم من القتال معهم حرمانًا هم بسبب الكفر والمعاصي، مع أنهم لم حضروا المعركة ما زادوا المسلمين إلا خبيالًا، فكره الله عز وجل أن يشهدوا معكم المعركة فخذلهم عن شهوذها، ولم يوقعهم لحضورها". وقوله عز وجل: "أتريدون أن تُخزنا من أضف الله وَمَن يُصْلِل الله فَلَنْ تَخْزَى لَهُ سَبِيلًا". أي أنفساون أن حرصكم الشديد على هداية قلوبهم ينفعهم وقد أراد الله عز وجل إضاءتهم، ومن أراد الله عز وجل إضاءله وخذلانه وعدم توفيقه فلن يستطيع أحد منا كأنه إدخال الهداية في قلبه المنكسوس المركسوس، وقوله عز وجل: "وَدُونَ لا تَكُفُّرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سواء فلا تتخذوا منهم أولياء حتى يهاجرُوا في سبيل الله". هذا بيان لما استقر في قلوب جميع أعداء رسول الله ﷺ وأعداء الإسلام والمسلمين من حرسعهم الشديد على ردة المسلمين عن الإسلام ورجوعهم إلى الكفر بعد أن أنقضهم الله منه، وفيه لفت انتباه الناس إلى الفرق بين قلوب المؤمنين التي تبَالَغ في الحرص على إضاءتهم وردّهم حتى يكونوا في الضالة سواء. وقد ذكر الله عز وجل هذا الحُلق الدائم في اليهود والمشتركون والمنافقين حيث قال عز وجل: "وَدَُوْنَ كِتَابٍ". من أهل الكتاب لا يريدونكم من بعد إياكم كفارًا حسبًا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق" وقال عز وجل: "ما يَؤْدِيَ اللَّدِينَ كَفَرُوا مِن أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا المُشْرِكِينَ أَن يُنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِن خِيرِ مِن رَبِّكُمْ" وقال هنا: "وَدُوْنَ لَوَ
تكفرون كماإذا كفرنا بكتربة كفرونكم سواء وقوله عز وجل: فلا تتخذوا منهم أولياء"، حتى يهاجروا في سبيل الله، فإن تولوا فخذواهم وقاتلوهم حيث وجدتموه، ولا تتخذوا منهم ولا ينصرفوا. يشمل تحريم مسواة جميع أصناف الكفار سواء كانوا منافقين أو يهود أو نصارى أو مشركين، وجعل تبارك وتعالى هذا التحرير مُعيّناً بعفيفة وهي هجرتهم في سبيل الله فإن هم هاجروا في سبيل الله صاروا أولياء للمسلمين بغض النظر عما كانوا عليه قبل الهجرة. والهجرة تُطلق على ثلاثة أوجه: هجرةً وانتقالً من بلد الشرك إلى بلد الإسلام وكانت محتتمةً من مكة إلى المدينة قبل الفتح، وقد غَلَب على أصحاب هذه الهجرة اسم المهاجرين، وهرجة من النفاق وهي داخلة في هذا المقام دخولاً أولياً لأن السياق فيها، والمراد بها: أن يترك الشخص نفاقه ويخرج مع رسول الله ﷺ للقتال في سبيل الله صابراً محتسباً لا لغرض من أغراض الدنيا، وهجرة عن جميع المعاصر وإلا يقول رسول الله ﷺ في رواية البخاري من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنها عن النبي ﷺ قال: المسلم من سلم المسلمون من لسانه وبيده، والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه. قال الفخر الرازي رحمه الله في تفسير هذه الآية: اعلم أن الهجرة تارة تحصل بالانتقال من دار الكفر إلى دار الإيمان، وأخرى تحصل بالانتقال من أهل الكفر إلى أهل المسلمين قال ﷺ: المهاجر من هجر ما نهى الله عنه. وقال المحققون: الهجرة في سبيل الله عبارة عن الهجرة عن ترك مآموريه وفعل منهيته، وله كان كل هذه الأمور معتبراً لا جرم ذكر الله تعالى لفظاً عامةً يتناول الكل فقال: "حتى يهاجروا في سبيل الله" فإن تفاعل لم يقل: حتى يهاجروا عن الكفر بل قال: "حتى يهاجروا في سبيل الله" وذلك يدخل فيه مهاجرة دار الكفر ومهاجرة شعار الكفر، ثم لا يقتصر تفاعل على ذكر الهجرة بل قيده بكونه في سبيل الله، فإنه ربما كانت الهجرة من دار الكفر إلى دار الإسلام ومن شعار الكفر إلى شعار
الإسلام لغرض من أغراض الدنيا، إنها المعتبة وقوع تلك الهجرة لأجل أمر الله تعالى أه. وقوله تبارك وتعالى: ـ فإن تولأوا فخذوه واقتلوه حيث وجدتموه ولا تتخذوا منهم ولبًا ولا نصرا. ـ أي فإن أعرضوا عن الانقاذ لدين الله وأظهروا الكفر فأسروا من تمكنهم من أخذى منهم وأسره، واقتلوهم منهم من قدرتم على قتله أن يكون أصبتهم فم أرض الله ولا تتخذوا منهم خليلاً يواليكم عليهم أصبركم، ولا ناصراً ينصركم على أعدائكم فإنهم هم العدو لا يألونكم خيالاً، وذوا عنتكم ومشتككم. وقوله تبارك وتعالى: ـ إلا الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق ـ قال ابن جرير رحمه الله: قال أبو جعفر: يعني جل ثناؤه يقوله: ـ إلا الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق ـ فإن تولؤ هؤلاء المنافقون الذين اختلفوا فيهم عن الإيمان بالله ورسوله، وأبوا الهجرة فلم يهاجروا في سبيل الله، فخذوه واقتلوه حيث وجدتموه، سواء من وصل منهم إلى قوم بينكم وبينهم موثقة وعددهم مثافت فدخلوا فيهم، وصاروا منهم ورضوا بحكمهم، فإن لم وصل إليهم فدخل فيهم من أهل الشرك راضياً بحكمهم في حق دمائهم بدخلوه فيهم: ألا تسبب نساؤهم وذريائهم ولا تغنم أموالهم أه. وقوله عز وجل: ـ أو جاءوكم حصرت صدورهم أن يقاتلونكم أو يقاتليوا قومهم، ولو شاء الله لسلمهم عليهم قاتلوكم، فإن اعتزلوك فلم يقاتلونكم وألقوا إليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلًا. ـ قال ابن كثير رحمه الله: وقوله: ـ أو جاءوكم حصرت صدورهم آية: هؤلاء قوم أخرون من المستثنين من الأمر بقتالهم وهم الذين يعيشون إلى المصالح وهم خصبة صدورهم أي ضيقة صدورهم مبغضين أن يقاتلوكم ولا يهون عليهم أيضاً أن يقاتلوا قومهم معكم بل هم لا لكم ولا عليكم، ـ ولهو شاء الله لسلطتهم عليهم فقاتلونكم أي من ألفه بكم أن كفوه عنكم ـ فإن اعتزلوك أفلم يقاتلونكم
واللَّهُ أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا، مَا خَلَفَ النَّارَ وَلَمْ يُجَّرِّبُوا فَاَلْبَرَّ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِلْ قَهْرًا. {39} أي فليس لكم أن تقاتلوهم مادامت حاكمكم كذلك، وهؤلاء كالفجاعة الذين خرجوا يوم بدر من بني هاشم مع المشركين فحضرموا القتال، فهم كان فانون كالعباس ونحوه، وهذا نهى النبي ﷺ يومئذ عن قتل العباس وأمر بأسره. اهـ.
قال تعالى: «ستجدون آخرين يريدون أن يأمونكم ويأمّنوا قومهم كلّ ما ردو إلى الفتنة، أركسوا فيها، فإن لم يفعلوكم وطلبوك إلى اليوم الدين والسبل ويكفروا أيديهم فخذوه واقتلوهم حيث تفتقدوهم، وأولئك جعلنا لقوم عليهم سلطانا مبينا. وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمنا إلا خطأ، ومنقتل مؤمنا خطأ. فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة إلى أهله إلا أن يصدقوها، فإن كان من قوم عذرو لكم وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة وإن كان من قوم بينكم وبينهم ميثاق فديدة مسلمة إلى أهله وتحرير رقبة مؤمنة فمن لم يجد فصيا مسلمين متابعين توبيه من الله، وكان الله عليها حكما. ومن يقتله مؤمنا متعصده فجزاؤه جهيم خالدا فيها وغصب الله عليه وغصن له عذابا عظيماً».

بعد أن ذكر الله عز وجل في الآية السابقة حكم من وصل من الكفار إلى قوم بينهم وبين المؤمنين موادعة وعهد وميثاق ودخلوا معهم في عهدهم وميثاقهم وصاروا منهم ورضوا بحكمهم وأن الله عز وجل لم يجعل للمؤمنين عليهم سبيلًا، بين هما حكم طائفة أخرى من الكفار الذين جعل الله عز وجل للمؤمنين عليهم سبيلًا وسلطانًا مبينًا، فقال تبارك وتعالى: «ستجدون آخرين يريدون أن يأمونكم ويأمّنوا قومهم كلّ ما ردو إلى الفتنة أركسوا فيها» أي ستجدون فريقا آخر من الكفار بهم شبة من بعض الوجه بالفريق الذي ذكر في الآية السابقة من جهة حرصهم على أن يأمّنوكم ويأمّنوا قومهم إلا أنهم يغايرونهم في أنهم أخثبتون نية وأشدّ ارتكاسا في الكفر، وأعمق في العداؤة لكم، ولو تمكنوا من القضاء عليكم ما تأخرها عن ذلك، فهم إذا كانوا بينكم أظهروا لكم أنهم معكم وإذا صاروا بين أعدائكم أظهروا الخروش على استئصالكم، بخلاف الفريق الذي ذكر في الآية السابقة فإنهم ما كانت تشرح
صدورهم لقتالكم بل كانوا يضيقون إذا اضطرّوا للوقوف ضدكم، وقد ذكر
الله تبارك وتعالى ثلاثة شروط إن توفرت في هذا الفريق الشرير كفّ المسلمين
عن قتالهم، وإن لم توفر فيهم هذه الشروط الثلاثة قاتلهم المسلمون، وهذه
الشروط الثلاثة هي المدلول عليها بقوله عز وجل: «إِنَّمَا يَحْكُمُ الْسَّلَّمُ وَيُكْفِرُوا أَيْدِيهِمْ»، فإذًا أخلوا بهذه الشروط الثلاثة فإن الله تبارك
وتعالى جعل للمسلمين عليهم حجة وسلطانًا وسيّبًا. حيث يقول:
فخذوهم واقتلوهم حيث ثقفتموهم، وأولئك جعلنا لكم عليهم سلطانا
مبيناً. أي فإن لم ينكؤوا الشرير عن التعرض لكم بوجه من الوجوه
التي تلحق الأذى بكم ولم يعقلوا معكم هدنة وصلحًا، ولم يكروا أيديهم عن
قتالكم وبداؤوا على مسالمتهم فقاتلواهم وأسروا من تمكنتم من أسره منهم،
واقتلوهم من قدرتهم على قتله ممن لم يستأسر لكم منهم، وأبشروا بنصر الله
لهم فإذًا عز وجل مسلطكم عليهم. وقوله عز وجل: «وَمَا كَانَ لِلْمُؤْمِنِ أَن يَتَّلَكَ
مؤمنًا إلا خُطَأُ» أي ما يلبث بمؤمن متّصف بإبادة الإيمان ولا يحل له أبداً أن
يتعبد قتلة مؤمن; لأن الله عز وجل حرم ذم المؤمن في جميع الشرائع السماوية
ولا يحل دم إلا بإحدى ثلاث: النفس بالنفس والثيب البشري والارتداد عن
دين الإسلام كي قال رسول الله ﷺ فيها رواة البخاري ومسلم من حدث عبد
الله بن يحيى رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: لا يحل دم مريء مسلم
يشهد أن لا يfh إلا الله وفي نسول الله ﷺ إلا بإحدى ثلاث: الثيب البشري،
والنفس بالنفس، والتارك لدهنه المفتروك للحجاعة. لكن يمكن أن يقع أن
يقتل المؤمن مؤمناً خطاً، إذ قد يقع بسبب يتعذر الاحتمال منه أو بسبب فوق
الطاقة البشرية، وخطأ في القتل يحدث لأسباب كثيرة يجمعها عدد قصد
القتل فقد يقصد المسلمもらい مشرك أو طائر فيصيب مسلمًا، أو يرى شخصًا
عليه شعار الكفار في أرض المعركة فيرميه ويكون هذا القتيل قد أسلم لكن
الذي رماه يحبب كافرا، أو يضرب شخصاً مسلماً بالأسى يقتل غالباً كان يضربه
بديه أو بعض خفيفة أو نحوها مما لا يعيد في مثله أن يقتل، أو يكون نائماً
فيقلب على شخص فيقتله وهو لا يشعر بذلك وكما حدث للمسلمين في
معركة أحد عندما قتلوا اليهود والحمزة رضي الله عنها وهم لا يشعرون من
شدة حزتهم وحذيفة رضي الله عنه يقول: أبي، أبي، فلما قتلوا قال حذيفة:
يغفر الله لكم. وقد روى البخاري ومسلم من حديث أسامة بن زيد رضي
الله عنها قال: بعثنا رسول الله ﷺ إلى الخزنة من جهينة، قال: فصبحنا
القوم فهمنهم قال: وَلَحْقَتْ أَنَا وَرَجُلٌ مِنَ الأنصار رجلاً منهم، قال: فلما
غشيناه قال: لا إله إلا الله ﷺ قال: فكَفْتُ عنه الأنصاري، فطعنها برمي حتي
قتلته، قال: فلما قدمنا بلغ ذلك النبي ﷺ قال: فقال لي: يأسامه أقتله
بعد أن قال: لا إله إلا الله ﷺ قال: قلته: يارسول الله ﷺ إذا كان متعوداً، قال:
أقتله بعد أن قال: لا إله إلا الله ﷺ فزال يكرهها على حتى تمنيت أن لم أكن
أسلمت قبل ذلك اليوم كأ روى البخاري ومسلم واللفظ للبخاري من
حديث المقداد بن عمرو الكندي أنه قال: يارسول الله ﷺ إن لقيت كافراً فاقتته
فضرب بيدي بالسيف فقطعها ثم لاذمني بشجاعة وقال: أسلمت الله، أقتله
بعد أن قالها؟ قال رسول الله ﷺ: لا تقتله، قال: يارسول الله فإنه طرح
إحدى يدي، ثم قال ذلك بعد ما قطعها أقتله؟ قال: لا تقتله، فإن قتلتته
فإن بنجلتك قبل أن تقتله، وأنت بمنزلته قبل أن يقول كلمته التي قال.
وقد بين الله تبارك وتعالى حكم من قتل مؤمناً خطأ فقال عزر وجل: ﴿وَمَنْ قَتَّلَ
مؤمناً خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة إلى أهله إلا أن يُصْدِقْوا، فإن كان
من قوم عدُوّ للكم وهو مؤمن فتحرير رقبة مؤمنة وإن كان من قوم بيعكم
وبينهم ميثاق فدية مسلمة إلى أهله وتحرير رقبة مؤمنة فمن لم يجد فسياح
شهرين متابعين توبة من الله، وكان الله عليها حكيماً﴾ أي فمن قتل مؤمناً
خطأ وأهل القتيل مسلمون يجب على القاتل إعتاق نفس مسلمة وتحريرها من الرق حسبًا لله عز وجل كأُنجُب لرُبُّه القتيل ديةٌ مُؤدَّةً هم يقتسمونها كسائر المواريث ولا نزاع عند أهل العلم في أن الدية في قتل الخطأ إذا تجب على العاقلة، والعاقلة هم عصبة القاتل ولورثة القتيل أن يتنازلوا عنها فتسقط الدية حينئذٍ، أما الكفارة فلا تسقط بحال. وهذا هو القسم الأول من الأقسام الثلاثة التي ذكرها الله عز وجل في هذه الآية، أما القسم الثاني فهو أن يقتل المسلم مؤمنًا خطأ لكن أولاه كفارة محاربون للمسلمين فإنه لا دية لهم، ولكن يتحمل على القاتل تحرير رقبة مؤمنة لا غير. أما القسم الثالث فهو أن يكون المقتول مؤمنًا وأهله كفارة لكنهم أهل ذمة وهدنة وعهد فلهما دية قتيلهم لكنها ليست ميراثًا لأن الكافر لا يبره المسلم، ويتحمل على القاتل إعتاق إنسان مسلم وتحريره من الرق، فإذا لم يجد القاتل الذي وجبت عليه الكفارة إنسانًا مملوكًا له عدم وجوده أو عدم قدرة القاتل على شرائه فإنه يتحمل عليه صيام شهرين متتاليين يسرده صومهما إلى آخرهما لا يتخلل ذلك إفطار في النهار المحدد من طلوع الفجر الصادق إلى غروب الشمس فإن أفر من غير إعرض أو حيض أو نفاس ابتدأ صيام الشهرين من أجلها. وقوله عز وجل: "توغّبَ من الله وكن الله عليها حكايته.« تنبيه إلى أن من قتل مؤمنًا خطأ فرض الله عز وجل عليه ما فرض في هذه الآية لما حصل منه من التقصير فيكون هذا الإعتاق أو صيام شهرين متتاليين كفارة لما حصل منه وإن كان الله بارك و تعالى تجاوز لمن لم يعتد الخطأ كتجاوز عن النسيان لكنه فرض عليه الكفارة ليحترز المسلم ويبالغ في الاحتياط حتى لا يقع في هذا الخطأ الذي يؤدي إلى إهانة الأرواح المصونة المحترمة. وفي قوله تعالى: "فتحرير رقبة مؤمنة" إعلام بحرص الإسلام على تحرير الرق وفك الرقاب، وفي قوله تعالى: "إلا أن يصدّقوا" إشعار بأن تنزل أهل القتيل عن
الدية أو بعضها يعتبر صدقة في موازين حسناتهم عند الله يوم القيامة كما أن
في هذه الآية العظيمة بياناً بوجب حفظ العهود والمواثيق ومراعاة حقوقها،
والتفريق بين الكفار المسلمين وغير المسلمين وقد اشترط الإسلام في رقبة
الكافر أن تكون مؤمنة لمصرح الإسلام على عزة المسلمين وحرتيهم، ويكفي
في إثبات إيان الرقبة أن تكون مقرةً بالله ورسوله محمد ﷺ فقد روى مسلم
في صحيحه من حديث معاوية بن الحكم السليمي رضي الله عنه قال: وكان
في جارية ترعي غناها في قبّل آخرِ حاجزَان فاطلعت ذات يوم فإذا الذئب قد
ذهب بشاة من غنمها وأنا رجل من بني آدم أسف كا يأسفون لكني
سككتها ص管线، فأثيرت رسول الله ﷺ، فعظّم ذلك علي، قلت: يا رسول
الله أَلَئِنَا أَعْطَقْهَا؟ قال: اثنين بها، فأتيته بها، فقال لها: أَيُّنَّ اللَّهُ؟ قالت: في
السقاء، قال: مَن أَلَئِنَا؟ قال: أيت رسول الله ﷺ، قال: أَعْطَقْهَا فإنَّها مُؤْمِنَةٌ.
وقد أجمع العلماء على أن دية المرأة على النصف من دية الرجل. وبعد أن ين
الله تبارك وتعال حكم القتل الخطأ شرع في بيان حكم القتل العمد فقال:
وَمَنْ يَقْتُلُ مُؤْمِنًا مَتَعْمَداً فَفَجَرَهُ عَذَابُ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا وَبِعَضُبِّ اللَّهِ عَلَيْهِ وَلَعَنَّهُ
وأُعْدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا.» قال ابن جرير رحمه الله في تفسير هذه الآية: قال أبو
جعفر: يعني بذلك جل ثناؤه: ومن يقتل مؤمنًا عشماً قتله مُرتَبِداً إِتِّلَاف
نفسه ففَجَرَهُ جَهَنَّمَ يقول: فتربه من قتله إياه جَهَنَّمُ يعني: عذاب
جهنم خالدًا فيها.» يعني: باقيًا فيها، والهاء والالف في قوله فيها من
ذكر جَهَنَّمَ، وَبِعَضُبِّ اللَّهِ عَلَيْهِ يقول: وَلَعَنَّهُ وَأَعْدَدَ لَهُ عَذَابًا
عظيمًا، ويقول: وأبعده من رحمته وأخرى، وَوَلَعَنَّهُ وَأَعْدَدَ لَهُ عَذَابًا
عظيمًا» وذلك ما لا يعلم قدر مبلغه سواء تعلال ذكره. ثم نقل ابن جرير
رحمة الله إجماع أهل التأويل على أنه إذا ضرب رجلًا بحدٍّ حديديٍّ يحرم
بحدّه أو يضع ويقطع فلم يقلّ عنه ضربًا به حتى تلف نفسه وهو في حال

388
ضربه إياه به قاصد ضرره: أنه عمامد قتله اهـ، ولاشك أن شريعة الإسلام عظمت أمر قتل المسلم وذكرت أنه من أكبر الكبائر وقد روى البخاري ومسلم من حديث عبد الله بن مسعود أن رسول الله ﷺ قال: أول ما يقضى بين الناس يوم القيامة في الدماء، وكان مقتضى ظاهر قوله عز وجل: «فجزاؤه جهنم خالدا فيها» أن من قتل مؤمنا متعمداً فلا توبة له، لكن الله تبارك وتعالى ذكر قبول توبته في سورة الفرقان حيث يقول: «والذين لا يدعون مع الله إلَّا إلَّا آخراً ولا يقتلون النفس التي حرَّم الله إلا بالحق ولا يزرون، ومن يفعل ذلك يلق آثاماً. يُضافف له العذاب يوم القيامة ويُلد فيه مهاناً إلا من تاب وأمن وعمل عملاً صالحاً فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات، وكان الله غفوراً رحيماً». ٣٨٩
قال تعالى: "فَأَيُّاهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَّبْتُم فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَمسَّكُوا وَلا تَقْطَعُوا مَنْ لَقِيَ إِلَيْكُمْ السَّلَامُ لَتَسْتَمِعُوا عَرْضَ الْحَيَاةِ الدِّنيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَعَاؤُم كَثِيرَةٍ، كَذَٰلِكَ كَتَبَّ مِنْ قُبْلِ فَرَءَةٌ مَّنْ أَنَامَ اللَّهُ عَلَى عَلَّمَكُمْ فَتَمِينًا، إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهَا تَعْمَلُونَ خَيرًا. لَا يَشْكُوُ القَاعِدِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرِ أُولِي الْضُّرْرِ وَالْمُجاهِدِينَ فِي سِبِيلِ اللَّهِ بَأَمَوْلَاهُمْ وَأَنْفُسَهُمْ فَضْلَ اللَّهِ لِلَّذِينَ فَضَلُّوا عَلَى الْقَاعِدِينَ دُرَّةً، وَكَذَٰلِكَ وَعَدَ اللَّهُ الْحَسَنِى، وَقَضَلَ اللَّهُ لِلَّذِينَ فَضَلُّوا عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا. دِرِجَاتٌ مِّنْهُ وَمُغَفْرَةً وَرَحْمَةً، وَكَانَ اللَّهُ غَفُورً رََحِيمًّا."

بعد أن ذكر عز وجل جملة من أحكام الدماء وحذر أشد التحذير من سفك دماء المسلمين، وبين أن المؤمن ما كان ليقتل مؤمنًا إلا بطرق الخطايا، وتوعد من قتل مؤمنًا متعمداً بعذاب جهنم وغضب الله وعذنته، لفت انتباه المسلمين هنا مرة أخرى إلى وجوب التثبت حتى لا يريقوا دم إمرء مسلم بغير حق حيث يقول عز وجل: "فَأَيُّاهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا ضَرَّبْتُم فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَمسَّكُوا وَلا تَقْطَعُوا مَنْ لَقِيَ إِلَيْكُمْ السَّلَامُ لَتَسْتَمِعُوا عَرْضَ الْحَيَاةِ الدِّنيَا فَعِنْدَ اللَّهِ مَعَاؤُم كَثِيرَةٍ، كَذَٰلِكَ كَتَبَّ مِنْ قُبْلِ فَرَءَةٌ مَّنْ أَنَامَ اللَّهُ عَلَى عَلَّمَكُمْ فَتَمِينًا، إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهَا تَعْمَلُونَ خَيرًا. لَا يَشْكُوُ القَاعِدِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرِ أُولِي الْضُّرْرِ وَالْمُجاهِدِينَ فِي سِبِيلِ اللَّهِ بَأَمَوْلَاهُمْ وَأَنْفُسَهُمْ فَضْلَ اللَّهِ لِلَّذِينَ فَضَلُّوا عَلَى الْقَاعِدِينَ دُرَّةً، وَكَذَٰلِكَ وَعَدَ اللَّهُ الْحَسَنِى، وَقَضَلَ اللَّهُ لِلَّذِينَ فَضَلُّوا عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا. دِرِجَاتٌ مِّنْهُ وَمُغَفْرَةً وَرَحْمَةً، وَكَانَ اللَّهُ غَفُورً رََحِيمًّا."

إنك لست من أهل الإسلام، فإنك تسليمك حيلة وتعود من القتل فتقدموا عليه بالسيف لقتلوه وتأخذوا ماله، ولكن علّيكم أن تكفّوا عنه وتقبلوا ما ظهر منه، فأتمنى لم تسفّوا عن قلبه، وقد تقدِّم في تفسير قوله تعالى: "وَإِذَا حَيَّبْتُم بِتَحْيَةٍ فَطَمُّوا بِأَخْسَسٍ مِّنْهَا أَوْ رِدُّوهَا" سبب نزول قوله عز وجل: "وَلا"
تقولوا من ألقى إليكم السلام لست مؤمنا تبتغون عرض الحياة الدنيا، وهو ما رواه البخاري في صحيحه من حديث ابن عباس رضي الله عنها قال: كان رجل في غنيمته له فلحقه المسلمون، فقال السلم عليكم، فقلت له، وأخذوا غنيمته فأنزل الله عز وجل ذلك. كما تقدم في تفسير قوله عز وجل: "وأما كان لأؤمن أن يقتل مؤمنا إلا خطاً، الآية قصة أسماء بن زيد رضي الله عنها في سرية الحَرْقَة من جهينة عندما حق رجلًا منهم فالسجدة: لا إله إلا الله، وظن أسماء رضي الله عنها أن الرجل إليها قالتها متعودًا فقالت، وما كان من رسول الله ﷺ عندما بلغه ذلك، وكذلك حديث المقداد بن عمرو الكتبي رضي الله عنه. وفي لفظ لسلم من طريق أبي بكر ابن أبي شيبة من حديث أسماء بن زيد رضي الله عنها قال: بما رسول الله ﷺ في سرية قصَبَحًا الحُرقات من جهينة، فأدركُ رجلًا فقال: لا إله إلا الله، فقال رسول الله ﷺ أَمَاَلَ لا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَقَبِلَهَا؟ قال: قلت: يارسول الله إنها قالتها خوفاً من السلاح، قال: أمَّا شَقَقَتْ عن قلبه حتى تعلم ألقاها أم لا؟ فها زال يَكُرِّها على حتى تمت أي أسلمتْ يومئذ. وقوله تبارك وتعالى: "ثبتون عرض الحياة الدنيا فعند الله مغانم كثيرة" هو تنفيز من الإقدام على قتل من ألقى السلام بالإشارة إلى أن العجلة وعدَّم الناس في مثل هذه الأمور إنها تحصل من هَنَّهُ وقَلَدْهُ عُذَمَّا، الدنيا الفاني وعرضها الزائل، والمؤمنين من شأنهم أن ينَّجُوا ثواب الله وما أعده لعباده الصالحين، وما عدهم من الحياة الطيبة ورد العيش، وإذا كان ذلك كذلك فعند الله عز وجل ثواب الدنيا والآخرة كما قال تبارك وتعالى في هذه السورة الكريمة: "من كان يريد ثواب الدنيا فعند الله ثواب الدنيا والآخرة، وكان الله سميعاً بصيراً. " وقال عز وجل في سورة الشورى: "من كان يريد حرص الآخرة تَرْزَعَ له في حره ومن كان يريد حرص الدنيا نؤته منها".

391
وماله في الآخرة من نصيب، صلى الله عز وجل جميع أصحاب رسوله ﷺ، وخبرة خلق الله عز وجل بعد الأنبياء، عن أن يكونوا من لا هم لهم إلا حُظَّمُ الحياة الدنيا. وفي هذا السياق الكريم إشعار بأن الأحكام إِنْ تَنَأَّث بالظواهر، وعند الله عز وجل وحده العلم بالباطن والسرائر. والتعبير بقوله:

"عرض الحياة الدنيا" لتأكيد التفتيش من أن تتعلق هيئة الغنازي بالعرض الذي لا يبقى له ولا دوام، وُضِعَّ متاء الحياة الدنيا عرضًا لأنه عرض زائل فإنه لا يبقى له ولا دوام. فالدنيا كلها عرض زائل، والأموال فيها عارية مَسْترَبَتِهُ. ولذلك نَبِي الله تبارك وتعالى إلى ذلك حيث سُمِيَ الغنيمة عرضًا أي سريعة الفناء قربة الانقضاء وقوله تبارك وتعالى: "كذلك كنت من قبل فَمَن اللَّه عَلَيْكُمْ فَثُجِّبْنَـا أي إنكم كنت في أول مجيء الإسلام وأنتم بمكية تُخْفِينِ إِيَانِيَكُم عن عمومكم كما أخفى هذا الذي ألقى إليك السلام إِيَانِي عن قومه، ثم من الله عز وجل أثابكم بإعازركم حتى أظهرتم دينكم، فتبينوا ولا تَعْجِبْ وا بَلْ مِن أَرْمَام قَلْهٍ مِن النّبِي عَلَيْهِ ﷺ أمر إسلامه فَلَعَلَ الله أن يكون قد مَنَّ عليه من الإسلام بِمَثَلُ الذِي قد مَنَّ به عليه ومَعَاء السَّمَّاء وأقحام رشديٌّ.

هذا حكم له من الإيان وقد جاء في لفظ البخاري في حديث المقداد بن عمرو الكندي حليف بني زهرة النبي الذي سقطت من روابة البخاري ومسلم في تفسير قوله عز وجل: "وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمنًا إلا خطاً" قال البخاري:

وقال حبيب بن أبي عمرة عن سعيد بن أبي عباس قال: قال النبي ﷺ لِلمقداد: إذا كان رجلٌ مُؤمن بِفِي إِيَانِي مع قومٍ فَكَفَّارٍ، فأظهر إيانِي، فقتلتها، فكذلك كنت أنت تَفْحَّفُ إِيَانِي بِمكَّة من قبل. وقوله عز وجل:

"إِن الله كان بِماتَ كُتْبُوهُ خَيْرًا" هو تهديد ووعيد وتحذير من الإقدام على قتل من قال: لا إلَه إلا الله، أو ألقى السلام إلى المسلمين، وأنه لابد من التثبت والتبني والتأكيد في الحكم على من أظهَر شعائر الإسلام إذ في التنأي. 392
السلامة وفي العجلة النداة، وكثيراً ما تورث العجلة همّا وإبطاء وتخلّفًا كا
في المثل: رّبٌّ عجلةٌ وَقَبَتْ رُبًُّا، ولا تستحب العجلة إلا في المسارعة إلى
الخيرات كا في قوله عز وجل: ﴿وَمَا أعجلك عِنْ قَومِكَ يَاموُسَى﴾. قال ﴿هُمُ
أَوْلَاءٌ عَلَىٰ أَهْلِهِ وَأَوْلَاءٌ عَلَىٰ أَهْلِهِ﴾؛ وقوله عز وجل: ﴿لَيْسَ
القَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أَوْلِي الْأَسْرَىَ وَالْمُجاهِدُونَ فِي سَبِيلِ
اللهِ بَأَمْوَاهُمْ وَأَنْفُسِهِمْ﴾ أي لا يعادل المتخلفون عن القتال في سبيل الله من أهل الإياب
والتصديق بالله وبرسوله المؤثرون للذّاعة والراحة والقعود في منازهم على
مقاسة صعوبة الأسفار ومشقة ملاقاة أعداء الله بجهادهم في ذات الله
و владельцهم امتثالاً لأمر الله إلا أهل العذر منهم كالأعمي والأعرج والمريض
الذين عذرهم الله عز وجل وأباح هم التخلف والقعود عن الجهاد للضرر
الذي أصابهم ما لا يتمكن معه من الخروج والمشاركة في المعارك، لا يستوي
هؤلاء القاعدون غير ذوي العذر ولا يعادلهم بالمجاجدين في سبيل الله لإعلاء
رادة الإسلام ونشر شريعته، المستغرقين جهدهم وطاقتهم في قتال أعداء الله
ومساعدة رسله، البائدين أنفسهم وأموالهم حتى تكون كلمة الله هي العليا
وكلمة الذين كفروا السفلي، قال البخاري في صحيحه: باب ﴿لا يستوي
الفاعدون من المؤمنين والمجاهدين في سبيل الله﴾ حديثنا إسحاق بن عبد الله
قال حدثني إبراهيم بن سعد عن صالح بن كيسان عن ابن شهاب قال
حدثني سهيل بن سعد الساعدي أنه رأى مروان بن الحكم في المسجد فأقبلت
حتى جلست إلى جبهه، فأخبرنا أن زيد بن ثابت أخبره أن رسول الله ﷺ أمر
عليه ﴿لا يستوي الفاعدون من المؤمنين والمجاهدين في سبيل الله﴾ فجاءه ابن
امم مكتوم وهو يُميلُها علي، فقال: ﴿يا رسول الله، والله لو أستطيع الجهاد
لجاهدت، وكأن أعمري، فنزل الله على رسوله ﷺ، وفخذّه على فخذي،
فَنَفَقَتْ عَلَيْهِ كَيْنَ خَفْتُ أَنْ يُرْضَى فَخْيَدَيٍّ، ثم سُرِّيَ عنه، فنزل الله ﷺ: ﴿غُيُّرُ

393
أولی الصبر: حدثنا حفص بن عمر، حدثنا شعبة عن أبي إسحاق عن الراهب رضي الله عنه قال: لما نزلت: لا يُنتَثَّوَّي القاعدون من المؤمنين، دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم زيداً فكتبها، فجاء ابن أم مكتوم، فشكا ضرره، فنزل الله: غُرِيَّ أولی الصبر. حدثنا محمد بن يوسف عن إسرائيل عن أبي إسحاق عن الراهب قال: لما نزلت: لا يُنتَثَّوَّي القاعدون من المؤمنين، قال النبي ﷺ: ادعوا فلاناً، فجاء ومهدأة واللَّهُ أو الكَفَّارُ، فقال: اكتب: لا يُنتَثَّوَّي القاعدون من المؤمنين والمجاهدين في سبيل الله ورَجَعْ النَّبي ﷺ ابن أم مكتوم، فقال: يا رسول الله، أنا ضرير، فنزلت مكتوماً: لا يُنتَثَّوَّي القاعدون من المؤمنين، غُرِيَّ أولی الصبر، والمجاهدون في سبيل الله. حدثنا إبراهيم بن موسى أخبرنا هشامًا أن ابن جرير، أخبرهم ح، وحدثي إسحاق أخبرنا عبد الروزاق، أخبرنا ابن جرير، أخبرنا عبد الكريم أن مفقَّساً مولى عبد الله بن الحارث أخبره أن ابن عباس، رضي الله عنها، أخبره: لا يُنتَثَّوَّي القاعدون من المؤمنين. عين بدر والخارجون إلى بدر، اتح وقوله عز وجل: فضل الله المجاهدين بأمواتهم وأنفسهم على القاعدين درجة أي جعل الله عز وجل للمجاهدين في سبيل الله بأمواتهم وأنفسهم مرتبة ومنزلة ومرتبة وطبية فوق القاعدين غير أولي الضرر، أما أولو الضرر فظهار السباق بدل على أنهم في درجة المجاهدين بحسب نياتهم وشهد لذلك ما رواه البخاري في صحيحه من حديث أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: إن بالمدينة أقواهما ما يبرئ من مسيرة، ولا أنفقهم من نفسه، ولا قطعتهم من وادي إلا وهم معكم فيه، قالوا: وهم بالمدينة يمرسلون؟ ﷺ قال: تعم، حبِّيهم العذَّر، وقاله تبارك وتعالى: وكُلًا وعَدَّ الله الحسنٍ أي وكل واحد من القاعدين والمجاهدين في سبيل الله بأمواتهم وأنفسهم من المؤمنين، وعدُ من الله بالحسنٍ أي بالجنة. وقاله تبارك وتعالى: فضل الله المجاهدين على القاعدين أجراً.
عظيمًا. درجات منه ومغفرة ورحمة، وكان الله غفورًا رحيمًا. أي ومنح الله عز وجل من جوده وفضله المجاهدين وخصهم به على القاعدين ثوابًا جزيلًا، أعلى به درجاتهم في جنات النعيم وشملهم بمغفرة ورحمة منه وكان الله ولا يزال متصفاً بالمغفرة والرحمة، ويجيء كان في مثل هذا، ونحو قوله: «وكان الله عليها حكايًا.» للتبنيه على أنه عز وجل متصف بهذه الصفات أزلًا ولا يزال متصفاً بها فهي من صفات ذاته. وقد روى البخاري من حديث أبي هريرة مرفعًا: إن في الجنة مائة درجة أعدها الله للمجاهدين في سبيل الله ما بين الدرجتين كا بين السماء والأرض. كما روى مسلم من حديث أبي سعيد الخدري أن رسول الله ﷺ قال: يأبى سعيد من رضي بالله ربا وبالإسلام ديناً وبحمد نبياً وجبه له الجنة، فعجب لها أبو سعيد فقال أعدها علي يارسول الله ففعل، ثم قال: وأخرى يرفع بها العبد مائة درجة ما بين كل درجتين كا بين السماء والأرض. قال: وما هي يا رسول الله؟ قال: الجهاد في سبيل الله، الجهاد في سبيل الله.
قال تعالى: «إن الذين توافاهم الملائكة طالين أنفسهم قالوا فيهم كنتم قلناً كنتم مسْتَضْعَفِين في الأزْمَر، قالوا إن التائي في الدار والمساجد في الغد، قالوا ما أشد請求 جهنم وساءة مصر. إن المضطعرين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون جيئة ولا يجدون سبيلًا. فأتيك عسر الله أن يعفو عنهم، وكان الله غفورًا رحبًا. ومن يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراطمًا كبيرًا وسعًا، ومن يتخلى من بنيه مهاجرا إلى الله ورسوله ثم يدرك الموت فقد وقع أجره على الله، وكان الله غفورا رحيلاً».

بعد أن رغب الله تبارك وتعالى في تعالى في قضية الكافرين الذين يحبون المؤمنين بمكة ويُضْمَنون عليهم ويسومونهم سوء العذاب، حيث قال: «ومالمكم لا تقاتلوا في سبيل الله والمضطعرين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون بنا أخبرنا من هذه القريه الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك وليًا واجعل لنا من لدنك نصيراً.» وحض السادة على الهجرة والجهاد بينن هنا أن المضطعرين من الرجال والنساء والولدان الذين رغب المسلمون وحضهم على استنادهم وتخليصهم من أيدي المشركين، هم الذين لا يستطيعون جيئة ولا يجدون سبيلًا، أما من تنازل عن الهجرة مع قدرته عليها ورضي بالعيش مع المشركين فإنه غير مبعد في التخلف عن الهجرة لأن المسلمين وقفت في أوسط الحاجة إلى إيجاد كثر من سواهم من المسلمين، ولأن في القام مع المشركين لغير عذر تكبيرًا لسواهم المشركين وتقوية لهم على المسلمين بما يعرض هؤلاء المتفقهين عن الهجرة للتأثر بفتنة المشركين وموالاتهم، وقد كانت الهجرة من مكة إلى المدينة محتشمة على كل من قدر عليها حتى فتح الله عز وجل لرسوله مكة وصارت دار إسلام فأعلن رسول الله نسخ وجب الهجرة من
مكة إلى المدينة فقد روى البخاري ومسلم واللفظ للبخاري من حديث ابن عباس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونينة وإذا استنفرتم فانفرروا. وقد بين الله عز وجل هنا أن دعوى الذين تكاسلوا عن الهجرة مع تمكنهم منها لو جزموا عليها وزعموا أنهم كانوا مستضعفين في الأرض هي دعوى كاذبة، وأن عذرتهم غير مقبول حيث قال عز وجل هنا: إن الذين توفاهم الملائكة ظالمين أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين في الأرض، قالوا أم لم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها، فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرها. إن المستضعفين من الرجال والنساء واللُدَنَان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلًا. فأولئك عسي الله أن يعفو عنهم، وكان الله عفوًا غفورًا. قال البخاري في صحيحه: باب: إن الذين توفاه الملائكة ظالمين أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين في الأرض، قالوا أم لم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها الآية. حدثنا عبد الله ابن زيد المقرئ حدثنا خُلُوْة وغيره قال: حدثنا محمد بن عبد الرحمن أبو الأسود قال: فطعَّ على أهل المدينة بعث، فاكتسبت فيه، فلقيت عكرمة مويل ابن عباس فقال: فأخبرته فهناك عن ذلك أشد النهي، ثم قال: أخبرني ابن عباس أن ناسًا من المسلمين كانوا مع المشركين يكثرون سواد المشركين على رسول الله ﷺ، يأتي السَّهمُ فيُخْرِقَ به، فيصيب أحدهم فقتله، أو يضرب فيتلقى. فنزل الله: إن الذين توفاه الملائكة ظالمين أنفسهم الآية. باب: إلا المستضعفين من الرجال والنساء واللُدَنَان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلًا. حدثنا أبو النعيم حدثنا حداد عن أبي بوب عن ابن أبي مليكة عن ابن عباس رضي الله عنهن إلَى المستضعفين قال: كانت أمي ممن عذر الله. باب قوله: فأولئك عسي الله أن يعفو عنهم، وكان الله عفواً غفورًا. حدثنا أبو نعيم حدثنا شبيب عن يحيى عن أبي سلمة عن أبي هريرة رضي الله عنه قال:
بينالنبي صلى الله عليه وسلم قال: "سمع الله من حده، ثم قال قبل أن يسجد: اللهم نجي عياش بن أبي ربيعة، اللهم نجي سلمة بن هشام، اللهم نجي الوليد بن الوليد، اللهم نجي المستضعفين من المؤمنين، اللهم اشده وطأتك على مضر، اللهم اجعلها سنين كسبى يوسف أه، وعندى قوله عز وجل: "إن الذين تزوفهم الملائكة ظاليم أنفسهم قالوا فيهم كتبنا كنا مستضعفين في الأرض" أي إن الذين تقبض الملائكة أرواحهم حالة كونهم ظاليم أنفسهم حيث رضوا بالقعود مع المشركين، وتبكيثهم سواد الكفار، وبموازاتهم، وتركوا الهجرة التي فرضها الله عز وجل على كل من قدر عليها وقتذا، وهم يعلمون أن الذين يتزوفهم الهجرة وهم قدرون عليها تنقطع الولاية بينهم وبين المسلمين كما قال عز وجل: "والذين آمنوا ولم يهاجروا مالكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا" فأكسبا أنفسهم بذلك غضب الله وسخطه، وحملوها ما لا يطيق من عذاب الله، وإن الملائكة المؤكرين بقبض أرواحهم، يبكونهم عند الموت، وهم ينزعون أرواحهم من أباداتهم، ويغاظرونهم الفقول، ويقولون لهم: "لم يضيعتم بالقعود مع المشركين، وتكَّنتم سوادهم، وصبرتم في الصف المعني لرسول الله" ولم يكن هؤلاء جوابًا على سؤال الملائكة إلا أن بذعوا كذببا وزوراً أنهم كانوا تحت وطأة الكفار، وكان المشركون يستضعفونهم، وينعوونهم من الهجرة، وقوله عز وجل: "قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجموا فيها" أي أجابتهم الملائكة برفض قول دعواهم وقالوا لهم: "ألم تكن أرض الله بلاداً فسيحة فتنقلوا إليها، وتعليموا دينكم وشرعتكم، وتؤيدوا المسلمين، وتخطروا سوادهم، وأنتم لا تجزمون عن ذلك إذ يمكنكم أن تجدوا حيلة في الفرار من أرض الكفر والقهر والسلط على المسلمين كما فعل المسلمون الذين هاجروا إلى الحبشة فوجدوا فيها الآوى والأمن، أو الذين هاجروا إلى المدينة فوجدوا فيها العزة والأمن"
والاستقرار ونشر دين الله وإقامة شرعه، وتأييد رسوله ﷺ، ومن الثابت أن الله عز وجل قد وَكَّل ملائكته لقبض أرواح المؤمنين، وملائكة لقبض أرواح الكافرين كـَمَا قال عز وجل: «فَلَيْتَنَّكُمْ مَلَكُ الموتِ الذِّي وَكَلْ بِكُمْ وَكَيْماً قَالَ عز وجل: »وَلَوْ ترِى إِذَا الظَّالِمُونَ فِي غُمُرَاتِ الموتِ وَالملائِكَةِ بَاسِطِنَاءٌ أَيْدِيهِمْ أَخْرِجُوا أَنْفُسَكُمْ» وَقَدْ رَوِى الْبَخَارِي ومَسْلمُ مَنْ حَدِيثٌ أَبِي سَعْدِ الخَدْرِي رضي الله عنه أن نبي الله ﷺ قَالَ: كَانَ فِي مَنْ كان قبَلَكِم رِجْلٌ قَتِّلْ تَسَعْةً وَتِسعِينَ نَفْسًا، فَسَأَلَ عَنْ أَعْلَمْ أَهْلِ الْأَرْضِ فَنَذَّلْ عَلَى رَاهِبٍ، فَأَتِاهُ فَقَالَ: إِنَّهُ قَتَلَ تَسَعْةً وَتِسعِينَ نَفْسًا فَحَلَّ لَهُ مِن تُوبَةٍ؟ فَقَالَ: لَا، فَقَتَلَهُ، فَكَذَّبَ بِمَا أَطْلَبَ، ثُمَّ سَأَلَ عَنْ أَعْلَمْ أَهْلِ الْأَرْضِ فَنَذَّلْ عَلَى رَجُلٍ عَالِمٍ فَقَالَ: إِنَّهُ قَتَلَ مَائَةٌ نَفْسَ فَهْلَ لَهُ مِن تُوبَةٍ؟ فَقَالَ: نَعَمْ، وَمَنْ يَحْوَلُ بِهِ وَبِنَبَتِهِ، أَنْتَلِقُ إِلَى أَرْضٍ كَذَا وَكَذَا فَإِنْ يَا أَنْبَا أَوْلِيَاءِ اللَّهِ يَعْبُدُونَ اللَّهَ تَعَالَى فَأُعِدَّ اللَّهُ مَعْهُمْ وَلَا تَرْجَعُ إِلَى أَرْضِكُمْ إِنَّها أَرْضٌ سَوَءَةٌ، فَانْتَلِقْتُ حَتَّى إِذَا نَصُفَ الطَّرِيقَ أَتَاهُ الموتُ، فَأَخْتِصَتْ فِي مَلَائِكَةِ الرَّحْمَةِ وَمَلَائِكَةِ الْعَذَابِ، فَقَايَتْ مَلَائِكَةُ الرَّحْمَةِ: جَاءَ تَابِعًا مُّقَبِّلًا بِقُلْبِهِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَقَايَتْ مَلَائِكَةُ الْعَذَابِ: إِنَّهُ لَمْ يَعْمَلْ خَيْرًا قَطُّ، فَأَتَاهُمْ مَلِكُ فِي صُرُورَةِ آدَمٍ، فَجَعَلَهُ بَيْنَهُمْ أَيْ حُكْمًا، فَقَالَ: قَيْسُوْا مَا بِنَالَ الْأَرْضِ إِلَّا أَنْتُهُمْ كَانَ أَنْدَى فَهَوْهُ لَهُ، فَقَاسَوْا فَوَجَدُوهُ أَنْذِرَ إلى الأَرْضِ الَّتِي أَرَادَ، فَقَبَضَهَا مَلَائِكَةُ الرَّحْمَة، وَقَوْلَهُ عَزَّ وَجَلَّ: ۚ فَأَوَّلُكِ مَا وَأَهَمُّ جَهَنُمْ وَسَاءَتُ مَصِيرًا. ۚ أَيْ فَهَؤُلَاءِ الْذِّينَ لَمْ يَهَاجِرُوا وَظَلُّوا أَنْفُسَهُمْ، وَأَسْتَمَرُّوا عَلَى ذَلِكَ إِلَى الْمَوْتِ حَتَّى تَوْفِيقُ مَلَائِكَةُ الظَّالِمِ أَنْفُسَهُمْ مَصِيرُهُمْ فِي الأَخْرَى جَهَنُمْ وَهِيَ مَسْكِنُهُ وَسَاءَتُ جَهَنُمْ لَأَهْلَهُ الَّذِينَ صَارَوْا إِلَيْهِ مَصِيرًا، وَمَسْكِنًا وَمَا وَأَيْنَ عَزَّ وَجَلَّ وَلَمْ يَهْجُرُوا حَقًّا وَسَدَقًا وَأَنْتُمْ أَهْلُ الْمَعْذُورِينَ الْمَقْبُولُ عَذَرَهُمْ حَيْثُ حَسِبُهُمْ المُشْرِكُونَ وَقَهَرُوهُمْ عَلَى الْبَقَاءِ إِنْ قَبْضُهُمْ فَقَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ۚ إِلَاَّ الْمُستَضْفِعِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوَلِيدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيَةً وَلَا يَهْدُونَ سَبيلاً. فَأَوَّلُكِ عَسِى اللَّهُ أَن يَغْفُرَ
عنهم، وكان الله عفواً غفوراً. } أي وقد استثنى الله عز وجل من هذا الوعيد الشديد من حبسه العذر حقيقيًا من عجزة الرجال الضعفاء والنساء والصيبان الذين لا يقدرون على الهجرة ولا حيلة لهم في الخروج من بين ظهراني المشركين لضعف أجسادهم وعدم بصرهم بالطريق، وعجزهم عن الانفصالات من قبضة المشركين فهؤلاء لعل الله عز وجل يعفو عنهم للهجرة الذي هم فيه مدامعوا مؤمنين بالله وبرسوله ﷺ لأنهم لم يتزكوا الهجرة اختياراً ولا إلا إياها منهم لدار الكفر على دار الإسلام. والتعبير بقوله عز وجل:

«فأولئك عسى الله أن يعفوا عنهم» للتبنيه على تأييس من ترك الهجرة اختيارًا وإياها لدار الكفر على دار الإسلام. وقوله ببارك وتعالى:

«من يهاجر في سبيل الله يجد في الأرض مراوعًا كثيرًا وسعًا» تزغيب في الهجرة في سبيل الله، وإعلامٌ لمن كبر الهجرة من وطنه الكافر أهلها بالله خوفًا على نفسه من مشقة الهجرة أو أن تصيبه فاقة وفقرًا إن خرج من ماله وبلده بأن الله عز وجل يعده بالغني ورغد العيش والحياة الكريمة فمن ترك شيئًا لله عوضًا الله عز وجل خيراً منه، ويسَّر له تبارك وتعالى دنياه ودنياه، وأوجد له من السعة والنعم الجليلة والمراتب العظيمة في دار هجرته ما يرغم به أنوف أعدائه.

وقوله عز وجل: «ومن مخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم بدكره الموت فقد وقع أجره على الله، وكان الله غفوراً رحيماً.» هذا وعد كريم من الله عز وجل لم نخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله محمد ﷺ، ثم أصابته مصيبة الموت قبل أن يصل إلى دار هجرته بأن الله تبارك وتعالى يمنحه أجر المهاجرين كاملاً غير منقوص فضلاً منه وجوداً وكرباً وإحسانًا، وأن الله عز وجل يئشه بعفوفته منه ورحمة، وقد روى البخاري ومسلم من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: إنها الأعمال بالنيات، وإنها لكل أمر ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته لدنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه.
قال تعالى: "وإذا ضربتم في الأرض قلیس عليكم یجناح أن تعصروا من الصلاة إن خفتم أن تفتتحكم أمنيتكم كفروا وإن الكافرين كانوا لكم عدوًا مبينًا. وإذا كنت فيهم فاقتست لهم الصلاة فلتلفظوا طائفة منهم معك ولياخذوا أسلحتهم وإذا سجندوا فليكونوا من ورائهم ولائة طائفة أخرى لم يصروا في الم Leakage لم يأخذوا جنحة فليصروا معك ولياخذوا جنحة وأسلاحتهم. ود اللذين كفروا لو تغلون عن أسلاحتهم وأصبرتم على علیكم صلی الله علیه وسلم يقال إن كان بكم أذى من مطر أو كسم مرضي أن تضعوا أسلاحكم وخذوا جنحة فإن الله عذب الكافرين عدابًا مهینا."

بعد أن ذكر الله عز وجل فضله على المهاجرين بإتمام نعمته عليهم وإعطائهم ثواب الهجرة غير منقوص بمجرد مفارقاتهم بزوينهم المهاجرين إلى الله ورسوله ذكر عز وجل هنا فضله على جميع المؤمنين بما يسره لهم من التشريع حيث رخص لهم في حرم الصلاة الرباعية في السفر، وفيه إبادة الحض على الهجرة إلى الله ورسوله والجهاد في سبيل الله حيث يقول عز وجل: "وإذا ضربتم في الأرض قلیس عليكم یجناح أن تعصروا من الصلاة" أي وإذا سرتتم في الأرض وصرفتم على سفر فليس عليكم حرج ولا إثم ولا وزر أن تخففوا من صلاتهكم التي فرضها الله عز وجل عليكم، وقد بين رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم ما يقصر من الصلاة ومقدار قصره حيث أوضح أنه لا قصر إلا في الصلاة الرباعية. وهي الظهر والعصر والعشاء أما الصبح والمغرب فلا قصر فيها، وأن صلاة الرباعية يكون بجعلها ركعتين، فقد روى البخاري ومسلم من حديث عائشة رضي الله عنها وقالت: فرض الله الصلاة حين فرضها ركعتين ركعتين في الحض والسفر فأقمت صلاة السفر وزيد في صلاته الحضرة وفي رواية للبخاري: ثم هاجر ففرضت أربعًا وأقرت صلاة السفر على..."
الأول، كما روى البخاري ومسلم واللفظ للبخاري من حديث أنس رضي الله عنه قال خرجنا مع رسول الله ﷺ من المدينة إلى مكة فكنا نصل ركعتين
ركعتين حتى رجعنا إلى المدينة، كما روى أحمد بن سنده صحيح عن عائشة رضي الله عنها cúة قالت: كان أول ما افترض على رسول الله ﷺ الصلاة ركعتان
ركعتان إلا المغرب فإنها كانت ثلاثاً ثم أتم الظهر والعصر والعشاء الآخرة
أربعاً في الحضر وأقر الصلاة على فرضها الأول في السفر. وقال تبارك وتعالى:
«إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا» أي إن خشيتم أن ينالكم الكفر
بمكروه، وهذا الشرط لبيان الواقع عند نزل هذه الآية وهو ما كان يتعرض له
المسلمون من أذى من المشركين إذ كان غالب أسفر المسلمين خوفاً، حيث
كان المشركون حرباً للإسلام وأهله، والقاعدة عند الأصوليين أن الشرط إذا
كان لبيان الواقع أو خرج مخرج الغالب فإنه لا مفهوم له، وعلى هذا فإن قصر
الصلاة لا يشترط فيه خوف فتنة الذين كفروا ولذلك روى مسلم في صحيحه
من طريق يعلى بن أمية قال: قلت لعمير بن الخطاب ﷺ ليس عليكم جناح
 أن تقضوا من الصلاة إن خفتم أن يفتنكم الذين كفروا» فقد أمن الناس،
فقال: عجبت بما عجبت منه، فسألت رسول الله ﷺ عن ذلك، فقال:
صدقة تصدق الله بها عليكم فاقبلا صدقتها. وقال البخاري في صحيحه:
حدثنا أبو الوليد حدثنا شعبة أنبنا أبو إسحاق سمعت حارثة بن وهب
قال: صلى بنا رسول الله ﷺ، ثم ما كان، بمنى ركعتين. وقال تبارك
وتعالى: «إن الكافرين كانوا لكم عدوًا مبينًا.» تذكر بنعمة الله عز وجل
على المؤمنين يا بسره لهم من التشريع وتحذير من أهل الكفر بيان أن قولهم
ملوءٌ بالعداوة للمسلمين. وقال عز وجل: «وإذا كنت فيهم فأحكمت لهم
الصلاة فلتقم طاقة منهم مأكَل وَلَيْ تَأْخَذُوا أَسْلَحَتِهِمْ الآية، بعد أن بِنَيَّ الله
عز وجل فضله على المسلمين بالترخيص لهم في قصر الصلاة الرباعية في
402
السفر شرع في بيان نعمة أخرى وهي ما تفضل عز وجل به على المسلمين
فسهل عليهم كيفية الصلاة في حالة الخوف تسيراً على المسلمين وحرصاً على
سلامتهم، ولذلك كان من المقررات عند علّيه أصول الفقه أن المشقة تجلب
التيشير، وفي هذا تبيّن أيضاً مزية الصلاة وفضلها وأن يجب المحافظة عليها
في سائر الأحوال من الصحة والمرض والخوف والأمن وفي ذلك يقول تبارك
وتعال: حافظوا على الصلاوات والصلاة الوسطى وقوموا بالله قانتين. فإن
خوفنا فرجالا أو ركبانا إذا أمضتم فاذكروا الله كما علّمكم مالك تكونوا
تعلمون. ومعني قوله عز وجل: وإذا كنت فيهم فأقمتم لهم الصلاة
أي وإذا كنت يامحمد حاضراً في أصحابك وشهدت معهم القتال فأردت أن
تقيم بهم الصلاة وتؤديها معهم، وهذا الأسلوب نظير قوله عز وجل:
يا أبا النبي إذا طلقتم النساء فطلقوهُنّ لعدتين؛ ونظير قوله عز وجل:
خذ من أمورهم صدقة تظهروهن وتزكيهم بها وصلّ عليهم إن صلائكم سكن لهم.
وقد فهم منها جميع أصحاب رسول الله ﷺ ووجب أخذ الزكاة من أصحابها بعد
رسول الله ﷺ وقاتل أبو بكر رضي الله عنه ومعه أصحاب رسول الله ﷺ من
منع الزكاة مدعياً أن الأمور بأخذها في الآية هو رسول الله ﷺ وأنه هو الذي
بصلى عليهم فإذا مات رسول الله ﷺ انقطع وجوب الزكاة. فين أبو بكر
رضي الله عنه أنهم خطقهم ووافقه على ذلك جميع أصحاب رسول الله ﷺ.
ولذلك ذهب عامة العلماء إلى أن صلاة الخوف موضوعة إلى يوم القيامة.
ولا عبرة بشذوذ من شذ واعدي أنها كانت خاصة برسول الله ﷺ. وقوله عز
وجل: فلتقم طائفة منهم معك وليأخذوا أسلحتهم أي فاعمل الجماعة
فرقتين فرقة تصف وراءك وتصل معك ركعة وهم يحملون أسلحتهم، وفرقة
تقف وراءكم لحلفاء ظهوركم وتكون في نحر العدو، فإذا سجدت بهذه
الطائفة وأنتهت السجود من الركعة الأولى فتم وثبت قائياً، وقامت الطائفة

٤٠٣
التي صلت معك ركعة فأتمت لنفسها الركعة الثانية فإذا سلمت هذه الطائفة قامت في وجه العدو وجاءت الطائفة الأخرى فصفت وراءك وصلت بهم الركعة الثانية بالنسبة لك فإذا أنبئت السجود من ركعتك الثانية تبت جالساً، وقام الذين خلفك فصلوا وأمروا لأنفسهم الركعة الثانية وسلمتم جميعاً، فقد روى البخاري ومسلم واللفظ لمسلم من طريق صالح بن خوات بن جبير الأنصاري عنصل مع رسول الله ﷺ يوم ذات الرقاع صلاة الخوف أن طائفة صلت معه وطائفة واجه العدو، فصل بالذين معه ركعة ثم تبت قانياً، وأمروا لأنفسهم، ثم انصرفوا فصفوا وواجه العدو، وجاءت الطائفة الأخرى فصل بهم الركعة التي بقيت ثم تبت جالساً، وأمروا لأنفسهم، ثم سلم بهم. وقد بين هذا الحديث المتفق على صحته بعض ما جاء جملة في هذه الآية الكريم، التي تدل دلالة ظاهرة على وجوب صلاة الجامع، وهذه الرواية تبين إحدى كيفيات صلاة الخوف، وقد صحت الروايات عن رسول الله ﷺ التي تبين كيفية أخرى من كيفيات صلاة الخوف فقد روى البخاري ومسلم واللفظ للبخاري من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنها قال: غزوت مع رسول الله ﷺ قبل نجد، فوازي العدو، فصافنها، فقام رسول الله ﷺ صلى الله عليه وسلم وطائفة معه وأقبلت طائفة على العدو، وركع بمن معه وسجد سجدين، ثم انصرفوا مكان الطائفة التي لم تصل، فجاءوا فركع بهم ركعة وسجد سجدين، ثم سلم، فقام كل واحد منهم فركع لنفسه ركعة وسجد سجدين. وقد أورد مسلم رحمه الله في صحيحه كيفية ثالثة من حديث جابر بن عبد الله قال: شهدت مع رسول الله ﷺ صلاة الخوف، فصفنا صفين، صف خلف رسول الله ﷺ والعدو بيننا وبين القبلة، فكبر النبي ﷺ، وكبرنا جميعاً، ثم ركع وركعنا جميعاً، ثم رفع رأسه من الركوع ورفعنا جميعاً، ثم انحدر بالسجود والصف الذي يليه، وقام الصف الآخر في
نهر العدو، فلما قضى النبي ﷺ السجود وقام الصف الذي يليه، انحدر الصف المؤخر بالسجود وقاموا ثم تقدم الصف المؤخر وتأخر الصف المقدم ثم ركع النبي ﷺ وركعنا جميعاً، ثم رفع رأسه من الركوع ورفعنا جميعاً ثم انحدر بالسجود والصف الذي يليه الذي كان مؤخراً في الركعة الأولى، وقام الصف المؤخر في نهر العدو، فلما قضى النبي ﷺ السجود والصف الذي يليه انحدر الصف المؤخر بالسجود فسجدوا، ثم سلم النبي ﷺ وسلمنا جميعاً. وهذا الحديث يفيد أن تغير كيفية صلاة الخوف جاء بحسب موقع العدو من القبلة، وأنه إذا كان جهة القبلة كانت كيفية صلاة الخوف مغايرة لكيفيتها إذا كان العدو لغير جهة القبلة. وهذه الأخبار الصحيحة الشابئة تفيد أن صلاة الخوف ركعتان، أما رواه مسلم في صحيحه من حديث ابن عباس رضي الله عنه قال: فرض الله الصلاة على لسان نبيكم ﷺ في الحضر أربعاً وفي السفر ركعتين وفي الخوف ركعتين. فقد قال النوروي رحمه الله: قوله: وفي الخوف ركعتين. المراد ركعتين مع الإمام وركعتان أخرى يأتي بهامنفرداً، قال: وهذا التأويل لا يبد منه للجمع بين الأدلة إهـ ومعني قوله عز وجل: ولأخذوا حذراً وأسلحتهم. أي وليحذروا حذراً شديداً وليحملوا أسلحتهم، وقد ذكر الله عز وجل في الطائفة الأولى الأمر بأخذ الأسلحة فقط وذكر في الطائفة الثانية الأمر بأخذ الحذر والأسلحة للتنبيه على أن العدو قد لا يتبه للمسلمين في أول الصلاة فإذا ركعوا انتهوا العدو لذلك وقد بغتمن الفرصة فيهجهم على المسلمين حينذ فتبه الله المسلمين في هذا الموضع زيادة تنبيه حيث أمرهم بأخذ الحذر والأسلحة، وقاله عز وجل: "وَأَوْحَيْنَىٰ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفَلُوا عَنْ أَسْلَحَتِكُمْ وَأَمْتَعَكُمْ فِي مَيْلِهَا وَاحِدَةٌ" عليه ويُ بيان للامبر بأخذ الحذر والسلاح في الصلاة، أي تمنى الذين كفروا لو تشتغلو بصالاتهم عن أسلحتكم التي تقاتلونهم بها وعن أمنتكم إلى بها.
بلاغكم في سفركم فتسهون عنها فيحملون عليكم وأنتم مشتغلون بصلاتكم.

عن أسلحتكم وأمتعتكم حزمة واحدة فيصبون منكم غرة وبسأصلونكم.

وقوله عز وجل: ﴿ولا جناح عليكم إن كان لكم أذى من مطر أو كنت مرضى أن تضعوا أسلحتكم وخذوا حذركم، إن الله أعد للكافرين عذاباً مهيناً﴾. أي ولا حرج عليكم إن كان عليكم مطر يؤذيكم أو كانت بكم جراحة أو مرض يتعبكم بسببه حمل السلاح في الصلاة ألا تتحملوا أسلحتكم في الصلاة، احترسوا منهم أن يميلوا عليكم أثناء صلاتكم فلا تغفلوا عن تحركاتهم، وكونوا على أهبة واستعداد لملاحقاتهم، وثقوا بأن الله معكم وقد أعد لأعدائهم الكافرين عذاباً مذلةً لا يخرجون منه أبداً وهو نار جهنم، وأنتم على خير مادتم مسترشدين بدين الإسلام مستمسكين بتعاليمه.
قال تعالى: » فإذا قضىتم الصلاة فأذكروا الله قيامًا وvéعادًا وعلى جنبكم«.

فإذا أطمنتم فأقيموا الصلاة، فإن الصلاة كانت على المؤمنين كتابًا مموثقًا.

ولا تنهوا في الإتيان للقوم فإن تكونوا تلمون فإنهم يلمون كая تلمون وترجون من الله ما لا يرجون، وكأن الله عليه حكيمًا.

بعد أن بين الله عز وجل للمسلمين كيفية من كيفية صلاة الحرف عقب الترتيبات لهم بقصر الصلاة في السفر، وقد اشتملت صفة صلاة الحرف على حركات وأعمال لا يؤذن فيها إلا في صلاة الحرف، كأن صلاة السفر قد نقصت في الرباعية وصارت ركعتين بيد أربع ركعات، نبه الله عز وجل المسلمين إلى ذكره وشكره بعد الفراق من صلاة السفر وصلاة الحرف، وأن يحرص المسلم على الابتعاد بذكر الله عز وجل في كل أحواله من القيام والقعود وعند الاضطجاع على جبهة، وأن يديم ذكره عز وجل بالتهليل والتكبير والدعاء بنصر الإسلام وإعلان رايةه وإعزاز أهله وخشى أعدائه، فإن ذكر الله عز وجل من أعظم أسباب النصر كما قال تبارك وتعالى: ﴿يأيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فائتبتوا واذكروا الله كثيرًا لعلكم تفلحون.﴾ كأن في الإثبات من ذكر الله عز وجل بعد صلاة السفر المقصورة وصلاة الحرف التي اشتعلت المصلي فيها بالكثير من الحركات التي لا تجوز في غير صلاة الحرف نوع جبراً لهذا القصر وذلك الحركات. على أن الله عز وجل قد أرشد عباده إلى الإثبات من ذكره بعد قضاءهم عباداتهم حيث يقول عز وجل: ﴿فإذا قضيت مناسككم فأذكروا الله كذكركم آباءكم أو أشرذمكم﴾. ووصف عبادة الصالحين ذوي الأباب بأنهم يذكرون الله قيامًا وقعودًا وعلى جنوبهم حيث يقول: ﴿إذن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لأبات لأولي الأباب. الذين يذكرون الله قيامًا وقعودًا وعلى جنوبهم﴾ الآية. وقد روى
الترمذي بسند حسن من حديث عبد الله بن بشر رضي الله عنه أخرجنا
قال: يارسول الله إن شرائع الإسلام قد كثرت على، فأخرجنا بشيء أنشب
به، قال: لا يزل لسانك رطباً من ذكر الله. ولذل ذلك أرشد رسول الله
المسلمين إلى أوراد من ذكر الله عز وجل بعد كل صلاة من الصلوات الخمس
فقد روى مسلم في صحيحه من حديث ثوبان رضي الله عنه قال: كان رسول
الله ﷺ إذا انصرف من صلاته استغفر ثلاثاً وقال: اللهم أنت السلام ومنك
السلام تبارك يا الجلال والإكرام، كأ روى البخاري ومسلم من حديث
المغيرة بن شعبة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان إذا فرغ من الصلاة وسلم
قال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد، وهو على كل
شيء قدير، اللهم لا مانع لما أعطيت، ولا معطي لما منعت، ولا ينفع ذا الجد
منك الجد. كأ روى مسلم من حديث عبد الله بن الزبير رضي الله عنه أن
كان يقول دبر كل صلاة حين يسلم: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له
الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، لا حول ولا قوة إلا بالله، لا إله إلا
الله ولا نعبد إلا لإياه له النعمة والفضل، وله الثناء الحسن، لا إله إلا الله
خلصين له الدين ولو كره الكافرون. قال ابن الزبير: وكان رسول الله ﷺ
يكلب بين دبر كل صلاة. كأ روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة
رضي الله عنه أن فقراء المهاجرين أنوا رسول الله ﷺ فقالوا: ذهب أهل الدثور
بالدرجات العل والثواب المقيم، يصلون كما نصلي، ويصومون كما نصوم،
ولهم فضل من أموال يجرون ويعتمرون، ويجادلون ويتصدقو، فقال: ألا
أعلمكم شيئاً تذرون من سبقكم، وتسبقون به من بعدكم، ولا يكون أحدٌ
أفضل منكم إلا من صنع مثل ما صنعتم، قالوا: بل يارسول الله، قال: تسبحون
وثحمون وتكتبون خلف كل صلاة ثلاثاً وثلاثين، كأ روى مسلم
من حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: من سبح الله في

408
دَبِر كَل صَلاة ثَلَاثَة وَثَلَاثِينَ وَحَدَّمَ اللَّهُ شَلَاثَا وَثَلَاثِينَ وَكِبَرَ اللَّهُ ثَلَاثَا وَثَلَاثِينَ،
وَقَالَ تَمَامَ المَانِثَةُ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لِهِ. لَهُ الْمَلَكُ وَلَهُ الْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى
كُل شَيْءٍ قَدِيرٍ، غَفُرَتِ خَطَّاتِهِ وَإِنْ كَانَتِ مِثْلُ زَبِيدَ الْبَحْرِ كَأَمْرٍالْبَخْارِي
مِن حَدِيثِ سَعَدِ بْنِ أَبِي وَقَاصٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنْ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يَتَعْوَذُ دِبْر
الصُّلُوَاتِ بِهِوَلَاءِ الْكَلِمَاتِ: اللَّهُمَّ إِنِّي أَعْوذُ بِكِ مِنَ الْجِنَّ وَالْبَخْلِ، وَأَعْوذُ بِكِ مِن أَنْ أَرُدُّ إِلَى أَرْذَلَ 1
العَمْرِ، وَأَعْوذُ بِكِ مِنْ فَتَنَّةِ الْخَيْرِ. كَأَمْرٍالْبَخْارِي
رَسُولِ اللَّهِ ﷺ أَحَدُ بِيَدِهِ وَقَالَ: يَامَعَاذُ، وَاللَّهُ إِيَّاْيَا حَبِيلَ. فَقَالَ: أَوْصِيَكَ
يَامَعَاذُ لَا تَسْتَعْنِ فِي دِبْرِ كَلِ صَلاةٍ تَقُولُ: اللَّهُمَّ أَعْنِيٌّ عَلَى ذَكَرِهِ وَشَكْرِهِ
وَحَسَنِ عَبَادَتِهِ، وَمْعَنِيْ قَوْلُهُ عَزْ وَجُلْ: ﴿إِنَّا ضَيْمُ الْصَّلاةِ﴾۱۰۹ أي
أَدْيَمُوهَا وَفَرُغْتُمْ مِنْهَا، فَالْقَضَاءُ هَنَا بِمْعَنِيَّ الْأَدِاءٍ كَأَمَلَ الشَّعَارِ.
۱۰۸۹ قَضَى كُلٌّ ذِيّ ذِينَ فَوُقُّ غَرِيمَةٍ وَعِرْضًا مَّطَلَّبٍ مُّعَنِّيَ لْغَيْرِ مُهِـهِـنَـا
وَقَوْلُهُ عَزْ وَجُلْ: ﴿إِنَّا اطْمَأَنْتُمْ فَأَقِيمُوا الْصَّلاةَ﴾ أي فَإِذَا أَمَتْنِ فَجُوْدُوا
صَلاةَ كُلِّهَا وَأَذَوْهَا وَأَقِيمْوهَا كَأَمْرٍالْبَخْارِي بَعْدُهُ، وَخَشْوَاهَا، وَرَكُوْهَا
وَسَجُودُهَا وَجِمْعُ شَفُوْهَا، وَلَا تَتَخَلُّلوهَا بِالشَّحَكَاتِ الَّتِي أَبْحَتْ لِكَمْ فِي
صَلاةَ الْخَنْفَ، وَعَدْلَاءَ أرَكَانَهَا. وَأَرَكَانُهَا شَرَّطَهَا، وَلَا تَجْرُوْهَا عَنْ أَوْقَاتِهَا الَّتِي
بِينَهَا لِكَمَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَلَا تَضِيعُوهَا، وَقَوْلُهُ عَزْ وَجُلْ: ﴿إِنَّا قَضِيْتُم
الْصَّلاةَ فَأَذَكَّرُوا اللَّهَ قِيَامًا وَقَعُودًا وَعَلَى جَنُوبِ كُلِّهَا إِنَّا اطْمَأَنْتُمْ فَأَقِيمُوا
الْصَّلاةَ﴾ شَيْبًا بَقُولُهُ عَزْ وَجُلْ: ﴿فَإِنَّ َخَفْتُمُ فَرَجَالَا أَوْ رَكَاباً فَإِذَا أَمَتْنِ
فَأَذَكَّرُوا اللَّهَ كَأَمْرٍالْبَخْارِي إِذَا أَمَتْنِ فَأَقِيمُوا
الْصَّلاةَ كَأَمْرٍالْبَخْارِي عَلَى الْمُؤْمِنِينَ هُمْ مَوْقُوتُ.﴾ ﴿فَقَالَ الْبَخْارِي فِي صَحِيحِهِ: بَابٌ مَّوْقِيْتِ
الْصَّلاةِ وَفِضْلُهَا، وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ الْصَّلاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَّوْقُوتًا﴾ مِّنْ وَقُتِ.
۱۰۹۰ مِّنْ وَقُتِ وَقَتِهِ عَلَيْهِمْ. حَدَّثَنَا عَبْدٌ اللَّهُ بْنُ مُسْلِمَةٌ قَالَ: قَرَأَتْ عَلَى مَالِكٍ عِنْ بِنٍ
شهاب أن عمر بن عبد العزيز أَنَّ الصلاة يومًا فدخل عليه عروة بن الزبير فأخبرها أن المغيرة بن شعبة أَنَّ الصلاة يومًا وهو بالعراق، فدخل عليه أبو مسعود الأنصاري فقال: ماذا يكامغيرة؟ أليس قد علمت أن جبريل نزل فصلى فصلى رسول الله ﷺ، ثم صلى فصلى رسول الله ﷺ، ثم صلى فصلى رسول الله ﷺ، ثم صلى فصلى رسول الله ﷺ، ثم صلى فصلى رسول الله ﷺ. قال: بهذا أمرت الحديث. وفي فتح للبعخاري ومسلم من طريق ابن شهاب أن عمر بن عبد العزيز أَنَّ الصلاة شيئًا، فقال له عروة: أما إن جبريل قد نزل فصلى أمام رسول الله ﷺ، فقال له عمر: أعلم ما تقول باعروة، فقال: سمعت بشير بن أبي مسعود يقول: سمعت أبا مسعود يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول: نزل جبريل فأثنى فصليت معه، ثم صلى معه، ثم صلى معه، ثم صلى معه، يحسب بأصابعه خمس صلوات. كما روى مسلم من حديث عبد الله بن عمرو قال: قال رسول الله ﷺ: وقت الظهر إذا زالت الشمس، وكان ظل الرجل كطوله، مال يحضر العصر؛ وقت الظهر مال ينصفر الشمس ووقت صلاة المغرب مال يغب الشفق، ووقت صلاة العشاء إلى نصف الليل الأوسط، ووقت صلاة الصبح من طلوع الفجر مال يطلع الشمس، فإذا طلعت الشمس فأسك عن الصلاة فإنها تطلع بين قرن الشيطان. كما روى مسلم من حديث بريدة قال: إن رجلاً سأل رسول الله ﷺ عن وقت الصلاة، فقال له: صل معنا هذين — يعني اليومين — فلما زالت الشمس أمر بلالًا فأنذن، ثم أمره فأقام الظهر، ثم أمره فأقام العصر والشمس مرفعة بضاءة نقية، ثم أمره فأقام المغرب حين غابت الشمس، ثم أمره فأقام الشمس حين غاب الشفق، ثم أمره فأقام الفجر حين طلع الفجر، فلما أن كان اليوم الثاني أمره فأمر بالظهر فأمر به فأناعم أن يبرد بها، وصل العصر والشمس مرفعة —
أخيراً فوق الذي كان - وصل المغرب قبل أن يغيب الشفق، وصل العشاء بعد ما ذهب ثلث الليل، وصل الفجر فأسفر بها، ثم قال: أي السائل عن وقت الصلاة؟ فقال الرجل: أنا يارسول الله، قال: وقت صلاتكم بين ما رأيت، وقوله في حديث عبد الله بن عمرو: "وقت الظهر إذا زالت الشمس وكان ظل الرجل كطوله مالم يحضر العصر" أي وقته صلاة الظهر يبدأ من زوال الشمس ويستمر وقتها حتى يصير ظل الرجل مثله. وقوله: "وقت صلاة العشاء إلى نصف الليل الأوسط" هذا بيان لوقت الاختيار المستحب في صلاة العشاء الذي يبتدئ من غيوبه الشفق إلى نصف الليل، وأما وقت العشاء في الاضطرار فهو متندر من نصف الليل إلى طلع الفجر، فقد روى مسلم من حديث أبي قتادة عن النبي ﷺ قال: ليس في النوم تفريط على من لم يصل الصلاة حتى يجيء وقت الصلاة الأخرى. وهو يفيد امتداد وقت كل صلاة إلى دخول وقت الصلاة الأخرى غير أن الإجاص منعقد على أن صلاة الفجر يتهي وقتها بطلوع الشمس، ولا يبتدئ وقت الظهر إلا من زوال الشمس، وقد أكد حديث عبد الله بن عمرو ذلك وبيته، كما روى البخاري ومسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: من أدرك ركعة من الصحيح قبل أن نطلع الشمس فقد أدرك الصبح، ومن أدرك ركعة من العصر قبل أن تغرب الشمس فقد أدرك العصر. وقد بينت هذه الأحاديث الصحيحة مجمل قوله عز وجل: "إن الصلاة كانت على المؤمنين كتاباً موقوتاً المفيد لفرضيتها وتوقيتها". وقاله عز وجل: "ولا تهنئوا في ابتعاد القرى إن تكونوا تألل فإنهم يأملون كأ تأللون وترجون من الله ما لا يرجون، وكان الله عليها حكيماً. ترغب اللهم في المؤمنين في الهجوم على أعداء الله ورسوله المحاربين للمسلمين وتشجيع لحزب الله على ملاحقة حزب الشيطان لتكون كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا الصفى، أي ولا تضعيفاً في طلب..."
لكفاح لقتالهم وملاحقتهم لاستئصال شأفتهم، فإن أصابتكم آلام وأوجاع وجراح في معاربهم فإنهم تصيبهم الجراح والأوجاع والآلام ومع ما يصيبهم من الجراح والأوجاع والآلام فإنهم يتقاتلونكم تحت رايحة الشيطان وأنتم تقاتلونهم تحت رايحة الإسلام، وتأملون من الله مولاكم نصره وتأييده ومثوبته لكم بالحسنى والنعم المقيم، وأعداؤكم لا مول لهم إلا الشيطان، وكبده ضعيف، فلا تخافوه واعتصموا بحب الله، العليم بمصالح خلقه وبأسباب سعادتهم في الدنيا والآخرة، الحكيم في تديره وقضاائه وقدرته، وأمره ونبيه المعز لأولياته المذل لأعدائه، وثقوا بوعده إنه عز وجل لا يخلف الميعاد.
قال تعالى: «إِنَّا أَنْزِلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتُحْكِمْ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكُ اللَّهُ». وتُفْقِرُ اللهُ إن الله كان غفورًا رحيمًا، ولا تجادل عن الذين يفتعلون أنفسهم، إن الله لا يحب من كان خوانًا أثينا.

بعد أن حرض الله عز وجل المؤمنين على مهاجة الكافرون ومالحقة أعداء الله وقناهم لتكون كلمة الله هي العليا، وبيّن لهم أنهم على خير سواء كانوا غالبين في المعارك أو مغلوبين، أعلن تبارك وتعالى هنا أنه أنزل القرآن على محمد ﷺ لإقامة العدل بين الناس، وأن يتحتم عليهم أن يكونوا قوامين بالقسط ولو على أنفسهم، وأنه لا يجوز لأحد مهما كان أن يجزع عن منهج القرآن، بل يجب الحكم بهذا الكتاب العظيم، والسير على منهاجه في معاملة الناس بغض النظر عن عداوتهما أو محبتهم كما قال عز وجل: «يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداءله ولو أنفسكم أو الودادين والأفقرين، إن يكن غنيًا أو فقيرًا فلهُ أيضاً» فلا تباعوا الهوى أن تغدّلوا، وإن تلقو أو تغزّروا فإن الله كان بإعماله خبيرًا. وكما قال عز وجل: «يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداءله ولا يجرّمكم شدّان قوم على أنه تغدّلوا، تغدّلوا هو أقرب للتعلق واتقوا الله، فإن الله خبير بما تعملون». وأنه يجب العدل في معاملة المنافقين والكافرين كما يجب العدل في معاملة المسلمين وأنه ينبغي للمسلمين أن يتفطنوا فلا يدافعوا عن أحد إلا ببيئة، ولا يغتروا فيجادلوا عن المنافقين الخائنين الله ورسوله وللمسلمين، لأن العدل تقوم به السموات والأرض، ولذلك أثر عن عبد الله بن رواحة رضي الله عنه أنه لما بعثه رسول الله ﷺ خارجًا على أهل خير من اليهود، وعلموا بقدومه أعدوا له رشوة يرشوه بها حتى يخفف عنهم في الخصر فرفض قبول رشوتهم وقال لهم: يا إخوان القردة والحنازير والله ما تركت وجهًا أحب إلي من
وجه رسول الله ﷺ ولا أقبلت على وجه أبيغض إلا من وجهكم، ولا يمنعني حبي لرسول الله ﷺ و بغبي لكم أن أقيم العدل فيكم، فقالوا: بهذا العدل قامتم السموات والأرض قال أبو بكر أحمد بن الحسن البهظي في دلائل النبوة: أخبرنا أبو الحسن علي بن محمد المقرئ الإسفراييني بما قال: أخبرنا الحسن بن محمد بن إسحاق حدثنا يوسف بن يعقوب حدثنا عبد الواحد بن غياث حدثنا خالد بن سلمة حدثنا عبيد الله بن عمر - فيها يحسب أبو سلمة - عن نافع عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قاتل أهل خير حتى أجاجهم إلى قصرهم فغلب على الأرض والزروع والخل نصلحوه على أن يجلوا منها وهم ما حملت ركابهم ورسول الله ﷺ الصفار والبيضاء وخرجون منها واشترط عليهم ألا يكتسحوا ولا يغيبوا شيئاً فإن فعلوا فلاذمه لهم ولا عهد، فغئبوا مشككًا فيه مال وحلي خبي بن أخطب، كان احتتمله معاً إلى خير حين ألجعت النصر فقال رسول الله ﷺ لعم حبي: ما فعل مسك حبي الذي جاء به من النصر؟ فقال: أذهبته النفقات والحروب، فقال: العهد قريب والمال أكثر من ذلك، فدفعه رسول الله ﷺ إلى الزبير فمسه بعذاب، وقد كان حبي قبل ذلك دخل خربة، فقال: قد رأيت حبيًا يطوف في خربة هنها، فذهبوا قطعوا ووجدوا المسك في الخربة، فقتل رسول الله ﷺ أبني أبي الخفيف وأحدهما زوج صفية بنت حبي بن أخطب وسبو رسول الله ﷺ نساءه وذراريهم وقسم أموالهم بالتنك الذي نكثوا، وأراد أن يجلبهم منها، فقالوا يا أحمد دعنا نكون في هذه الأرض نصلحها ونقوم عليها، ولم يكن لرسول الله ﷺ ولا لأصحابه غلبان يقومون عليها، وكانوا لا يفرعون أن يقوموا عليها فأعطاهم خيرًا على أن لهم الشطر من كل زرع ونخيل وشيء ما بدأ لرسول الله ﷺ، وكان عبد الله بن رواحة يأتتهم كل عام في خصصها عليهم ثم يُضمنهم الشطر، فشكوا لرسول الله ﷺ شدة خرصه، وأرادوا أن يرشوه
فقال: يا أعداء الله تطعموني السحت، والله لقد جئتكم من عند أحب الناس إلي، ولأنتم أبغضت إلي فعدكم من القردة والخنازير ولا يمكنني بغضي إياكم وحبٍ يباه على ألا أعدل عليكم، فقالوا: بهذا قامتم السماوات والأرض، ومعنئ قوله: بارك الله، والأنبياء. وإن أنزلنا إليه الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله أي إننا أوحينا إليه هذا القرآن العظيم لتقضي للناس في قضاياهم وتفصل بينهم في منازعاتهم على نور هذا الكتاب الملازم للحق والعدل والصدق بما علمنا الله عز وجل وعرف يأطعله فأنا أدل عليك من الوحي، ووضع لك من قواعد العدل والإنصاف للولى والعدو، وأن لا يؤخذ أحد إلا بجريرته مع التثبت في الحكم، وعندم قبول دعوى أحد على أحد إلا ببرهان، وقد أشار رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أنه قد يقضي بين المتخاصمين يا يقدهم كل واحد منها، فقد يكون بعضهم أقوى بحجته من بعض، وإذا قضى لأحد بسبب حجته القوية التي قد تكون خالفة للواقع فإنه يقضي له بقطعه من النار فقد روى البخاري في كتاب الحيل من صحيحه: باب حدثنا محمد بن كثير عن سفيان عن هشام عن عروة عن زينب بنت سلمة عن أم سلمة عن النبي ﷺ قال: إننا أنا بشر وإنكم تختصمون إلي، ولعل بعضكم أن يكون أحق بحجته من بعض، وأقضى له على نحو ما أسمع، فمن قضي óف له من حق أخيه شيئا فلا يأخذه، فإنها أقطع له قطعة من النار. وقال البخاري في كتاب الأحكام من صحيحه: باب من قضى له بح حق أخيه فلا يأخذه، فإن قضاء الحاكم لا يجل حراماً ولا يحرم حالاً حديثنا عبد العزيز بن عبد الله حدثنا إبراهيم بن سعد بن صالح عن ابن شهاب قال: أخبرني عروة بن الزبير أن زينب بنت أبي سلمة أخبرته أن أم سلمة زوج النبي ﷺ أخبرته عن رسول الله ﷺ أنه سمع خصومة باب حجرته، فخرج إليها فقال: إننا أنا بشر، وإنه يأتي في الخصم، فعلى
بعضكم أن يكون أبلغ من بعض، فأحسب أنه صادق فأقضيه له بذلك، فمن قضيت له بحق مسلم، فإنها هي قطعة من النار، فليأخذها أو ليتركها.
ثم ساقه في باب القضاء في كثير المال وقيل له من حديث أم سلمة رضي الله عنها قالت: سمع النبي ﷺ جلبة حصاد عند بابه، فخرج عليهم فقال: إننا أنا بشر، وإننا يأتينك الحصم، ففعل بعضًا أن يكون أبلغ من بعض، فأقضيه له بذلك، وأحسب أنه صادق، فمن قضيت له بحق مسلم فإنها هي قطعة من النار فليأخذها أو ليدعها. وأخرجه مسلم من طريق أبي معاوية.
عن هشام بن عروة عن أبيه عن زينب بنت أي سلمة عن أم سلمة قالت: قال رسول الله ﷺ: إنكم تختصمون إليّ، فلعل بعضكم أن يكون الحزن يحجبه من بعض، فأقضيه له على نحو مما أسمع منه، فمن قطعت له من حق أخيه شيئاً فلا يأخذه، فإنما أقطع له به قطعة من النار، ثم ساقه من طريق ابن شهاب أخبرني عروة بن الزبير عن زينب بنت أي سلمة عن عم سلمة زوج النبي ﷺ أن رسول الله ﷺ سمع جلبة حصاد بباب حجرته فخرج إليهم.
فقال: إننا أنا بشر، وإننا يأتيني الحصم، ففعل بعضهم أن يكون أبلغ من بعض، فأحسب أنه صادق فأقضيه له، فمن قضيت له بحق مسلم فإنها هي قطعة من النار فليحملها أو ليذرها. وقوله عز وجل: ﴿ولا تكن للكفرين خصيًا. واستغفر الله إن الله كان غفورًا رحيمًا. ولا تجادل عن الذين يخانون أنفسهم، إن الله لا يحب من كان خوانًا أثناً﴾. هذا إرشاد من الله عز وجل لرسوله ﷺ وجميع المؤمنين باللائمة ويدافع عن الحونة مهما كانوا سواء كانوا من المنافقين أو كانوا من غير المنافقين، فمن عرفت خيانته لا يجوز من يؤمن بالله واليوم الآخر أن يدافع عنه ويحمي له، وأنه ينبغي للمؤمن أن يحرص على أن يستغفر ربه وأن يتوب إليه عز وجل ويحرص على رضي الله تبارك وتعال الذي يحب المستغفرين ويتوب عليهم لأنك عز وجل هو الغفور.
الرحيم، وقد أكد الله تبارك وتعالى تحريم الدفاع والمحاماة عن الخونة ومبايعاتهم عمن لا يجمه الله عز وجل، لأن من دافع عن الخونة كان راضياً بالحياة مقرراً لها مدافعاً عن مرتكبي المعاصي والاجرام، وهذا لا يليق بمسلم. وإيراد التحذير بتوجه الخطاب إلى رسول الله ﷺ المعصوم من كل ذنب المبره من كل عيب صولات الله وسلامه عليه إنها هو من باب قوهم: إياكم أعني واسمعي ياجارة، على أن النهي عن الشيء لا يقتضي الوقوع فيه، وأن الأمر بالاستغفار لا يقتضي أن يكون المستغفر قد ارتكب معصية وذنباً، غير أن توجيه الخطاب هذه الوصايا إلى رسول الله ﷺ للغة اتباع المسلمين إلى شدة الحذر من الدفاع عن المناقفين حتى ولو كانوا في مخاصصة مع اليهود أو غيرهم والمعلوم أن بعض الصحابة رضي الله عنهم جياعاً كانوا لا يعلمنون نتفاق بعض المناقفين وكانوا يغترون بها يروون من ظهورهم بظهور المسلمين، ولذلك جاء في حديث الإفك أن سعد بن عبادة سيد الخزرج رضي الله عنه دافع عن عبد الله بن أبي رأس المناقفين حيث لم يكن عالماً بنفاقه ما كان يظهره عدو الله من الطاعة والتذكير كل يوم جمعة. ومعنى قوله عز وجل: «الذين يختانون أنفسهم» أي يعودون أنفسهم فيجعلونها خائنة بارتكاب الخيانة، ولاشك أن من أقدم على المعصية فقد حرم نفسه الثواب الجميل وأوصلها إلى العقاب النobil فكان ذلك منه خيانة لنفسه، ولذلك يقول من ظلم غيره: قد ظلمت نفسك، والتعبير بقوله «إني الله لا يجب من كان خواناً أثنا» للإشعار بأن الإنسان إذا كسرت منه الخيانت والإثم كان حريًا بغضب الله وسخطه وعدم رضاه عنه. وفي هذا عظيم التهديد والوعيد لمن يكون بهذه المثابة ولمن يدافع ويجادل عنه وقد روي البخاري من حديث خولة بن عامر الأنصاري وهي امرأة حمزة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن رجالاً يتعرضون في مال الله بغير حق فلهم النار يوم القيامة.
قال تعالى: ﴿وَلَا يَسْتَخْفِقُونَ ﻣِنَ اللَّهِ وَهُوَ ﻣَعَهُمْ إِذْ يَبْتَهَلُونَ ﻣَا لَا يَرْضَى ﻣِنَ القُوْلِ، وَكَانَ اللَّهُ ﻲَغْمُرُونَ ﻋَنْهُمْ ﻋَدْلًا. ﴿

بعد أن حذر تبارك تعالى أشد التحذير من الجدال والدفاع والمحاماة عن المنافقين وسائر الخونة، وأنذر الخوارج الأثيم بغض الله له، والويل كل الويل للمنافقين أبغضهم جبار السمات والأرطه العزيز المتقدر، ويَهْجَعُ هَنَا المنافقين بايدل على سفاهة عقولهم، وشدة غباورهم حيث يقول عز وجل: ﴿وَلَا يَسْتَخْفِقُونَ ﻣِنَ اللَّهِ وَهُوَ ﻣَعَهُمْ إِذْ يَبْتَهَلُونَ ﻣَا لَا يَرْضَى ﻣِنَ القُوْلِ، وَكَانَ اللَّهُ ﻲَغْمُرُونَ ﻋَنْهُمْ ﻋَدْلًا. ﴿ قال ابن جرير رحمه الله في تفسير هذه الآية: قال أبو جعفر: يعني جل ثناؤه بقوله: ﴿وَلَا يَسْتَخْفِقُونَ ﻣِنَ اللَّهِ وَهُوَ ﻣَعَهُمْ إِذْ يَبْتَهَلُونَ ﻣَا لَا يَرْضَى ﻣِنَ القُوْلِ، وَكَانَ اللَّهُ ﻲَغْمُرُونَ ﻋَنْهُمْ ﻋَدْلًا. ﴿ الذين يخافون أنفسهم ما أتوا من الخيانة، وركبوا من العوار والمعاصية ﴿وَلَا يَسْتَخْفِقُونَ ﻣِنَ اللَّهِ وَهُوَ ﻣَعَهُمْ إِذْ يَبْتَهَلُونَ ﻣَا لَا يَرْضَى ﻣِنَ القُوْلِ، وَكَانَ اللَّهُ ﻲَغْمُرُونَ ﻋَنْهُمْ ﻋَدْلًا. ﴿ الذين لا يقدمون لهم على شيء إلا ذكرهم يعيبهم ما أتوا من فعلهم، وشيع ما ركبوا من جرمهم إذا اطلعوا عليه، حياءهم ومنه وحذراً من قبح الأدلة ﴿وَلَا يَسْتَخْفِقُونَ ﻣِنَ اللَّهِ وَهُوَ ﻣَعَهُمْ إِذْ يَبْتَهَلُونَ ﻣَا لَا يَرْضَى ﻣِنَ القُوْلِ، وَكَانَ اللَّهُ ﻲَغْمُرُونَ ﻋَنْهُمْ ﻋَدْلًا. ﴿ الذي هو مطلع عليهم، لا يخفى عليهم شيء من أفعالهم، وبثده العقاب والنكال وتعجيل العذاب، وهو محق أن يستحق منه من غيره، وأول أن يعظم بالناس برامهم حيث يكرون أن يراهم أحد من خلقه ﴿وَلَا يَسْتَخْفِقُونَ ﻣِنَ اللَّهِ وَهُوَ ﻣَعَهُمْ إِذْ يَبْتَهَلُونَ ﻣَا لَا يَرْضَى ﻣِنَ القُوْلِ، وَكَانَ اللَّهُ ﻲَغْمُرُونَ ﻋَنْهُمْ ﻋَدْلًا. ﴿ يقول: حين يسرون ليا لام لا يرضي من القول، فيفرون عن وجهه ويكتبون فيه اه، وهذا المقام شبيه بما ذكره الله عز وجل عن المنافقين في
الآية الحادية والثمانية من هذه السورة المباركة حيث يقول عز وجل:

» ويقولون طاعة فإذا بَرَزوا من عنيك بَنْتٌ طائِفَةٌ مِنْهُمْ غَيْرُ الذي تقول والله يَكُبُّ ما يَبْتَبِيْنَ فَأَعْرَضْ عنهم وَتْوَكِّل على الله وَكَفَّى بِالله وَكَيْلًا.« وقوله عز وجل: »هَالَّذِينَ هُوَاءٌ جَادَلْتُمْ عِنْهُمْ فَانتَبِعْنَ حَيَاةَ الْدُنْيَا فَمَنْ يَجَادِلَ اللَّهَ عِنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَمْ مِنْ يُكُونُ عَلَيْهِمْ وَكَيْلًا.« تأنيب وتوصيف وتوجيه لم يجادل ومجامي من المناققين والخونة بأنهم إن دافعوا عنهم في الحياة الدنيا ودفعوا عليهم عقوبة جرائمهم التي يستخفون بها من الناس ولا يستخفون من الله فهل يستطيعون المحاماة والدفاع والجدال عنهم عند الله يوم القيامة الذي لا ينفع فيه مال ولا بنون إلا من أني الله بقلب سليم، ويفر في المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته ونبرهه. وإذا يكون صنيع هؤلاء يوم القيامة بين يدي من يعلم السر وأخفي، وهل يظن أحد من هؤلاء المجادلين عن المناققين والخونة أن يقوم وكيلا عن المناققين في عرصات القيادة يجادل عنهم ويدفع عليهم عذاب جبار السموات والأرض؟ ثم بعد هذا التهريب شرع يسلك مسلك الترغيب، فدعاه إلى التوبة والرجوع إلى الله عز وجل والاستغفار من خطاياهم التي اكتسبوها وخبرهم عن جوده وكرمه وقبوله توبة التائبين مهما كانت ذنيهم وخطاياهم، وأنه لا ينبغي أن يريد الحق لنفسه أن يقبل من رحمة الله، ولا أن يبأس من عفده، فقال عز وجل: »وَمَنْ يَعْمَل مُّسَوًّا أَوْ يَظْلَمُ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرَ اللَّهُ يُبْقَى اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا.« وهو يفيد سعة رحمة الله وأنه لا يرد من تاب إليه وأقبل عليه ولله كانت خطاياه مثل زبد البحر قال ابن جرير: يعني بذلك جل ثناؤه: ومن يعمل ذنبا وهو السوء، أو يظلم نفسه بإعابه إياها ما يستحقه عقوبة الله »ثم يستغفر الله« يقول: ثم يتوب إلى الله بإعابته مما عمل من السوء وظلم نفسه، ومراجعته ما يحب الله من الأعمال الصالحة التي تمحو ذنبه، وتذهب جرمه »يجد الله غفورًا رحيماً«.

419
أخرى، فلكل نفس ما كسبت وعليها ما اكتسبت فمرتكب المعصية لا يضر إلا نفسه، ولا يضر الله شيئاً. ومن يأت ذنبًا متعمدًا فإنها يكتسب ويخرج وبال ذلك الذنب وضره وخزيه وعاره على نفسه دون غيره، ولن يبلغ العبد نفع ربه فينفعه، ولن يبلغ ضره فيضره، كما جاء في الحديث القدسي الذي رواه مسلم من حديث أبي ذر رضي الله عنه عن النبي ﷺ فيها يرويه عن الله تبارك وتعالى أنه قال: ياعبادي أي حرمت الظلم على نفسي وجعلته محروماً فلا تظلوا، يا بعيدي كلكم ضال إلا من هديته فاستهدوني أهذكم، يا عبادي كلكم جائع إلا من أطعمنه فاستطعمني أطعمكم، يا عبادي كلكم عار إلا من كسوه فاستكسوني أكسكم، يا عبادي إنكم تتغلبون بالليل والنهر وأنا أغفر الذنوب جميعًا فاستغفروني أغفر لكم، يا عبادي إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني ولن تبلغوا نفعي فتتفعوني، يا عبادي لو أن أولكم وأخركم وإنتمكم وجنكم كانوا على أنقى قلب واحد ومنكم ما زاد ذلك في ملكي شيئاً، يا عبادي لو أن أولكم وأخركم وإنتمكم وجنكم كانوا على أفجر قلب رجل واحد ومنكم ما نقص ذلك من ملكي شيئاً، يا عبادي لو أن أولكم وأخركم وإنتمكم وجنكم كانوا في صعيد واحد فسألوني فأعطني كل إنسان مسألته ما نقص ذلك مما أندي إلا كأنا ننقص المخطط إذا أدخل في البحر، يا عبادي إننا هي أعهالكم أحصيوا لكم ثم أوفيكم إياها، فمن وجذ خيراً فليحمد الله ومن وجد غير ذلك فلا يلومون إلا نفسه. وقوله تبارك وتعالى: (مَنْ يَكْسِبُ حُطَتْيَةَ أَوْ إِنَّا ثُمَّ يَزَمَّرُ بِهِ بَريًا فَقَدْ احْتَمَلَ بَهِيْشًا أَوْ إِنَّا مُيِينًا). هذا ترهيب عظيم من أن يرتكب الإنسان شيئاً ما يسهو سواء كان متعمداً أو غير متعمد ثم يلصقه الإنسان بريء منه لم يقترفه، وأن من يفعل ذلك فقد تحمل عليه هذا فرية وكذباً وإثناً عظيماً وجرماً فظيعاً، والفرق بين الخطيئة والإثم أن الخطيئة قد تكون من قبل العمد وغير العمد أما الإثم فلا يكون إلا عن
عمد. والبهتان هو الفرية والكذب بأن يقول على الإنسان ما ليس فيه قال في القاموس المحيط: بَيْنِيْكَ عَلَيْهَا وَبَيْنِيْكَ عَلَيْهَا قال عليه مال يفعل والبهتة الباطل الذي يتحيز من بطلانه والكذب كالبهتة بالضم اسمه والبهتان أقيل من الغيبة والنميمة وقد روى البخاري ومسلم من حديث حذيفة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: لا يدخل الجنة قتات. وفي رواية مسلم: نهـم ووصف الله عز وجل للغيبة بأقبح الأوصاف التي تجعل العاقل ينفر منها أشد النفور حيث يقول عز وجل: (وَلا يَتَغُبُّ بِغُضَبٍ مَّعَ بَعْضٍ) وقد روى مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال "أندرون ما الغيبة؟ قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: ذكرك أخوك بها يكره، قال: أمرأتي إن كان في أخي ما أقول؟ قال: إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بهته، وفي لفظ لمسلم: إذا قلت لأخيك ما فيه فقد اغتبته، وإذا قلت ماليس فيه فقد بهته. ولا شك أن كلمة واحدة من غيبة أو نميمة أو بهتان قد تحول بين الإنسان وبين الموت على الإسلام لأنها من سخط الله وقد روى البخاري من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: إن العباد لتلكم بالكلمة من رضوان الله لا يلقى لها بالآية يرفعه الله بها درجات، وإن العباد لتلكم بالكلمة من سخط الله لا يلقى لها بالآية يهوى بها في جهنم، وفي رواية للبخاري ومسلم: يهوى بها في النار بعدما بين المشرق والمغرب، وإنها كان البهتان أقيل من الغيبة والنميمة لأن صاحبه يفترى ما يقول. ولذلك قال الشاعر:

في حيلة فيَّا بين وليس في الكذب حيلة من كان يخلق ما يقول فحليته في قلبه وقد وصف الله عز وجل هوا من يرمي البريء بجريته هو لأنه قد احتمل بهتانا وإيضاً مبيناً، وقال عز وجل في سورة الأحزاب:»(والذين يُؤْذِونَ المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتانا وإيضاً مبيناً).»

٤٢٢
قال تعالى: «ولَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ هَمُّتَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضَلُّوكَ» وما يُضَلُّونَ إِلَّا أنفسهم وما يُضَرِّعُونَكَ مِن شَيْءٍ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمْ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَزِيزًا لا يُحَرِّقُ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجَوْهُم إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدْقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاَحٍ بَيْنَ النَّاسِ وَمَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ الْبَيْعَاءَ مِرْضَاتٌ اللَّهُ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَزِيزًا.

بعد أن أوضح الله عز وجل لرسوله ﷺ وللمؤمنين بعض مواقف المنافقين الذين يُبيِّنونَ ما لا يُرضَى من القول وندد بمن يجادل عن المنافقين والخونة، مما يشعر بشدة ما يحكم المنافقون من نفاقهم سعياً لإضلاع المسلمين، وبعد ما ساقه عز وجل من الترغيب والترهيب أوضح هنا أنه عصم رسوله ﷺ فضلًا ورحمته، فلا يستطيع الغواة من شياطين الإنس وجن أن يضلوه، ومهمه حاولوا من ذلك فلن بضروا إلا أنفسهم، وبين أنه تفضل على هذا النبي العظيم والرسول الكريم فاختاره واصطفاه، وأنه القرآن والنبوة وعلمه مال يعلمه هو ولا قومه حيث يقول تبارك وتعالى: «ولَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ وَرَحْمَتُهُ هَمُّتَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ أَن يُضَلُّوكَ» أي ولَا أَن الله تبارك وتعالى تفضل عليك فعصمك وصانك وأيدك بتوفيقه لك وإحسانه إليه وكشف عورات المنافقين وتعريفك بما يبينه لك مما لا يرضي الله عز وجل من أقوالهم وأفعالهم وتدبيراتهم السيئة للإسلام والمسلمين، وتشييتك على طريق الرشاد وسلوك الصراط المستقيم لقصدت فرقة منهم أن يزلُوك عن طريق الحق، ويقومك في الحيرة والشك، ولكن ما عصمك الله عز وجل به وما أعانك من تأييده وتسديده صرفهم عنك وحال بينهم وبين إيقاعك فيها يشتهر، ووقاكم شرهم وحماك من سوء صنيعهم وما أحسن قول الشاعر:

وقاية الله أُغْنِتَ عَن مَضَاعِفَةٍ من الدروع وعن عالٍ من الأطم

423
وَللهُ دَرَرُ الْشَّاعِرِ إِذْ يَقُولُ:

إِذَا كَانَ عَوْنُ اللَّهِ لِلْعَبْدِ مَسْعُوقًا تَأْيِّيُهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّرَادٍ
فَأَفْلَامَا يُقَضَى عَلَيْهِ اجْتَهَادٌ
وَإِنْ لَمْ يَكُنْ عَوْنُ مِنَ اللَّهِ لِلفَتِى
فَقَدْ صَانَ عُزُوُّ الْمُحِيْشَةُ
وَقَوْلُهُ عِزٌّ وَجَلٌّ: "فَلَمْ يُضَلُّوا إِلَّا أنفُسُهُمْ وَمَا يُضَلُّونَ مِنْ شَيْءٍ" أُيُّونُ
أَيْ وَلَنْ تُؤْثِرُ
مُحاوَلَتَهُمْ إِلَّا أَنفُسَهُمْ بْشَيْءٌ أَبَدًا، لَنَّ اللَّهِ عِزٌّ وَجَلٌّ قَدْ صَانَ عُزُوُّ
وَقَوْلُهُ عِزٌّ وَجَلٌّ: "تَأْيِّيُهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّرَادٍ" عِزٌّ وَجَلٌّ: "لا يُؤْثِرُ
أَنفُسُهُمْ فَقَدْ رُوِى مَسْلِمٌ مَّسْلِمٌ فِي
صَحِيحِهِ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُسْلِمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ عِزَّ وَجَلَّ:
"مَا مَنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا وَقَدْ وَكَلَّبَهُ بِقَرِينِهِ مِنَ الْجَنِّ،" قَالَوا وَإِبْكَارٌ
يُسْلِمُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ، إِلَّا أَنَّ اللَّهَ أَعْتَمَنَّ عَلَيْهِ فَأَسْلَمُ فَلا يَأْمُرُنِ إِلَّاٌ
بِغُيُّرٍ، وَفِي لَفْظٍ: وَقَدَ وَكَلَّبَهُ بِقَرِينِهِ مِنَ الْجَنِّ وَقَرِينِهِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ. كَمَا رَوَى
مَسْلِمٌ مِنْ حَدِيثِ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ عِزَّ وَجَلَّ خَرَجَ مِنْ عَنْدِهَا
لِيُقَالُ لِي: فَغَرَّتْ عَلَيْهِ، فَجَاءَ فَرَأَى مَا أُصْنِعَ، فَقَالَ: مَالِكٌ? أَغْرَتْ?
فَقَلَتْ: وَمَا لِيَغْرُثُ مَثْلَ عَلَيْهِ مِنْهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ عِزَّ وَجَلَّ: أَقْدَ جَاءَكُ
شَيْطَانُكَ؟ قَالَ: يَسْلِمُ اللَّهُ عَلَيْهِ مَعِيْ شَيْطَانٌ، قَالَ: نَعْمَ، قَلَتْ: وَمَعِيْنَ، قَلَتْ: وَمَعِيْنَ، قَالَ: نَعْمَ، وَلَكَنْ رَبِّي
أَعْتَمَنَّ عَلَيْهِ فَأَسْلَمُ، وَقَوْلُهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: "أَنْزُلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ
وَالْحِكْمَةَ وَعَلَمَكَ مَا لَمْ تَعْلَمَ" بِيَانٍ لِلْنَّعِمِ الْكَبِيرِ، وَالْمَنْعَ النُّفُورِيَّةِ الَّتِي
تَفْضِيلُ اللَّهِ بِهَا عَلَى أَكْرِمٍ خَلْقِهِ، وَأَفْضِلِ رَسُلِهِ، وَسِيَّدٍ، وَلِدْ أَدِمَ، مُحَمَّدٍ بْنُ عُبَيْد
الله بن عبد المطلب بن هاشم الهاشمي القرشي صلوات الله وسلامه ورحمة
وبركاته عليه وعلى آل نبيه صل الله علیه وسلم ومن سلك سبيلهم وترسم خطاهم ونبيج
منهجهم إلى يوم الدين، ومعني: »أَنَزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحَكْمَةَ ۛ أَي
وأوحي الله عز وجل إلیك القرآن الحكیم، المستحل على تبیان كل شيء
المهمین على كل كتاب أنزله، وفيه هدى ورحمة، وشفاء لما في الصدور،
وآتيناك من بحار الحكمة مالم نعه احداا سواك، ففهمناك الكتاب،
وأرشدناك إلى الصواب، فوضعت كل أمر في موضعه اللائق به، وعرفت
جمل الكتاب فينن للناس ما نزل إليهم، وهديت إلى السداد، وسلكت
منهج الرشد، وعرفت عباد الله أسباب سعادتهم، في عاجلتهم وآجلتهم،
ولم تترك شيئاً يعود عليهم بالخير في دنياهم أو أخراهم إلا أمرت به،
وحضضتهم عليه، ولم تترك سبيلًا يصيبهم منه شر في عاجلتهم أو آجلتهم
إلا نهيتهم عنه وحذرتهم منه، فلا تأمرهم إلا بخير ولا تنهاهم إلا عن شر،
حتى قال المشركون لبعض أصحاب رسول الله ﷺ: لقد علمكم نبيكم كل
شيء. فقد روى مسلم في صحيحه من حديث سليان رضي الله عنه قال:
قيل له: قد علمكم نبيكم ﷺ كل شيء حتى الخراءة قال: فقال: أجل،
لقد نهانا أن نستقبل القبلة لخائط أو بول أو أن نستنجي بالليمين أو أن
نستنجي بأقل من ثلاثة أحجار أو أن نستنجي برجع أو بعظم، وفي لفظ
المسلم من حديث سليان رضي الله عنه قال: قال بعض المشركين وهو
يستهزيء: إني أرى صاحبكم يعلموكم حتى يعلمكم الخراءة، فقال: أجل،
إنه نهانا أن يستنجي أحدنا بيمينه، أو يستقبل القبالة ونبى عن الروث
والظام وقال: لا يستنجي أحدكم بدون ثلاثة أحجار. قال في الفاموس
المحيط: والحكمة بالكسر العدل، والعلم، والحلم والنبوة والقرآن والإنجيل
وأحكامه أنقته فاستحكم، ومنعه عن الفساد اه وقوله عز وجل: »وَعَلِمْكَ
وآخرين منهم لا يلحظوا بهم، وهو العزيز الحكيم. ذلك فضل الله يوتيه من يشاء، والله ذو الفضل العظيم. ولذلك كله دين الله تبارك وتعالى هذه الآية الكريمة بقوله: فكان فضل الله عليك عظيماً. وبعد أن بَن عزر وجل فضل الله العظيم على محمد سيد المرسلين شرع بَن بعض قواعد الخير التي أوجها بها إلى رسول الله حيث يقول: لا خير في كثير من نجواهم إلا من أمر بصدق أو معروف أو إصلاح بين الناس، ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضا بَن سوء نوتيه أجرًا عظيمًا. أي لا خير فيها يتناغي به الناس ويختوسون فيه من الكلام سواء كان سراً أو جهراً إلا ما كان ل фут الناس وإيصال الخير لهم أو دفع الأذى والضر عنهم مما يشمل سلامة أبدانهم وأرواحهم وصلاح معاؤهم ومعمدهم كالأمر بالصدقات على المحتاجين والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وإصلاح ذات البين، وفي هذا تنديد بالمنحرفين عن منهج رسول الله الذين يبيتون ما لا يرضي من القول، وثناً على المؤمنين الذين يحرصون على طاعة الله وطاعة رسوله فلا يستعملون أَلَسنتهم إلا في الثناء على الله ورفع عبادة سوء كان كلامهم وذكراه سراً أو جهراً وأكثر ما تستعمل النجوى فيها كان سراً من الكلام وقد تستعمل في الجهر كذلك قال ابن منظر في لسان العرب: وفي التنزيل العزيز: لا خير في كثير من نجواهم قال أبو إسحاق: معنى النجوى في الكلام ما ينفرد به الجلالة والإناث، سراً كان أو ظاهراً وقوله أنشده ثعلب: (تُحِيَّنَ من نِّعْمَيْهِ للشافعي) فسره فقال: نجيب هذا صوته، وإنها يصف حاديًا سوأًا مصونًا أه وقوله تبارك وتعالى: ومن يفعل ذلك ابتغاء مرضا بَن سوء نوتيه أجرًا عظيماً قال الفخر الزاهي: والمعنى أن هذه الأقسام الثلاثة من الطاعات وإن كانت في غاية الشرف والجلالة إلا أن الإنسان إنها يتنفع بها إذا أُتى بها لوجه الله ولطلب مرضاه، فلما إذا أتى بها للربى والسمعة انقلبت القضية.
فصارت من أعظم المفاسد، وهذه الآية من أقوى الدلائل على أن المطلوب من الأعيال الظاهرة رعاية أحوال القلب في إخلاص النية، وتصفية الداعية عن الالتفات إلى غرض سوئ طلب رضوان الله تعالى ونظيره قوله تعالى: "وَمَا أَمْرُوا إِلَّا لِيُعَبُّدُوا اللَّهَ مَنْ خَلَصَهُ الَّذِينَ كُتَبَ عَلَيْهِمُ الْكِتَابُ وَلَكُمْ الْهِيَبَةُ إِلَّا مَا سَعَىٰ وَقُولِهِ عَلَى الْصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ إِنَّهَا الأَعْيَالَ بَالْنِيَاتِ. إِهَـ"
قال تعالى: ﴿وَمَن يَشْقَاقِي الرَّسُولَ مَنْ بَعْدَهُمَا تَبْيِينَ لَهُمُ الْهَدَايَةَ وَيَنْبِعَ عَنْهُمْ سَبِيلُ الْمُؤْمِنِينَ نُؤْلِهُ مَا تَولَّى وَصَبِيَّةَ جَهَنَّمَ وَسَاءَتَ مَصِيرًا. إِنَّ اللَّهَ لَا يُعْفَرُ أَن يُشَرِّكَ بِهِ وَيَعْفَرُ مَا مَادَّهُ ذلِكَ لِلنَّاسِ، وَمَن يُشَرِّكَ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا. إِنَّمَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إنَّذَا وَإِن يُدْعُونَ إِلَّا شَيَاطِينَ مَرِيدًا. لَعَنَّهُمُ اللَّهُ﴾

بعد أن ندد بالمحرفين عن منهج النبي المصطفى محمد ﻷالذين يبيتون ما لا يرضون من القول، وأثنى على المؤمنين الذين يحرصون على طاعة الله وطاعة رسوله محمد ﻷالذين لا يستعملون ألسنتهم إلا في الثناء على الله ورفع عباده، شعر هنا يندد بمبن يشاقق الرسول محمدًا ﻷالوحرف عن منهج المؤمنين ويتوعدهم بالحذالان في الدنيا وعذاب جهنم في الآخرة، حيث يقول تبارك وتعالى: ﴿وَمَن يَشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدُ مَا تَبْيِينَ لَهُمُ الْهَدَايَةَ وَيَنْبِعُ عَنْهُمْ سَبِيلُ الْمُؤْمِنِينَ نُؤْلِهُ مَا تَولَّى وَصَبِيَّةَ جَهَنَّمَ وَسَاءَتَ مَصِيرًا. إِنَّمَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إنَّذَا وَإِن يُدْعُونَ إِلَّا شَيَاطِينَ مَرِيدًا. لَعَنَّهُمُ اللَّهُ﴾.

فتصبح في شق وجانب معد للشق والجانب الذي فيه رسول الله ﻷاله شريعته وهديه، من بعد ما ظهر له الحق واضح، وتبين له أن ما جاء به الرسول ﻷاله لا يستطيع أحد من البشر أن يأتي به من عند نفسه، وأصل المشاقة والشقاق يرجع إلى معنى الخلاف والعداوة، فمن عادى رسول الله ﻷاله فإن الله خاذله لا مغزولاً في الدنيا، ومصيبه نار جهنم في الآخرة، وكذلك من خرج على جماعة المسلمين، وسلك طريقاً ومنهجاً غير طريقهم ومنهجهم فإن الله عز وجل خاذله لا مغزولاً في الدنيا ومصيبه نار جهنم في الآخرة، ولو قال قائل: هل هناك فرق بين مشاقق الرسول وبين اتباع غير سبيل المؤمنين قلناً: من عادى نصوص الكتاب والسنة كان مشاققاً لرسول الله ﻷاله ومتبعاً لغير سبيل المؤمنين لأن أصل سبيل المؤمنين هو متابعة نصوص الكتاب والسنة. وقد
يجد للمؤمنين قضايا بعد رسول الله ﷺ لا يكون منصوصاً على حكمها في الكتاب أو السنة ويجمع فقهاء المسلمين على حكمها فإن هذا الإجماع يكون حجة مستقلة لا يحل لسلم أن يخالفه؛ لأن المسلمين لا يجتمعون على ضلالة أبداً حيث عصمهم الله ﷺ وجل من الاجتياع على الباطل، فمن خالف إجماع فقهاء المسلمين أهل السنة والجماعة أتباع أبي بكر الصديق وعمر الفاروق وعثمان ذي النورين وعلي بن أبي طالب وسائر أصحاب رسول الله ﷺ ومن تبعهم بإحسان فقد استبعذ غير سبيل المؤمنين واستحق هذا الوعيد الشديد من خذلان الله ﷺ في الدنيا وعذاب جهنم في الآخرة، قال ابن كثير رحمه الله في تفسير هذه الآية: قوله: "وَيَبْنُغَ غَيرِ سِبْلِ الْمُؤْمِنِينَ" هذا ملازم للصفحة الأولى، ولكن قد تكون المخالفة لنص الشارع، وقد تكون لما اجتمعت عليه الأمة المحمدية فيما علم اتفاقهم عليه تحقيقاً، فإنه قد ضمنت لهم العصمة في اجتياعهم من الخطايا، تشريفاً لهم، وتعظيمًا لنبيهم. وقد وردت أحاديث صحيحة كثيرة في ذلك قد ذكرتا منها طرفًا صالحاً في كتاب أحياث الأصول، ومن العلماء من أدعى تواثر معناها، والذي عرَّّف عليه الشافعي رحمه الله في الاحتجاج على كون الإجماع حجة تحرم محلته هذه الآية الكريمة، بعد التروي والفكر الطويل، وهو من أحسن الاستنباطات وأقواها اه ومعنٍ قوله عز وجل: "فَنُؤْلِهُمْ مَا تَوَلَّىَ أي نكله إلى ما اختار لنفسه، ونخدله. ولا نستدد، بل نجعله ولياً لما تولاه من الضلال ونخل به بينين هواه، ولا شك أن من وكل إلى نفسه وهواه تاء في بيده الضلال، ووضع في صحراء الغريه، والسعيد من استعمله الله ﷺ وجل في طاعته، وتفضل عليه بتأييده وتوفيه، فأناب إلى ربه، وأسلم وجهه إلى بارته وخلقته وتضرع إلى مولاه وقال: ياخي ياقيم يابدئ السموات والأرض ياذا الجلال والإكرام، رحمتك أ نغيث فأصلح لي شأني كلله ولا تكلني إلى نفسي أو إلى
أحد من خلفيّ طرفة عين، فإنك إن وكتني إلى غيرك وكئتني إلى عجز وضعف وفاقة. ومعنى قوله عز وجل: ۛوَضُرِّبِهِ جِهَنَّمُ وَسَاءَتُ مصْرِيًا. ۚ أي ونجعله صلاء نار جهنم يعني: ندخله فيها ونحرقه بها، وساءت جهنم لأهلها الذين صاروا إليها مصرياً ومسكننا ومأوري. وقوله عز وجل: ۛإِنَّ اللَّهَ لا يغفر ۖ أَن يُشْرِكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دَوَنَ ذَلِكَ مِنْ يَدَّاءٍ، وَمَن يُشْرِكَ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضُلَّالًا بَعِيدًا. ۚ هذا ترهيبٌ من الاستمرار على مشاقة الرسول واتباع غير سبيل المؤمنين، وترغيبٌ في الرجوع إلى الله عز وجل وطاعة رسوله ﷺ واتباع سبيل المؤمنين، وتقدم تفسيرها عند الحديث على قوله عز وجل: ۛإِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ ۖ أَن يُشْرِكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دَوَنَ ذَلِكَ مِنْ يَدَّاءٍ، وَمَن يُشْرِكَ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضُلَّالًا بَعِيدًا. ۚ هذا بيان للضلال البعيد الذي تأخيه المشركون بسبب انحرافهم وبعدهم عن منهج رسول الله ﷺ واتباعهم غير سبيل المؤمنين الذين لا يعبدون إلا الله ولا يشركون به شيئاً، فقد انحصرت عبادة هؤلاء المشركين في تناقضات دعاهم إلى إبراهيم وجنوده من مردة الشياطين، فعبدوا الملائكة وجعلوه إناثاً وقالوا: هم بنات الله، واتخذوا الأصنام وأطلقوا عليها أسماء الإناث كالمغررة ونائمة ونائنة، مع أنهم كانوا يكرهون البنات، وإذا وولدت امرأة أحدهم أ então أسود وجهه. وقد يهجر بيتها من أجل بنتها التي ولدتها.

كما قالت إحداهن:

ما الأبي حزرة لا يتأتيني يظل بالبيت الذي يليها غضبان أن لا تلد البنين وهم في جميع ما يعبدون وهم من هم منتقدرون متردون، لا يجمعون إلا في فعامة واحدة وهي انقاداتهم للشيطان المريد، الذي أوقعهم في الضلال البعيد، وقد كان بعضهم يعبدون أصناماً يجعلون بعضها لجلب الخير.
وبعضها لدفع الضر وبعضها للانتقام، وبعضها لغير ذلك، وكانوا إذا مروا بواحدة منها سجداً لها وتضرعوا إليها وبكوا عندها، فإذا مروا بأخرى خجلوا أن يبكوا عنها لبكائهم عند الأولى كأنها جارتن متباعضتان رضا إحداهما في سخط الأخرى كأنا الشاعر:

وكيف ترى ليل بين ترى يا سواها وما طهَّرتها بالمدامع فقد روى البخاري ومسلم من طريق عروة عن عائشة رضي الله عنها قالت: أرأيت قول الله تعالى: "إِنَّ الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يتطوَّف بِهَا" قالت: فوَّالله ما على أحد جناحٍ أَلا يتطوَّف بِهَا، فقالت عائشة: بس ما قالت بابن أختي، إنها لو كانت على ما أؤمنها عليه كانت: فلا جناح عليه أن لا يتطوَّف بِهَا. ولكنها إنها أنزلت في الأنصار: كانوا قبل أن يسلموا يهلون لمناة الطاغية التي كانوا يعبدونها عند المشتَّل، وكان من أهلها ما يتحرج أن يتطوَّف بالصفا والمروة، فسألوا عن ذلك رسول الله ﷺ فقالوا: يارسول الله إننا نتحرج أن نتطوَّف بالصفا والمروة في الجاهلية، فنزل الله عز وجل "إِنَّ الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يتطوَّف بِهَا" الحديث. وإذا كانوا يتحرجون أن يتطوَّفوا بالصفا والمروة من أجل إساف ونائلة المنصوبتين على الصفا والمروة فقد روى السني الذي نسب قوياً إلى زيد بن حارثة قال: كان على الصفا والمروة صنان من نواس يقال لها: إساف ونائلة وقال الحافظ ابن حجر في فتح الباري: وروى الفاقي وابن عابِيل الفاضلي في الأحكام بإسناد صحيح عن الشعبي قال: كان صنف بالصفا يُدعى إساف وبئس بالمروة يُدعى نائلة الموت وقد وَيَبِلَ الله تبارك وتعالى المشركون الذين يرضون بعبادتهم للإنسان وهم يكررون الإنسان حيث قال عز وجل: "وَيَجِيلُونُ اللَّهُ الْبَنَاتِ سَبَحَانَهُ وَلَمْ يشتهونَ" وإذا بشر أحدهم بالأنثى.
ظل وجهه مسوداً وهو كظيم. يتوارى من القوم من سوء ما بشر به،
 أيَّمِسْكُهُ عَلَى هُوَ أَمْ يَذْهَبُهُ في التراب، ألا ساء ما يحكمون. للذين لا
يؤمنون بالآخرة مثَّل السوء وله الظلم الأعلى، وهو العزيز الحكيم. ولو يأخذ
الله الناس بظلمهم ما ترك عليها من دابة ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى فإذا
جاء أجلهم لا يستأنرون ساعة ولا يستقدمون. ويجعلون الله ما يكرهون.
وكما قال عز وجل: "أم أتخذه ما يخلق بنات وأصفاق بالليلين. وإذا بشر
أحدهم بما صرح للرحمن مثلاً ظل وجهه مسوداً وهو كظيم. أو من ينضى في
القليلية وهو في الخصام غير مين. وجعلنا الملائكة الذين هم عباد الرحمن
إناثاً أشهدوا خلقهم، سكنَّتْ شهادَحتهم ويسألون. " وكما قال عز وجل:
 فاستفته آلريق البنات وهم البنون. أم خلقنا الملائكة إناثاً وهم
شاهدون. ألا إنه من إنفِّكهم ليقولون. ولَّد الله وهم لكاذبون. أصلفْي
البنات على البنين. مالكم كيف تحكمون. أَفَلا تَذَكَّرُونَ. " وكما قال عز
وجل: "أَفْرَأَيْتَم اللات والعَزرَى. ومنة الشاذلة الأخرى. أَلْكَم الذكر وله
الأنثى. تلك إذا قسمة ضيَّرة. إن هي إلا أساءاً سِمَّيتُوها أتم وآباؤكم ما
أنزل الله بها من سلطان، إن يَتَبَيَّنَون إلا ظنُّ وما تُهُوَ الأنسُ ولقد جاءهم
من رحم الهدى. أَم للإنسان ما تمَّى. فله الآخرة والأولى. وكم من ملك في
السموات لا تغني شفاعتهم شياً إلا من بعد أن يأذن الله للذين يشاء ويضقي.
إن الذين لا يؤمنون بالآخرة ليُسَمِّون الملائكة تسمية الأنثى. وماهم به من
علم إن يَتَبَيَّنَون إلا ظنُّ و إن ظنُّ لا يغني من الحق شياً. " وقوله تبارك
وتَعَالَى: "وإن يَدْعُون إلا شيطانًا مَرْبَدًا. لعنه الله " أي وما يعبد هؤلاء
المشركون في الحقيقة إلا شيطانًا متمرداً قد أخزاه الله وطرده من رحمته وأبعده
عن كل خير، وقد أغرى على من تولاه أنه يضله ويهدئه إلى عذاب النار كما قال عز
وجل: "ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ويتبع كل شيطان مريدٍ.

433
كُتِبَ عليه أنه مَن تَولَّاه فَقَلِلَهُ ويَجِّه إلى عذاب السعير. فَإِن تعجب
فعجب أن يلعب الشيطان بعقل بعض من يتسبب إلى الإسلام حيث
وجدت في بلادهم بنات من قبائل وأضرحة يزعمون أن تحتها وليًا يستغيثون
به وينذرون له ويدعونه كما يدعو المؤمنون الواحدة القهار، والكثير من هذه
الأبنية لا شيء تحتها وإنها هي حبائل الشيطان قد نصبها أولياؤه، وحتى لو
كان تحتها عبد صالح ما جاز لمسلم أن يتخذه شريكًا لله، تعالى الله عما
يشيركون.
قال تعالى: «وَقَالَ لَأَخْذُونَ مِنْ عَبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا. وَلاَ صَلَحُهُمْ وَلاَ مَرَّتِهِمْ فَلَيُنْفِكْنَ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَا مَرَّتِهِمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقِ اللَّهِ»، وَمِنْ يَنْتَخِبُ شَيْطَانًا وَلَيْنًا مِنْ ذُو الْأَنفُسِ فَقُدْ خَسَرَ خَسَارَةً مَّيْسِيًا. يَعْبُدُهُمْ وَيَمْنُونَهُمْ وَمَا يَعْبُدُهُمْ شَيْطَانُ إِلَّا وَخُرُورًا. أُولَئِكَ مَارَوْا هُمْ جَهَنَّمَ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا أَحْيًٍا. وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتَ سُنُدْ جَهَنَّمَ جَنَّاتٌ جَبَلٌ مَّيْسِيًا مِنْ تَحْيَاهُمْ الأَنْفُسُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبْدًا وَعَدَّ اللَّهُ حَقًّا، وَمَنْ أَصْدَقَ مِنْ اللَّهِ يَقِلاً.»

بعد أن بَيْنَ تَبَارَك وَتَعَالَ أنَّ المُشَرَّكِينَ في ضَلالٍ بَعِيدٍ، وَأَنَّهمْ نَاهُوا عَنْ منهج الرَّشْد بَيْنَ انْقِدَامِهِمْ لِلشَّيْطَانِ الَّذِي جَعَلُهُمْ يَعْبُدُونَ مَنْ جَعَلَهُ إِنَاثًا مِنْ كَرَهِهِمْ لِولاَدَةِ الإِناثِ وَأَنَّهُمْ فِي الْحَقِيقَةِ لَا يَعْبُدُونَ إِلَّا الشَّيْطَانُ الَّذِي لَعْنَهُ اللَّهُ وَأَخْزَاهُ وَبَعَدهُ عَنْ طَرِيقِ الْحَيْرِ شَرًّا بِيَنِىْ لِلنَّاسِ خَطَوَاتِ الشَّيْطَانِ لِيَحْذِرُ مِنْ بِرَيَدِ الْحُكْرُ لَنَفَسِهِ أَنْ يَتَبِعَ هَذِهِ الْخَطَوَاتِ الشَّيْطَانِيَةِ الَّتِي تَلْقَى بِهِ مِنْ يَسِيلَكُهَا فِي بِيْدَةِ الغَرَايِةِ وَالْحِيَرَةِ وَالضَّلَالَةِ فَقَالَ عَزُوَّ جَلَّ لَّهُ: «وَقَالَ لَأَخْذُونَ مِنْ عَبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا. وَلاَ صَلَحُهُمْ وَلاَ مَرَّتِهِمْ وَلاَ مَرَّتِهِمْ فَلَيُنْفِكْنَ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلاَ مَرَّتِهِمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقِ اللَّهِ» وَمَعْنَى: «وَقَالَ لَأَخْذُونَ مِنْ عَبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا.» أَيْ وَقَالَ الشَّيْطَانُ مُؤَكَّدًا كَلَامَهُ بِالقَسْمِ: لِأَسْتَوَلِينَ عِلْيًا مُقَدَّرٌ مِنْ عَبَادِكَ بَوْسُوَتِي وَلَا جَعَلُهُمْ يَنْفَدُونَ لَيْ وَبَيْنَوْنَ تَحْتَ لَوْاثٍ وَرِاُيَةٍ وَيَصِبُروْنَ مِنْ حَزَّبٍ وَيَأْمُرُونَ بِالأَمْرِ وَيُجْرِهِمْ إِلَى مُرَادِي كَمَا يَجِرُّ البَيْتُ إِلَى مَا اسْتَرَغَهُ حَذَاءُ الْرَّسُّ نَفْهَا وَقَادَاهَا حَيْثُ يَشَاءَ، وَإِنْ كَتَبَ لَ أَتَسْلِلُ عَلَى الْمُخْلَصِينَ مِنْ عَبَادِكَ الَّذِينَ أَخْلَصَلَهُمْ لَنَفَسَكَ فَأَخْلَصَوْا الْدِينَ لَكَ وَقَدْ أَنَّ أَلِبِيْسَ هَذَا الإِلَهَانُ عَنْدَمَا لَعَنَّهُ اللَّهُ وَبَعَدهُ مَرَضَمًٌ وَفِي نَفْسِهِ أَمِيَّةً وَعَلَى صَفْوِهِ وَمَغْفِرَتِهِ، وَتَلْبِيَ المَهَلَةَ وَالْإِنْطَرَالَ إِلَى يَوْمِ الْمَجِيدِ، وَإِلَى ذَلِكَ يَشَىَ اللَّهُ تَبَارَك وَتَعَالَى فِي
مواضع من كتابه الكريبي حيث يقول: «ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قُلْنا للملائكة اسجدوا لأَدَم فسجدوا إلا إيليس لم يكن من الساجدين. قال ما منعك إلا تُسجِدَ إذ أمرُوك؟ قال أنا خير منه خلقتي من نار وحلقته من طين. قال فاهبط منها فإِن تكون ذلك أن تكون فيها فاختر إِنك من الصاغرين. قال انظري إلى يوم يبعثون. قال إِنْك من المنظرين. قال فِيَّا أغْويَتْنِي لأَفْعَصدُنِهم صراطك المستقيم. ثم لايتِهِم من بين أبيديهم ومن خلْفِهِم وعن أَيامهم وعن شِياءهم ولا تُجْدَ أَكْثَرُهُم شاكرين. قال اخرج منها مَدَحُورًا مذَّعَورًا لِنْ تَبَكَّرَ بِهِم لأَمَّالم جِهَالُ منكم أَجْعِين.» وقُل في سورة الحجر: «إِذ قَالِ رَبِّك للملائكة إِنِّي خَالِقُ بُشْرًا مِن حَمَاس مسَّنَوْن. إِذَا سَوَىَتْهُ ونفِختُهُ فِي مَرْوُحيَةٍ فَقَعَعْوَا لِهِ الساجِدُين. فَسَجَدَت الملائكة كَلْهُم أَجْعِينَ. إِلا إِيليس أَتى أن يكون مع الساجدِين. قال يابَليس مَالِكُم أَلا تَتَوَكَّنُونَ لِسَاجِدًا خَلْقَهُ مِن صُلُصَالٍ مِن حَمَاس مسَّنَوْن. فَقَالَ فَاخْترَ إِنْكَ رَجِيمٌ. وَإِنَّ اللَّهُ يَلِعَ اللعنة إلى يوم الدين. قال رُبَّ أَنْظَرْنِي إلى يوم يُبْعَثُونَ. قال إِنْك من المنظرين. إِلَى يوم القيامة. قال رُبُّ مَا أَغْويَتْنِي لأَرْكَبَنَّهُم في الأَرْضِ وَلَأَغْويَتْنِهِم أَجْعِينَ. إِلا عَبَادُك منهم المنى. قال هَذَا صراط عَلَيّ مستقيمٍ. إِنْ عِبادي ليس لك عليهم سلطان إِلَّا من أَتَبَكَّر مِن الغَاوِين. إِنْ جَهِنم لَمْ يَوْعَدُهُم أَجْعِينَ. هَا سَبِعَة أَبَاب لِكُل باب منهم جَرَّةٌ مَقَسُومٍ.» وَقَالَ عَزِيز لِشِيَاطِينِ: «وَإِذ قَلَّنا للملائكة اسجدوا لأَدَم فسجدوا إِلا إِيليس قَال أَسجِدُ مِن خَلْقَة طينَ. قال أُرَأيْت أَنَّ الَّذِي كَرَّمَتَ علَيّ لَنُحْرِتُ إِلَى يوم القيامة لَأَكْتَبَنَ ذُرِيَّتي إِلا قَلِيلًا. قال أَذِهِبَ فَمِن تَبَكَّرُ منهُمْ إِنْ جَهِنم جَزَأَوكُم جَنَّةٌ مَّؤُودةٌ. واستفزَرَ من استطعت منهم بصدقك وأَجْلِبُ عَلَيْهِم بِخِيلك وِرَجْلِك وَشَارُكِهِم فِي الأَمْوَالِ وَالْوَلَادِ وَعَدُّهُمْ وَمَا
يعدهمُ الشيطانُ إلا غروراً. إن عبادي ليس لك عليهم سلطانٌ وكفى برك
وبكلاً. وقوله: "ولاَضِلَّلْهُمْ« أي وواهله لأوقعنهم في الخيرة والشک
والضلالة والبعد عن الصراط المستقيم ولازلَّل قلوبهم بالوسوسة ولأصرفُهم
عن أسباب الفوز بجنات النعيم، وأحلَّهُم على العمل بما يوقعهم في
دركات الجحيم. وقوله: "ولاَضِلَّلْهُمْ« أي وواهله لأزيغن قلوبهم عن الهندى
وأمليهم بالغروب ولأخذتهم بالأمان الكاذبة، ولأعلقن نفوسهم بها يلبِّهبهم
عن أسباب سعادتهم حتى تأتيهم منهاهم قبل أن يدركوا أمانيهم، بل قد
تكون منيتهم في أميتهم. وقوله: "ولاَكِرِمْنَّهُمْ فَلَمْ يَكْتُنِ_De...".
وقوله للنورِهم بتشقيق آذان الأعماَم لجعلها بحيرة يتقربون بها للأصنام
فيشقِّقها، وقَدْ نِتْذَ الله ببارك وتعالى بمن فعلى ذلك حيث قال: "ما جعل
الله من بحيرة ولا سافية ولا وصيلة ولا حام ولَّكِن الدين كفر النفل يفترون على الله
الكذب وأكثرهم لا يعقلون." وقوله ببارك وتعالى: "ولاَكِرِمْنَّهُمْ فَلَمْ يَكْتُنِ De...".
أي وواهله لأرمين بتغيِّر خلق الله وتبديل فطرة الله التي فطر الله الناس
عليها فليغرين ذلك استجاباً للوسوسة التي أمالا بها صدورهم. ولم كان
tغيِّر لفظاً مجمولاً بينت السنة النبوية ما يكون من التغيِّر مشروعاً وما يكون
منوعاً. فمن التغيِّر المشروع الختان وحلق العانة وقص الشارب وتقليم
الأظافر ونطف الإبط وصبع شعر الرأس واللحية بالورس والزعفران أو بالحناء
أو بالحناء والكتم، ومن التغيِّر الممنوع يعتبر من عمل الشيطان حلق بعض
رأس الصبي وترك بعضه، المعروف بالقفز والواصلة والمستوصلة والواشحة
والمستوشعة والتنمُّصات والمتفجِّرات للحسن فقد روى البخاري ومسلم من
حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: القفرة خمس: الختان
 والاستحصاد، وقص الشارب، وتقييم الأظافر، ونطف الإبط، كما روى
البخاري ومسلم من حديث ابن عمر رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال:

438
من هذا، ثم مر آخر قد خضب بالصفرة فقال: هذا أحسن من هذا كله.
وقوله تعالى: «ومن يتخذ الشيطان وليًا من دون الله فقد خَيَّرْ خَيْرًا مُبِينًا.» أي ومن يتخذ للشيطان ويكفر بالرحمن فقد أفسد دنياه وآخرته.
وقوله تعالى: "يُعَدُّهم وَيُمْتَسِهِمْ وما يَعْدُهُمُ الشيطان إلا غرورًا." أي يُقِلُّ الشيطان في نفس أوليائه الوعود الكاذبة والأمانة الباطلة حتى إذا حصص الحكّ تبرأ منهم واندحر الشيطان وأولياؤه إذا قال عز وجل:
"وقال الشيطان لما قضى الأمر إن الله وعدكم وعهد الحقّ ووعدكم فأخلفتمكم وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعواكم فاستجتари في فلا تلوموني وَلْوَمُوا أنفسكم" ولذلك قال عز وجل هنا: "وَمَا يَعْدُهُمُ الشيطان إلا غرورًا." أي وما يلقى الشيطان في نفس أعداء الله من وعود الكاذبة وأمانة الباطلة إلا الغرور والخداع الذي لا يحصلون من ورائه إلا على النكد والنصب، وصاروا كالذي يطلب السراب كما قال عز وجل: "والذين كفروا أعْلَاهُم كَسَرَابٍ يُقِعُّهُ الظَّانَ مَا إِلَى إِذَا جاءَهُ لم يَبْدِ شَيْناً وَوَجَدُ اللَّهُ عَنْدَهُ حَسَابَهُ، وَالله سُرِيعُ الحساب." وقوله تبارك وتعالى: "وَأَلَّك مَا أَوَاهُم جَهَنُمْ وَلَا يَجِدُونَ عَنْهَا خَيْصًا." أي هؤلاء المتقدمون للشيطان مصيرهم ومرجعهم إلى جهنم ولا يستطيعون أن يجدوا مهرباً منها، وليس لهم عنها مفر ولا خلاص ولا مناص، وقوله تبارك وتعالى: "والذين آمنوا وعملوا الصالحات سندخلهم جنات يجري من تحتها الأمهر خالدين فيها أبداً وعد الله حقاً، ومن أصدق من الله قبلاً." هذا ترغيب في طاعة الرحمن بعد الترهيب من طاعة الشيطان، أي والذين صدقو الله ورسوله فأحقروا الله بالوحدانية ومحمد ﷺ بالرسالة وأدوا ما فرض الله عليهم، سيسكنهم الله عز وجل يوم القيامة فسيح الجنّان التي تحري من تحتها الأمهر حالة كونهم باقين فيها أبداً لا يرمون عنها ولا يتحولون منها، وهذا هو السوء الحك وليقين

439
الصادق؛ لأنه وعد من العزيز الكريم المقتدر ولا أحد أصدق وعدًا منه، وحديثه أصدق الحديث، ولذلك كان رسول الله ﷺ يقول في خطبه: إن أصدق الحديث كتاب الله، وخير الهدي هدي محمد ﷺ.
قال تعالى: «ليس بأماناميك ولا أمانة أهل الكتاب من يعمل شوأ يجز
به ولا يجز له من دون الله وليا ولا نصير. ومن يعمل من الصالحين من ذكر
أو أنثى وهو مؤمن فأنزله الله غفران ورحمة عزه وجله. ومن أحسن
دينًا من أسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة إبراهيم حنيفة، واتبع
الله إبراهيم خليلا. اللهم بما في السماوات وما في الأرض، وكن الله بكل شئ
محيطًا.»

بعد أن بين تبارك وتعالى أن من أهم خطوات الشيطان إلقاء الأموات
الكافية في قلوب الناس شرع هنا يقرر القاعدة المانعة الجامعة التي تدير
الطريق الحق أمام السائلين وتكشف لهم الفرق بين أماني المغرورين وبين ما
يتناسه المؤمنون، حتى يعرف الفرق بين الأماني الكاذبة والواقع الرحبية، فمن
ينى مشتهياته على الأماني الكاذبة والواقع الرحبية التي يلقبها
الشيطان في نفسه ويغره بها فهو كسراب بقية يحسب الظاهرين ماء حتى إذا
جاءه لم يجد شئًا ووجد الله علجه فوفاه حسابه ومن أمثلة ذلك ما توجه
المشركون من أن أصنامهم تنفعهم وتشفع لهم عند الله فإذا جاءوا يوم القيامة
تبرأ الذين أتىوا من الذين أنتمعوا ورأوا الذهاب تتقلط بهم الأسنان،
وذلك ما ألقاه الشيطان وأعوانه في نفس أهل الكتب أن له يدخل الجنة
إلا من كان هودًا أو نصارى كما أشار إلى ذلك تبارك وتعالى حيث يقول:
وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هودًا أو نصارى، تلك أماناً له، قال
هاتوا بهرانكم إن كنتم صادقين. ومن أمثلة ذلك أيضاً ما يتمناه بعض من
ينسب إلى الإسلام من رضا الله وهو لا يصلي ولا يصوم ولا يؤدي حقوق الله
ولا حقوق عباده ويطن أن مجرد انسابه إلى الإسلام يكفيه دون أن يعمل
بعمل أهل الإسلام، ولذلك لم يكن الإيمان بالتمني ولكن بها وقر في القلب
وصدقه العمل، وقد روى الترمذي وقال حديثٌ حسنٌ عن شداد بن أوس عن النبي ﷺ قال: الكَيْس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والعجز من أتبع نفسه وراءه وتميظ على الله الأماني. وفي ذلك يقول تبارك وتعالى هنا:

١. ليس بأمانيك ولا أماني أهل الكتاب، من يعمل سوءًا يجزيه ولا يجزوه
من دون الله وليًا ولا نصيرا. ومن يعمل من الصالحات من ذكرٍ أثر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيباً. أي ليس الدين والأجته
بشهوات الناس وجنيناتهم وأهوائهم المنحرفة عن دين الله ورسوله ﷺ، ولو اتبع الحق أهواءهم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن، بل الدين الحق
هو ما أنزله الله تبارك وتعالى في كتابه، وجاء به رسوله وسيد خلقه ﷺ،
وحاسب الحلالات وثوابهم وجزاءهم عند الله إنها يكون بها يضعه الله عز وجل
من موازين القسط يوم القيامة فمن يشرك بالله عز وجل ويرتكب السوء فإن
الله تبارك وتعالى يجزيه بذلك ولا يستطيع أحدٌ كائناً من كان أن يدفع عنه من
عذاب الله شيئاً مهما كانت صلته به في الحياة الدنيا فلا يجد قريباً أو حبيباً له
أو نصيراً ينصروه من عقاب ربه، ومن أمن بالله وكتبه ورسله وعمل بطاعة الله
وطاعة رسوله وسيد خلقه ﷺ سواء كان هذا المؤمن ذكراً أو كان أنه
فهؤلاء المؤمنون الذين عملوا الصالحات يدخلهم الله عز وجل في
رحمه، ويسكنهم فسبيح جناته، ولا يضيع من أعمالهم الصالحة مقدار نقي أو
وزن نقي وهو النقرة التي في ظهر النواة، بل كل من جاء بالحسنة فله عشر
أمانها إلى أضعاف كثيرة ومن جاء بالسيئة فلا يجزي إلا مثلها، ولا يظلم
ربك أحداً، وقد روى مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: لما
نزلت ﴿من يعمَّل سوءًا يجزيه، ولا يجزئه﴾ بلغت من المسلمين مبلغًا شديداً، فقال
رسول الله ﷺ: قاربا وسددوا ففي كل ما يصاب به المسلم كفارة حتى
النكبة ينكبها أو الشوكة يشاكها، ثم بين تبارك وتعالى الدين الحق الذي لا

٤٤٢
يقبل من أحد دينًا سواء، وهو الخنفية السمحية دين الإسلام ملة إبراهيم إمام الخلفاء وخليل الرحمن، الذي بعث الله به سيد خلقه، وأفضل رسله، محمدًا ﷺ، وأكمل له الدين، وأتم به النعمة، أتاه الشريعة الوافية الشافية الكافية الباقية إلى يوم القيامة فقال عز وجل: "وَمَنْ أَحْسَنَ دُنْيَةً مِنَ أَسْلَمَ وَجَهْهَةَ نَعْمَةٍ" وهو محسن واتبع ملة إبراهيم حنيفاً، وأخذ بالله إبراهيم خليلاً. هذا بيان للفتيان الحق المراث لجنتين التعيم ورضوان رب العالمين، المشتغل على إظهار كيال العبودية والخضوع والانقياد الله تعالى الموفق لما بعث الله تعالى به رسوله وأنزل به كتبه وأوحى إلى خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام وقد أشار الله تبارك وتعالى هنا إلى الشرطين اللذين لا يقبل من عامل عملاً إلا بها، فالشرط الأول أن يكون العمل خالصًا لوجه الله الكريم خالياً من شواطئ الشرك، والشرط الثاني أن يكون هذا العمل صوابًا موافقًا لما شرعه الله عز وجل وبعث به رسوله ﷺ. ولهذا الشرطين يكون الاعتقاد حسنًا والعمل حسنًا، وقد أشار الله تبارك وتعالى إلى أن صحة الدين وحسنه لا يأتي إلا لتحقيق هذين الشرطين في غير موضع من كتابه الكريم كـ ذكر هنا وكيا في قوله عز وجل: "وَمَنْ يَسْلِمْ وَجِهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مَحْسنٌ فَقَدْ أَسْتَمِسَّكَ الْعَرْوَةَ الْوُقُوْفِ، وَإِلَى اللَّهِ عَنْاَبَةَ الْأَمْوَرِ" ومعنى قوله عز وجل: "وَمَنْ أَحْسَنَ دُنْيَةً مِنَ أَسْلَمَ وَجَهْهَةَ نَعْمَةٍ" أي لا أحد أحسن دينًا من اتخاذ واحترام العمل لربه عز وجل ولم يشرك بالله شيئاً حالًا كونه محسناً فيها يعمل فلا يتقيد بين يدي الله ورسوله ولا يعمل إلا بما شرعه الله عز وجل بيا أنزله في كتابه أو بعث به رسوله ﷺ، وكان على ملة إبراهيم عليه السلام الذي كان أمة قاتنة الله حنيفاً ولم يك من المشركين. كما قال تبارك وتعالى: "ثَمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ أَتَبَيِّنَ مَلَأَهَا إِبْرَاهِيمُ حَنِيْفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ.

والخنفية هو المائل عن الشرك قصداً على بصيرة من ربع المقبل على الحق

443
بكلّيته لا يرده عن ذلك رأده ولا يصده عن سبيل الله صادق. وقوله تبارك وتعالى: "وَاتَّخَذَ الَّذِينَ أَتَّخَذُونَ خَلِيلًا، ۚ هَذَا بِيَانٌ لِمَنْ زَلَّلَ الْيَوْمَ الْأَخِيرَ، وَإِنْ درَجَتِهَا ائتِهُوَ لِقِدْرَةِ الْحَكْمَةِ الّتِي هِي أَرْفَعُ مَفَاسِدَ الْحُبَّةِ وَالْاصْطِفَاءَ، وَأَعْلَى دِرَجَاتِهَا، قَالَ البِخَاَرِي في طَيِّبَة: خَدُّصَنَا سُلَيْمَان بِحَرب حَدِيثَةٍ شَعُبَة عن حِبْسِب قَدَمَ اليمين صلى بهم الصبح فقرأ،: وَاتَّخَذَ الَّذِينَ أَتَّخَذُونَ خَلِيلًا، ۖ فَقَالَ رَجُلٌ مِنَ الْقُوَّمِ: لَقَدْ قُرِيَ عِنَّـا إِبْرَاهِيم، وَقَدْ ثَبِتَ أَنَّ الله عز وجل قد اتَّخَذَ عَمَّا كُنْتُمْ عِندَهُ حَمَّارًا، كَيْ اتَّخَذَ إِبْرَاهِيم خَلِيلًا فَقَدْ رَوَى مُسْلِمُ بِصِحَاحِهِ مِن حَدِيثي ابْنِ عبدُ اللَّهِ بِنِ مُسْعُوْدِ رَضي الله عَنْهُ عَنْ النَّبِيِّ رَسُول اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قال: لَوْ كَتَبْتَ مَتَخَذَ خَلِيلًا لَأَتَخَذَت أَبَا بَكْر خَلِيلًا وَلَكِنَّهُ أَخَي وَصَاحِبِي، وَقَدْ اتَّخَذَ اللَّه عز وجل صاحبكم خليلًا، وقَالَ لَفظًا: لَوْ كَتَبْتَ مَتَخَذَ مِن أَهْلِ الْأَرْضِ خَلِيلًا لَاتَخَذَت أَبَا قَحَافة خَلِيلًا وَلَكِنَّ صَاحِبْكَ خَلِيلُ اللَّهِ. قَالَ ابْنَ أَبِي العرَّاق فِي شَرِيح العَقِيَدة الطَّحاوَيِّ عِنْدَ قِول الطَّحاوِيِّ رَحْمَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ: (وَحِييَّب رَبِّ الْعَالَمِينَ) ثَبَتَ لِهَا أَعْلَى مرَاطِبِ الْمَحْبَةَ وَهِيَ الخَلِيلَة، كَيْ سَجَّرَ عَنْهَا أَنَّهُ قَالَ: إِنَّ اللَّهِ اتَّخَذَ الَّذِينَ أَتَّخَذُونَ خَلِيلًا كَا اتَّخَذَ إِبْرَاهِيم خَلِيلًا. وقَالَ: وَلَوْ كَتَبْتَ مَتَخَذَ مِن أَهْلِ الْأَرْضِ خَلِيلًا لَاتَخَذَت أَبَا بَكْر خَلِيلًا وَلَكِنَّ صَاحِبْكَ خَلِيلُ اللَّهِ، وَالخَلِيلُ، وَالخَلِيلُ، فِي الصِّحَاحِ، وَهُمَا بِيِطَّالَ بُنْوَان قِولٌ مِنْ قَالَ: الخَلِيلُ إِبْرَاهِيم، وَالخَلِيلُ عَلِيّ رَسُول اللَّهِ صلى الله عليه وسلم، وقَدْ أَشَارَ رُسُول اللَّهِ صلى الله عليه وسلم إلى أَنَّ اللَّهَ تَبَارَك وَتَعَالَى فَضَلُّهُ عَلَى أَيْبَهُ خَلِيلُ الْرَّحْمن إِبْرَاهِيم عَلِيّهِ السَّلَامُ، فَقَدْ رَوَى مُسْلِمُ فِي صِحَاحِهِ مِن حَدِيثي ابْنِ عبدُ اللَّهِ بِنِ مُسْعُوْدِ رَضي الله عَنْهُ كَانَتِي مَسْجِدَ نَعْدُل رَجَلَ يَصُلي، فَقَرَأَ قَرَاءَةً أَنْكَرَتْهُ عَلَيْهِ، ثُمَّ دَخَلَ أَخَرُ فَقَرَأَ قَرَاءَةَ سَوِى قَرَاءَة صَاحِبِهِ فَلَمْ تَقْضِيْنَا الصِّلاةَ دُخُلَنا جَعْلًا عَلَى رُسُول اللَّهِ صلى الله عليه وسلم، فَقَلَتْ: إِنَّ هَذَا قَرَاءَةً أَنْكَرَتْهُ وَدَخَلَ أَخَرُ فَقَرَأَ سَوِى قَرَاءَة صَاحِبِهِ، فَأَمَرَهَا رُسُول اللَّهِ صلى الله عليه وسلم فَقَرأ،
فَحَبِّسْنَ النََّبِيُّ شَأْنَهَا، فَسُقطَ فِي نَفْسِهِ مَنَكَّذِبّهِ وَلَا إِذْ كَنَّا فِي
الجَاهِلِيَّةِ، فَلَيۡ رَأَيۡ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ مَا قَدۡ غَشِيَّنَى ضَرَبَ فِي صَدَرِي فَفَضَتَ
عَرَقًا، وَكَانَتِ أَنْظُرُ إِلَى اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَرَقًا، فَقَالَ لِيَ: يَلِيَآ أَرۡسُلۡ إِلَى إِن أَقْرَأۡ
القُرۡآنَ عَلَى حَرَفٍ فَرَدَدتَ إِلَى إِن هُوۡنَ عَلَى أَميَّةٍ، فَرَدَتۡ إِلَى الَّثَانيَّةِ: أَقۡرُأۡ عَلَى
حَرَفٍٰنِ، فَرَدَدتۡ إِلَى إِن هُوۡنَ عَلَى أَميَّةٍ فَرَدَتۡ إِلَى الثَثَانِيَّةِ: أَقۡرُأۡ عَلَى سَبۡعَة
أَحۡرَفٍ، فَلَكَ بِكُلِّ رَّدَّةٍ رَّتَّبَتۡهَا مَسَأۡلَةً تِسۡأَلۡنِيَّهَا، فَقَلۡتۡ: اللَّهِ افۡغۡرَ
أَمَيۡةٍ، اللَّهِ افۡغۡرَ أَمَيۡةٍ، وَأَخَرَّتۡ الثَثَانِيَّةَ لِيۡومٍ يَرۡغِبُ إِلَى الَّخَلۡقِ كُلِّهِمْ، حَتَّى
إِبۡرَاهِيمَ ﷺ. كَيۡ أَشۡأَرۡ رَسَولُ اللَّهِ ﷺ كَذُٰلِكَ إِلَى إِن خَلۡتُ إِلَى أَنْ خَلَٰتُ إِلَيۡهِ أَعۡلَى مِن خَلَٰتِ
إِبۡرَاهِيمٍ عَلَى الَّسَلَّامِ، وَأَنَّ خَلَّةً إِبۡرَاهِيمٍ كَانَتِ مِن وَرَاءِ وَرَاءٍ فِي لِفُظُ لَسْلَمَ
مِن حَدِيدَةِ أَبِي هَرۡيْرَةٍ وَحَذِيفَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنۡهَا قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: يِهۡبَعُ
اللَّهُ تَبۡرَكُ وَتَعَالَى، فِي قَبۡوَمَ الْمُؤۡمِنِينَ حَتَّى تُذۡفِرۡهِمُ الْجَنَّةُ، فِي آتِيَنَآ إِنَّمَا
فِي قُولَهُ: يَأۡبَأَنَا إِسۡتۡفَتُ لَنَا الْجَنَّةَ، فِي قُولُهُ: وَهُلۡ أَخۡرِجۡكُمۡ مِن الْجَنَّةِ إِلَّا
خَطۡيَةً أَبۡيَكَمْ إِذَاٰمَ، لَسۡتُ بِصَاحِبِ ذَلِكَ، أَذَهَّبُوا إِلَى إِبۡنِ إِبۡرَاهِيمِ خَلِيلِ اللَّهِ
قَالُ: فِي قُولِ إِبۡرَاهِيمَ: لَسۡتُ بِصَاحِبِ ذَلِكَ إِنَا كُنتُ خَليۡلًا مِن وَرَاءِ وَرَاءٍ
الحَدِيدَةِ. وَقَوۡلُهُ تَبۡرَكُ وَتَعَالَى: ﴿وَلَهُمَا فِي السَّمۡوَاتِ وَما فِي الْأَرۡضِ، وَكَانَ
اللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَيۡنًاَ﴾ قَالَ أَبُو جُعۡفَرُ: يَعۡنِي بِذَلِكَ جَلِّ ثَنَاؤُهُ: ﴿وۡ أَخۡذَ اللَّهُ إِبۡرَاهِيمَ خَلۡیۡلَهُ﴾ لِطَاعَتِهِ رَبَّهُ، وَإِخۡلَاصِهِ
العِبَادَةِ لِهِ، وَالْمُسۡارِعَةَ إِلَى رَضۡاهُ وَحَبِّهِ لَا مِن حَاجَةٍ إِلَيۡهِ وَإِلَى خَلۡتِهِ، وَكِفَۡ
يَجۡتَازُ إِلَيۡهِ وَإِلَى خَلۡتِهِ وَلَهُ مَا فِي السَّمۡوَاتِ وَمَا فِي الْأَرۡضِ مِن قِلۡبِ وَكِثۡیرَ مَلِکْاً،
وَالْمَالِكُ الَّذِي إِلَيۡهِ حَاجَةُ مَلِکَهُ دُونَ حَاجَتِهِ إِلَيۡهِ؟ۡ فَقُولُ: فَكَذَلَكَ حَاجَةٌ
إِبۡرَاهِيمٍ إِلَى، لَا حَاجَتِهِ إِلَيۡهِ فِي تَخۡذِهِ مِن أَجۡلِ حَاجَتِهِ إِلَيۡهِ خَلۡیۡلًا، وَلَكِنَّهُ
اتَخۡذَهُ خَلِيلًا لِمُسۡارِعَتِهِ إِلَى رَضۡاهُ وَحَبِّهِ، يَقُولُ: فَكَذَلَكَ فَسۡأَرۡعَعۡهَا إِلَيۡ رَضۡاۡيٍ
وَحَبِّهِ لَا تَخۡذَكُمۡ لِأَوَلِیاَۡ ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَیۡءٍ مُحۡیِيطًا﴾ وَلَمۡ يَزۡلِ اللَّهُ مِحۡيَٰطًا.
لكل ما هو فاعلُه عبادُه من خير وشر عامةً بذلك، لا يخفى عليه شيء منه،
ولا يعزب عنه منه مثلًا ذرة اهـ. والحمد لله رب العالمين.
الفهرس

الموضوع

تفسير قوله تعالى: "كل الطعام كان حلا لبني إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل على نفسه" الآيات الثلاث: 3
تفسير قوله تعالى: "إن أول بيت وضع للناس للذي بيئة مباركا" الآيتين. 9
تفسير قوله تعالى: "قل يا أهل الكتاب لم تكنون بآيات الله الآيات الأربع.

10 تفسير قوله تعالى: "يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته" الآيتين...

21 تفسير قوله تعالى: "ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر" الآيتين.

27 تفسير قوله تعالى: "يوم تبيض وجه وتسود وجه" الآيات الأربع.

33 تفسير قوله تعالى: "كم خير أمة أخرجت للناس" الآيات

39 الست.

تفسير قوله تعالى: "لا jeden كنوا لن تغني عنهم أمولهم ولا أولدهم من الله شيئا" الآيات الخمس.

40 تفسير قوله تعالى: "وإذ غدوت من أهلك تبؤؤ المؤمنين مقاعد للقتال" الآيات السبع.

51 تفسير قوله تعالى: "ليس لك من الأمر شيء" الآيات الخمس.

57 تفسير قوله تعالى: "وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنّة عرضها السموم والدوار" الآيات الأربع.

62 تفسير قوله تعالى: "قد خلت من قبلكم سنن فسبروا في الأرض".

447
الموضوع

الآيات الخمس.

تفسير قوله تعالى: "أم حسبتم أن تدخلوا الجنّة وَلَا يَعْلَمُ اللَّهُ الّذِينَ جَاهِدُوا مَنْ كَنَّا" الآيات الثلاث.

75 تفسير قوله تعالى: "فَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَغْوَى إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ" الآيات الأربع.

81 تفسير قوله تعالى: "يَا أُمَّاهُ الَّذِينَ آمَنَوْا إِن تَطِيعُوا الَّذِينَ كُفَّرُوا يَرَدوُمُ عَلَى أَعْقَابِكُمُ الآيَاتُ الأَرِبُعُ.

87 تفسير قوله تعالى: "إِذْ تَصْعَدُونَ وَلَا تَلْبَوْنَ عَلَى أَحْدٍ وَالرَّسُولِ يَدْعُوَكُمُ فِي أَخْرَاجِهَا الآيَاتِ التَّلْمِيذِينَ.

93 تفسير قوله تعالى: "إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مَنْ كَنَّا" يوم التنقي الجماعان الآيات الثلاث.

99 تفسير قوله تعالى: "فِي رَحْمَةٍ مِنْ اللَّهِ لِنَفْسِ هُمْ" الآيات الأربعة.

105 تفسير قوله تعالى: "وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغْلِبَ الآيَاتُ الْأَرِبُعُ الآيَاتُ السَّبْعُ.

111 تفسير قوله تعالى: "أَوْلَمْ أَصَابَكُمُ مَصِيبَةٌ قَدْ أَصِبَتْ مِثْلِهَا قَلْتُمُ الآيَاتُ الأَرِبُعُ.

117 تفسير قوله تعالى: "وَلَا تَحْسَبُ الَّذِينَ قَتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمَوَاتًا الآيَاتُ الأَرِبُعُ.

123 تفسير قوله تعالى: "وَلَا يَحْزِنَكُ الَّذِينَ يَسَارُونَ فِي الْكُفْرِ الآيَاتُ الْأَرِبُعُ.

130 تفسير قوله تعالى: "وَلَا يَحْسَبُ الَّذِينَ يَخْلُقُونَ بِآتَاهُمْ اللَّهَ فَضْلًا هُمْ الآيَاتُ الأَرِبُعُ.

136 تفسير قوله تعالى: "فَإِن كَذَّبُوكَ فَذُكِّبَ رَسُلٌ مِنْ قِبَلِهِنَّ البَيِّنَاتُ الآيَاتُ التَّلْمِيذِينَ الآيَاتُ الأَرِبُعُ.

142
الفصل

تفسير قوله تعالى: "وإذا أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبينه
للناس ولا تكتمونه" الآيات الأربع. 

148 تفسير قوله تعالى: "الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم
الآيات الأربع. 

154 تفسير قوله تعالى: "فاستجاب لهم رهيب أن لا أضيع عمل عامل
منكم من ذكر أو أنثى" الآيات الخمس.

160 تفسير قوله تعالى: "يا أيا الذين آمنوا أصابوا وصابروا ورابطوا
وتقوا الله لعلكم تفلحون"

166 تفسير سورة النساء:

173 تفسير قوله تعالى: "يا أيا الناس اتقوا ريكم الذي خلقكم من
نفس واحدة" الآية.

175 تفسير قوله تعالى: "وأتوا اليتامى أمواتهم ولا تبدلوا الحبيث
بالطيب" الآتين.

181 تفسير قوله تعالى: "وأتوا النساء صدقاتهن نحلة" الآتين.

187 تفسير قوله تعالى: "وأبنتها اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح" الآتين.

193 تفسير قوله تعالى: "وإذا حضر القسمة أولو القريب والeditary
والمساكين الآيات الأربع.

199 تفسير قوله تعالى: "ولكم نصف ما ترك أزواجكم إن لم يكن هن
ولد الآيات الثلاث.

206 تفسير قوله تعالى: "واللائي يأتيهن الفاحشة من نساءكم" الآيات
الأربع.

212
الصفحة

الموضوع

تفسير قوله تعالى: «يا أيها الذين آمنوا لا يجل لكم أن ترثوا النساء...» 218

تفسير قوله تعالى: «وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج» الآيات الثلاث. 223

تفسير قوله تعالى: «حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم» الآية. 229

تفسير قوله تعالى: «وللمحصنتين من النساء إلا ما ملكت أيانكم» الآية. 235

تفسير قوله تعالى: «ومن لم يستطيع منكم طولا أن ينكح المحصنات المؤمنات» الآية. 240

تفسير قوله تعالى: «يريد الله ليبين لكم ويهديكم سنن الذين من قبلكم» الآيات الخمس. 246

تفسير قوله تعالى: «إن تبتوا كبار ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم» الآية. 252

تفسير قوله تعالى: «ولا تتموا ما فضل الله به بعضكم على بعض» الآية. 258

تفسير قوله تعالى: «ولكل جعلنا مولي مما ترك والدان والأقربون» الآيتين. 264

تفسير قوله تعالى: «وإن خفتم شقاق بينهما فابتعوا حكما من أهل». 270

تفسير قوله تعالى: «وحكا من أهلها» الآيتين. 276

تفسير قوله تعالى: «الذين يخلون ويأمرون الناس بالبخل ويكتمون ما آتاهم الله من فضلهم» الآيات الثلاث. 282

تفسير قوله تعالى: «إن الله لا يظلم منثالا ذرة وإن تك حسنة يضاف لها» الآيات الثلاث. 288

400
تفسير قوله تعالى: «يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأئتم
سکارى» الآية. 288
تفسير قوله تعالى: «أَلِمْ تُرَى الَّذِينَ أُوتِوا نصِيَبًاٌ مِنَ الْكِتَابِ؟»
295
يشترون الضلالة الآيات الأربع.
تفسير قوله تعالى: «إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يَشْرَكَ بِهِ الآيات الثلاث»...
301
تفسير قوله تعالى: «أَلِمْ تُرَى الَّذِينَ أُوتِوا نصِيَبًاٌ مِنَ الْكِتَابِ يُؤْمِنُونَ
بالجبن والطاغوت» الآيات الخمس.
307
تفسير قوله تعالى: «إِنَّ الَّذِينَ كَفِرُوا بِآياتِنا سَوْفَ نَصْلِهِمْ نَارًا»
314
الآيات الثلاث.
تفسير قوله تعالى: «يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أطِيعُوا الله وأطِيعُوا الرسول
وأولِي الأمر منكم» الآية. 320
تفسير قوله تعالى: «أَلِمْ تُرَى الَّذِينَ يَعْمَونَ أَنْ هُمْ آمَنُوا بِأَنْزَلَ إِلَيْكَ وَمَا أَنزَلَ مِنْ قَبْلِكَ» الآيات الأربع.
326
تفسير قوله تعالى: «وَمَا أُرْسِلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ»
332
الآتيين.
تفسير قوله تعالى: «وَلَوْ أَنَا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنْ أَقْتَلُوا أَنْفُسَهُمْ أَو
اخْرَجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ» الآيات الخمس.
338
تفسير قوله تعالى: «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خَذَلُوا حَذَرُكُمْ فَانْفِرُوا ثَبِيَّنَ»
الآيات الأربع.
344
تفسير قوله تعالى: «وَمَا لَكُمْ لَتَقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ
مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ» الآتيين.
349
تفسير قوله تعالى: «أَلِمْ تُرَى الَّذِينَ قَبْلَ هُمْ كَفَّارًا أَيْدِيكُمْ وَأَقِيمَوا
الصلاة وأتوا الزكاة» الآيات الثلاث.
350
الموضوع

الآيات الأربع

تفسير قوله تعالى: "من يطبع الرسول فقد أطاع الله الآيات"

261

تفسير قوله تعالى: "فقائل في سبيل الله لا تكلف إلا نفسك الآيتين"

267

تفسير قوله تعالى: "وإذا حيتم بحية ففيها بأحسن منها أو ردوها الآيتين".

272

تفسير قوله تعالى: "فيا لكم في المناقشتين فتين الآيات الثلاث".

278

تفسير قوله تعالى: "ستجدون آخرين يريدون أن يأمنوكم ويامنوا قومهم الآيات الثلاث".

284

تفسير قوله تعالى: "يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله فتبينوا الآيات الثلاث".

290

تفسير قوله تعالى: "إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم الآيات الأربع".

296

تفسير قوله تعالى: "وإذا ضربتم في الأرض فليس عليكم جناح أن تقضوا من الصلاة الآيتين".

301

تفسير قوله تعالى: "فإذا قضيتم الصلاة فاذكرنا الله قياما وقعودا وعلى جنبكم الآيتين".

307

تفسير قوله تعالى: "إنا أنزلنا إله الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أررك الله الآيات الثلاث".

313

تفسير قوله تعالى: "يستخدمون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم الآيات الخمسة".

318

تفسير قوله تعالى: "ولولا فضل الله عليك ورحمة الله طائفة".

402
الموضوع

منهم أن يضلوك الآتيين. ............................................. 422

تفسير قوله تعالى: «ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى»

إلى قوله: «وإن يدعون إلا شيطاناً مريداً لعنهم الله». ................. 429

تفسير قوله تعالى: «وقال لأتقذن من عبادك نصيبي» الآيات الخمس. ................................................................. 430

تفسير قوله تعالى: «ليس بأمانكم ولا أمانٍ أهل الكتاب» الآيات الأربع. .............................................................. 441
إِنَّكَ أَنتَ الْقَسَمُ الْأَكْمَلُ

ْيَوْرَعُ مَجَالًا وَلِبَابًا